2264
.11234
.389
.1961

V. 1-2

2264.11234.389.1961 v.1-2
Amin
al-Takamul fi al-Islam

DATE	ISSUED TO
JUN 2 1965	Pindory

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 073838334

التكامل في الإسلام

الجزء الأول

كتاب يطلعك على فلسفة الاسلام الحقة ويزيل ، باذن الله ، ما يختلج في بعض الصدور من شكوك ، ويريك ان الاسلام دين العقل والمنطق وأن لا تنافي بينه وبين العلم الصحيح ، (لا الظنون والأهواء !)

بقلم :

أحمد أمين

خريج جامعة استانبول : الرياضيات العالية والفيزياء الرياضية العالية

الطبعة الثالثة

مطبعة المعارف ـ بغداد

لصاحبها : الحاج عبدالكريم الحاج قدوري

ثمن النسخة : (١٧٠) فلساً

Amīn, Aḥmad
al-Takāmul fī al-Islām

التكامل في الإسلام

الجزء الأول

كتاب يطلعك على فلسفة الاسلام الحقة ويزيل ، باذن الله ، ما يختلج في بعض الصدور من شكوك ، ويريك ان الاسلام دين العقل والمنطق وأن لا تنافى بينه وبين العلم الصحيح ، (لا الظنون والأهواء !)

بقلم :
أحمد أمين

الطبعة الثالثة

مطبعة المعارف ـ بغداد
لصاحبها : الحاج عبدالكريم الحاج قدوري
١٣٨١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال علي عليه السلام :

عبادَ الله ، زنوا أنفسكم قبل أن توزَنوا ، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا . وتنفسوا قبل ضيق الخناق ، وانقادوا قبل عُنف السياق . واعلموا أنه مَن لم يُعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اذا صفت النفس الانسانية مما علق بها من أدران وأوساخ ، ونظر الانسان نظرة دقيقة فيما جاء فى الدين الاسلامى من واجبات ومحرمات ومستحبات ومكروهات ومباحات وسنن وآداب وأوامر ونواهى لرأى أنها برمتها ترمى الى تكميل النفس الانسانية وابلاغها الى أسمى مراتب الكمال ، كمال من الله تعالى به على البشر ، يتفاوت حسب جهودهم ومساعيهم ، « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » . ولئن كانت التجربة مدار العلم الحديث فنحن ندعو رجال الثقافة والتفكير (وأعنى به : التفكير فى العلوم المادية) للقيام بهذه التجربة الحيوية المنجية وأعنى بها تطبيق الدساتير الاسلامية دون أن يستثنوا منها شيئاً كتحليل الربا والنظر الى ما حرم الله تعالى أو ... حتى يروا فى أنفسهم ذلك التقدم الروحى والتكامل النفسى ، فيقيسوا إذ ذاك ما كانوا عليه من البهيمية مع ما بلغوا اليه من حالة قدسية حديثة ، فيأسفوا على ما فرطوا معترفين أن الله قد أخرجهم من الظلمات الى النور . فقد جاء فى الحديث : « الناس كلهم بهائم إلا قليلا من المؤمنين » . وان الله تعالى يقول : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » . ولكن هيهات . لا ينال توفيق هذه التجربة إلا من لم تنقطع صلته بالله وكان له ، على الأقل ، اتصال ضئيل بربه بعمل صالح كان يأتى به من حين الى حين . ان الله تعالى يقول : « وسواء عليهم أأنذرتهم

(RECAP) 2264 11234 .389 .1961 v.1-2

أم لم تنذرهم لا يؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم » . فلا يوفق إلى هذه التجربة إلا من خشى الرحمن فى خلواته ولو قليلا : هُيئت له موائد الخمر ولا حرج عليه ، فلم يشرب ، أو كان وصولا لأمه وأبيه ، أو كان حسن الخلق غير متكبر ولا متجبر ، أو كان عطوفا على جاره ببعض ما يتمكن منه الى غير ذلك .

ولكن من انقطعت صلته بالله تبارك وتعالى وأصبح جرثومة فساد لايبدو منه عمل صالح لوجه الله أبداً فقد انسدت عليه أبواب الهداية وأصبح لا تؤثر فيه الهداية أبداً .

« ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رُدوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

فمثل هذا الشخص لا يوفق للقيام بهذه التجربة التى بها حياة الإنسان وسعادته الأبدية . حتى أنه ليستسخف هذه التجربة ويرى ما فيها من نصوص خرافات . إنه قد عمى قلبه فأمسى لا يبصر شيئا . « وإن أعمى العمى عمى القلب » كما فى الحديث . ان الله تعالى يقول :

« أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، اولئك فى ضلال مبين » . ومعنى ذلك أن قساوة القلب تؤدى الى الضلال ولا يقسو القلب إلا من ارتكاب الجرائم .

إن الله تعالى يقول : « أفمن يعلم أنما أُنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، انما يتذكر أولوا الألباب » ولا يأتى هذا العمى إلا من جراء الفسوق . ولا يأتى الكفر إلا من جراء الفجور . لقوله تعالى : « ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون » .

إن القلب ليصدأ من جراء المعاصى والآثام وأعنى بذلك النفس أو الروح ، فيكون هذا الصدأ حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق والواقع ، لقوله تعالى :

« بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

وان هناك تلازماً بين العمل الصالح وتكامل النفس ، كما أن هناك تلازماً بين المعاصي وتسافل النفس . فلا يجزى الانسان إلا من نوع عمله . صالحاً أو فاسداً ان الله تعالى يقول : إنما تجزون ما كنتم تكسبون » .

وفى آية أخرى : « هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون » .

وفى اخرى : وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » .

وان هذا الحجاب الحاجز عن رؤية الحق قد يكون كثيفاً الى درجة يجعل صاحبه ساخراً من الذين آمنوا متهماً اياهم بالخرافة والرجعية ، والواقع ان الرجعية هى الرجوع عن الحق الى الجاهلية الجهلاء . ان الله تعالى يقول :

« ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .

ولم يكن ضحكهم هذا واستهزاؤهم إلا لإجرامهم السابق . ثم يقول الله تبارك وتعالى :

« واذا مرُّوا بهم (أى بالمؤمنين) يتغامزون . واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين . واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين » .

وقد يبلغ بهم العمى حتى تحجب عقولهم عن تفهم أبسط عمل يقوم به المؤمن وهو أداء واجب الشكر تجاه خالقه بصلاة يصليها لربه .

« واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لايعقلون » .

نعم ، فقد ذهبت عقولهم ، ذلك العقل الفطرى الذى أودعه الله فى الانسان ، فيبصر به الحق ويميزه عن الباطل . « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه . انا جعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن تدعُهم الى الهدى فلن يهتدوا اذن أبداً » (٥٧ سورة الكهف) .

فالله جعل على قلوبهم أى عقولهم أكنة ، أغطية وأستاراً حتى أمسوا

لا يرون الحق ونسوا أنفسهم وذهلوا عن معالجتها واصلاحها . ان الله تعالى يقول : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، اولئك هم الفاسقون » (سورة الحشر) .

ومعنى ذلك : أن تماديهم فى فسوقهم جعلهم ينسون أنفسهم ويهملونها ، وحاش لله أن يكون سبباً لغواية أحد وضلاله وقد أرسل ١٢٤٠٠٠ نبي لتكميل البشر حتى جعل أول من خلق وهو آدم (ع) نبياً . لتسبق الهداية الخلقَ اهتماماً بأمر تكامل البشر . ولكنهم لكثرة ذنوبهم وبغيهم أصبحوا لا يعون ولا يشعرون ، فلا يفيد فيهم النصح والهداية . ان الله تعالى يقول : « ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » . أى أن التمادى فى الجرائم والموبقات حجبت الأنوار الإلهية عنهم حتى صاروا لا يفكرون فى مصيرهم موقنين أن ما هم عليه هو الصواب ونتيجة ذلك الاستهزاء بالحقائق الدينية وبما بعد الموت .

فالله تعالى وسعت رحمته كل شيء . وقد فتح باب التوبة للمذنبين من عباده حتى جاء فى الحديث (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) . فالله تعالى قد أفاض برحماته على البشرية جمعاء . ولكن أكثر الناس أبوا إلا الخروج عن طاعته . انه يقول :

« ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

وان ما يصيب الانسان فى حياته الدنيوية من فقر وسقم و . . . انما هو لتطهيره وتزكيته وتكفير ذنوبه . فهى رحمات وألطاف تزكو بها النفوس وتتطهر عما علق بها من أدران الذنوب . وفى الحديث : « ما من خدش بعود ، ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم الا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر » وليس هذا الخدش وذاك الاختلاج الا أمراً طبيعياً لتطهير النفوس الملوثة . ذلك لأن الكامل وهو الله تعالى لا يصدر منه الا الكمال . والتطهير هو مقدمة الكمال ولا كمال الا به . وعن الصادق عليه السلام قال : قال

رسول الله (ص) : ان الله تعالى يقول : « وعزتى وجلالى لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفى منه كل خطيئة عملها اما بسقم فى جسده أو بضيق فى رزقه واما بخوف فى دنياه ، فان بقيت عليه بقية شددت عليه عند الموت حتى يأتى ولا ذنب عليه فأدخله الجنة » .

دين الإسلام دين التكامل البشرى بكل ما فى التكامل من معنى سامٍ رفيع . تكامل فى عالم النفس والروح لا فى عالم المادة فحسب . ذلك لأنّ الإنسان انسانٌ بنفسه وروحه وليست المادة من حقيقة الانسانية فى شىء . لذلك جاء فى الحديث (الصلاة معراج المؤمن) . والتقوى أساس التكامل النفسى قال رسول الله (ص) : « ما اتقى الله امرؤ إلا جعل الله له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم ورزقه من حيث لا يحتسب » . والتزكية هى نوع تكامل ولولا التزكية والتطهير لما حصل تكامل أبداً . ان الله تعالى يقول : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . وفى آية أخرى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » .

فالعمل بما أنزل الله مؤدٍ الى التزكية والتطهير . واعطاء الزكاة مزكٍ للمال ومزكٍ للنفوس . والكفارات ورد المظالم مزكية للنفوس عن الذنوب . والحدود والقصاص كذلك . وكلها مراحل يدرج فيها الإنسان فى ساحات الكمال . ساحات ليس لعقولنا أن تحدّها . فالكمال الذى منّ الله به على الإنسان كمال لا يعلم مداه إلا الله تعالى . حتى يكون مصداق هذا الحديث القدسى : « عبدى أطعنى أجعلك مثلى تقول للشىء كن فيكون » . وذلك بإذنه تعالى كما كان لأنبيائه (ص) وأوصياء أنبيائه (ع) بإذنه تعالى . وينحط الإنسان فى أودية الضلال والتيه والتسافل الى حضيض لا يعلم مدى تسافله الا الله تعالى : « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

(١٧٨ : آل عمران) . ان الله تعالى يقول : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين » .

أنظروا الى هـــذا الحديث النبوى لتروا مدى اهتمام الدين الإسلامى بنظرية التكامل والكمال البشرى . قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

« من استوى يوماه فهو مغبون . ومن كان غده شراً من يومه فهو ملعون . ومن لم يتفقد النقصان فى عمله كان النقصان فى عقله . ومن كان النقصان فى عمله وعقله فالموت خير له من حياته » .

وفى حديث آخر : « أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً » .

لذلك يشعر المؤمن القائم بتطبيق ما جاء به الدين الاسلامى : الذى أخذ يجاهد نفسه ويخالفها فى مشتهياتها ونزواتها ورغباتها السلبية « إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى » كيف يتكامل يوماً بعد يوم وهو يجاهد نفسه الأمارة بالسوء . ان الله تعالى يقول : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » .

وعن الإمام موسى بن جعفر (ع) عن أبيه أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : « ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بعث سرية ، فلما رجعوا قال : مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقى عليهم الجهاد الأكبر . قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد النفس ، ثم قال : أفضل الجهاد من جاهد نفسه التى بين جنبيه » . وفى حديث على عليه السلام : « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » .

إن الله تعالى يقول : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . كل ذلك يشير الى أن درجات الهداية والكمال درجات عديدة لا يمكن للبشر تحديدها : « هم درجات عند الله » . (١٥٧ : آل عمران) وفى آية أخرى : « إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

اولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .
(٢ : سورة الأنفال) .

فالمؤمنون متفاوتون فى درجاتهم عند ربهم حسب مراتب تكاملهم النفسى . تكامل ليس للإنسان أن يحيد عنه ، فاذا حاد عنه رجع الى تسافل حيث لا تسافل بعده . وهذه هى الرجعية بالمعنى الصحيح دونما مغالطة . وكان من الذين خسروا أنفسهم . يقول الله تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١٠٤ : الكهف ، فمآله جهنم حتى يطهر فى لظاها وسعيرها . لأن الله لايريد أن يبقى شيئاً فاسداً فيما خلق . فكما أن الجراثيم والمكروبات المؤذية تعقم بالماء المغلى هكذا الجراثيم البشرية تعقم بالنار . ونستجير بالله من ذلك .

فأنت أيها القارئ الكريم . ترى فى فصول هذا الكتاب بعض ما جاء فى الدين الاسلامى من أحكام ، وكيفية تكميل هذه الأحكام النفوس البشرية ، لو عملت بها لوجه الله دونما رياء ولا رغبة فى مال أو سمعة ، وترى كيف تنقشع أمامك بعضُ الشبه التى أولدتها طغيان المادة وما أعقبت من شهوات ونزوات .

وبالختام أسأل الله تعالى أن تستفيد الشبيبة بعد مطالعة هذه السطور فائدة تحرك جوارحهم الى العمل بما أمر الله تعالى خاشعين خاضعين منيبين مستغفرين نادمين تائبين ، فتطهر بذلك نفوسهم وتتكامل أرواحهم فيروا أنفسهم فى عالم من القدسية بعيد عن حدود الوصف والبيان . وأن يمنّ علىّ بتقديم كتب أخرى على هذا المنوال تتناول عملية تكامل الدين الإسلامى للنفوس البشرية التائهة لاسيما فى عصر طغت عليه المادة ، فبغت وسحقت المقدسات والفضائل والمكرمات . فأصبح الرجل الدينى مهينا ممقوتا وذنبه أنه يعبد الله تعالى ، مؤتمراً بما أمر الله ، متناهيا عما نهى الله ، والمتجاهر

بالفسق موقراً محبوبا . وليعلم الشاب أن الدين الإسلامى دواء الروح وقانون تكامل النفس الإنسانية والمجتمع الإنسانى ، وان العمل بنصوص الدين الإسلامى يؤدى الى تكامل فى المعارف الإلهية والى تكامل اجتماعى . قال على (ع) : « من عمل بما يعلم ورّثه الله علم ما لم يعلم » .

وأختم هذه المقدمة بهذا الحديث النبوى . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا أيها الناس توبوا الى الله توبة نصوحا قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وأصلحوا ما بينكم وبين ربكم تسعدوا ، وأكثروا من الصدقة ترزقوا ، وأمروا بالمعروف تحصنوا ، وانهوا عن المنكر تنصروا . أيها الناس ان أكيسكم أكثركم للموت ذكراً وان أحزمكم أحسنكم استعداداً له . وان من علامات العقل التجافى عن دار الغرور والإنابة الى دار الخلود والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور » .

ومنه تعالى نستمد المعونة وبه نستعين .

لماذا وجدنا

سؤال يتبادر الى أذهان كثير من الناس وكل يجيب عنه بشكل يتناسب مع شعوره وما وصلت اليه نفسه من الكمال وحسب شهواته ومشتهياته . فمنهم من يقول وجدنا لكى نأكل ونشرب ونتلذذ فى هذه الحياة ونفنى . لذلك يحاول أن يزداد تلذذاً وسروراً . فيسعى ليأكل لذيذاً ويشرب مريئاً وينام هنيئاً . وليست له غاية سوى الأكل والشرب والنوم . ومنهم من يقول وُجدنا لكى نخدم الغير فهو يعمل فى خدمة الآخرين دون أن يخدم نفسه . وقد يكون هو أحوج الناس الى الاصلاح لما فى نفسه من الدنس والرجس . ومنهم من يقول وجدنا للشقاء . فالحياة كلها شقاء . فهو متشائم معذب . ونريد الآن أن نتحقق عن السبب الذى وُجدنا لأجله . فإذا علمنا سبب وجودنا والغاية من خلقنا عملنا وفق تلك الغاية ونلنا السعادة . لأن السعادة إنما تتجلى بالعمل وفق الهدف المقصود والغاية المنشودة .

لننظر الى ما حوالينا من نبات وحيوان وجماد . نرى أنها كلها خلقت لأجلنا . هذه الأزهار الجميلة والفواكه المتنوعة اللذيذة والأشجار المختلفه والعقاقير وأنواع الزروع كلها خلقت لأجلنا للتذوق والتلذذ والتغذى والتداوى الى ما هنالك. يقول الله تبارك وتعالى فى قرآنه الكريم : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون[1] . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا

---

(١) أي : ترعون ماشيتكم . ذرأ : أي خلق . مواخر : أي جارية في الماء .

منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »[١] .

وأما الحيوانات فقد سخرت لنا للأكل والركوب والستر . يقول الله تبارك وتعالى : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، ان ربكم لرؤوف رحيم » .

وأما الجماد فسخر لنا للبناء والزينة والتداوى وفوائد أخرى لا تعد . يقول الله : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ان الله بالناس لرؤوف رحيم » .

إذا كانت الحيوانات تنام وتأكل وتشرب وقد خُلقت لأجلنا وكذا الجماد والنبات ، فلماذا خُلقنا نحن مع علمنا أننا غير مسخرين لموجودات أخرى . وكلها مسخرة لنا . اذن ما الغاية من وجودنا ؟

مع العلم أن الذى خلق الأكوان بهذا الترتيب الرائع البديع ، الذى نظم الافلاك بدساتير رصينة رياضية متقنة يحار فيها علماء الفلك العالى ، الذى شكل الثلج المتساقط من السماء بأشكال هندسة منظمة . أشكال مجسمة منتظمة الوجوه ، الذى حرك الشمس بسرعة ٧٢٠٠٠ كيلو متر فى الساعة : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » لا يعمل شيئاً عبثاً ولا يلهو أبداً .

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » . « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين » . وفى موضع آخر من القرآن الكريم: « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » .

---

(١) سورة النحل : ١٠ — ١٤ .

فتبين من نظم خارقة رائعة نشاهدها فى المخلوقات أن الحكمة متجليه فى كل زاوية من زوايا الكون . « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير » . فكيف يجوز على الله أن يخلق الإنسان ويخلق لأجله جميع ما حواليه ولا يقصد من وراء هذا المخلوق غاية سامية رفيعة تتناسب مع عظمته وكماله .

فظهر مما ذكرنا أن وراء خلق الانسان غاية دقيقة وهدفاً عالياً يجب أن نتحراه . نرى أن ما حوالينا من الاشياء فى غاية الكمال : فالحشرة كاملة فى العالم الذى هى فيه . والذرة كاملة غاية الكمال : الألكترونات تدور حول البروتونات بسرعة هائلة وبكمال ونظام . يتجاذب الجسمان بقوة تساوى حاصل ضرب كتلتيهما مقسوماً على مربع المسافة بينهما مضروباً فى النسبة الثابتة . ولو أردنا سرد أنواع الكمال المودع من قبل الخالق جل جلاله فى هذا الكون ، لأمكن املاء كتب عدة بل كتب لا تتناهى : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم » . وفى موضع آخر من القرآن الكريم « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » .

إذن كل شىء فى هذا العالم ينادى بكمال الله تبارك وتعالى وينزهه عن كل نقص وعيب وهذا أحد معانى قوله تعالى: « وان من شىء الا يسبح بحمده » .

فكيف يجوز على الإنسان أن يحيد عن سنة الكمال فى عالم الكمال وأن يبقى ناقصاً فى عالم التكامل .

للإنسان جنبتان : جنبة مادية وهى البدن ، نظمه الله تبارك وتعالى وأتقن صنعه . فيه حركات غير إرادية لا دخل للإنسان فيها . وجنبة روحية هى حقيقة الانسانية وهى الانسان حقاً . فالإنسان انسان بنفسه وروحه لا بعضلاته وأعصابه . نعم ، قد بلغ المذهب المادى فى أوروبا فى القرن التاسع

عشر الى حد قال أحد رجال المادة فيها : ان الإنسان يساوى كذا غراماً من الآزوت وكذا غراماً من الحديد وكذا غراماً من الأوكسجين وكذا غراماً من الكالسيوم . . . الخ كمعادلة كيمياوية وليس وراء ذلك شيء ! . .

والفرق بين تكامل الإنسان الروحى وتكامل المادة بأن كمال المادة كمال قسرى قهرى وكمال الإنسان الروحى كمال اختيارى .

اتضح مما ذكرنا أن الانسان خلق ليتكامل . والآن نتساءل بم يحصل هذا الكمال الروحى ، وهل هذا الانسان المملوء من الشهوات ، وهل هذا الانسان الذى يحمل نفساً أمارة بالسوء يستطيع أن ينظم لنفسه مناهج روحية صحيحة تؤدى به الى الكمال المنشود ، ذلك الكمال الذى خلق الله الانسان لأجله . وهل لفيلسوف من الفلاسفة أن يضع منهجاً روحياً يؤدى بالانسان الى الغاية التى خُلق لأجلها ويحقق علة الوجود . فما هذا الاختلاف إذن بين آراء الفلاسفة وما هذا التضارب فى أفكارهم ؟ وهل الفلاسفة استطاعوا أن يوجدوا انسانية متكاملة ، كما يريده الله تعالى أم هل تمكنوا من اصلاح أنفسهم ؟ !

إن الكمال النفسى أمر غير مادى ، وان الانسان كثيراً ما يوفق فى اصلاحات مادية واكتشافات مادية كما شاهدنا ذلك لاسيما فى القرن الاخير . ذلك لأن الخواص المادية ثابتة لا تتغير ويصل اليها الانسان بأسلوب مادى وأعنى به الاختبار والتجربة والمشاهدة ، ولكنه لا يقوى على وضع مناهج روحية صحيحة تأخذ بالروح الانسانى الى ذروة الكمال . وقد قال گوستاولوبون : « علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل الى ما وراء الطبيعة » . فلابد لنا من أطباء روحيين عالمين بخصائص الروح كى يأخذوا على عواتقهم تكامل الإنسان الروحى ، وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين. فهم بمناهجهم المتينة التى تأتى من وراء المادة لإصلاح ما هو وراء المادة (أى النفس) يوصلون الانسان الى ذروة الكمال ، فيعرفون الله ويبينون الحلال

والحرام والمدارج التى لو سلكها الانسان لبلغ مرتبة الكمال المنشود، ولتقرب شيئاً فشيئاً من معرفة رب العباد . وقد جاء فى الحديث القدسى عن الله تعالى : « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لكى أعرف » .

أترى أن من لم يتبع مناهج الأنبياء الروحية تكون له نفس قمينة بأن يحلّ فيها حب الله ، وبأن يعرف الله تبارك وتعالى . فإن معرفة الله تتناسب مع الكمال النفسى : « من عرف نفسه فقد عرف ربه . . الحديث » ولا تتأتى هذه المعرفة إلا بعبادة الله تبارك وتعالى . فكلما عبد الانسان ربه بخشوع وخضوع ، عبده بصلوة مقبولة وحج مقبول وزكوة مقبولة وصدقات مقبولة وخمس مقبول وجهاد مقبول وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر خالصا لوجهه الكريم، عبده بأعمال صالحة كان أقرب الى معرفة الله تبارك وتعالى ، قريبا من الغاية التى وجد لأجلها . وما قدمناه شرح للآية الشريفة : « وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون » . فالعبادة ليست الصلوة والصوم فحسب بل تتجلى العبادة فى الصلاة والصوم والزكوة والخمس والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والأعمال الصالحة كقضاء حوائج الناس وصلة الرحم وبر الوالدين والتخلق بالأخلاق الإسلامية والتفقه فى الدين والاعتبار بما أودع الله فى الطبيعة من قوانين وخواص . نعم تتجلى العبادة فى تطبيق السنن والفرائض التى بها يكون الإنسان انسانا كاملاً . فتزداد بدرجة تطبيقه واخلاصه معرفته بالله تعالى . فإن الله لم يخلقنا إلا لأجله أى لأجل أن نعرفه ونزداد معرفة به يوما بعد يوم . فقد جاء فى حديث قدسى : « خلقت الاشياء لأجلك وخلقتك لأجلى » .

فطوبى لمن أدرك الغاية وعمل فى تحقيقها ولم تخدعه زبارجُ الدنيا ومغرياتها ومناصبها فخرج من هذه الدنيا طاهراً مطهراً نقيا . فقد « حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » .

ماذا يراد من الدين ؟

كثيراً ما يدور على ألسنة بعض الشبيبة المثقفة أن الدين لم يعلمنا شيئا عن الكيمياء والفيزياء ، ولم يقدم للمجتمع اكتشافات كالتلفزيون واللاسلكى وغير ذلك . وان المكتشفين والمخترعين كنيوتن ، وهرتز ، وأديسون ، ودالامبر قدموا الى العالم اكتشافات هامة ومخترعات مفيدة ووسعوا أفق العلم وفتحوا أذهان الناس وسخروا الطبيعة ، فأفادوا العالم بعلومهم وتنقيبهم وفحوصهم . فأى اكتشاف قدمه أحد الأنبياء ؟ وأية ماكنة اخترعها الأوصياء ؟ فيصغر فى أنظارهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين ويصغر الدين معه ، فيرونه فارغا خاليا من مادة مفيدة ، فيعدونه خرافة وزخرفا من الزخارف ، أو بلاءاً مانعا عن التقدم . فتراهم يأبون من أن يوردوا اسم الله أو يقولوا « بسم الله الرحمن الرحيم » . ويعدونها تقهقراً الى الوراء أو منقصة فى لغة الثقافة الحديثة أو وصمة خرافية يوصم بها قائلها ، يعظمون المكتشفين أيما تعظيم ويوقرون الفلاسفة أحسن توقير ، فإذا ذكر اسم أحد الأنبياء سخروا منه وتبسموا تبسما فيه شيء من الازدراء والتوهين . كل ذلك لأنهم ينتظرون من الأنبياء معادلات كيمياوية ودساتير فيزياوية . أو معادلات تفاضلية أو دستور الكسوف فى الفلك العالى أو معادلات الحركة فى الميكانيك الرياضى ! . .

وقد فاتهم أن الإنسان مكون من نفس وبدن فكما أن للبدن أمراضا وحاجات . فكذلك للنفس أمراض وحاجات . وأن حاجات البدن ترجع الى قوانين ثابتة مستقرة يصل اليها الانسان بالاختبار والتجربة والمشاهدة عاجلا أو آجلا . فإن الخاصية المودعة من قبل الله تبارك وتعالى فى الأجسام ثابتة لا تتغير ، بل يظفر بها الانسان عن طريق الفحص والتتبع والتجربة والصدفة .

(الأجسام تسقط . حجمان من غاز الإيدروجين وحجم من غاز الأوكسيجين بعد إمرار تيار كهربائى يتحدان ويشكلان ماءاً . الحرارة تمدد الأجسام . الى ما هنالك) . فالمخترع لا يأتى بشىء جديد بل يفتش عن خواص وقوانين أودعها الله فى هذا الكون بتجارب ومحاكمات ، وعقل منحه الله اياه ، ولولا العقل والمحاكمات والاستنتاج والاستقراء لما قوى على ذلك . وبالعقل يمتاز الإنسان عن الحيوان . وترد نظرية داروين التكاملية وتفند سفسطة الحلقة المفقودة .

وهل يستطيع مخترع أن يأتى بخاصية غير ما أودعه الله فى الأجسام ؟ كلا . فالإختراعات أمور مادية ثابتة لا تغير فيها ، يصل اليها الانسان باختباراته ، ولا حاجة الى نبى يملى على الناس الدساتير الفيزياوية والكيمياوية . والدليل على ذلك وصول الانسان بنفسه الى كثير منها بنتيجة قوى أودعها الله تعالى فيه ولا يعلم هل تقدم الانسان بنتيجة هذه الاكتشافات روحياً وأخلاقياً أم تقهقر ؟ وهل استفادت الانسانية وقطعت بذلك أشواطاً فى الكمال النفسى والسمو الخلقى أم لا ؟ ثم أترى أن لخواص الأشياء ودساتير الفيزياء حداً ونهاية ؟ فان علم الله لا نهاية له ، والخواص والدساتير التى أودعها الله فى هذا الكون لا نهاية لها ، وهذا معنى قوله تعالى :

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » .

الأنبياء سلام الله عليهم بعثوا لإصلاح النفس وتهذيب الروح . لأن الانسان إنسان بنفسه وروحه ، وان أمراض الروح أعقد من أمراض البدن ، وان معالجتها أصعب من معالجة أمراض البدن . إن وصفات الأطباء تعالج الأبدان لو صادفت نفس المرض ونفس الشروط وكان التشخيص صحيحاً . إلا أن الوصفات الروحية تؤثر فى كل نفس حسب قابلية تلك النفس . فهى مشتبكة مرتبكة .

إئتوا بثلاثة أشخاص مصابين بالملاريا . فانهم يعالجون بوصفة واحدة عاجلاً أو آجلاً . ولكن لو أعطى لنفس هؤلاء الثلاثة دساتير روحية وطبقوها لا يصلون الى نفس النتيجة . وكل يصل الى غير ما وصل اليه الآخر لوعورة أمر النفس وصعوبته . وعدم دخول النفس تحت قوانين ثابتة مطردة سهلة التناول . وعلى فرض وجود قوانين نفسية ثابتة ليس للإنسان بما هو انسان أن يكتشفها وان ما يكتشفه فى هذا الحقل خيالات وأوهام . يظنها حقائق ويلتذ بها . ذلك لأن الأساليب المادية لا تقوى على حل غوامض ما وراء الطبيعة . وقد يمكن تشبيه ذلك بالمعادلات العاليـــة فى الرياضيات كـ (ع = جا س) التى لا تقبل فيها (س) و (ع) التضعيف والتنصيف فى وقت واحد أو بمعادلات الكميات المبهمة أو المحدثة التى نشاهدها فى الهندسة التحليلية أو الجبر العالى ، وإن بعد التشبيه . نعم انا كثيراً ما نشاهد فى كتب الفلسفة وعلم النفس استعمال الحساب التكاملى (Integration) عند البحث عن الإحساس والشعور ولكن ذلك غير ثابت ولن يثبت وإنما مجرد اقتراح واحتمال . فلا سبيل الى قياس القضايا الروحية بمقاييس مادية .

الأنبياء (ع) بُعثوا ليعالجوا ما لا يصل الانسان بنفسه الى طريق معالجته . بعثوا ليعالجوا أمراض النفس ، هذه النفس الأمارة بالسوء التى يرقبها الشيطان فى كل آن وهو لها بالمرصاد .

بُعثوا ليقرروا دساتير روحية بها يتكامل الانسان ويخرج من دور الطفولة والبهيمية والوحشية فيكون انساناً كاملاً بل أعلى مرتبة من الملائكة فتكون الملائكة إذ ذاك خداماً له .

بُعثوا ليحرروا النفس الانسانية مما تلوثت به من دنس ورجس وخبث ولؤم . بعثوا ليقرروا الآداب التى لو عمل بها الانسان كان جديراً بأن يخلد مع الأنبيـــاء والصديقين فى « جنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين » .

بعثوا ليعلمونا الطرق المقربة الى الله ، وكيفية عبادته تعالى وطرق الشكر.

بعثوا ليعلمونا الحلال والحرام ، لأن النفس الانسانية تتردى وتتدنس بالحرام وتتزكى وتتطهر بالحلال . بعثوا ليعرفونا آداب المعاشرة والاجتماع . بعثوا ليعلمونا الأعمال الصالحة التى بها تزكو النفس وتخرج من الظلمات الى النور : « إن الحسنات يذهبن السيئات » . بعثوا ليبينوا للإنسان ما له وما عليه ، ليحاسب نفسه كل يوم ولا يتكبر فان الله تبارك وتعالى يقول : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

بعثوا ليجعلوا الإنسان بين الخوف والرجاء فهو خير ميزان يبعث على العمل الصالح ، ويبعد الإنسان عن الموبقات والمناهى . فقد جاء فى الحديث تنويهاً بالعبد الصالح : « لو وُزن خوف العبد ورجاؤه لم يرجح أحدهما . واذا عظم الخوف كان أدعى الى السلام » . وفى حديث آخر : ـ

« إن الله أنزل فى بعض كتبه وعزتى وجلالى لا أجمع لعبدى المؤمن بين خوفين وأمنين . اذا خافنى فى الدنيا أمنته فى الآخرة واذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة » ، وقوله تعالى فى امتنانه على ابراهيم وذريته عليهم السلام : (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) . وهى ذكر الآخرة والتهيؤ لها .

بعث الأنبياء ليقووا الرابطة بين العبد وربه ليزداد تقرباً بالطاعة . فإن الكمال الإنسانى يتناسب تناسباً طردياً مع التقرب الى الله جل شأنه ، ثم يزداد اطمئناناً كلما زادت هذه الرابطة فإنه تعالى يقول : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

بُعث الأنبياء لإبلاغ الانسان الى « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

فالأنبياء يخاطبون النفس ، لأن هدفهم تكامل النفس وما جاء فى تعاليمهم

صلوات الله عليهم مما يتعلق بالبدن والمأكل والمشرب إنما هو من باب اللطف ، أو لأن لذلك أثراً حسناً فى تكامل النفس . إذ أنه ما من شىء يدخل فى جوف الإنسان وما من حركة يقوم بها الإنسان إلا ولها أثر فى تكامل النفس . ولعلنا نوفق الى تفصيل ذلك فى كتاب آخر إن شاء الله .

وقد بلغنى أن شاباً كان يفاضل بين سياسى فتح الأمصار وبين نبى هدى الناس سواء السبيل . حين أن ذلك السياسى لم يعمل إلا فى تعمير المعدة والأمعاء ، والنبى (ص) يعمل فى تعمير النفوس والأرواح . وما قيمة عمران تفسد فيه الروح . ولو كان فى استطاعة الانسان أن يصل بعقله الى الدساتير المثلى التى بها كمال النفس ونجاتها وفوزها لما أرسل الله الأنبياء ولوكل الانسان الى عقله . ولكن العقل تغلب عليه الشهوات فينقلب الى أهواء بصورة عقل ويؤدى بالشخص الى أسفل درك من الجحيم . يقول الله تبارك وتعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » . ولقد توالى عدد غير قليل من الفلاسفة ورجال الأخلاق : اختلفت مشاربهم ومآربهم وآراؤهم ولم يتمكنوا من اصلاح أنفسهم فكيف بالآخرين .

الأنبياء بعثوا ليملوا على الناس المثل العليا التى بها كمال الروح والسعادة الأبدية ولكى يكونوا قدوة صالحة .

فمن من هؤلاء الذين هم خطباء الأخلاق ، وبتعبير أقرب : كتاب الفضيلة بلغ من الفضيلة مرتبة سامية تؤهله ليكون قدوة لغيره كما يرتضيه الله تبارك وتعالى . فقد رأيت أستاذ فلسفة الأخلاق فى احدى الجامعات أبعد شخص عن الأخلاق وأسوأ قدوة للمثل العليا ، ما ترك منكراً إلا وارتكبه ، فاذا سألته عن سبب ذلك أجاب بجواب خيالى سوفسطائى شعرى لا قيمة له .

وإن بعض الأنبياء علموا الناس من باب اللطف من الصنائع والعلوم

ما به يدفع الشر ويجلب الخير . فهذا داوود عليه السلام ، علم الناس ـ بعد أن علمه الله تعالى ـ عمل الدروع وهو قوله تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » . وان النبي صلى الله عليه وآله قد سئل عن مسائل عدة فى فنون مختلفة لا علاقة لها بالدين فأجاب عنها بوحى من الله دونما تفكير . وتفصيل ذلك يحتاج الى مقال خاص . وإن علياً (ع) سئل عن مسائل رياضية صعبة ومسائل فى الفيزياء والفلك والحيوان والنبات عجز عنها الناس فحلها بصورة مرتجلة . وان الصادق (ع) أملى على تلميذه جابر بن حيان الكوفى خمسمائة رسالة فى ألف ورقة عن الخواص الكيمياوية والطبيعية . وكان الكيمياويون من قبله كخالد المتوفى سنة ٨٥ يروون عن على (ع) موازين الصناعة . فالنبي على ما نعتقد هو أعلم أهل زمانه حتى فى علوم لا تمت الى الدين بصلة تمييزاً له عن سائر الناس وتفضيلاً له على الآخرين .

فمن أراد الحياة الأبدية ، حياة رفيعة متصلة بالكمال الأبدى ، حياة ليس فيها خوف ولا حزن ، حياة فوق حدود التصور والخيال ، فليعمد الى تطبيق تعاليم الدين الحنيف ليرى كيف يتجلى يوماً بعد يوم وكيف تترفع نفسه عن حضيض المادة سائراً الى أوج الملكوت . « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

دين العقل

— ١ —

يمتاز الدين الإسلامى عن سائر الأديان بأن كل ما جاء فيه يوافق العقل المجرد عن الوساوس الشيطانية غير الملوث بالمعاصى والآثام . وقد أعطى للعقل قيمة سامية وجعله آلة التمييز . فقد قال تعالى : « فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » . ولا يمكن تشخيص أحسن القول إلا بالعقل المجرد عما يلوث النفس ويوبقها ويرديها . فقد روى محمد بن مسلم عن أبى جعفر (ع) قال : « ولما خلق الله العقل استنطقه ثم قال : أقبل فأقبل . ثم قال : أدبر فأدبر ، ثم قال : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً هو أحب إلىَّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب ، أما انى إياك آمر وإياك أنهى وإياك أعاقب وإياك أثيب » . نستنتج من هذا الحديث بقول الله : (أقبل ، فأقبل ، ثم قال : أدبر فأدبر) : أن العقل بصورة فطرية وطبيعية يطيع أوامر الله تعالى . إذ أن أوامر الله منطقية وطبيعية ولا تخالف الفطرة وان الاطاعة صفة غريزية فى العقل . وهذا هو معنى الفطرة . وبهذا أتم الله الحجة على عباده ، فلا يغفر الله لمن أشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء : « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى اثماً عظيما » . (سورة النساء : ٥٢) . يقول الله اتماماً لحججه على الخلق أجمعين : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيمة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » . فالله تبارك وتعالى قد أشهد الناس فى عالم الذر على أنفسهم وأخذ منهم الإقرار

والاعتراف بربوبيته تعالى . فليس لأحد أن يقول : لو شاء الله لكنت مؤمناً ، لأن الله الآمر بالإيمان والغارس روح الطاعة والتمسك بالوحدانية فى عقل الإنسان ونفسه لايريد بالانسان إلا الإيمان به والإطاعة له . ثم جاء فى ذيل الحديث : (ولا أكملتك إلا فيمن أحب) . أى أن الله لا يكمل إلا عقلَ من يحبه . وكيف تحصل هذه المحبة ؟ أليس بالطاعة ؟ أى باجتناب كل ما نهى عنه العقل والشرع ، وبالقيام بكل ما أمر به العقل والشرع . إذن أقرب الناس الى الله أكملهم عقلاً . وأبعد الناس منه تعالى أضعفهم عقلاً . فالعقل : « ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان » كما جاء فى الحديث .

إن الدين الاسلامى دين تفكر وتدبر ، دين تمحيص وتعمق ، دين المنطق الصحيح والمحاكمات المجردة عن كل عصبية ووسوسة . وهو القائل : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » . إن الله تبارك وتعالى قد عظم أمر العقلاء وخصص التدبر فى آياته بهم بقوله : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » . وبقوله « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون » . وبقوله : « ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءاً فيحيي به الارض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . فالقرآن يدعو الناس الى التعقل ويخاطب العقل فى كثير من آياته . ولا يريد بالناس أن يقبلوا شيئاً دونما تعقل ودونما برهان . فدين الاسلام دين البرهان ودين الدليل . يقول الله تعالى فى لزوم اتباع البرهان والدليل : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . نعم ، هناك آيات كثيرة فى القرآن تأمر بالتعقل ، وتحذر العباد من عدم التعقل

والتفكر بقوله : « ومنهم من يستمعون اليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » . ثم أنه يمدح المتفكرين بقوله : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » . فطريقة القرآن فى الدعوة الى الحق هى طريقة العلوم الطبيعية الحاضرة . تستند الى التجربة والمشاهدة والاستقراء والاستنتاج . نعم ، ان موضوع الآيات الكريمة المتقدمة وكثير من آيات أخرى هو نفس موضوع العلم الطبيعى بأوسع معانيه ما عرفه الانسان وما سيعرفه . لأن العلم الطبيعى يبحث عن الأشياء الكونية طبائعها وخواصها والعلاقات التى بينها ولكنها لا تصل الى حقيقتها . فالعلم الطبيعى موضوعه آيات الله المودعة فى الاشياء كلها . إن القرآن جاء بأصول المشاهدة والطريق البرهانى فى وقت كان الغرب فيه جاهلاً هذه الاصول . لأنهم كانوا يعتقدون أن الانسان يصل الى ما يشاء بطريق عقلى بحت دون أن يحتاج الى التجربة والمشاهدة . كانوا كثيراً ما يكتفون للوصول الى الحقائق العلمية وأسرار الكون بالجلوس والتفكر . فكانوا يصلون الى قضايا كلية يزعمون أنها حقائق دون أن يدعمها دليل . ثم يبنون على هذه القضايا الموهومة قضايا أخرى هى أوهن من بيت العنكبوت . كان يقول فيثاغورث عن الكون : انه متفرد كامل كروى ، لأن الكرة أكمل الاشياء . وانه حى عاقل ، لأن ما هو حى وعاقل خير مما ليس بحى وعاقل . فإن القرآن ينكر مثل هذا النوع من الاستنتاج الخيالى . وقد أدى بالفلاسفة التخيل الباطل فى ساحات العلم حتى قالوا : إن للأجرام السماوية فى أفلاكها نغماتٍ يطرب لها من يسمعها ، وان لهذه الأجرام أثراً كبيراً فيما يصيب الانسان من نحس أو سعود . وقد سرت هذه الفلسفة الزائفة الى الشرق وأدت الى تبلبل العقائد وإدخال كثير من الخرافات فى الدين الاسلامى . وإن فلاسفة الاسلام أخذوا يفسرون الدين

الإسلامى على ضوء هذه الخرافات ويؤولون القرآن وفق نظريات أفلاطون وأرسطو . ذلك لأن علماء القرون الوسطى وهم تلامذة الفلسفة اليونانية ما كانوا يعتمدون على عقولهم وتجاربهم ومشاهداتهم وإنما كان الدليل رأى الفيلسوف . فكل ما وافق رأى الفيلسوف فذاك علم وذاك هو الحق ، وما خالف فليس بعلم . إلا اذا أمكن ارجاع ذلك بتأويل ما الى ما يقوله أفلاطون أو أرسطو مثلاً ، دون أن ينظروا فى حجة أرسطو وأنه منطق تؤيده التجارب والمشاهدات والمحاكمات الصحيحة أم لا . فابتلى الدين الإسلامى بشتى الخرافات وشتى المذاهب أتته من الفلسفة اليونانية . وقد عالج ذلك بعض علماء الاسلام ولكنهم لم يستطيعوا قلعها وقمعها . مع أن الدين الاسلامى ينهى عن كل خرافة وكل ما لا يؤيده العقل والمنطق الصحيح والحجة القطعية وينهى عن اتباع الظنون والتخيلات الواهية ، بقوله : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » . وقد أمر باتباع العلم الصحيح وأثنى على العلماء ومدحهم فى كتابه المجيد بقوله : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » . « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين » .

أنظروا كيف يؤيد القرآن طريقة التجربة والمشاهدة واستعمال الحواس الخمس . يقول الله تعالى فى لزوم استعمال البصر والعقل : قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ، أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن » . « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت » . ويقول تعالى فى لزوم استعمال السمع مع العقل : « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها » . ويقول جل جلاله فى لزوم استعمال السمع والبصر مع العقل : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » . « ولا تقف

ماليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . ويقول تعالى فى لزوم استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء » . وهكذا يحث القرآن الكريم على استعمال جميع الحواس والمواهب للوصول الى أحسن سبل الهداية بقوله تعالى : « فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » . (سورة الزمر) .

فالدين الاسلامى يخاطب العقل ويحث على التمسك بالبرهان والدليل وينهى عن الظن والتخيل والخرافات ويأمر باستعمال طرق المشاهدة والتجربة وحسن الاستنتاج وينهى عن المغالطة والتدليس . ولا أعلم ديناً أو مبدءاً أو مسلكاً أو طريقة عدا الدين الإسلامى جعل البرهان شعاراً وطرق التجربة والمشاهدة معياراً وترك الظن والخيال دثاراً . ذلك لأنهم إن فعلوا ذلك أخفقوا ولم يجدوا من تابعين .

— ٢ —

قد بينا فى المقال السابق أن الله تعالى قد أودع فى الانسان عقلاً لو لم يلوث بالذنوب والمعاصى ولم يتردّ ولم يتسافل يهتدى به الانسان الى أحسن السبل وأنجعها ، ويعترف بربوبيته تعالى وبوحدانيته ، وتكون درجة هدايته متناسبة مع درجة طهارة عقله ونفسه . هذا مونتنى الفيلسوف المربى قد وصل بعقله أى بطريق المشاهدة والتفكير الى وحدانية الله تعالى وأنه خالق كل شىء . إنه كان يقول : ليس للذكر أن يخلق لنفسه أنثى ، لأنه عاجز عن أن يتصرف فى نفسه ، فلابد أن يكون خالق الذكر هو الذى قد خلق الأنثى لإدامة النسل البشرى . وإن الله تعالى يقول فى قرآنه الكريم : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » . « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . فقد بلغ مونتنى بتفكيره الطبيعى الى مفاد

الآية الشريفة المذكورة . ذلك لأن الله تعالى قد أودع قابلية التفكير والتدبر فى خلق السموات والارض فى الانسان بصورة طبيعية : « إن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » . فالانسان يصل الى الاعتراف بالله وبوحدانيته تعالى لا محالة إن لم تدنس نفسه بالجرائم والموبقات والانغماس فى الشهوات ، فتفسد هذه القابلية وتمحى هذه الموهبة . فيكون أعمى لا يبصر الحق فى الدنيا ويحشر أعمى فى الآخرة . إذ يقول عند الحشر : « ونحشره يوم القيمة أعمى ، قال رب لمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

وقد قلنا فى مقال سبق إن الفلسفة اليونانية المملوءة بشتى الخرافات قد أثرت فى الدين الاسلامى وأدخلت فيه جملة من الخرافات : كالاعتراف بأثر النجوم وحركاتها وأوضاعها فى سعادة الانسان وشقائه . وقد نفى الإسلام ذلك وشدد النكير عليه وعلى أمثاله وفسر القضاء والقدر تفسيراً هو غاية المنطق وتمام الحكمة ولا مجال هنا لتفصيل ذلك . وإن أمير المؤمنين علياً عليه السلام : أظهر لبعض أصحابه عزمه على المسير الى الخوارج ، فقال له أحدهم يا أمير المؤمنين إن سرت فى هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم ، فأجابه (ع) : « أتزعم أنك تهدى الى الساعة التى من سار فيها صرف عنه السوء وتخوف الساعة التى من سار فيها حاق به الضر . فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن واستغنى عن الاستعانة بالله فى نيل المحبوب ودفع المكروه . وتبتغى فى قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه . لأنك بزعمك ، أنت هديته الى الساعة التى نال فيها النفع وأمن الضر . ثم أقبل (ع) على الناس فقال : « أيها الناس اياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به فى بر أو بحر ، فانها تدعو الى الكهانة والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر فى النار ، سيروا على اسم الله » . فبدد على (ع)

شمل الخوارج وكان النصر حليفه ، خلافاً لما ادعاه من كان يعترف بتأثير النجوم فى الفتح والنصر .

إن الدين الاسلامى يشجع كل علم يؤدى الى انفتاح البصائر وينير الطريق ويهدى الناس الى الفلاح والصلاح ويجيز تعلم علم الفلك أو الهيئة ، ويُدرَّس علم الهيئة مع العلوم الدينية فى كليات العلوم الدينية على اختلاف مناهجها . وقد أُلفت كتب جمة من قبل علماء المسلمين فى علم الفلك لمعرفة القبلة والاستهلال والوقوف على بعض ما أودع الله تعالى من نظم ثابتة متقنة ودساتير رياضية محكمة فى سير الافلاك والأنجم . ولكن الدين الاسلامى يستنكر كل خرافة تؤدى الى الوسوسة ورخاوة الاعصاب والفتور والقنوط كالاعتقاد بتأثير أوضاع النجوم فى نحس أو سعود . فعن النبى (ص) : من صدق منجماً أو كاهنا فقد كفر بما أنزل على محمد (ص) . وعن الصادق (ع) : « إن المنجم ملعون والكاهن ملعون والساحر ملعون » وفى رواية عبدالملك بن أعين المروية عن الفقيه : « قلت لأبى عبدالله (ع) : انى قد ابتليت . فأريد الحاجة . فاذا نظرت الى الطالع ورأيت الطالع الشر جلست ولم أذهب فيها ، فاذا رأيت الطالع الخير ، ذهبت فى الحاجة . فقال لى تقضى ، قلت نعم . قال : احرق كتبك » .

إن الدين الاسلامى ينهى عن كل ما يجعل الانسان خيالياً خاملاً ذليلاً فى حياته ويأمر بكل ما يجعل الفرد كاملاً نشيطاً ، فعالاً ، مقداماً فى حياته . إنه ينهى عن السحر والعمل به ويعدها من المعاصى الكبيرة . يقول الله تعالى فى سورة البقرة : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له

فى الآخرة من خلاق . ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ، ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون » .

إن الله تعالى يقول : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » . فتعليم السحر كفر بنص هذه الآية الشريفة ، والعمل به واضرار الناس بسببه معصية كبيرة . وكذا يستفاد من قوله تعالى : فلا تكفر ، أن العمل بالسحر على حد الكفر . ثم يقول الله تعالى فى الآية الثانية : إن الإيمان والتقوى بابان لنيل مثوبة الله تعالى وطريقان قويمان للسعادة . فلا ينبغى أن يسلك أحد لنيل مآربه المشروعة طرق السحر والخيال ، بل ينالها من طريق الإيمان والتقوى والعمل الصالح والفعالية والجد فى الطرق المشروعة الموافقة للشرع والعقل . إن الدين الاسلامى ينهى عن اتباع الخيال وكل خرافة مبدؤها الخيال والظنون . لذلك يعبر عن السحر بالخيال بقوله جل من قائل : « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » .

إن الدين الاسلامى حرّم احضار الأرواح واحضار الجن والاعتماد على هذه الوسائل الخيالية ، على أن هذه الأمور الخيالية التى لا يدعمها دليل قطعى علمى ، قد أثرت الى حدٍ ما فى توجيه أوربا نحو الاعتقاد الى ما بعد الموت وخلود الروح توجيهاً ناقصاً لا يرتضيه العقل المجرد عن الوساوس الشيطانية .

أنظروا كيف يعظم الدين الاسلامى التفكر والتعقل والتدبر ، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبى ذر رضى الله عنه : « ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ » . وقد جاء فى الحديث : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » . وكان على عليه السلام يقول : « ما عُبد الله بشىء أفضل من العقل ، وما تمّ عقل امرئ حتى تكون فيه خصال شتى : الكفر والشر منه مأمونان ، والرشد والخير منه مأمولان ،

فضل ماله مبذول وفضل قوله مكفوف . نصيبه من الدنيا القوت ، لا يشبع من العلم دهره ، والذل أحب اليه مع الله من العز مع غيره . والتواضع أحب اليه من الشرف ، يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف من نفسه . ويرى الناس كلهم خيراً منه وانه شرهم في نفسه ، وهو تمام الأمر » .

العقل والايمان

إن العقل الانسانى قد جهز بقابليات ربانية يتوجه بسببها بصورة طبيعية الى الحق والواقع ويعترف بربوبية الله تعالى وانه خالق كل شيء وان من عمل صالحا من ذكر أو أنثى يُجزَ جزاء حسناً وان من أساء من ذكر أو أنثى يجز حسب عمله ، إن لم يمح ذلك بأعمال صالحة أخرى وتوبة واستغفار . ولسائل أن يسأل : فماذا الجحود الذى نشاهده فى كثير من الناس ، وما هذا الإنكار لعظمة الله تعالى ؟ ولماذا يعبد بعض الناس مع ما لهم من عقول ما يصنعونه بأيديهم من صنم أو ما يقومون بتربيته واعاشته من حيوان ؟ ألم يمن الله عليهم بعقل أم جردوا من القابليات الفطرية ؟ إذن ما معنى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً . فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . لماذا نرى بعض الفلاسفة مع ما أوتوا من قابليات عقلية فائقة ملاحدة جاحدين ؟ لماذا بعض علماء الطبيعة أو الفلك غير موحدين ؟ لماذا نرى نفراً من الشبان مع دراسات سطحية ناقصة ينكرون الخالق الذى خلقهم وقد تأثروا بسخافات المتطرفين ، ونرى شباناً آخرين فى مستواهم يعبدون الله تعالى بخشوع وخنوع ، يصلون ويصومون ، لا تأخذهم فى الله لومة لائم ؟ نرى علماء درسوا دراسات عالية عميقة متمسكين بالدين غاية التمسك عن دليل وبرهان ويقين ، ونرى آخرين مثلهم يحسبون الدين من الأمور الكمالية ، لا يفكرون فى مصيرهم وما سيؤول اليه أمرهم بعد الموت ، ولا يكادون يعتقدون بأمور الآخرة والمعاد ؟ ماذا التفاوت وماذا الاختلاف ؟ ولقد يحار بعضهم بادئ ذى بدء ويظن أن الله تعالى هدى ثلة من الناس دون بعض ، فيسند عدم العدالة الى الله الذى تنزه عن كل نقص . « سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً » . ولو رجع الى نفسه ، تلك النفس التى تلوثت بأنواع المعاصى وضروب الآثام ، تلك النفس التى لم تطع الله طرفة

عين أبداً وقد مُلئت ظلماً وجوراً ، تلك النفس التى خالفت كل ما أملى عليها العقل بشأن الوالدين والاهل والارحام والاصحاب وكل ما يحوط به ، لعلم أن نفسه هى التى أغلقت عليه أبواب الهداية وأنه هو سبب ضلال شخصه . نعم قد هيأ الله تعالى له أسباب الهداية ووسائل التوبة والإنابة فأبى إلا أن يشرد ويحجم ويثابر فى غيه وطيشه حتى اسودت من أوساخ الآثام والأجرام نفسه فأصبحت عمياء لا ترى ولا تبصر الواقع . « ومن كان فى هذه أعمى ، فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » . « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » . « صمٌّ بكمٌّ عميٌّ فهم لا يرجعون » . « إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » . فان الاخلاق المذمومة هى الحجب المانعة عن المعارف الإلهية والنفحات القدسية . إذ هى بمنزلة الغطاء للنفوس ، فما لم يرتفع عنها لم تتضح لها جلية الحق اتضاحا . كيف والقلوب كالاوانى ، فاذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء . فالقلوب المشغولة بغير الله لا تلج فيها معرفة الله وحبه وأنسه والى ذلك أشار النبى (ص) : « لولا أن الشياطين يحومون الى قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السموات والأرض » . نعم إن هذه النفوس تضيء وتتلألأ بدرجة تطهرها من الخبائث والأرجاس ، فتظهر لها الحقائق بصورة جلية واضحة . فان رسول الله (ص) يقول : « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » ، فان التعرض للنفحات القدسية الربانية لا يتيسر إلا اذا تجردت هذه النفوس عن الأكدار الناجمة عن الأخلاق الذميمة فكل اقبال على طاعة وإعراض عن سيئة يؤدى الى جلاء نور القلب فيصبح مستعداً ليفيض بإذن الله علماً ويقيناً وهو القائل : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » . وعن النبى (ص) : « من عمل بما علم ورثه علم ما لم يعلم » . والضمير يعود الى الله . وان الله تعالى لا يبخل

بإفاضاته وأنواره القدسية على عبده وقد وسعت رحمته كل شيء . وإنما العبد هو الذى يسد على نفسه أبوابَ رحمة الله تعالى وأبواب هداية الله وأبواب المعارف الربانية لقيامه بذمائم الأخلاق وارتكابه ما يؤدى بنفسه المسكينة الى أسفل السافلين . إنه يطيعها فى مشتهياتها ويأتمر بأوامرها ، فتحجب عنه تلك الفيوض الرحمانية التى يرافقها من السرور المعنوى ما لا يقوى على وصفه إلا من تشرف به ، سرور يفوق أنواع الملذات المادية وأعلاها . « فالعلم نور يقذفه الله فى قلب من يشاء » . واليه يشير مولانا أمير المؤمنين على (ع) : « إن من أحب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى فى قلبه » . ويقول صلوات الله عليه فى مكان آخر : « قد خلع سرابيل الشهوات ، وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً ، انفرد به ، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى ومغاليق أبواب الردى ، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها ، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس » .

أنظروا ماذا يقول الكاظم موسى بن جعفر عليهما السلام فى هذا المقام لهشام . انه صلوات الله عليه يقول : « يا هشام ، من سلط ثلاثا على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله ، من أظلم نور تفكيره بطول أمله ، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه ، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه فكأنما أعان هواه على هدم عقله . ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه . يا هشام ، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك وأطعت هواك على غلبة عقلك » .

فللعقل الإنسانى إفاضات وتوجيهات ، لو خلىَ ونفسه ولم يدنس بالموبقات والشهوات بإطاعة النفس الأمارة بالسوء . افاضات توصل

الإنسان الى أعلى عليين ، فيكون أعلى منزلة من الملائكة . فماذا ينتظر هذا الغربى المطيع لشهوات نفسه مذ نهوضه من فراشه الى حين عودته اليه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فإن الشهوات قد أغلقت عليه أبواب الفيوضات الربانية والأنوار القدسية الإلهية ، إنه يعصى الله بنظراته وحركاته وسكناته فى كل طرفة عين . حتى أصبح لا يشعر انه يعصى الله . فقد أمسى الانهماك فى الملذات المحرمة والشهوات المنهى عنها عادة ثانية وطبيعة راسخة فيه ، لا يتصور طبيعة غيرها . لذلك لا يعد نفسه مجرماً أو عاصيا ، فيقول اذا اعترف بالله حيناً : لو شاء الله لاهتديت . والله سبحانه كيف لا يريد هداية عبده ؟ فقد أتم الحجة على عباده بتزويدهم بالعقل وبالفطرة التى توجه الإنسان الى الإعتراف بالله وجليل قدرته ، وبإرساله الرسل مبشرين ومنذرين . وبقوله : « وهديناه النجدين » وبقوله : « فألهمها فجورها وتقواها » . ولكنه خالف عقله وأفسد الفطرة بذمائم الأخلاق ومدنسات النفس فأمست هذه الذمائم وتلك المدنسات حجاباً كثيفاً يمنع نفوذ نور الهداية الى نفسه .

يقول الله تبارك وتعالى : « ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) . ومعنى ذلك : أن الإساءات والأعمال التى تفسد النفس ونفوساً أخرى وكل ما يؤدى الى الفساد فى الأرض لها آثار طبيعية ، آثارها التكذيب بآيات الله تعالى وكتبه ورسله والإستهزاء بجميعها . « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . فقد رأينا أناساً كانوا يعتقدون بالله وكتبه ورسله ، يصلون ويصومون ولكن غلبت عليهم شقوتهم وأطاعوا شيطانهم ومالوا الى الدنيا وزبرجها ، شهواتها ونزواتها ، فدنسوا ولوثوا أرواحهم فانسلخ منهم نور الإيمان شيئاً فشيئا ، وتركوا الصلاة وودعوا الصيام .

فتركهم اليقين وودعهم الصراط المستقيم ، فأخذوا يستهزئون بالمؤمنين . « واذا مروا بهم يتغامزون . واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ، واذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون » . ويختلقون لهم ألفاظا كالرجعية والدروشة والتصوف ، وأمثال ذلك ، حين أنه لا رجعية ولا دروشة ولا تصوف فى الإسلام ، وإنما رجوع الى الحق الصريح الذى يؤيده العقل المجرد عن مدنسات النفس ، المنزه عن كل خرافة ووسوسة .

منزلة العقل والعلم
في الدين الاسلامى

بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فى وقت كان الدين مجموعة تقاليد لا يدعمها برهان ولا يسندها دليل وقد انعزل العقل عن التفكير والتعمق والتدبر والسؤال والاعتراض ، فى وقت كان شعار قادة الأديان فى مشارق الأرض ومغاربها : (أطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى) .

جاء الإسلام وهو ينادى بصوت رفيع : « الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له » . وقد نهى عن التقليد الأعمى وعن قبول شىء دونما برهان ودليل . فقال : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » . وقال أيضا : « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » .

فأول شىء وجه الإسلام عنايته اليه هو تحطيم القواعد التى كان يقوم عليها الدين من قبل . وهى التقليد الأعمى واهمال النظر الشخصى واغفال التفكير الحر ومنابذة العلم إلا ما كان فيه موافقا المدين فى نظرهم ومؤيداً لسلطان المتحكمين فى إرادات الناس وعقولهم . ينادى الإسلام بصوت رفيع أن لا اعتبار إلا للعقل وأن لا سيادة إلا للعلم ، ودعا الى النظر والتفكير وتطلب البرهان بقوله فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، « أفلا تعقلون ، أفلا تذكرون ، لعلهم يتفكرون » ، وقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب » ، وبقوله : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاءاً ونداءاً ، صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم

لا يعقلون » ، وقوله : « ومنهم من يستمعون اليك ، أفأنت تُسمع الصمّ ولو كانوا لا يعقلون » . وعظّم أمر العلماء حتى جعلهم من الشهود على وحدانيته : « شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » . وقد وعدهم درجات رفيعة بقوله : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . وقد دعا الناس الى التدبر فى أسرار هذا الكون بقوله : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » . وبقوله : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » . وبقوله : « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » .

وقد قرر الأصوليون من علماء الإسلام أن الإيمان التقليدى مردود . وعلى كل مسلم الوقوف على أصول دينه بالبرهان العقلى والدليل المنطقى . ولا تقليد إلا فى الفروع كأحكام الصلاة والصوم والحج والمتاجر والحدود والديات والقصاص الى ما هنالك . إن علماء الاسلام يعترفون بمستقلات عقلية . أى أن هناك حسنا عقليا وقبحا عقليا يستقلّ العقل بإدراكهما ويقولون : كل ما حكم به العقل حكم به الشرع وكل ما حكم به الشرع حكم به العقل اذا كمل العقل وتجرد عما يلوثه ويدنسه . فإن هناك أحكاما شرعية قد لا يصل العقل الى معرفة أسرارها وآثارها فى تكامل النفس وتزكيتها وتصفيتها حتى تكون قمينة للخلود فى « جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين » . ولكن العقل سوف يدرك أسرار تلك الأحكام الشرعية مع تكامل الانسان العلمى والخلقى ، فليس من الصواب أن يعترض على على بعض الأحكام الاسلامية مَن عليه أن يعترف أنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً وأن مجهولاته أضعاف معلوماته ، وقد اشتبه فى كثير من محاكماته طوال حياته مرات ومرات وقد خطأ نفسه وفند رأيه بعقله وهو يرى أن القوانين الوضعية البشرية تصلح وتعدّل من حين الى حين مع أن الظروف

نفس الظروف لم تتبدل ولم تتغير . ولا يعلم أن هذا التعديل كان اصلاحاً أو إفساداً . فمن لم يفهم حكمة حكم من أحكام الدين الاسلامى ولم يقف على علة أمر من أوامر الشريعة الاسلامية ، فليتهم نفسه وليسأل من هم أكثر منه علماً وإيماناً ويقيناً ، كى يزداد بصيرة واطلاعاً واطمئنانا . فقد قال علىٌّ عليه السلام : إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله .

نعم ! قد فتح الإسلام البصائر للنظر والعقول للفهم والقلوب للشعور ، لذلك يقول المؤرخ الكبير (سديو) : « لقد كان المسلمون متفردين بالعلم فى تلك القرون المظلمة ، فنشروا العلم حيث وطئت أقدامهم » . وقد روى إسحاق بن عمار عن أبى عبدالله الصادق (ع) : « من كان عاقلاً كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة » . وعن الصادق (ع) : « ليس بين الإيمان والكفر إلا قلة العقل » . قيل : وكيف ذاك يا ابن رسول الله ؟ قال : « إن العبد يرفع رغبته الى مخلوق ، فلو أخلص نيته لله لآتاه الله الذى يريد فى أسرع من ذلك » . وان هذا لدستور تربوى عظيم يبعث على الاعتماد على النفس بعد الإتكال على الله تعالى ويحذر عن الطريقة الإتكالية : أى الإتكال على الغير سوى الله تعالى . تلك الطريقة التى بسببها ذلت أمم وتدهورت أخرى .

وقد أعطى الدين الاسلامى للعقل منزلة فوق ما أسلفنا ، فقد جعله ميزاناً للثواب والعقاب . فعن أبى جعفر عليه السلام : « إنما يداقُّ الله العباد فى الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول فى الدنيا » . وقد ذكر عند أبى عبدالله (ع) عبادة رجل ودينه وفضله . فقال عليه السلام : كيف عقله ؟ فقيل له : لا ندرى ، فقال : « إن الثواب على قدر العقل . إن رجلاً من بنى إسرائيل كان يعبد الله فى جزيرة من جزائر البحر خضراء نضرة ، كثيرة الشجر ، ظاهرة الماء وان ملكاً من الملائكة مرَّ به ،

فقال : يا ربّ أرنى ثواب عبدك هذا ، فأراه الله ذلك ، فاستقله الملك ، فأوحى الله اليه أن اصحبه ، فأتاه الملك فى صورة إنسىّ ، فقال له من أنت ؟ فقال : أنا رجل عابد ، بلغنى مكانك وعبادتك فى هذا المكان ، فأتيتك لأعبد الله معك ، فكان معه يومه ذلك ، فلما أصبح قال له الملك : إن مكانك لنزه وما يصلح إلا للعبادة ، فقال له العابد : إن لمكاننا هذا عيباً ، فقال : وما هو ؟ قال : ليس لربنا بهيمة ، فلو كان له حمار ، رعيناه فى هذا الموضع ، فإن هذا الحشيش يضيع ، فقال له (ذلك) الملك : وما لربك حمار ؟ فقال : لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش ، فأوحى الله الى الملك ، إنما أثيبه على قدر عقله » .

ثم إن الدين الاسلامى قد حذر عن اتباع الوساوس الشيطانية التى تظهر بمظهر العقل والتفكير وهى وبال . فعن عبدالله بن سنان . قال : « ذكرت لأبى عبدالله عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة[1] وقلت هو رجل عاقل ، فقال (ع) : أى عقل له وهو يطيع الشيطان ، فقلت له : وكيف يطيع الشيطان ؟ فقال : سله ، هذا الذى يأتيه من أى شىء هو ، فإنه يقول لك من عمل الشيطان » . وقد جاء فى الحديث : « أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقا » . فترون أن قيمة المرء تتناسب فى الدين الاسلامى مع درجة عقله ، والعقل حجة الله بينه وبين عباده . فإن رسول الله (ص) يقول : « اذا رأيتم الرجل كثير الصلاة وكثير الصيام فلا تباهوا به حتى تنظروا كيف عقله » .

هذا دين يعلن للناس كافة أن كل ما فيه يوافق آخر ما استطاع أن تصل اليه العقول البشرية ، وفيه من الدساتير الحكيمة ما هو فوق العقل البشرى ، يصل العقل الى بعض محسناته وفوائده ولا يبلغ كنهه . دين لا يريد بمعتنقيه

---

(١) أي كان يعيد وضوءه وصلاته مرات وقد أصيب بمرض الوسوسة فيهما .

أن يخفوا ما لديهم من سنن وآداب خشية أن تتحداه بقية الأديان . دين أجدر بعلماء العلوم المادية أن ينكبّوا على اعتناقه والعمل بنواميسه إن كانوا للعقل والعلم خاضعين ، فقد قال رسول الله (ص) : « ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل ، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل ، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل ، ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل فيه العقل ويكون عقله أفضل من (جميع عقول)أمته . وما يضمر النبي (ص) فى نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين ، وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه ، ولا بلغ جميع العابدين فى فضل عبادتهم ما بلغ العاقل ، والعقلاء هم أولو الألباب الذين قال الله تعالى فيهم : « وما يتذكر إلا أولو الألباب » .

تأخر العلوم الحديثة عن الدين

إن تقدم العلوم المادية فى أوروبا ومعارضة الكنيسة لها أوجدت ردّ فعل أدى الى مقت الدين ونبذه ثم الى معتقدات وظنون بعيدة عن الواقع ، ناتجة عن أهواء وشهوات لا يؤيدها أى منطق ودليل . فقلد الشرقُ الغربَ فى ذلك ، وظن البعض أن دين الاسلام لا يماشى العلوم الحقيقية ويعارضها كما تعارضها الكنيسة الكاثوليكية والبرتستانية اللتين حكمتا على اعدام كل من (سرفيتوس) فى ١٥٣٣ م و (جورداتلو برونو) فى ١٦٠٠ م ، نعم ، إن هذا العداء أوجد هذه الفكرة التى أدت بالفيلسوف (كونت) أن يقول : « ويجب أن يتحول الإخلاص الدينى من خدمة إله غير معروف الى خدمة الإنسانية ! وبهذه الطريقة يصبح الدين وسيلة لضمان وحدة الانسانية وقوتها بدلاً من أن يكون مثاراً للإنقسامات والمنازعات » . ولم يعلم أنه لم يظفر بدين تطمئن اليه نفسه (وأعنى به الدين الاسلامى) ، دين يقول لمعتنقيه : (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه) ، (أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً) . ومتى كانت أوروبا تدين بدين ؟ إن أوروبا جبلت على حب المادة وطبعت على حب الشهوات والملاذ من أى وجه حصلت . وقد كان فيها منذ زمن بعيد من مجالس الرقص والمجون والتبرج والفسوق والفجور والخمور والميسر والربا والظلم ما لم يكن فى بلاد أخرى . ولا مراءَ أن هذه الموبقات تؤثر فى النفس تأثيراً بالغاً وتؤدى بها الى تسافل مرير ، فتظلم النفس ويعمى القلب وتفسد الفطرة وينطفىء ضوء العقل الفطرى ويحل مكانه : جحود وإنكار واستهزاء بالمقدسات وعبادة المادة بشتى الألوان . ونتيجة ذلك تكذيب لما أنزل الله تعالى وتحريف وتغيير . إن الله تعالى يقول : « ويل للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين ، وما يكذب به إلا

كل مُعتدٍ أثيم ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . وفى آية أخرى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين » (سورة الصف : ٥) .

فكل دين ، مهما كان مبالغاً فى تزكية النفس وآمراً بالتقوى والورع الى أقصى حد ممكن ، اذا حلّ فى أوروبا أثرت فيه مادية أوروبا فأرجعته الى مجالس الأنس والملذات والشهوات ، تختلف عن مجالس أخرى بأن فيها مسحة دينية ضئيلة ، تنطفىء تحت نير الشهوات وحبائك الشيطان . وهذا أحد أسباب عدم ظهور الأديان الحقة فى أوروبا . لأن أوروبا (أوالغرب) بمبادئها وشهواتها ومجونها غالبة مغيرة . والأديان كسائر العناصر الحية تتغير وتنحرف وتأخذ أشكالاً تطابق المحيط والبيئة : (Adaptation) اذا كان قد قدر لها ذلك ، أو تموت . ولقد سمعت من أحد الوزراء السابقين (وقد توفى رحمه الله) ما مفاده : لماذا ظهرت الأديان فى الشرق ولم تظهر فى الغرب ؟ غير مميز بين الأديان الحقة والأديان المختلقة البشرية ، غير فارق بين البيئة الملائمة لنشر التعاليم الإلهية الحقة والبيئة التى تؤثر فى تلك التعاليم . فتمسى مضطهدة متأثرة ، آخذة طوراً يناسب ذلك المحيط وتلك البيئة . وهذا الفرق يظهر بين البلدان المختلفة التى يعتنق أهلها ديناً واحداً .

إن طابع أوروبا طابع مادى منذ عهد الرومانيين وقبلهم والدين يحتم على الانسان أن يؤمن بما وراء المادة . وأن يعمل حسب التعاليم التى أرسلها الله من وراء المادة على لسان أنبيائه (ص) ، دون أن يغير فيها شيئا . ولكن المدنية الغربية لا تخضع إلا لما تحتمه المقتضيات الاقتصادية والاجتماعية والقومية وكل ما هو مادى يؤدى الى الراحة والرفاهية . فأوروبا مادية بكل ما فى المادية من معنى وتعبد المادة منذ زمن بعيد وقد ألبستها لباس الحضارة . إن مدنية أوروبا اليوم هى نفس المدنية الرومانية القديمة التى لا تعترف لغير

المادة الصماء ، فهى نفعية بحتة . ولم توفق المسيحية فى أوروبا فى تخفيف هذا الجشع المادى الموروث بل أثرت مادية أوروبا فيها . فكانت إسماً بلا مسمى وتقاليد بلا روح . يريد الغربى أن يرى شيئاً عن (ما وراء الطبيعة) وعن الروح وعن مصير الانسان بعد الموت فى الطبيعة المادية نفسها أى فى مختبراتها . وحيث لا يمكن ذلك ، لأنهما من واديين مختلفين وعالمين متباينين ، أمسى لا يقر لغير المادة ، ولا يعمل إلا فى تحقيقها والتزود منها بأوسع مقياس . إن الغربى يريد أن يرى الله تعالى فى تحليلاته الكيمياوية وفى أجهزة الاختبارات الفيزياوية ! فى حين أن الله تعالى مُظهر فى ذلك جليل قدرته وعظمة صنعه . ولا ترتيب إلا بمرتب ولا تنظيم إلا بمنظم لاسيما اذا كان هذا الترتيب يحير العقول ويدهش الألباب .

يقول الله تعالى :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءآ فيحيي به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

فدين الاسلام بهذه الآيات البينات يدعو الى التفكر والعلم واستماع القول الحق والتعقل . لا الى خرافات وضعها الاتجاه المادى المتغلغل فى أوروبا ولا الى شهوات من تربّوا تربية مادية حتى أدى بهم الى روح مادية مدلهمة لا تستنبط من خواص المادة ونظمها وقوانينها عظمة واضعها وخالقها . و « إن أعمى العمى عمى القلب » . كما جاء فى الحديث . نعم أخطأ الغربى فى التطبيق لظلمة فى النفس . وقاس الأمور الروحية البحتة بمقاييس ومعايير

تستعمل فى المختبرات كمشاعر كان يزن شعره بالسانتيمترات ! إن الغربى أراد أن يجد دساتير الكمال الانسانى وقوانين الشريعة التى تبلغ بالانسان ذروة الكمال تحت المجاهر والمخابر . وقلده الشرقى ، فانجرف نحو المادة الصماء وترك روحياته التى تفوح كمالاً وجمالاً ، روحيات بها يسمو الانسان فيكون أعلى منزلة من الملائكة . أجل ! استقى الشرق من فلسفة أوروبا المادية أكثر من أن يأخذ من رياضياتها وطبيعياتها وصنائعها ، بل أخذ من فساد أخلاقها واستهتارها وخلاعتها ومراقصها ومجونها وطيشها وترفها قبل أن يأخذ من مخترعاتها ويتعب ذهنه فى حل غوامضها، ذلك لأن النفس الانسانية تميل الى التسافل والتدنس ، وان فى اقتباس المخترعات والنظريات الدقيقة لتعباً تفر منه النفس الشهوانية الميالة الى الراحة . كان يفتش الشرقى عن مسلك يستريح به من القيود فوجدها فى المدنية الغربية المادية . وهل الدين إلا قيود تتكامل بها النفس ، وهل تكمل النفس إلا بإرادة قوية تقيدها عن المدنسات وهى كل ما حرم الله تعالى على لسان نبيه الكريم (ص) . إن الله تعالى يقول : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » (سورة القلم : ٣٥) . فجعل الاسلام مضاداً للإجرام ، ومعنى ذلك أن الاسلام الحقيقى موقوف على عدم الإجرام وعدم التصدى الى الموبقات والمدنسات . لأن الاسلام مطهر الفرد عن كل ما يلوث النفس الانسانية ، موصل إياه الى أعلى مراتب الكمال . وليس الاسلام تسمية وأسماء فحسب ، حتى يعد الشخص مسلماً بمجرد حمله هذا الاسم . نعم ، إن النفس البهيمية تفهم الخلاعة والاستهتار والانغماس فى الخمور والفجور قبل النظريات العلمية ، فتلبسها لباس المدنية والحضارة ، فيكون هذا الإسم الكاذب مبرراً لشهواتها ونزواتها . لذلك كله دبَّ فى الشرق تبلبل فى العقائد والأفكار وأخذ يغالى البعض فيريد قلب البلاد الاسلامية الى بلاد غربية بجميع مظاهرها وويلاتها . نعم قلد الشرقيُ الغربيَ تقليداً أعمى لجهله دينه وظنه أن دين الاسلام لا يساير الحياة

العلمية وان لمعطيات القرن العشرين فى العلوم القول الفصل ، وأن كل ما جاء فى الدين مخالفاً للنظريات العلمية مردود . ولم يفرق بين العلم الحقيق الناصع وبين (الفرضيات !) الموضوعة المتحولة من وقت الى وقت على قدر جهود المخترعين والمكتشفين . وان نظرة بسيطة الى تاريخ العلوم والفلسفة ترينا مدى تغير الحقائق العلمية ووضع نظريات جديدة « أو فرضيات ! » والغاء نظريات قديمة كان البشر يظنها حقائق راهنة ينازع فيها رجال الدين ويصمهم بالخرافة والجهل . « زُين للذين كفروا الحياةُ الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيمة والله يرزق مَن يشاء بغير حساب » .

كان يرى العلم الحديث الى عهد قريب أن الشمس ثابتة وكان القرآن ينادى منذ مئات السنين أنها متحركة بقوله : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » . ثم عدل العلم الحديث عما كان يعتقده بعد تقدم العلوم الرياضية وآلات الرصد فقال بحركة الشمس لمستقر لها سائرة نحو نجمة تدعى بالنسر الواقع ، على شكل لولبيّ ، وقال بحركة كثير من النجوم الثوابت بعد أن كان يراها ثابتة لا تتحرك . كم مرة عدل العلم عما قرره بعد العثور على حقائق جديدة وكم مرة سوف يعدل فى المستقبل عما يقرره الآن ، لا يعلم ذلك إلا الله . فما جاء فى الدين ثابت لا تغير فيه والعلم متأخر عنه ، يصل اليه مع تقدم الوسائل والمخترعات إلا ما كان من أمر النفس فإنه سيبقى مجهولاً أبد الآبدين . « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . ويقول تعالى أيضاً : « ما أشهدتهم خلقَ السموات والأرض ولا خلقَ أنفسهم » . فما لا يدركه العلم من الدين ويعجز عن تفسيره ليس إلا لقصور فيه وانقباض فى سعة مداه الحاضر وقلة الوسائل ووجود الحاجة الى اكتشافات أخرى ومخترعات جديدة وصفاء فى النفس .

تأخر العلوم عن الحقائق الدينية

قد ثبت فى العلم الحديث فى زمن متأخر ما نطق به القرآن الكريم أن مبدأ الحياة وُجد بالماء . والماء من أهم البواعث فى تكون الحياة وكان يقول الله تعالى قبل مئات السنين فى كتابه الذى : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » : « وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون » . ثم اكتشف العلم الحديث أن الزوجية متأصلة فى الأشياء كلها حتى أن الذرة مركبة من (ألكترون وبروتون) : كهربائية سالبة وكهربائية موجبة . وكان القرآن الكريم ينطق بذلك قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة . « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون » . أى لعلنا نتذكر أن الوحدانية له تعالى لا يشاركه فيها أحد . إنه تعالى يقول فى آية أخرى : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

كان الطب يجهل أدوار الجنين فى الرحم الى زمن غير بعيد ، وكان القرآن ينطق قبل أربعة عشر قرناً تقريباً : « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم جعلنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . ثم إنه تعالى قد أوضح مراحل تشكل الأمطار فى آيات شتى تبهر العقول . يقول جل وعلا فى سورة فاطر : « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » .

إن للرياح أثراً فعالاً فى حدوث الأمطار . ذلك لأن الرياح تعمل فى تكوين السحاب وتكثيفه مطراً مستعينة بفعل الجبال والكهربائية الجوية . فإذا حملت الرياح السحاب كانت الجبال مكثفات هائلة تساعد على تكثيف السحاب . إن الرياح تزجى السحاب بأمره تعالى فيقترب السحاب الموجب

من السحاب السالب مقداراً كافياً يؤدى الى التجاذب وزيادة فى كهربائية مجموع السحاب بالحث . نعم ان هذا التقارب ليتزايد بصورة تدريجية حتى تتحد كهربائيتهما عن بعد ، فيحدث هذا البرق الذى نشاهده . ومن ثم يحدث المطر . وإن دراسة الجو أمر معقد ، لتشعب مسائله ولزوم توحيد جهود الأمم وارتباط الحوادث الجوية بعضها ببعض ارتباطاً قوياً ، حتى أن حادثة جوية تقع فى شرق العالم لتؤثر فى الأوضاع الجوية فى غرب العالم . فإذا هبت الرياح على بلدة فى العراق مثلاً أو هطلت الأمطار عليها فإن سبب ذلك لا ينحصر فى جو هذه البلدة فحسب بل يجب أن نبحث عن السبب خارج هذه البلدة . نعم ، قد يكون من السهل القيام بأعمال رصدية قريباً من سطح الأرض ولكن القيام بأعمال رصدية فى مناطق عالية عسير جداً . ذلك لأن معلوماتنا عن حقيقة الرياح ومصيرها وعن الكهربائية الجوية وكل ما يتعلق بالجو قليلة جداً . ولعل الأقمار الصناعية تزيد فى معلومات البشر فى هذه النواحى المجهولة . على أن هذه المجاهيل تبقى متنوعة وكثيرة أبد الآبدين . وذلك لأننا كلما فتح لنا أفق من العلم تجلت لنا مجاهيل متعددة ومتنوعة لا تحصى . فسبحان الذى نظم هذا العالم بعلم لا يتناهى وقدرة لا تتناهى وحكمة لا تتناهى . وقد علم علماً يقيناً أن الرياح تثير السحاب (كما جاء فى القرآن الكريم) أو بخار الماء . أى أنها تظهره بعد أن كان كامنا . يسوق الله تعالى السحاب حيث يشاء ، ولم يتكلم العلم الحديث عن كيفية هذا السوق ، لتعدد العوامل وتشعبها ، ولا رابط بينها إلا الله تعالى .

إن المطر ليحدث بعوامل عدة : منها زيادة تشبع الهواء ببخار الماء ، ومنها البرودة فى المناطق العلوية ومنها قلة الضغط فى المناطق العالية ومجىء الرياح الباردة من المناطق القطبية ، ومنها الجبال ، ومنها نويات التكاثف كدقائق الغبار الخفية أو المرئية ، ومنها تأين الهواء أى تكوين الإيونات

فيه والـ (إيون) هو الذرة المكهربة أو الجزىء المكهرب أو الهباءة المكهربة وان الجو ليتأين بعوامل مختلفة ، البحث فيها من أصعب المواضيع .

يقول الله تعالى فى آية أخرى : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءاً . فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » . إن هذه الآية تعلمنا أن للرياح اللواقح أثراً فعالاً فى نزول المـــاء من السماء وإسقائه الناس . فهذه الآية لا تريد أن تشير الى أن الرياح لواقح للزرع بل تقول : إن الرياح تلعب دوراً خطيراً فى الاتحاد بين كهربائية وكهربائية فى سحابتين مختلفتين ، أى أن الرياح تعمل فى الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة ، فتقع الملاقحة بين سحابتين . فهذه الآية معجزة خالدة ، لأنها تخبر قبل ١٣٩٠ سنة تقريبا عن شىء هو عصارة العلم الحديث . وهذا دليل واضح على التطابق التام بين العلم والدين فى الاسلام وبرهان قطعى على تأخر العلوم عن الحقائق القرآنية .

وهناك آية أخرى أدل من الآيتين المتقدمتين على كيفية حدوث الأمطار ، يطابق آخر ما وصلت اليه الاكتشافات الأخيرة . وهو قوله تعالى : « ألم ترَ أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » . فنى هذه الآية خلاصة كثير من المكتشفات الحديثة فى تشكل المطر نخص بالذكر قوله : « ثم يؤلف بينه » أى ان الله تعالى يؤلف بين السحاب . وهو يدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التى تقوم عليها الظواهر الجوية . فإن التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى تتجاذب وتتعبأ فى الجو حسبما يريده الله فيتكون بأمره تعالى من بين السحاب برق أو صواعق ومطر وبرد . وإن عملية الركام تأتى بعد عملية التأليف . على أن الله جل جلاله لا يريد بذكر هذه الآيات تعليم الناس شيئا من العلوم الكونية لأن كلمات الله

وما أودعه فى الاجسام من خواص لا تتناهى . « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » . ولكن الله يريد أن يُرى العباد جليلَ قدرته وعظيم صنعه اتماماً للحجة . « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » . « قل فلله الحجة البالغة » . « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة » . نعم ، إن الإنسان يصل الى العلوم الكونية عاجلا أو آجلا بفكر أودعه الله فيه ، ولثابتية خواص الاجسام وقوانينها . وقد عاش الإنسان آلاف السنين دون أن يعلم قوانين (لورد كلوين) فى الكهرباء ودساتير ليبنيتز (Leibnitz) فى التحليل الرياضى أومعادلات (دكارت) فى الهندسة التحليلية . ولا أعلم هل تكامل البشر روحياً بعد الوقوف على هذه القوانين ، أم رجع القهقرى يأكل بعضهم البعض ؟ والمهم بل الغاية الأسمى التى خلق الإنسان لأجلها هى تزكية هذه النفس التى لا تقر على حالة ثابتة خلافاً للجمادات التى لها قوانين ومعادلات ثابتة يظفر بها الإنسان بلطف من الله . وكثيراً ما يظفر بها بطريق الصدفة مناً منه تعالى . والبشر المادى أقل من أن يأتى بنظام يكفل سعادة البشر فى الدارين . أما الدين فحقائقه ثابتة ترمى الى غايات بعيدة قد يفهمها العلم وكثيراً ما يتأخر عن فهمها .

ونسأل الله تعالى نفوساً صافية وآذاناً واعية تعى الحق فتتبعه ، ولا تغتر بما يكتشف فى هذا العصر مما أودع الله من كنوز ومعادلات فى هذا الكون المادى . فإن الغرور يبعد الانسان عن رؤية الحق واتباعه أيما تبعيد . إن الله تعالى يقول : « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » .

علاقة الدين بالعلم والظن

إن الدين الإسلامى حث على تحصيل العلم الى حدٍ بعيد ، ولم تقع معارضة بين الدين والعلم فى العالم الإسلامى شبيه المعارضات التى حدثت بين الكنيسة والعلماء الكونيين فى القرون الوسطى فأدت الى الشنق والنفى والسجن . فإن الدين الإسلامى يحبذ العلم الصحيح الذى لا شبهة فيه ويؤيده أيما تأييد . ولكنه يندد بأولئك الذين يتبعون الظن ويعتبرونه علماً ويبنون على هذا العلم الباطل أشياءَ كثيرة لا أساس لها ، تفسد بذلك عقائدهم وأخلاقهم فيكونون من الأخسرين أعمالا . يقول الله تبارك وتعالى : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » (سورة الأنعام : ١٤٨) .

فنهى الدين الإسلامى عن اتباع الظنون وهى النظريات التى لا تستند على دساتير رياضية رصينة ولا تؤيدها التجارب بصورة مطردة وإنما هى أهواء ووساس تتجلى بصورة العلم . يقول الله تبارك وتعالى : « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ، إن الله عليم بما يفعلون » . وفى مكان آخر : « وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » . وقد قال الله تعالى فى سورة الكهف : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » . فنهى عن الظن بقوله : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » . وبقوله : « ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » . وبقوله : « وإن تطع أكثر من الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون الا الظن وإن هم الا يخرصون » . (أى يكذبون) .

وقد حث القرآن الكريم على التمسك بالعلم القطعى الصحيح واتخاذه أساساً للمعتقدات والحياة الاجتماعية بقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب » . فخص الله التذكر والوعى الدينى والقيام بما فرض الله ، بأولى الألباب والعقول : أولئك الذين يتبعون العلم الصحيح ، لا الظنون والأهواء . وان الله تعالى أمر نبيه (ص) مع ما آتاه من العلم والحكمة أن يدعو ربه لمزيد العلم بقوله : « وقل ربّ زدنى علما » . وهذا يشير الى عدم انتهاء مدى العلوم . ويقول جلّ من قائل : « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات » . ولا مراءَ أن العلم الصحيح الناصع الذى يوصل الإنسان الى الاعتقاد بالله والعمل بما يرضيه ، فيه النورُ والحياة والسعادة الأبدية ، وهذا هو العلم الذى يهيىء لنا سعادة الدارين .

قال أمير المؤمنين علىٌّ عليه السلام : « تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه مَن لا يعلمه صدقة ، وهو عند الله لأهله قربة . لأنه معالم الحـــلال والحرام ، وسالك بطالبه سبيل الجنة ، وهو أنيس فى الوحشة ، وصاحب فى الوحدة ، وسلاح على الأعداء ، وزين الأخلاء ، يرفع الله به أقواماً يجعلهم فى الخير أئمة يقتدى بهم وترمق أعمالهم وتقتبس آثارهم ، وترغب الملائكة فى خلتهم ، يمسحونهم بأجنحتهم فى صلواتهم . لأن العلم حياة القلوب ، ونور الأبصار من العمى ، وقوة الأبدان من الضعف . ينزل الله حامله منازل الأبرار ويمنحه مجالسة الأخيار فى الدنيا والاخرة . وبالعلم يطاع الله ويعبد ، وبالعلم يعرف الله ويوحد ، وبالعلم توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام . والعلم إمام العقل والعقل تابعه . يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء » .

وقد قال رسول الله (ص) : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ،

« ألا إن الله تعالى يحب بُغاة العلم » . وإن الإسلام عظم منزلة العلماء الحقيقيين أيما تعظيم حتى جعلهم ورثة الأنبياء . وفى حديث : « عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد » .

ما هذا العلم الذى يعطيه الدين الإسلامى هذه المنزلة الرفيعة ؟ هو كل علم يوصل الإنسان الى توحيد الله تعالى والخشوع والخنوع بين يديه ، علم يؤثر فى النفس الإنسانية فتتقشع عنها الرذائل والخبائث ويزول عنها الرجس والدنس ، فيكون هذا الإنسان بشراً على شكل ملك أو ملكا على صورة انسان . هذا العلم الذى يتخلله التوحيد والاعتبار بعظمة الله تعالى ثم القيام بتكميل النفس .

ولا شك أن الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم النبات والحيوان وطبقات الأرض وغير ذلك من العلوم نوافذ منها يتمكن العالم أن يبصر عظمة الله وجليلَ قدرته ، فيزداد تسبيحاً وتحميداً لله تعالى .

إذن فما الذى أدى بفريق من الناس حتى أصبحوا من عباد المادة ؟ رجعوا وثنيين يعبدون المادة الصماء بعد الاطلاع على كثير من خواصها ؟ ذلك لأنهم لم يستنتجوا من هذا العلم المادى استنتاجاً يوافق المنطق وإنما اتبعوا الظنون . أثرت فيهم ضوضاء المعامل والانقلاب الميكانيكى فاغتروا بها واستعملوا ذلك فى الترف وايجاد أسباب الراحة والركون الى الدنيا وشهواتها وملذاتها ، فعميت أبصارهم وتجلت إذ ذاك لهم الظنون علماً ، فقالوا : لا شىء وراء المادة .

يقول الله تبارك وتعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » . أى أن هذه الطائفة الضالة غفلت عن اتباع العلم الصحيح واتبعت ظنونها وشهواتها . ذلك لأن

النفس الإنسانية اذا انطمست فى الموبقات والمنكرات لا تبصر الحق ولا ترى سبيلا الى العلم الصحيح . لأن الموبقات والمنكرات والمعاصى تشكل حجاباً كثيفاً مدلهماً يحجب النفس الإنسانية عن رؤية الحق والواقع ، فتظهر لها الظنون بلباس العلم وهى فى أسفل درك من الظلمات . يقول الله تعالى : « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

ظهرت المادية بأجلى مظاهرها فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، وكان من أبشع مظاهرها ظهورُ المبدأ الشيوعى ، حتى أنكروا وجود الخالق : « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » .

وقد سمعت من أحد كبار المبشرين بالدين الإسلامى : أنه قد أوفد لنين مندوبه الى سمرقند ليهدم المساجد والكنائس ، ويفهم الناس أن لا شىء وراء المادة ، وأن هذه العبادات ليست إلا سخافة . فجاء المندوب وطلب الى الناس أن يجتمعوا فى ساحة كبيرة وقد أخبر العالم الدينى (العالم بالدين الإسلامى) فى سمرقند بما سيكون من أمر هذا المندوب ، واجتمع اليه رؤساء الدين من أهل الكتاب ، وقالوا ان البلية عامة وفوضوا اليه أمر الدفاع . حتى كان اليوم الموعود . فقام الشيوعى قائلاً : ماذا تعبدون ؟ إن كان هناك إله فلمَ لا نراه بأبصارنا ؟ ولم لا نلمسه بأيدينا ؟ ولماذا لا نتذوقه بألسنتنا ونشمّه بأنوفنا ونسمعه بآذاننا ؟ إذن ليس وراء المحسوسات شىء . إهدموا الجوامع والكنائس ودور العبادة .

فقام اليه العالم المسلم ، وكان قد أحضر قبلاً كرتين بحجم واحد . إحداهما من خشب والأخرى من حديد ملونتين بنفس اللون ، وقد وضعهما على المنضدة . فخاطب الشيوعى قائلاً : قل لى أى الكرتين أثقل ، استعمل فى ذلك حواسك الخمس كما استعملتها لمعرفة الخالق . فأبصرهما الشيوعى ،

ثم شمهما ، ثم لمسهما ، ثم ذاقهما ، ثم وضع أذنه بالقرب منهما ليسمعهما . فقال : لا أهتدى بالحواس الخمس الى معرفة أثقلهما ، إلا أن عقلى يقول لى : إرفعهما وحركهما بيديك كى تعلم أيهما أثقل .

فقال له العالم المسلم : إذن العقل هو المرجع الوحيد عند قصور الحواس الخمس وعجزها واخطائها ، وبالعقل يدرك الخـــالق الذى جهزك بأعضاء لو تعطل عضو رئيس منها لما استطاعت المعامل بأجمعها أن تعوض عنه . فكم تخطىء الحواس الخمس ويكون العقل مصححاً لها . هل الشمس بهذا الحجم الذى نشاهده ؟ وهل النجوم بهذه الصغر ؟ وهل الخطان المتوازيان الممتدان الى حد بعيد يتلاقيان حقاً ؟ وأمثال ذلك من أخطاء الحواس فى الهندسة والفيزياء كثير . إن الله تعالى يقول : « ألا ان لله مَن فى السموات ومَن فى الأرض ، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم الا يخرصون » . ويحق لى أن أكرر الآية الآتية لمطابقتها العصر الحاضر : « وإن تطع أكثر مَن فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون الا الظن وإن هم الا يخرصون » .

ونسأل الله توفيق اتباع العلم الصحيح وترك الظنون والأهواء . فـ « العقل ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان » .

الدين والعلوم الحديثة

عندما يرى الطالب المعلومات الحديثة فى علم النبات والحيوان وطبقات الارض والفيزياء والكيمياء والتاريخ والجغرافية والرياضيات ويرى مختلف التآليف وشتى المختبرات يندهش أمام العلم الحاضر ويظن بل يقطع أن العلم الحاضر له القول الفصل فى كل ناحية من نواحى الكون . وان ما يقوله حقٌ لا يُشك فيه . هذه العقيدة تكون قوية فى المدارس المتوسطة أكثر من الثانويات وفى الثانويات أكثر من المدارس العالية ، اذا كان الطالب ممن لا يسلم بما يلقى عليه دون تعمق وتدبر . وأما اذا كان من البسطاء الذين لا ينظرون الى القول ، بل القائل أهم منزلة عندهم مما يقول ، بقى ثابت العقيدة فى أن العلم الحاضر حلال المشكلات ، وموصل الإنسان الى أقصى مرتبة من مراتب التحقيق . وما يقوله لا يناقش فيه . ويزداد تعجباً عندما يرى المعادلات التفاضلية التى تستعمل لحل غوامض القوانين الكهربائية ومباحث الحركة والحرارة الحركية من مباحث الفيزياء العالية .

وقد رأيت ذات يوم وأنا أقوم بتجربة فيزياوية : أن طالباً دُهش لما رأى أن التجربة تدل على صحة القانون الفيزياوى وقال : هذا هو العلم ! معجباً بالتجربة فرحاً مغروراً ، وقد فاته أن ذلك ليس إلا ظاهرة من ظواهر العلم ، ظاهرة بسيطة لا تدل على حقيقة إلا بعد استنتاج صحيح ، وإنك لو سألت مَن تخصص فى الكيمياء : كيف أن الغازين (الأوكسيجين والهيدروجين) يشكلان بالنسبة المعلومة الماء بعد امرار تيار كهربائى ، وما تأثير الكهرباء هنا ؟ يبقى حائراً صامتاً لا جواب له . وغاية ما يقول : إن التجربة تدل على ذلك . وما التجربة إلا حادثة أو ظاهرة يجب تفسيرها . وان المدقق المفكر من علماء الكيمياء الاختصاصيين يعترف بأن إرادة ربانية تعمل

فى تركيب هذه العناصر ولولاها لما حصل هذا المعجز . إذ لا مناسبة بين الأوكسيجين الغازى والماء . وقد زعم آينشتاين وكان من كبار الفيزياويين الرياضيين بل كاد أن يكون أعظمهم بعد كشف النظرية النسبية (Relativité) : أن أقصر الخطوط هو الخط المنحنى وأن الضوء يسير على خط منحنٍ غير مستقيم ، وكان فيما يقوله يستند على تجاربه واستنتاجاته السابقة ، ثم أتيح له أن رصد بآلات أتقن من الآلات السابقة وقام بحسابات أخرى فعدل عن رأيه وقال : إن أقصر الخطوط هو الخط المستقيم ، وإن الضوء يسير على خط مستقيم . فالتجارب الثانية والمشاهدات والحسابات التالية قد أصلحت الأخطاء الناتجة عن التجارب والمشاهدات والحسابات الأولى . إذ ليست التجربة كل العلم وإنما حسن الاستفادة وحسن الاستنتاج هو الذى يجب أن يعتمد عليه . والإنسان معرض للخطأ والزلل وقلّ أن يسلم منهما أحد إلا من عصم الله .

كما أن النظريات أو بالأحرى (الفرضيات) التى توضع (لا عن تحقيق علمى وإنما لإمكان تفسير الحوادث أو التجارب) تتغير من حين لآخر . لأن الفيزياوى يضع (فرضية : Hypothèse) تدل مثلاً على ماهية الكهرباء ويفسر الحوادث والمشاهدات الكهربائية على ضوء تلك (الفرضية) ، حتى اذا رأى حادثة أو ظهرت له ظاهرة ، عفواً لا قصداً ، تخالف (الفرضية) الموضوعة عمد الى وضع (فرضية) جديدة صالحة لتفسير الحوادث السابقة واللاحقة ، فلو كانت (الفرضية) الأولى صحيحة فما هذه الثانية ؟ وإن كانت الثانية صحيحة فإذن بقينا فى خطأ وضلال طيلة تمسكنا بالفرضية الأولى . ومن يقوى على القول بأن (الفرضية) الثانية صحيحة ، ذلك لأنه ستظهر حوادث أخرى لا تفسر بالفرضية الثانية . كما أن (فرضية لابلاس) فى تشكل النظام الشمسى ليس بالشىء الذى يعتمد عليه . على أنها لا تضبط بحسابات ودساتير ، وقد جرحت وعُدلت كثيراً . وقد جاء فى القرآن الكريم :

« أولم يرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » (سورة الأنبياء : ٣١) . ويقول الله في مكان آخر : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » (سورة الأنبياء : ١٠٤) . على أن ليس من وظائف الدين تعليم الناس علم طبقات الأرض أو علم الأحياء ، بل وظيفته اعطاء الدساتير المؤدية الى تزكية النفس وتقريب الفرد الى الساحة القدسية الإلهية وايجاد سعادة الدارين . وإن ما جاء في القرآن الكريم من الآيات التكوينية اشارة الى خلاصة ما يمكن أن يصل اليه العلماء المحققون وتبيان لعظمته وجليل قدرته تبارك وتعالى . يقول جل وعلا في سورة نوح (ع) : « ألم تَروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ، ويخرجكم إخراجا » .

ولا مراء أن مشاهدات محدودة في ناحية خاصة أو ناحيتين أو ثلاث لا توجب حكماً كلياً علمياً . كقولنا : اذا أضيفت أشياء متساوية الى أخرى متساوية فالنتائج متساوية ، أو مجموع زوايا مثلث يساوى قائمتين . وكل من تتبع العلوم العالية يرى ضعف العلماء وعجزهم عن استقصاء حقائق كثيرة لا تعد ولا تحصى ، ويرى اعترافهم بجهلهم أكثر من اعتزازهم بعلمهم . هذا أفلاطون يقول : علمت أني لا أعلم شيئا . وهذا نيوتون يقول : إن علمي بحقائق هذا الكون أقل بكثير من علم طفل صغير جالس على شاطىء بحر يلعب بالحصى بما في أعماق هذا البحر . كيف لا يكون كذلك وان الخواص التي أودعها الله في تركيب هذا الكون ونظامه تكاد لا تتناهى لقوله تعالى في سورة الكهف : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » . وان كلمات الله هي الخواص والنظم والدساتير المودعة في مطاوى هذا الكون : تلك النظم التي تربط الكون

بعضه ببعض : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير » (سورة الملك : ٤) .

نعم ، نرى أن كثيراً من دساتير الفيزياء العالية ناقصة وكثيراً من الإتمامات (Integration) تكاد تكون لغزاً من الألغاز لا يتاح لأحد أن يحلها . ونرى أن العالم الفلانى قد وضع دستوراً لمحاسبة سرعة الصوت مثلاً فى وسط معلوم وقد خطأه العالم الآخر وأصلح دستوره ، ثم أتى آخر وأصلح خطأ الثانى . ثم إن التخمين ضارب أطنابه فى قياس الحوادث والتجارب ولا تكاد ترى نتيجة من النتائج بعدد حقيقى خالٍ عن التقريب . ترى يعطيك الفيزياوى دستوراً لاختلاف الضغط بنسبة الارتفاع الى حد معين ثم يقف ويعطيك معلومات مضطربة تقريبية لارتفاعات أعلى ثم يسكت اذا تجاوز الإرتفاع حداً معيناً .

فالعلوم الثابتة التى لا مراء فيها والتى يعتمد عليها هى العلوم الرياضية (Mathématiques pures) كالحساب النظرى والهندسة النظرية بأنواعها والهندسة التحليلية والحساب الأعلى والجبر العالى والتحليل الرياضى لأنها مجردة عن المادة . وسنعلم أن لا تنافى بين القسم الصحيح من العلوم غير الثابتة وما جاء فى الدين الإسلامى تبياناً لعظمة الله تبارك وتعالى وجليل قدرته .

لا تنافى بين الدين والعلم الصحيح

إن العلوم الثابتة التى لا مراء فيها هى العلوم الرياضية البحتة كالحساب النظرى والهندسة التحليلية والتحليل الرياضى (Analyse Mathématique) . وعندما تتدخل فيها المادة تخرج عن كونها علماً قطعياً لا يشك فيه : كالميكانيك الرياضى والفيزياء والفلك ، وكذا الحال فى علم النبات والحيوان وطبقات الأرض . لاسيما (الفرضيات) : (Hypothèses) أو الموضوعات ، فإنها ليست حقائق ناصعة وإنما مقترحات يقترحها العالم ظاناً أنها أقرب الى الواقع من احتمالات أخرى ، والاحتمال ليس من العلم الحقيقى فى شىء . ثم إن فساد (الفرضيات ، أو العنديات) والتخمين يتجليان للإنسان فى العلوم التربوية والاجتماعية والنفسية والفلسفية والقانونية أكثر من بقية العلوم . وحقاً انها علوم غير ثابتة ، لأنها تبتنى على (فرضية) واضعها فما رآه حسناً أقرّه . وان البيئة كافية لأثبات مايدعيه ! لسيطرة المادية على النفوس حين أن مدعاه شىء كلى عام ، يتجاوز البيئة التى شاهد فيها الحادثة . حتى آل الأمر الى أن العالم الاجتماعى يقول بالقطع والبت فى نظرياته وأفكاره . وهذا ما يعبر عنه عندهم بـ (Déterminisme) . وقد يبالغ العالم النفسى فيظن انه وصل الى حقائق النفس فيضع منحنيات تقريبية وجداول مشوشة واحصاءاً ناقصاً تقريبيا . حين أن كل ما يعلمه إنما هو فى ظواهر النفس ، وذاك بشكل ناقص مبتور . والدليل على ذلك تضارب الآراء فى مسألة واحدة فى وقت واحد .

والنقطة الرئيسة فى وضع النظريات : (الفرضيات) أو (العنديات) سواء فى التربية والاجتماع وغيرهما هى البلوغ الى تحقيق غاية قد تكون غير مشروعة وغير صحيحة ، فيؤلف العالم أو المتظاهر بالعلم الكتب الضخام ويفسر جميع الحوادث النفسية والاجتماعية تفسيراً يحقق تلك الغاية أو النظرية . فإن

كان مادياً ، فان المادة تتدفق خلال أسطره ، حين أن الأصل فاسد منتقض مردود . وإن كان ملحداً يترشح من نظرياته ونتائج تفكراته الإلحاد ! والمرجع هنا أيضا تلك المادية المدلهمة الظلماء بشكل خدّاع .

إن بعض الشبيبة ليندهش عندما يرى تزاحم الكتب وتراكم المجلات ، فلا يكاد يجعل لنفسه بين الآراء رأياً أو يتصور لنفسه بين الأوزان الخيالية وزنا . فيفند كل رأى يخالف نظريات (كلاپارد) مثلاً أو (بنتهام) أو (شوپنهاور) أو (دوركايم) أو لا سمح الله (بوخنر) المادى المعروف . واذا طالع الكتب الدينية ظن أن هناك تضاربا بينها وبين العلم الحقيقى الناصع المجرد عن كل شائبة ، فيعمد الى السخرية والاستهزاء بالمتدينين ويحكم بأنهم خرافيون بعيدون عن العلم . حين أنه لا تضارب ولا منافاة بين القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة وبين العلم الصحيح الثابت ، لا النظريات : (الفرضيات) المضطربة والأهواء الباطلة التى ليست من العلم الحقيقى فى شىء .

كان يقول الفلكى الى وقت قريب : إن الشمس ثابتة وكان القرآن الكريم ناطقاً قبل مئات السنين بهذه الآية المنيفة : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » . وكان الطالب فى المدارس المتوسطة يبقى حائراً لا يعلم هل يأخذ بقول الفلكى فيقول بسكون الشمس ، أم بقول الله فى كتابه الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ، فيقول بحركتها . فإن كان مؤمنا حقا خطأ نفسه فى فهم القرآن الكريم وحاول التأويل . ولكن الحقائق التى بينها الله إظهاراً لعظمته وجليل قدرته لا تماشى أهواء العلماء وأخطاءهم ، إنها ثابتة لا تغير فيها . نعم ، كان هذا التبلبل سائداً الى زمن قريب حتى تقدمت العلوم الرياضيـــة بفضل ما ألهم الله تعالى المشتغلين فى العلوم الرياضية العاليـــة . فتقدم الميكانيك الرياضى والسماوى (Mécanique Céleste) وأثبت الفلكيون أن الشمس متحركة بحركة خاصة بها وتجرى لمستقرلها بسرعة (٧٢٠٠٠) كيلومتر فى الساعة على شكل

حلزونى نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع . ووصلوا الى الحقيقة التى نطق بها القرآن فى دور جاهلى ووسط جاهلى حيث لا فيزياء ولا فلك ولا ميكانيك .

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة فاطر : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، ان الله كان حليما غفورا » . أى ما أمسكهما من أحد من بعده . هذه الآية الشريفة تدل دلالة واضحة على أن النجوم ثوابتها وسياراتها معلقة وسابحة فى الفضاء ويجذب بعضها البعض بإرادته تعالى حسب دساتير متقنة رياضية أودعها الله فيها وهو الذى يمسكها من أن تزول وتنحرف عن مواضعها ومسيرها . فإن زالت وتخطت - لا سمح الله - فليس لأحد بعد الله تعالى أن يمسكها عن الاضطراب والتصادم والتدهور . ولولا قدرته وإرادته جلّ وعلا لما كان للجسم الجامد الصامت أن يتحرك بانتظام ودستور رياضى فى مدار خاص محدود . وقد وقف على القليل منها الفلكيون بعد عناء شديد . وقد كشف اسحق نيوتون دستور الجاذبية العامة وكشفت بواسطته سيارة مجهولة من قبل عالمين فى وقت واحد ولكنه عجز هو ومَن جاء بعده عن تفهم حقيقة الجاذبية ولا يزال العلم عاجزاً عن فهم حقيقة الجاذبية وحقيقة الكهرباء والضوء والنفس الإنسانية وكل شىء قوّانى (منسوب الى القوة) وسيبقى عاجزاً الى الأبد ما دامت هذه النفس مرتبطة بالبدن . فقد جاء فى الحديث : (الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا) . ذلك لأنه لا يمكن قياس ما هو غير مادى بمقاييس مادية . كما لا يمكن قياس طول الغرفة بالغرام وإن بعد التشبيه . وإن العلم الحديث لا يعمل إلا فى كشف خواص المادة والتأثرات المتقابلة المادية بين المواد . وليس له أن يتجاوز حدود المادة وأن يتغلغل فى ما وراء الطبيعة ما دام يعمل فى الطبيعة نفسها وبمقاييس طبيعية مادية : (غرام ، سانتيمتر ، ثانية) . فتكلم العالم المادى فى ما وراء الطبيعة سفسطة وهراء .

وغريب أن بعض شبابنا الذين يرون لزوم الإختصاص فى كل شعبة من

شعب الطب أو الهندسة مثلاً ، يفوتهم أن يعترفوا اختصاصاً للعلوم الدينية أو علوم ما وراء الطبيعة . فيتقبلون ما يمليه عليهم أستاذ الكيمياء مثلاً (من العلوم المادية البحتة) فى ما يتعلق بتكامل النفس وأمور مابعد الموت ومنازل الآخرة . إن شبابنا يرى أن أستاذه يبرهن بمعادلات متقنة على صحة دستورٍ فى الفيزياء أو الفلك مثلا ، فتزداد ثقته به ويراه حجة فى ما يقول حتى فى شىء لم يشتغل فيه ولم يتصدَّ له ! بل بعكس ذلك أخذ يتسافل فيه ويبتعد عنه كل البعد . إنه يصدّق أستاذه حين يستهزئ بالمقدسات الدينية وبما أخبر به الأنبياء عليهم السلام عن مراحل الآخرة . ذلك لأن معتمده أى أستاذه فى الكيمياء مثلاً أملى عليه فكرة مغلوطة عن المقدسات وما بعد الموت فصار يوافقه على استهزائه وجحوده . على أنى أعتقد أن كلمات الاستاذ فى ما وراء الطبيعة (أى فى ما لم يختص فيه) وفى الأمور الدينيـــة لا تؤثر فى الطالب كثيراً ما لم تكن نفس هذا الطالب مستعدة لقبول هذه الأفكار الفاسدة الملوثة . ولا تكون النفس مستعدة للقبول ما لم تتلوث بالمعاصى والآثام والأجرام وبما يدخل فى جوف الانسان من مآكل محرمة مغصوبة أو مشتبهة . وتفصيل ذلك يطول .

على أن للمحيط أثراً فعالاً فى التوجيه التكاملى أو التسافلى . فالنفوس تؤثر بعضها فى بعض ، كتأثير المجال الكهربائى فى المجال المغناطيسى . يقول الله تعالى : « يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فإياىَ فاعبدونِ » . أى هاجروا الى أرض تتيسر فيها العبادة . وفى الحديث : « عاشروا من يذكركم الله » . فلو كانت هيأة المدرسة من مدير ومدرسين وكتاب وخدم متدينين عاملين بأوامر الدين ، منتهين عما نهى الدين لألفيت الطلاب على غير ما هم عليه الآن .

لا تنافي بين الدين والعلم الحديث

دين الإسلام دين الفطرة ، لذلك يتوصل الإنسان الى التوحيد أي الى لباب الإسلام وعصارته بالفطرة ، دون أن يحتاج الى معلم أو مرشد ، إن لم يدنس الفطرة بما يلوث النفس الإنسانية من معاصيَ وآثام وظلم وبغي ولؤم ونفاق وغيبة ونميمة وكل ما حرم الله تعالى على لسان أنبيائه (ع) وتأباه الفطرة الإنسانية غير المدسوسة منها . وليست الفطرة إلا من مُعطيات العقل ، كما أن العلم حديثه وقديمه من مُعطيات العقل أيضاً . إذن وجب أن لا يكون تنافٍ بين العلم الحديث والدين ، اذا كان هذا العلم الحديث قد بلغ من الصحة والتأييد ما يجعله علماً حقيقياً لا غبار عليه وقد خرج عن مرحلة الظن والشكوك . فالفرضيات التي توضع لتفسير بعض الحوادث الفيزياوية أو بعض المشاهدات في عالم الطبيعة ليست من العلم الحقيقي في شيء . لذلك نراها تتغير من حين لآخر وتعدل . فالفرضيات تعيش مدة من الزمن ما دامت مفسرة لجملة من الحوادث . فإذا ما شوهدت حادثة لا تتفق والنظرية الموضوعة عدل العالم الطبيعي الى وضع نظرية أخرى تفسر الحوادث السابقة واللاحقة . وقد خلط بعض المتعلمين بين الفرضية والعلم الصحيح الثابت الذي لا تبديل له ولا تغيير : كالرياضيات البحتة . فقالوا : إن هناك تنافياً بين ما جاء في الدين ومعطيات العلم الحديث . فاتهموا الدين ووصموه بما هو منه براء . إن الله تعالى يقول : « أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب » .

فإن الله عدَّ الذين يُحيون الليل بالعبادة ساجدين راكعين يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم (وهم بين الخوف والرجاء) من العلماء وأولى الألباب .

إذن ، ما هو ذلك العلم الذى يميز الإنسان عن الجاهل ويجعله فى عداد العلماء ؟ هو العلم بعظمة الله وجليل قدرته ، هو ذلك العلم الذى يؤثر فى النفس فتؤثر فى الجوارح وتنشطها للعبادة . هو ذلك العلم الذى يحمل النفس على الأعمال الصالحة وكل ما من شأنه التطهير والتزكية . هو ذلك العلم الذى ينمى الفرد ويكمله حتى يكون أعلى منزلة من الملائكة . فالعلم الحديث الذى لا يتجاوز سمـــاء الأرض ولا يبلغ بصاحبه الى معرفة الله تعالى وتعظيمه وتقديسه لا يطهر النفس ولا يزكيها ، إنه علمٌ ضيقٌ ناقص مبتور . علمٌ مادىٌّ حالك ، بل وبال على البشرية جمعاء إن لم يستعمل فى صلاح النفس وتكاملها . وإن قول الله تعالى : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » لا تفسر إلا على ما ذكر . أى أن العلماء الذين أدى بهم علمهم الى توحيد الله وطاعته وتقديسه واتباع شرائعه هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه . فالعلم الناقص أى العلم الذى لا يبلغ بالفرد الى المعارف الإلهية لا يورث الخشية . وكم رأينا من علماء فى الطبيعة والرياضيات وغيرها ملاحدة جاحدين يرتكبون المعاصى ولا يخشون الله . ذلك لأن علمهم مادى لم يتجاوز حدود المادة . فلم يسمُ بهم الى ما وراء الطبيعة .

إن الله تعالى لم ينزل القرآن ليعلم الناس الفلك وعلم الحيوان وعلم النبات والرياضيـات وغيرها . ذلك لأن العلوم لا تتناهى ، وكلما كشف للعالم شىء بفضل الله أو بطريق الصدفة بفضله أيضاً شاهد وراء ذلك أودية من المجاهيل . إن الله تعالى يقول : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » وإنما أنزل الله تعالى القرآن ليهدى الناس الى الطرق المؤدية الى تكميل النفس والبلوغ الى معرفة الله بدرجة تكاملها . ذلك لأن الكامل على الإطلاق : وهو الله لا يريد أن يرى فى ما خلق شيئاً ناقصاً . وقد سنَّ للإنسان الناقص سنن الكمال على لسان أنبيائه (ع) . وإن أكملها وأسماها سنة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله

وسلم . « ولكم فى رسول الله أسوة حسنة » . وما جاء فى القرآن الكريم من آيات كونية كقوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حى » إنما هى عصارات العلوم وخلاصاتها ، يصل اليها العلم الحاضر كلما نما وتكامل .

كان العلم الحديث الى زمن قريب يقول : بسكون الشمس وان السيارات تدور حولها . وكان القرآن الكريم ينادى منذ الف وأربعمائة سنة تقريباً : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم »[1] . حتى اذا تكاملت المجاهر وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها (الميكانيك الرياضى) (Mécanique Rationnelle) اعترف العلم الحديث بحركة الشمس وقال : إنها تجرى بسرعة (٧٢٠٠٠) كيلومتر فى الساعة على شكل حلزونى نحو نجمة تسمى بالنسر الواقع . أى أنها تقطع مع سياراتها المنجذبة اليها فى الثانية ٢٠ كيلومتراً ولذلك يتغير مدار الأرض من حين لآخر فى الفضاء ، والمحور هو الخط الواصل بين الشمس والنسر الواقع .

واعترف العلم الحديث أن ليس هناك شيء ساكن وأن الثوابت (من النجوم) بالرغم مما اصطلح عليه ، متحركة وتتحرك فى الفضاء بسرعة معينة . وأن سرعة البعض منها تبلغ مئات الكيلومترات فى الثانية وان الكواكب لبعدها عنا لا نشاهد لها حركة . ولكن الشكل الظاهرى أو الصورة الظاهرية للسماء تتغير خلال كل مائة سنة . وهذا مما يدل على تأخر العلوم الطبيعية والرياضية عن الحقائق القرآنية .

فلا ينبغى أن يتسرع الشاب المتعلم فى حكمه على الدين الإسلامى بقوله : إن بينه وبين مُعطيات العلم الحديث تنافياً . ذلك لأن العلم الحديث ما هو إلا خصائص وقوانين أودعها الله فى مخلوقاته فى هذا العالم . وليس الدين إلا قوانين ونظماً أرسلها الله تعالى رحمة للعالمين . فالمنبع واحد والمبدأ واحد ،

---

(١) انما كررت هذه الآية لأهميتها في تحقيق الموضوع .

ولا يُعقل التنافى مع وحدة المنبع الفياض . ثم إنا إن شاهدنا بعض الاختلاف بين بعض المظاهر الطبيعية والحقائق الدينية ما علينا إلا أن نتهم المشتغل فى علم الطبيعة فى استنتاجه أو قلة عدد التجارب التى قام بها أو عدم الإحاطة بتمام الموضوع . ذلك لأن مشاهدة عدد قليل من النماذج فى ظروف خاصة لا تعطى حكما ثابتا صحيحا . فإذا كانت العلوم المستندة على الرياضيات تتغير وتفند من حين لآخر فكيف بالمشاهدات الطبيعية وما يستنتج عنها .

ولنعمَ ما ناقش به عالم دينى فيلسوفا كان يخالفه فى العقيدة والمبنى . كان يدعى هذا الفيلسوف : أنه نبى وأن كل ما يقوله وحىٌ يوحى اليه ، وأن كل عالم أو فيلسوف نبىٌ أيضا ومايقوله وحىٌ يوحى اليه !.. فأجابه هذا العالم الدينى قائلا : إن كان كل ما تقوله أنت أيها الفيلسوف وحياً يوحى اليك ، وان كل ما أقوله أنا أيضا وحىٌ يوحى إلىّ ، والمبدأ واحد . إذن فماذا الاختلاف بينى وبينك ؟ فلم يحر الفيلسوف جوابا .

ذلك لأن النفوس مختلفة . منها ما هى طاهرة بعيدة عن الخبائث والأدناس ومنها ما هى ملوثة بفسوق سابقة وملذات محرمة : « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون » . ولكل من هذه النفوس رشحات ومظاهر ومُعطيات . فلا يترشح من النفس الخبيثة إلا الخبث والإلحاد ، ففلسفتها خبيثة مضلة . ولا يترشح من النفس الزكية إلا الخير والصلاح والهدى ، ففلسفتها نقية هادية . لذلك أوجب العلماء العصمة للأنبياء (ص) وقالوا بوجوب عصمتهم وطهارتهم عن الذنوب صغائرها وكبائرها .

فالعلم الذى يوصل الانسان الى المعارف الإلهية ويؤدى الى تكامله الى حيث لا يعلمه إلا الله هو ذلك العلم الذى يصح أن يقال عنه انه من الدين ومن مكملات الدين . فلا يرى العالم ، الذى لم يدنس عقله بالموبقات والجرائم ولم يلوث الفطرة بالفسوق والكبائر ، تنافياً بين العلم

الصحيح (ذلك الذى قد خرج من مرحلة الظنون والشكوك) وبين الدين . بل يراه من الدين . لأنه يذكر الانسان بعظمة خالقه . « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار » . « فالعلم نور يقذفه الله فى قلب من يشاء » ولا يقذف هذا النوع من العلم إلا فى قلب أو نفس أخذت تتطهر بعبادات وأعمال صالحات وأخلاق إسلامية رفيعة وخشوع وخضوع لله تعالى وذكر الله بصورة دائمة ، حتى صارت قمينة لإفاضات ربانية ونفحات قدسية . وقد جاء فى الحديث : « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » . والنفحات هى الإفاضات المعنوية . ونسأل الله تعالى أن يمنّ علينا بتوفيق العبودية وإفاضات نخرج بها عن حضيض المادة الى قدسية تجعلنا أهلاً لتقديسه وتسبيحه .

رأس الحكمة مخافة الله

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما أهدى المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة تزيده هدى وترده عن ردى » . أريد بمقالى هذا أن أزيل بفضل الله بعض الشبهات عن بعض الشبيبة المثقفة عليهم يرجعون الى تعاليم الدين الاسلامى فيعملون بموجبها حرفياً ولا يكتفون باسم الاسلام ، فإن « الاسم » لا يغنى عن الواقع شيئا ،

عندما كنت فى الجامعة اعترض أحد طلاب فرع الفلسفة على هذا الحديث : « رأس الحكمة مخافة الله » . فقال : كان الأولى أن يقال : رأس الحكمة محبة الله . ولم يرده أحد . وقد فاته أن الحكمة ومعرفة أسرار الكون لا تتجلى إلا فى قلوب قد طهرت وتزكت بترك المعاصى واجتناب المحرمات وبعبادات وأعمال صالحات . ولا تترك المعاصى ولا تجتنب المحرمات إلا بخوف الله تبارك وتعالى . لا تترك المعاصى إلا بوازع نفسى وهو خشية الله . فالنفس الملوثة بالذنوب والآثام ، النفس المدلهمة بظلمات المعاصى والإجرام لا ترى الى الحكمة سبيلا ولا تفتح لها أبواب أسرار الكون . لقوله تعالى : « ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذن أبدا » .

فترون ان من ذكّر بآيات ربه ، بعد ارسال الرسل سلام الله عليهم أجمعين ، وأعرض عنها ولم يؤمن لما اقترفت يداه من الذنوب ، تسدّ عليه أبواب الهداية وتغلق عليه أبواب الرحمة فيكون بينه وبين الحق حجاب حاجز يمنعه عن رؤية الحق فلا يرى الحق وينسى نفسه ، وقد قال تعالى :

« نسوا الله فأنساهم أنفسهم » . فلا يفكر فى مصيرها وتهذيبها وتوجيهها الى الغاية التى خلقت لأجلها ، فيكون من الأخسرين أعمالا . وقال تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » . فالله تبارك وتعالى يسدّ أبواب الحكمة على من أتم عليه الحجة ولم ينتبه وتوغل فى الذنوب وتدنس بالموبقات ، بقوله : « إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » . أى إنا جعلنا على قلوب الذين عصوا الله ولم يتذكروا بما ذكرهم به أغطية وأستاراً تمنعهم عن أن يفقهوا الدين ويقفوا على أسرار الكون وحكمة الوجود . فيعترضون ويتذمرون وينكرون ويتفلسفون . وليس هذا الاعتراض والتذمر والإنكار والتفلسف إلا رشحات نفس تلوثت بالذنوب ومظاهر قلب عمى عن رؤية الحق والواقع . فإنه تعالى يقول : « إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . وجاء فى الحديث : « إن أعمى العمى عمى القلب » . ونستجير بالله من ذلك .

فلا يمكن أن تتجلى الحكمة فى النفس الانسانية إلا اذا طهرت بالعبادة وترك المعاصى والتزكية والتجلية والتحلية . وهذه لا تحصل إلا بعد أن يخاف الانسان ربه ويخشاه فيؤاخذ نفسه على كل صغيرة وكبيرة ، ويلومها ويؤنبها ويستغفر الله منها بأنواع الاستغفار .

إن الله تعالى يقسم بالنفس اللوامة تقديراً لها : بقوله تعالى : « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة » . فإذا لام الانسان نفسه وكفر عن سيئاته أخذت نفسه تتزكى وتتطهر شيئاً فشيئاً بنتيجة خوفه من الله تبارك وتعالى ، فتنفتح عليه إذ ذاك أبواب الحكمة وتطمئن نفسه وتحلّ أمامه كل ما يختلج فى نفسه من اعتراضات وتنقشع عنه الشكوك والريب والأوهام .

إن الصادق (ع) يقول : « ليس العلم فى السماء فتستنزلوه أو فى الأرض

فتستخرجوه ، وإنما هو كامن فى جبلتكم ، تخلقوا بأخلاق الروحانيين يكشف لكم » . ومن كان فى نفسه شك فيما أقول فليعمد الى التجربة . فإن المريض بأمراض بدنية يطيع الطبيب فيما يقول ويعمل حسب وصفة الطبيب فيبرأ من مرضه . فمن كان يرتاب فى ما أقول ، فليدرس الدين الإسلامى ليقف على المناهى والمحرمات والمباحات ، ليقف على الآداب الاسلامية ، ليطلع على العبادات التى بها تزكو النفس ، ثم يعمل مستعيناً بالله حسب علمه ليرى بعد زمن قليل كيف تتجلى فى نفسه الحكمة وكيف يتقرب يوماً بعد يوم الى الله تعالى وكيف يدخل فى عالم جديد ، عالم فرح واطمئنان ، عالم كله نور وصفاء .

إن رسول الله (ص) قرأ على ثلة من الشبان سورة الزمر التى فيها : « وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً حتى اذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبوابَ جهنمَ خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين » . « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعدَه وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين » . فبكوا خوفاً من الله تبارك وتعالى ، فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالجنة .

يقول الله تبارك وتعالى فى قرآنه الكريم : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » . فلماذا نرى علماء لا يخشون الله تبارك وتعالى ويرتكبون أنواع المعاصى . نرى علماء فى الرياضيات العالية ، فى الكيمياء العالية ، فى الفلك العالى ، فى الفيزياء العالية ، فى الفلسفة بأنواعها ، فى التاريخ والجغرافية

وفى بقية العلوم يعصون الله تبارك وتعالى ولا يبالون فرحين ، كأن ليس وراءهم حساب . فليس إذن مراد الله من كلمة (العلماء) هذا العلم المادى الذى يحصل بعملية تفكير تشبه عمل النجار الذى اعتادت يداه فن النجارة بنتيجة الممارسة والتمرين . وإنما مراد الله من هذا العلم : هو العلم الذى يحصل نتيجة خشية الله ونتيجة خوف الله تبارك وتعالى وأعمال تترتب على هذه الخشية وذاك الخوف . وهذا العلم هو الحكمة التى مدحها الله تعالى فى قرآنه الكريم بقوله : « يؤتى الحكمة من يشاء ومَن يؤتَ الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذَّكر إلا أولو الألباب » .

وقد عرَّف الله الحكمة بقوله : « ولقد آتينا لقمان الحكمة : أن اشكر لله » . فأعلى مراتب الحكمة شكر المنعم وهو بابها . وهذا الشكر يتجلى فى جميع العبادات والأعمال الصالحة . فكلها مظهر من مظاهر الشكر ، ولا يحصل ذلك إلا بعد خوف البارى جل جلاله . ومن ثم تتجلى الحكمة وتطمئن النفس . إذن : « رأس الحكمة مخافة الله » .

يقول الله تبارك وتعالى : « ومن يطع الله ورسوله ويخشَ الله ويتقهِ فأولئك هم الفائزون » . (سورة النور : ٥٣) . وفى موضع آخر : « فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى » . فعلق التنبه والهداية والاستبصار على الخوف والخشية بقوله : « سيذكر من يخشى » . وهل الحكمة غير الهداية والاستبصار .

ويمدح الله فى مكان آخر الذين يخشونه ويخافونه بقوله : « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوءَ العذاب » . ثم يبشرهم تبارك وتعالى بقوله : « أولئك لهم عقبى الدار ، جناتُ عدن يدخلونها ومَن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار » .

وعن اسحاق بن عمار قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : « يا اسحاق خف الله كأنك تراه . وإن كنت لا تراه فإنه يراك ، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت ، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين اليك » .

وعنه عليه السلام ، ان النبي (ص) قال : « يا أيها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم . ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبدُ المؤمن من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، وفى الشبيبة قبل الكبر ، وفى الحياة قبل الممات . فوالذى نفس محمد بيده ، ما بعد الدنيا من مستعتب ومابعدها من دار إلا الجنة أو النار » .

فمن أراد أن تفتح عليه أبواب الحكمة وأن يتفهم الدين تفهماً يؤدى به الى تكميل نفسه ليكون بشراً على شكل ملك أو ملكا بصورة انسان ، فليس عليه إلا أن يخاف الله جل جلاله بترك المحرمات جميعاً وأن يكون مسلماً حقاً ، عاملاً بكل ما يأمر به الدين المبين ، دين العقل والتفكير الصحيح .

أثر الخشية فى تكامل النفس

إن خشية الله جل وعلا هى خير صفة يتحلى بها الانسان فتصرفه عن الولوج فيما حرَّم الله تعالى . فهى رادع نفسى يمنع الفرد عن ميول النفس الأمارة بالسوء . وإن هذا الرادع ليكون مع الانسان فى خلواته وحيث لا يعلم بسرائره إلا الله . فهو يمنعه عن الموبقات والمدنسات وكل ما يؤدى الى تسافل النفس .

إن الله تبارك وتعالى قد أودع هذه الخشية فى الانسان بصورة فطرية بقوله : « وهديناه النجدين » أى طريق الخير والشر ، وقوله فى سورة الشمس : « فألهمها فجورها وتقواها » أى ألهم الله تعالى الانسان طرقَ الفجور وسُبل التقوى .

وقد أتم الله تعالى على عباده الحجة بهذا الإلهام وفتح لهم بعد ذلك باب الاستغفار والتوبة والإنابة ليستغفروا ويتوبوا . ألا ترى أن الانسان عند محاولته أول كذبة أو أول افتراء أو أول سرقة أو أول ظلم أو أول دعٍّ لليتيم تشمئز روحه ويحتبس طبعه . فوازع باطنى يلومه ومؤنب داخلى يؤنبه ويوبخه .

ثم إنه اذا تمادى فى الفجور والفسوق والمعاصى خفَّ أثر ذلك الوازع شيئاً فشيئا حتى ينطفىء ويزول أثره . فيقسو القلب إذ ذاك وأعنى به النفس الانسانية ، فتكون كالحجارة أو أشد قسوة . « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ! » . وما قدمناه تفسير لقوله تعالى : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

قال أنس بن مالك : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال يا رسول الله ، أشكو اليك قسوةَ قلبي ، فقال له : « اطلع الى القبور واعتبر بيوم النشور » . لذلك يجب على المربين أن ينبهوا الطلاب منذ نعومة أظفارهم بعواقب المعاصي الوخيمة وأن يحذروهم عنها أيما تحذير . وأن يبينوا جسامة كل من المعاصي عند الله والحدود التي قررها الله تعالى لكل من المعاصي والجرائم ، لئلا يرتكبوا المعاصي أبداً . وأن يتجنبوا المعصية الأولى اجتناباً لا مزيد عليه . فإنها مفتاح المعاصي والسبب الرئيس للولوج في معاصيَ أخرى . يقول الله تبارك وتعالى في مدح الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين : « الذين يبلغون رسالاتِ الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ، وكفى بالله حسيبا » .

فالخشية صفة الأنبياء عليهم السلام وبها امتازوا عن سائر الخلق ، لأنها طريق الحكمة وطريق الوصول الى الحق والى الكمال المنشود .

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الزمر : أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » . فجعل الله تبارك وتعالى الخشية والحذر باب العلم بالحقائق بقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . وأراد بالانسان أن يكون بين الخوف والرجاء . فهو خير ميزان يبعث على العمل الصالح ويبعد الانسان عن المناهي والموبقات . فقد جاء في الحديث تنويهاً بالعبد الصالح : « لو وُزن خوفُ العبد ورجاؤه لم يرجح أحدهما وإن عظم الخوف كان أدعى الى السلام »[1] .

وفي الحديث : « إن الله أنزل في بعض كتبه : وعزتي وجلالي لا أجمع

---

(١) قد أكرر الآية أو الحديث لأهمية هناك أو مناسبة . ولا شك أن في هذا التكرار تأثيراً في النفس .

لعبدى المؤمن بين خوفين وأمنين ، اذا خافنى فى الدنيا أمنته فى الآخرة ، واذا أمننى فى الدنيا أخفته يومَ القيامة » . وقوله تعالى فى امتنانه على ابراهيم وذريته عليهم السلام : « إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » . وهى ذكر الآخرة .

وقال الله تعالى : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ ، مَن خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » . فصفاء القلب وإنابته وتزكيته تتوقف على الخشية . وقوله تعالى أيضا : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى » . فعلق كمال النفس والفوز بالجنة على مخافته تعالى . وقال سبحانه عن هابيل يروى قوله لأخيه : « إنى أخاف الله رب العالمين » . وقال تعالى فى مدح قوم : « يخافون ربهم من فوقهم » . وقال : « وخافونِ إن كنتم مؤمنين » . وقال : « وإياى فارهبون » . وقال أيضاً : « ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً » .

وقال رجل لرسول الله (ص) فى قول الله تعالى : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلة أنهم الى ربهم راجعون . يعنى بذلك : الرجل الذى يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو خائف ؟ قال : لا ، ولكن الرجل الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو مع ذلك يخاف أن لا يقبل منه » . وقد جاء فى الحديث : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً ، وإنها لتجتمع على المرء فتهلكه » . وقال لقمان (ع) لابنه : « يا بنى ، خفِ الله خوفا لو أتيته بعمل الثقلين خفت أن يعذبك ، وارجه رجاءاً لو أتيته بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر لك » .

وقال الصادق عليه السلام : « بينما كان رسول الله ذات يوم قاعداً إذ نزل جبرئيل كئيباً حزينا ، فقال له رسول الله (ص) : يا أخى جبرئيل ، مالى أراك كئيباً حزينا ؟ فقال كيف لا أكون كذلك وقد وضعت منافيخ

جهنم اليوم . فقال : وما منافيخ جهنم ؟ قال : إن الله أمر بالنار فأوقد عليها الف عام حتى احمرّت ، ثم أوقد عليها الف عام حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها الف غام حتى اسودّت . فهى سوداء مظلمة ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فلو أن حلقة من السلسلة التى طولها سبعون ذراعا وضعت على الجبال لذابت من حرها ، ولو أن قطرة من الزقوم والضريع قطرت فى شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها . فبكى رسول الله (ص) وبكى جبرئيل (ع) . فأوحى الله اليهما قد أمنتكما من أن تذنبا ذنباً تستحقان به النار ، ولكن هكذا كونا » .

وروى أن ابراهيم (ع) كان يسمع منه أزيزٌ كأزيز المرجل من خوف الله تعالى فى صدره . وكان سيدنا رسول الله (ص) كذلك . وكان أمير المؤمنين على عليه السلام اذا قال : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض » يتغير وجهه ويصفرّ لونه فيعرف ذلك فى وجهه من خيفة الله تعالى . وقد أعتق الف مملوك من كد يمينه . وكان يغرس النخل ويبيعها ويشترى بثمنها العبيد ويعتقهم ، ويعطيهم مع ذلك ما يغنيهم عن الناس . وأخبره بعض مواليه أنه قد نبع فى بستانه عين ينبع منها الماء مثل عنق البعير فقال : « بشر الوارث ، بشر الوارث ، بشر الوارث . ثم أحضر شهوداً فأشهدهم أنه وقفها فى سبيل الله حتى يرث الأرض ومن عليها ، وقال : إنما فعلت ذلك ليصرف الله عن وجهى النار » .

وشاهد رجل علياً عليه السلام وهو يناجى ربه . واذا به أضحى كالخشبة اليابسة . فجاء مسرعا الى بيت فاطمة عليها السلام يخبرها بأن بعلها قد مات . فقالت : فى أية حالة رأيته ؟ قال رأيته : يعبد ربه . قالت : إنه يغمى عليه كل ليلة مرات من خشية الله تعالى .

وجاء فى الحديث : « حرمت النار على عين بكت من خشية الله » . وعن أبى امامة ، قال : قال النبى (ص) : « ما يقطر فى الأرض قطرة أحب الى

الله من قطرة دمع فى سواد الليل من خشية الله لا يراه أحد إلا الله عز وجل » . وعنه عليه السلام : « اذا اقشعرّ قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحاتُّ من الشجر ورقها » .

وان فاطمة سلام الله عليها أوصت بأن تدفن معها قارورة كانت تجمع فيها دموعها من خشية الله جوف الليل . وعن الصادق (ع) قال : حدثنى أبى عن أبيه : « أن الحسن بن على بن أبى طالب عليهما السلام كان أعبد الناس فى زمانه وأزهدهم وأفضلهم . وكان اذا حج حج ماشياً وربما مشى حافياً ، وكان اذا ذكر الموت بكى ، واذا ذكر القبر بكى ، واذا ذكر البعث والنشور بكى ، واذا ذكر العرض على الله تعالى ذكرُه شهق شهقة يغشى عليه منها . وكان اذا قام فى صلوته ترتعد فرائصه بين يدى ربه عز وجل ، وكان اذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم وسأل الله الجنة وتعوذ بالله من النار » . كل ذلك مع عصمتهم وطهارتهم سلام الله عليهم بنص من الكتاب والسنة .

فنسأل الله تعالى توفيق الخشية والخيفة ، واجتناب الآثام صغائرها وكبائرها ، ونستعيذ به من الركون الى الشهوات والأمانى ، فكم من أناس خرجوا من هذه الدنيا وهم يمنّون أنفسهم بالاستغفار والإنفاق فى سبيل الله ، فلم تتح لهم الفرص وألهتهم شهواتهم ، وأبعدتهم عن توفيق الملافاة والإنابة معاصيهم وما اجترحت أيديهم ، فذهبوا بلا زاد ولا عمل ، فخسرت صفقتهم ، فخسروا أنفسهم « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » . إنه تعالى يقول : « والعصر إن الانسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

قيمة البلايا فى تكامل النفس

ما من شخص إلا ويصاب فى حياته بنوع أو أنواع من البلايا والنوائب . يختلف ذلك باختلاف الأشخاص والأفراد . فمنهم من يبتلى بين آن وآخر بضيق فى العيش أو مرض بسيط لا يستغرق زمناً طويلا ، بينما نرى الاخر يبتلى طيلة حياته بمرض مزمن أو عاهة مزمنة أو فقر مدقع مستمر أو علة لا مفر منها . أو نراه مقعداً يتمنى المشى أو مصاباً بمرض فى المعدة لا يقوى على الأكل كما يجب ، ويتمنى لو أنفق نصف ماله فيأكل كما يأكل أحد عماله الذين لا يملكون إلا قوت يومهم .

نرى أشخاصاً يبتلون بأنواع من الأمراض فى أواخر عمرهم وهم مترفون فى أوائل حياتهم منعمون مع كمال الصحة .

نرى أشخاصاً بعكس ذلك مصابين بأنواع البلايا من فقر ومرض وغيرهما فى أوائل حياتهم ، مترفين منعمين فى أواخر حياتهم الدنيوية مع صحة كاملة . وقد نسمع كثيراً من الشكاوى من الطبقة المريضة أو المبتلاة بالفقر . يقول بعضهم : لماذا فلان مع عدم قيامه بأمور خيرية وأكله أموال الناس منعم ، مرفه ؟ لماذا فلان مع تقواه وورعه مبتلى بأنواع المرض والفقر ؟ ما هذا الاختلاف ؟ ألا يحب الله الصالحين من عباده فيبتليهم بأنواع الأسقام ومختلف النوائب ؟

ونسمع أيضاً بعض الشكاوى من الطبقة المنعمة لخسارة تصيبهم ، أو فقدهم ولداً أو لطمعهم فى مال أكثر .

وقد سمعت رجلاً متوسط الثقافة وقد عُلّ ، ينسب عدم التدبير الى مدبر هذا الكون ويتهم العالم بعدم الانتظام والتبلبل !!

وقد ينسب بعضهم الظلم الى البارى وينفى عنه العدل والرحمة ، نستجير بالله من ذلك . لذلك ظهرت مذاهب فلسفية : كمذهب التشاؤم ومذهب التفاؤل . فالفيلسوف المبتلى فى حياته بأنواع البلايا والمحن يرى الدنيا كلها محناً ونوائب ، والفيلسوف الذى عاش وديع الخاطر ، مترفاً منعماً يرى الدنيا كلها مسرات . فالأول متشائم والثانى متفائل . ولم تفسر لنا الفلسفة علل ذلك . إنما تعزو بعض الموفقيات الى فعالية الانسان الشخصية لاسيما مذهب (Pragmatisme) . وهذا لا يحل لنا مسألة النوائب السماوية والأمراض والأسقام والأضرار غير المنتظرة مهما بذل الانسان كفاءته وجهوده فى دفعها .

ولا شك أن السعى فى أمور الدنيا يؤدى الى نتيجة ملموسة وهذا معنى قوله تعالى : « مَن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . وان السعى فى أمور الآخرة ، من عبادات وأعمال صالحة نافعة وخدمة الغير قربةً الى الله تعالى يؤدى الى نتيجة محمودة ، لقوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » . (سورة النجم) .

ولكن كيف تفسر هذه المحن والأمراض والنوائب . أو فى استطاعة الانسان رفع كل ذلك ؟ كلا . ولا مراء أن لا حقيقة بعد حقائق القرآن . وقد فسر لنا ربنا جل وعلا كل ما يختلج فى صدورنا عن الجهل ويؤدى بنا الى الاعتراض الواهى : « ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » . « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » . (سورة الأنعام) . ولكن لبعدنا عن تفهم القرآن والعمل بما فى القرآن أصبحنا مجموعة شكوك واعتراضات واهية ، فنسمى هذه الإعتراضات فلسفة وهذه الشكوك حكمة . مع أنه

لا مجال الى الشك والريب بعد تفهم القرآن الكريم والأحاديث النبوية .

فهذا قوله تعالى : « إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيرا » . أى خلق الله الانسان للامتحان والاختبار . وكيف يكون هذا الاختبار ؟ هذه اختبارات تختبر بها النفس ولا تشبه اختبارات الحوادث الفيزياوية أو الكيمياوية ، وإنما هى امتحانات تتوجه الى النفس مباشرة . فإما أن تتوفق فيها النفس فتتقبلها بصدر رحب وتعمل فيها حسب أمر الله تعالى ، أو تراها ثقيلة فترفضها وتتبع شهواتها وميولها الجامحة الأمارة بالسوء ، أو تكون بين هذا وذاك ، فتكتب لها درجة فى الكتاب الخاص بها حسب ما تقوم به من أعمال .

يُختبر الغنىُّ بالفقير : يأتى الفقيرُ الغنىَّ . فإما يستقبله هذا الغنىُّ استقبالاً شيقا . استقبالاً فيه من البشر والحنان فيعطيه ما يغنيه ، إن أمكن ، أو يعطيه حسب وسعه ، وإما أن يخفى نفسه فى بيته فيقول لخادمه : قل لهذا الفقير العاجز : إنى لست فى البيت أو مسافر ! فيرجع المسكين العاجز خائباً منكسراً يائساً من جود هذا الغنى أو بالأحرى من عدم قيام هذا الغنى بواجبه ، غير يؤوس من رحمة الله تعالى . لذلك يجيب أصحاب الشمال عندما يسألهم أصحاب اليمين : « ما سلككم فى سقر ؟ قالوا لم نكُ من المصلين . ولم نكُ نطعم المسكين » . فإنهم يذكرون عدم إطعامهم المسكين بعد عدم أدائهم الصلاة مباشرة . وهذا دليل على ما لإطعام المسكين فى الإسلام ، من أهمية فائقة . لذلك يقول الله تعالى فى مقام آخر : « ولا يحضُّ على طعام المسكين » .

إن الله يمتحن الفقير بالصبر فإن لم ييأس من رحمة الله وصبر فقد فاز فى هذا الامتحان العالمى . وإن تذمر وتضجر واعترض على حكمة الله وأساء الظن فى جعله فقيراً بعد عن رحمة الله مع فقره ومسكنته . فالله يقول : كما فى الحديث القدسى : « إنى عند حسن ظن عبدى » . وجاء فى الحديث القدسى

أيضا : « وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته الى غيره لهلك » .

يقول الله تبارك وتعالى : « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . فجعل علة الخلق : الإبتلاء . أى أن الله إنما خلقنا ليبلونا ويمتحننا بمرض وسقم وعاهة وطاعة وغيرها .

يكون الانسان فى تمام الصحة فيأخذه الغرور ويمنّى نفسه طول العمر ، فلا يسعى فى تزكية نفسه وتطهيرها ويمنّى نفسه : انه سوف يكون انساناً صالحا فى أواخر أيام حياته . فالله يمرضه كى ينتبه ويعلم أن ليس هناك وقت معين للموت (كما يخمن الانسان) ، فإن صبر على ما يصيبه فى مرضه وشكر الله على بلائه كان له ، كما يقال : (أجر وعافية) ، فيكون هذا المرض سبباً لتنبهه واستبصاره وسقوط شىء من ذنوبه السابقة . فقد جاء فى الحديث : إن الله تعالى يقول : « ما من عبد أريد أن أدخله الجنة إلا ابتليته فى جسده . فإن كان ذلك كفارة لذنوبه وإلا ضيقت عليه رزقه . فإن كان ذلك كفارة لذنوبه ، وإلا شددت عليه الموت حتى يأتينى ولا ذنب له ثم أدخله الجنة » . « وما من عبد أريد أن أدخله النار إلا صححت جسمه ، فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندى ، وإلا أمنت له من سلطانه . فإن كان ذلك تماماً لطلبته وإلا هونت عليه الموت حتى يأتينى ولا حسنة له ، ثم أدخله النار » .

وحاشَ لله أن يريد بعبد دخول النار إلا اذا أتم عليه الحجة مرات ومرات وتمادى فى البغى والفجور والضلال وانقطع الاتصال ويئس من رحمة ربه ولم تفد فيه أية هداية وأية رحمة واستحق العقوبة فأصبح لا يطهره إلا النار . وقد قال تعالى : « وما كنا معذّبين حتى نبعثَ رسولا » .

أثر النوائب فى تطهير النفس وتكاملها

يشكو كثير من الناس عندما تنتابهم النوائب وتكتنفهم المصائب . يشكون متذمرين غير شاكرين ولا صابرين . ذلك لأن حكمة النوائب والبلايا قد خفيت عليهم . ولو أنهم علموا أسباب ذلك لصبروا بل ولشكروا واستغفروا .

فلقد رأينا أحب الخلق الى الله أنبياءه وأولياءه قد ابتلوا ببلايا جمة ومصائب عدة ، لم يبتلَ بمثلها غيرهم وهم أعزاء الله وخيرة خلقه .

نرى كثيراً ممن أفسدوا فى الأرض واستوجبوا سخط الله ، مترفين منعمين لا يبتلون فى حياتهم بما يبتلى به غيرهم من أصفياء الله وصالحى عباده .

ولو تتبعنا القرآن الكريم وتعمقنا فيه لعلمنا أن النوائب والمصائب ، وإن شئت فقل ، إن الاختبارات والامتحانات تتوجه الى كل نفس لا محالة لتبدى ما عليها من صبر وشكر واستغفار وعزم وتوكل وإنفاق لجبران ما فات ، أو لتظهر ما تحمل من غى وطيش وكبر وتذمر وكفر وجحود أى إما الى تكامل أو الى تسافل وتدهور ما بعده انحطاط . إن الله تعالى يقول : « أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنَّ اللهُ الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

فإن الإقرار بالايمان وحده لا يكفى للدخول فى سير التكامل النفسى والبلوغ الى حيث يشاء الله ، أى فى : « ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ، ولا بد من اجتياز امتحانات صعبة دقيقة أصعب بكثير من الامتحانات المدرسية مهما كان الموضوع صعبا والنجاح فيها عسيراً . كى يعلم الانسان حقيقة نفسه ، حتى اذا عوقب بعد الموت أو قبل

الموت اعترف بأنه إنما عوقب لسوء سريرته واتباع هوى نفسه وسقوطه فى الامتحانات الإلهية ، تلك الامتحانات التى كان بإمكانه أن ينجح فيها .

هذا رجل قد أنعم الله عليه بمال كثير ، يأتيه جاره المسكين العاجز ، فلا ترقّ له نفسه ولا يعطيه مما فرضه الله عليه ، وهذا مريض بائس ، قد أشرف على الموت وهو طبيب ذو ثراء ، فلا ينهض لمداواة أخيه المسلم ولا يعينه من فضول ماله ، ألم يكن ذلك فى إمكانه ؟ ما الذى منعه عن ذلك ؟ أليست نفسه الأمارة بالسوء ؟ ولو حكّم عقله فى وقت لا يغلب عليه هواه ، فى وقت أزيح عنه شيطانه ، لعلم أنه خان نعماً أنعم الله بها عليه ، بل خان نفسه وخسرها . فكان من الذين « خسروا أنفسهم » .

إن الله تعالى يقول : « ولنبلونّكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

فكما أن الانسان يُمتحن فى حياته بالمال الكثير والعلم الغزير وأنواع الفنون والصنايع وملكات وقابليات ومواهب ونبوغ واستعداد فائق وأمثال ذلك من أنواع الكمال والجمال ، يُمتحن أيضا بكل ما يؤدى الى الخوف والجوع والفقر وفقد الأولاد والأعزة وقلة الثمرات ، ليؤدى امتحانه بالصبر على كل ذلك .

فبالصبر يبرز الإيمان العملى ، الإيمان الفعلى ، كما أن بالنطق يظهر الإيمان القولى ، وهذا تفسير لقوله تعالى : « أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون ؟ » . لأن مجرد القول بالإيمان لا يظهر حقيقة الإيمان ، ولكن الصبر وتفويض الأمر الى الله وتطمين النفس بنعيم الآخرة والرجوع الى الله هو الذى يظهر إيمان الشخص الفعلى الواقعى . لأن حقيقة الإيمان

تتجلى بالاعتقاد بالبعث والحياة الآخرة والثواب والعقاب . فمن زاد إيمانه بالبعث والحياة الآخرة قوى على الصبر . فكأن معيار الإيمان الحقيق هو الصبر على النوائب والمصائب على أنواعها . لذلك يقول الله تبارك وتعالى : « وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا اليه راجعون » . ثم أعقبه بمنزلتهم العظيمة ويا لها من منزلة : بقوله تعالى : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

نعم : « إن عظيم الأجر مع عظيم البلاء ، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم » . كما جاء فى الحديث .

فالنوائب والمصائب إنما هى بمثابة الأعمال الكيمياوية التى تجرى على قطعة من المعادن المختلفة لاستخراج الذهب الخالص منها ، فإن الانسان تجرى عليه أنواع الامتحانات حسب منزلته ولياقته ليخرج إن كان مؤمناً حقا من هذه الدنيا بالذهب الخالص . ولنعم ما قال الشاعر : علىٌ الدر والذهب المصفى .

وعن أبى عبدالله (ع) : « أربع لا يخلو منهن المؤمن أو واحدة منهن : مؤمن يحسده ، وهو أشدهن عليه ، ومنافق يقفو أثره ، وعدو يجاهده ، وشيطان يغويه » .

هذه هى سنة الله فى الأولين والآخرين ، إن الله تعالى يقول : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون وكان ربك بصيرا » .

تتبعوا أحوال الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وأحوال الأئمة الأطهار عليهم السلام وأحوال المؤمنين ، تروا أن أقربهم الى الله كان أشدهم ابتلاء وأكثرهم غرضاً لسهام المنافقين والأعداء . وهم على حسب مراتبهم يتفاوتون فى درجات الصبر ، وان نبينا محمداً (ص) وهو سيد المرسلين كان أكثر الأنبياء ابتلاءاً . لذلك قال صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين : « ما أوذى نبيٌّ مثل ما أوذيت » .

ومن صبر على المصيبة صبراً لا يقوى عليه غيره ، صبراً يتجلى فيه الإباء والبطولة الخالدة : الحسين (ع) . وهو القائل : « رضا الله رضانا أهل البيت ، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين » . ويقول (ع) فى مكان آخر مخاطباً رب العباد : « رضىً بقضائك لا معبود سواك » . فولىُّ الله جُعل دائما غرضا لعدو الله ، فقد قال أبو عبدالله (ع) : « إن الله جعل وليه فى الدنيا غرضا لعدوه » .

إن البلايا لتختلف شدةً وضعفا ، كما أسلفنا ، حسب قابلية الممتحن واستعداده . وهذا من عظيم لطف الله وجزيل سيبه . فلا يمتحن المؤمن كما يمتحن النبي أو الوصى . لذلك يقول لنا أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام : « أشد الناس بلاءاً الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل » . ولذلك يقول رسول الله (ص) لسبطه الحسين (ع) : « يا بنىَّ ، أخرج الى العراق ، شاء الله أن يراك قتيلا وأهل بيتك سبايا ، وإن لك درجة ان تبلغها إلا بالشهادة » .

نعم ، « إن المؤمن بمنزلة كفتى الميزان ، كلما زيد فى إيمانه . زيد فى بلائه ، ليلقى الله عز وجل ولا خطيئة له » . كما يحدثنا موسى بن جعفر (ع) .

وإن درجة الإيمان تتناسب مع تحمل عظيم البلاء ، فإن الانسان قد يعرض عليه المال الكثير من مورد مشكوك أومحرم أو تعرض عليه رئاسة فيها هتك حرمات الله والتصدى الى أنواع الجور والظلم فقلَّ من ينجح فى هذين الامتحانين بترك المال لحرمته والرضا بالفقر والمسكنة ، أو رفض الرئاسة والعمل حسب هذه الآية الشريفة : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

فالتقوى : أن ترى وجه الحيلة ويصدُّك عن ارتكابها خوف الله . لذلك يقول الحسين (ع) فى كلمته الخالدة : « الناس عبيدُ الدنيا والدين لعق على ألسنتهم ، يحوطونه ما درَّت معايشهم ، فإذا مُحصوا بالبلاء قلَّ الديانون » .

أثر الصوم فى تكامل النفس

الانسان فى طريقه الى التكامل يحتاج الى ما يطهر نفسه ويزكيها فيخرجه من ماديته الحالكة الى معنوية وضاءة تؤدى به الى التقرب الى الله تعالى والى حلول حب الله ، جل وعلا ، فى نفسه . ولا يحلُّ هذا الحب العظيم إلا فى نفس لها من الكمال نصيب ، ولا كمال إلا بما يبعد الانسان عن أدران المادة .

فالصوم عدا ما فيه من معنوية ذاتية ، لو قصد به التقرب الى الله تعالى ، تقرباً لا شائبة فيه وأريد به اطاعة الله وابتغاء مرضاته ، يذيب المادية التى تعارض معنوية النفس وسير تقدمها نحو الكمال المنشود . لذلك كان من المستحب أن يصوم الانسان يوماً فى أول الشهر ويوما فى وسطه ويوما فى آخره ، وثواب ذلك ثواب من صام الشهر كله . فهو بعمله هذا يذيب المادية ويدخل فى عالم قدسى فيه حب الخالق جل شأنه والتفكر فى عظمته وعدم الاكتراث بالدنيا وزخرفها وزبرجها .

فإن تكامل الانسان إنما يتناسب مع درجة تفكره فى الآخرة وعدم رغبته فى الدنيا . إن الله تعالى يقول : « مَن كان يريد الحيوةَ الدنيا وزينتها نُوفِّ اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . (سورة هود : ٢٠) .

وإن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « صوموا تصحُّوا » يشمل الصحة فى النفس والصحة فى البدن ، ولا ريبَ أن صحة النفس هى الغاية القصوى التى يجب على الانسان أن يسعى لتحقيقها ، ولا تصحُّ هذه النفس إلا اذا سلمت من أسر الهوى والشهوات . إذ ذاك يعمل عقله الفطرى

فيصدق بما أنزل على محمد (ص) . يقول على (ع) : « يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى » ، وان الصوم خير قامع لهوى النفس والأهواء الفاسدة . لذلك جاء فى الحديث : « خصاء أمتى الصوم » . أى أن الصوم خير قامع للشهوات ، فلو تعوّد الشاب فى عنفوان شبابه أن يصوم أكثر أيامه ، فإنه لا يتصدى الى ما حرم الله تعالى من أعمال قبيحة وفعال شنيعة وينتظر حتى يرزقه الله تعالى زوجة صالحة . فيكون ملكا على شكل انسان ، فيه من الروحانية وصفاء النفس ما لا يوصف . ومن كان غير مصدق فليجرب ، فالتجربة سند العلوم الحديثة ومدارها .

ومما لا مراءَ فيه أن الإنسان لم يؤتَ به الى هذه الدنيا بهذه الصورة التى يولد إلا ليتكامل . ذلك لأنه ناقص حين يولد . والله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال . فوجب على الانسان أن يتكامل لا محالة ، فإن أبى فمصيره النار ليطهر فيها . فاذا تكامل كان أهلاً ليخلد فى « جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين » ولذلك يقول الله تعالى فى كتابه المجيد ، حين يتساهل مع من لا يقوى على الصوم إلا بمشقة لا تكاد تطاق بقوله : « وأن تصوموا خير لكم » . ذلك لأن ما يستفيده هذا البشر (رغم تحمله مشقة كبيرة) من المعنوية الفائقة والفوز بمعرفة الله تعالى هو أضعاف هذا العناء . فليس للبشر إلا أن يتبع ما سنه الله لتكميله على لسان أنبيائه (ع) ، إن أراد الفوز والنجاح فى دوره التكاملى ، وإلا كان من الأخسرين أعمالاً وممن خسروا أنفسهم ، على حد قوله تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضلّ سعيهم فى الحيـــاة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

ولا ريب أن الشيطان هذا الذى يرانا ولا نراه (وكم من أشياء لا نراها وهى ترانا) هو عدوّ الإنسان اللدود . يقول الله جل وعلا : « إن الشيطان

لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ، (سورة فاطر : ٦) . ولولا اتباعنا إياه وإطاعتنا له لعرجنا فى ساحات القدس .

على أن ليس للشيطان أية سلطة علينا أو نفوذ ، على حد قوله تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » . (سورة الحجر) . وقوله تعالى أيضا : « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » . (النحل : ١٠٣) .

فلا سلطانَ ولا سيطرة للشيطان على الانسان ، خلافا لما يقوله بعض من يريد تبرير موقفه عند ارتكاب المعاصى واجتراح السيئات . إنما الشيطان يدعونا فحسب ولا يتعدى أمره : (الدعوة) . فما علينا إلا أن لا نلبى دعوته . وإن الشيطان ليعترف يوم القيام قائلاً : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم » . سورة ابراهيم : ٢٨) . وقد جاء فى الحديث : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ، لنظروا الى ملكوت السموات » .

إن الشيطان يدخل فينا كالأشعة السينية (Rayons x) ، وقد جاء فى الحديث : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش » .

إن أول من ظفر بأن فى الفضاء أمواجا كهربائية ـ مغناطيسية تشبه أمواج الضوء المرئى فى خواصها وقوانينها هو (جيمز) . إنه أثبت بمعادلات رياضية وجود هذه الأمواج فى الجو . وما كان ليصدقه أحد لأن غيره ما كان يرى ما يراه (جيمز) بعقله ! فإن ما لا يرى بالعين المجردة أكثر مما يرى بها وهو موجود . وان الموجات التى لا ترى بالعين أكثر فعاليةً وتأثيراً مما يرى بالعين . فالكهرباء أكثر فعاليةً من الخشبة ، والنفس أكثر

فعالية من الكهرباء ، والعقل أكثر فعالية من النفس وهكذا . فكلما كان الشيء دقيقا لا تراه العيون (المحدودة فى قابلياتها) كان أكثر تأثيراً وهيمنة . وكلما كان الى المادية والتجسم أقرب كان محكوما لما هو أدق منه خلافا لما يهذى المادىء الطائش .

إن الشيطان موجود كوجود النفس والعقل والجن والأمواج الهرتزية ، وهو يرانا من حيث لا نراه ، فالله تعالى يقول : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » . وفى آية أخرى يقول الشيطان : « لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

فالشيطان يدخل فى جوف الإنسان من طرق شتى ويقوم بمحاكمة مع العقل الإنسانى . أرأيت أنك اذا أردت أن تعطى مسكينا عشرة دنانير وأنت لك حاجة كمالية يمكنك أن تستغنى عنها ، كيف يحدث بينك وبين ناطق فى خلدك محاكمات ونقاش ، أنت تريد العطاء وهو يسول لك الدنيا ويزينها ويعدّ لك حاجات عدة . يدعوك الى أن تعدها من الواجبات ، فتنصرف عن هذا العطاء الذى يقربك الى الله ويزكى بدنك ومالك ونفسك . هذا الناطق هو الشيطان ...

أرأيت اذا كان وقت السحر (قبل طلوع الفجر) وأردت النهوض الى صلاة الليل والتهجد بين يدى رب العباد ، تأخذ بنفسك لتعرج بها الى الملكوت الأعلى ، كيف يخدعك ناطق فى جوفك قائلا : انك مُتعب ، فنَم هُنيهة ، النوم عافية ، ولابد لك من أن تحافظ على صحة بدنك ، فإنك اذا قمت الى صلاة الليل لا تقوى على إنجاز الأعمال التجارية فى النهار ، فتكون متعباً ... الى ما هنالك ، حتى يجعلك تنام وتندم فى آخر ساعة حياتك على ضياع عمرك وعدم زرعك فى دنياك ما تحصده : « يومَ لا ينفع مال ولا

بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » . ذلك لأن « الدنيا مزرعة الآخرة » كما جاء فى الحديث . ولا ريب أن القلب لا يكون سليما إلا بأعمال يتعلمها الانسان من خاتم النبيين محمد وأهل بيته الأطهار سلام الله عليهم أجمعين ويعمل بها بإخلاص ولوجه الله الكريم .

فلو تمكن الإنسان أن يسيطر على هذا العنصر الذى لا يراه بباصرته (هذه الباصرة التى تبصر الى مسافة محدودة وأجساماً معينة فى الصغر ولا تتعداها) وأعنى به الشيطان ، لولج فى عالم من المعنوية والقدسية فيه من السرور ما لا يوصف ، ومن الحبور ما لا يحدُّ . ولا تتحقق له هذه السيطرة إلا بما يخفف وطأة المادة فى بدنه ومنه الصوم والصلاة وكل ما يؤدى الى تخفيف الذنوب وتكفيرها ومحوها . لذلك جاء فى الحديث : « الصلاة صابون الخطايا » .

وانى أذكر فقرة من دعاء يقرأ كل يوم من أيام شهر رمضان يتعوذ فيه المؤمن بالله من عدوه الشيطان لأهميته : « اللهم صلّ على محمد وآل محمد وأعذنى فيه من الشيطان الرجيم وهمزه ولمزه ونفثه ونفخه ووسوسته وتثبيطه وكيده ومكره وحبائله وخُدعه وأمانيه وغروره وفتنته وشركه وأحزابه وأتباعه وأشياعه وأوليائه وشركائه وجميع مكائده » .

تتكامل النفس الإنسانية بمقدار ما تذوب فيها المادية وتقتلع عنها الصفات الرذيلة والأخلاق الذميمة . فمعالجة النفس غير معالجة البدن ولها طرق خاصة ومن أهمها الصوم . فله أثر فعال فى تكامل النفس .

أنظروا الى بعض ما جاء فى دعاء اليوم الخامس من شهر رمضان المبارك . إنه معالجة للروح والنفس والقلب . فإن القلوب مريضة ومعالجتها لا تكون إلا بما يناسبها . ولا يعلم طرق هذه المعالجة إلا أطباء الأرواح وهم الأنبياء والأوصياء من بعدهم سلام الله عليهم أجمعين بما أوحىَ أو ألهم اليهم من جانب الله تعالى .

يقول الصائم وهو خاشع ذليل بين يدى ربه فى اليوم الخامس من شهر الغفران : « اللهم صلّ على محمد وآل محمد وانزع ما فى قلبى من حسد أو غل أو غش أو فسق أو فرح أو مرح أو بطر أو أشر أو خُيلاء أو شك أو ريبة أو نفاق أو شقاق أو غفلة أو قطيعة أو جفاء أو ما تكرهه مما هو فى قلبى » . الى أن يقول : « اللهم ارزقنى سلامة الصدر وانفتاحه الى ما تحبُّ وترضى ، ونور القلب وتفهمه لما تحب وترضى ، وضياء القلب وتوقده فى ما تحب وترضى ، وحسن القلب وإيمانه بما تحب وترضى . يا من بيده صلاح القلب ، أصلحه لى . يا من بيده سلامة القلب ، فاجعله سالماً لى » .

عندما كنت أدرس فى الجامعة حاولت أن أحقق أول مادة من هذا الدعاء وهو قلع (الحسد) عن نفسى . فصرت أترجم بعض المسائل الصعبة من كتب مهمة أخرى وأقدمها قبل أن أحلها الى من كان ينافسنى فى الصف ، وأقدم له الحل إن تعسر عليه ، ولا أضنُّ عليه بشىء مما أعلم أو أوفق الى حله بلطفه تعالى .

إن الصوم والدعاء (والجوف فى معزل عن المادة) وما يقوم به المؤمن فى ليالى القدر ، خير وسيلة لتعمير القلب واصلاح النفس حتى تصبح النفس مصداق هذا الحديث : « من سرّته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن » .

فكما أن لضغط الجو مقياساً (بارومتر) ولحرارة الجو مقياساً (ترمومتر) كذلك لدرجات سمو النفس وتكاملها مقياس بل مقاييس . من تلك المقاييس : الحديث المتقدم . ومنها مفاد هذه الاية الشريفة : « إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

فالوجل والخوف من الله تعالى عند ذكره وانهمال الدموع عند سماع

آى الذكر الحكيم من علائم الإيمان . إن الله تعالى يقول (عندما يمتدح خواص عباده : الأنبياء عليهم السلام) : « واذا تتلى عليهم آيات الرحمان خرّوا سجّداً وبكيا » .

أتذكر ليلة من ليالى شهر رمضان المبارك ، كنت فى روضة على أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام بعد منتصف الليل . وكان بجنبى رجل يقرأ دعاء (أبى حمزة الثمالى) من أدعية السحر . رأيته يبكى بكاء الثكلى حتى ابتلت لحيته . وكان يعلوه من الإنكسار والخنوع والانقطاع والابتهال ما لا يوصف . ولا يعلم قيمة ذلك إلا من علم ما عليه نفسه من ذنوب وآثام ومعاصىَ وخطايا وهو نادم عليها . ذنوب احتطبها على ظهره ، فأثقلت كاهله .

والانسان ليشعر برفع هذا الثقل عن كاهله اذا ناجى ربه وذرفت عيناه بالدموع . لاسيما اذا قرأ دعاء السحر (دعاء أبى حمزة الثمالى) وخشع فى دعائه وجرت دموعه على خديه . إنه ليشعر بعد الانتهاء من الدعاء كيف تخفّ نفسه ، كأنه قد وضع حملاً ثقيلاً عن كاهله ، وكيف يعلوها سرور وابتهاج بصورة لاشعورية . فإن من علائم الإيمان دمعة الفرح والانجذاب الى آيات الله ، دمعة هى أمارة التسليم والانقطاع . إن الله تعالى يقول : « واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » . (سورة المائدة : ٨٨) .

إن القلب ليصدأ إن لم يبكِ الفرد على ذنوبه أو حباً لله تعالى . وإن صدأ القلب أمر معنوى ، وإزالته لا تكون إلا بشكل معنوى ، والبكاء أمارة هذا الانقلاب المعنوى . ثم إن الدمعة على ما ثبت فى الطب الحديث تدفع مئآت الأمراض عن البدن .

ومما لا ريب فيه أن الله لو أراد أن يهدى عبداً (حين يتوجه اليه العبد

مكفراً عن ذنوبه) وأحب أن يغفر له جعله يبكى على ذنوبه جوفَ الليل وأوقات العبادة . وهذا من علائم التقرب اليه تعالى .

تلا رسول الله (ص) على ثلة من الشبان آياً من سورة الزمر : « وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً ، حتى اذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا . قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » . فبكوا وفاضت عيونهم بالدموع ، فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالجنة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مخاطباً علياً عليه الصلاة والسلام : « يا على ، كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث أعين : عين سهرت فى سبيل الله ، وعين غضّت عن محارم الله ، وعين فاضت من خشية الله » . ومن جرب القسم الأخير شعر بما يعلوه من سرور وحبور نزيهين طاهرين لا يضاهيهما أى سرور .

يقول الله تبارك وتعالى فى وصف المؤمنين حين تتلى عليهم آياته : « ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » . فهذه الدموع فى شهر رمضان المبارك عند تلاوة القرآن وقراءة أدعية النهار وأدعية الليل وأدعية السحر وفى صلاة الليل ولاسيما فى ركعة الوتر تذيب المادية المتأصلة فى النفوس وتزيل الأدران والأرجاس وذمائم الأخلاق فيرى الإنسان نفسه ، بعد ذلك ، فى عالم من القدسية جديد . تصفو النفس بهذه الدموع ، فإذا صفت رشحت عليها المعارف الإلهية من عالم القدس ، فتزداد معرفة بالله تعالى وهى غاية الغايات . فغاية ما يتكامل به الإنسان أن يزداد معرفة بالله تعالى ، أى

أن تكامل الإنسان يتناسب طردياً مع درجة معرفته بالله تعالى . فكلما كانت معرفته بالله تعالى أكثر كان سائراً فى مدارج الكمال أكثر فأكثر . وان شهر رمضان المبارك يهيء الوسائل التى تصفو بها النفس لتنال نصيبها من الكمال ومن المعارف الإلهية .

وفى الحديث : « أبغض الناس الى الله المتخمون الملأى ، وما ترك عبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة فى الجنة » . وفى حديث آخر : « لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب . فإن القلب كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء » .

نعم ، إن المعارف الإلهية لا تحصل إلا اذا أذيبت المادية فى الإنسان كما جاء فى الحديث . فإذا ذابت المادية بالصلاة والصيام والحج والزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإنفاق والإيثار ومجاهدة النفس والأعمال الصالحة ازداد الإنسان معرفة بالله وأفيضت عليه المعارف الإلهية ، فإن الصادق سلام الله عليه يقول : « ليس العلم بالتعلم . إنما هو نور يقع فى قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه . فاذا أردت العلم ، فاطلب أولاً فى نفسك العبودية ، واطلب العلم باستعماله ، واستفهم الله يفهمك » .

فالعبودية أساس العلم ومقدمة للإفاضات الربانية والمعارف الإلهية . وإن الصوم من أجلى مظاهر العبودية ، وخير وسيلة لتكامل النفس الإنسانية .

أثر الحج فى تكامل النفس

نرى جميع ما حولينا من حيوان ونبات وجماد فى غاية الكمال . أى أن العالم المادى بما أودع الله تعالى فيه من دساتير دقيقة وخواص متعددة وقابليات خطيرة قد بلغ الغاية من الكمال . وأن أجزاءه مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقا بدساتير رياضية رصينة ، مما يدل على أن الكمال قد بلغ منتهاه فقد جاء فى القرآن الكريم : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير » .

وإن العلم الحاضر لم يكتشف عشر معشار ما أودعه الله تعالى من قوانين وخواص فى هذا الكون المادى . وإنما قلت : (الكون المادى) ، ذلك لأن العلم الحاضر علم مادى بجميع شراشره . لا يعمل إلا فى المادة ولا يقف إلا على جزء ضئيل مما أودع الله تعالى من خواص ومعادلات لقوانين تربط عوالم المادة بعضها ببعض .

على أن ما ظفر به المتتبعون والمجربون (بفضل الله تعالى) من بعض الدساتير والخواص المودعة فى هذا الكون بأمره تعالى ، لا يزال فى حضيض لا يتناهى (الأصغر غير المتناهى) . وسيبقى كذلك أبد الآبدين . ذلك لأن علم الله لا يتناهى ، ونسبة المحدود الى غير المحدود صفر : ($\frac{\text{ب}}{\infty} = 0$) .

إن الله تعالى يقول : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

والعالم الحقيقى ، كلما فتح الله له باباً من أبواب معرفة الحقائق المادية اعترف بعظم جهله وأنه فى اللانهاية من مراتب الجهل . ولا يأتى الغرور إلا

من ناحية الجهل . إن الإنسان مركب من روح وجسم ، فجسمه فى غاية الكمال . ولكن الانسان ليس بجسم فحسب ، بل ليس من الجسم فى شىء . إنه انسان بروحه ونفسه وهو مخلوق الله الكامل على الإطلاق . والكامل (وهو الله تعالى) لا يصدر منه إلا الكمال . ولذلك تفضل الله على الإنسان بغية تكميل نفسه الناقصة ، تكميلاً يناسبها ، بأنبياء (ص) ومن بعدهم بأوصياء (ع) يهدونه سواء السبيل ويتصدون لتكميل نفوس البشر وإبلاغها الى حيث يشاء الله تعالى من مراتب الكمال . « هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

فالغاية الحقيقية من خلق الإنسان : هو أن يعرف الله تبارك وتعالى وأن يزداد معرفة به تعالى بتزكية نفسه . ذلك لأن حب الله ومعرفة الله لا يحلان نفوساً مدلهمة حالكة بذنوب وأخلاق ذميمة وفسق وفجور . فوجب تطهيرها وتزكيتها . ولا تزكو إلا بالعبادة وأعمال صالحة . والأعمال الصالحة هى نوع من أنواع العبادة اذا كانت لوجه الله وطلباً لمرضاة الله .

إننا خلقنا لمعرفة الله تعالى كما جاء فى الحديث القدسى : « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لكى أعرف » . والعبادة باب معرفة الله تعالى ولا تحصل هذه الغاية الرئيسية من خلق الانسان (وهى معرفة الله) تعالى إلا بالعبادة . قال الله تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » . فهم اذا عبدوا الله فتحت عليهم أبواب المعارف الإلهية ، وازدادوا معرفة بالله تعالى كلما ازدادوا اهتماماً بالعبادة بإخلاص ، دونما رياء أو حب لجاه أو طلب للرئاسة .

ومن جملة تلك العبادات المطهرة للنفوس والفاتحة على الانسان أبواب المعارف الإلهية : الحج . ولا مراء أن المال يقسى القلب ويؤدى الى شىء من

الغرور والكبرياء ويبعد الانسان - بما يترشح منه من ذمائم الأخلاق - عن الله تعالى : « إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » . وقد جاء فى الحديث القدسى : « وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته الى غيره لهلك » . فوجب ملافاة ذلك ، لئلا توصد على الثرى أبواب المعرفة . فشرع الشارع الزكاة والخمس والزكاة المندوبة والصدقات ، وأوجب أمراً عبادياً فرضه على أولى الاستطاعة تفضلاً منه عليهم . حتى لا يكون هذا المال حجر عثرة فى طريق تقدمهم فى مجالات المعارف الإلهية الواسعة التى لا تتناهى . فهيأ لهم فى بيته الحرام مواقف تذرف فيها دموعهم وتخشع فيها قلوبهم وتلطف بها نفوسهم . يشاهدون المقامات القدسية ويتقربون فيها الى ربهم مخبتين ، فلا يبقى حاجب يحجبهم عن الله تعالى لقدسية تلك المواقف . فيذكرون ذنوبهم ثم يبكون عليها ندماً وحزناً منيبين خاضعين . وإن لكل عمل فى الحج أثراً فى تكميل النفس الإنسانية والتساوى بين الوضيع والشريف . فليس هناك اعتبارات دنيوية ما أنزل الله بها من سلطان . ذلك لأن الله تعالى قد جعل المفاضلة بين الناس بالتقوى فحسب . أى بحسب سمو نفوسهم فى حقول التزكية ومجالات التصفية . لقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، على أن فى الحج فوائد اجتماعية أيضا لا تعدُّ ولا تحصى لو استفاد منها المسلمون .

وقد جعل الله المقامات التى يتقرب فيها اليه فى مثل مكة وجبالها القاحلة الجرداء لينصرف العبد الى عبادته ، لا يلهيه الشيطان بزخارف الدنيا وجمالها الخداع ، لذلك يقول على عليه أفضل الصلاة والسلام :

« ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه الى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر . فجعلها بيته الحرام الذى جعله للناس قياماً ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض

حجراً ، وأقل نتائق الأرض مدراً ، وأضيق بطون الأودية قطراً ، بين جبال خشنة ورمال دمثة وعيون وشلة (أى قليلة الماء) وقرى منقطعة . لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف . ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه . فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغاية لملقى رحالهم . تهوى اليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة ومهاوى فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة . حتى يهزوا مناكبهم ذللا ، يهللون لله حوله ، ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له ، قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم ، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم ، ابتلاءً عظيما وامتحاناً شديداً واختباراً مبينا وتمحيصاً بليغا ، جعله الله سبباً لرحمته ووصلة الى جنته . ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار ، جم الأشجار دانى الثمار ملتف البُنى متصل القوى ، بين برة سمراء وروضة خضراء وأرياف محدقة وعراص مغدقة ورياض ناضرة وطرق عامرة لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء . ولو كان الأساس المحمول عليها والأشجار المرفوع بها بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفف ذلك مسارعة الشك فى الصدور ، ولوضع مجاهدة ابليس عن القلوب ، ولنفى معتلج الريب من الناس (أى زال الريب والشك من صدور الناس) . ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره إخراجا للتكبر من قلوبهم وإسكاناً للتذلل فى نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فُتحاً الى فضله ، وأسباباً ذللا لعفوه » .

فلا بيان بعد هذا البيان ، فلقد أوضح صلوات الله عليه علة التكليف وحكمة الحج بأبلغ تبيان . فعباد الله الصالحون كانوا ، طمعاً فى الثواب الجزيل ومزيداً للخشوع والخضوع ، يحجون ماشين على أقدامهم أذلاء صاغرين . وان الحسن عليه السلام كان يقول : « إنى لأستحيي من ربى أن ألقاه ولم

أمشِ الى بيته » . فمشى عشرين مرة من المدينة الى مكة على رجليه ، وإن النجائب لتقاد معه .

فالله تبارك وتعالى قد أوجب الحج على المستطيعين من عباده بقوله : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنيٌّ عن العالمين » . فالمتخلف عن الحج مع الإستطاعة كافر ، لأنه لم يشكر ربه على ما تفضل عليه من نعم وقد مكن له أن يحج بيته الحرام ليزداد تقرباً إليه ومعرفةً به . فقد جاء فى خبر عن الصادق عليه السلام فى تفسير : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ذاك الذى يسوّف الحج أى (حجة الاسلام) حتى يأتيه الموت . وعنه عليه السلام : « من مات وهو صحيح موسر لم يحج فهو ممن قال الله تعالى فيه : « ونحشره يوم القيامة أعمى » .

وعن الصادق (ع) : « من مات ولم يحج حجة الإسلام ، لم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه ، فليمت يهودياً أو نصرانياً » . وقد بُنيَ الإسلام على خمس : الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية .

فالحج عظيم فضله ، خطير أجره ، جزيل ثوابه ، جليل جزاؤه . وكفاه ما تضمنه من وفود العبد على سيده ونزوله فى بيته ومحل ضيافته وأمنه وعلى الكريم إكرام ضيفه واجارة الملتجىء الى بيته . فعن الصادق (ع) : « الحاج والمعتمر وفد الله ، إن سألوه أعطاهم ، وإن دعوه أجابهم ، وإن شفعوا شفعهم ، وإن سكتوا بدأهم ، ويعوضون بالدرهم ألف ألف درهم » . وإن من الذنوب ما لا يكفره إلا الوقوف بعرفة ، كما جاء فى الحديث .

وقال النبى (ص) لرجل فاته الحج والتمس منه ما به ينال أجره : « لو أن أبا قبيس لك ذهبة حمراء فأنفقته فى سبيل الله تعالى ما بلغت مايبلغ الحاج » .

وقال : « إن الحاج اذا أخذ فى جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلا كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات ، واذا ركب بعيره لم يرفع خفاً ولم يضعه إلا كتب الله له مثل ذلك ، فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه ، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه ، فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه ، قال : فعدّ رسول الله (ص) كذا وكذا موقفاً اذا وقفها الحاج خرج من ذنوبه . ثم قال : أنّى لك أن تبلغ الحاج ؟ » .

ويُكره ترك الحج للموسر فى كل خمس سنين .

فترون : كيف يتكامل الانسان لما يراه من مواقف قدسية تذهب عنه الذنوب وتطهر النفوس عندما يوفق الى حج بيت الله . فإن هذه المواقف وما يقرأ فيها من أدعية وما يقوم به الحاج من أعمال تذيب المادية التى تصيب الثرىّ من جراء المادة . فما على الحاج إلا أن يحتفظ بهذا الصفاء الذى منّ الله به عليه فى بيته ، فلا يلوث نفسه بآثام جديدة ، ليذهب من هذه الدنيا الى حيث الخلود نقىّ الثوب طاهر الضمير ...

كل منا ممتحن لا محالة

يقول الله جل شأنه : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » . فاللام فى (ولنبلونكم) للقسم والنون المشددة للتوكيد ومعنى ذلك : أن الله تعالى بصورة حتمية وقطعية يختبر كل فرد ، على اختلاف الطبقات : بالطاعة والصبر على الفقر والسقم وفقد الأولاد والأرحام وبأنواع البلايا والمنايا والحوادث المحزنة والمفرحة والرخاء والشدة الى ما هنالك . كى يتضح لدى شخص الانسان مبلغ جهاده مع نفسه الأمارة بالسوء وعدم إطاعته لها وعدم طغيانها فى السراء وعدم الجزع فى الضراء .

وهذا الجهاد هو الجهاد الأكبر . وإن هذا الجهاد على ما أرى لأصعب بكثير من حل أغمض مسألة فى التحليل الرياضى (Analyse Mathématique) أو الفيزياء العالية . ذلك لأن الذى أوتى موهبة فائقة قد يتمكن بتلك الموهبة وبتمارين متتابعة وجدٍ متواصل من حل تلك المسألة الصعبة ، ولكن هذا الشخص نفسه لا يقوى على كبح الشهوات إلا بنفس لها من الجلد والعزم وخوف الله تعالى والتقوى الشيء الكثير . لذلك من السهل جداً أن يبلغ الانسان مرتبة (الدكتورا : Doctorat) اذا أتيحت له الفرص (لاسيما فى العلوم الاجتماعيه) أو يكون عالماً فى فرع من الفروع . ومن الصعب جداً أن يكون انساناً كاملا .

وكم رأينا من علماء متضلعين فيما اختصوا فيه ، مغلوبين تجاه شهواتهم ، مستضعفين أمام ميولهم .

قد عرفت استاذاً (شيخاً للمدرسين : Doyen) فى إحدى الجامعات ، كان يدرس الفيزياء الرياضية العالية . وكان قد ألف ثلاثة مجلدات عن ما دوّنه المسلمون فى القرنين الثالث والرابع الهجرى فى الرياضيات .

فاستأذنت منه الولايات المتحدة (فى أمريكا) لتقوم بترجمة ما ألف تجاه مبلغ جسيم . فأذن واستلم المبلغ . فلم يشاهد هذا الاستاذ بعد استلامه المبلغ إلا بعد انتهاء العطلة وهو مبتلى فى عقله ! فجاء الى الجامعة ليدرس الفيزياء الرياضية فى الصف الذى كان يدرس فيه . واذا به يقول : أريد أن أدرسكم اليوم (التاريخ) ! ويخاطب أحد طلابه فيشتبه فيه ويظنه غيره . واذا به مجنون ! يحمل الى دار المجانين ويموت هناك وهو مجنون . ذلك لأنه بعد استلامه المبلغ إزاء جهوده ذهب مباشرة الى دور البغاء والعواهر وابتلى بمرض الزهرى (Syphilis) . وإن مكروب هذا المرض يهجم على أضعف عضو فى الشخص . فهجم على مخه وأدى به الى الجنون .

فلو كانت الإتمامات (Integrations) الصعبة التى لا تنطبق على ما دوّن من نماذج : (Types) تكفى لردعه عن المدنسات وعما حرم الله تعالى لما ابتلى بالجنون .

فالشيطان لايخشى شيخ الأساتذة فى الجامعة ولا من حمل لقب (الدكتورا : Doctorat) ، سواء كان قد حملها بحق أو بغير حق ، وسواء ثابر بعد حمله هذا اللقب على التتبع أو اكتفى باللقب فحسب ، وسواء بلغ من التتبع درجة يحق له أن يحمل لقب (الدكتورا) ولكن الظروف لم تساعده لعرض آثاره على جامعة من الجامعات ، أو لم يبلغ .

إن الشيطان ليهجم على النفس الإنسانية مهما كان نوعها . فيدعوها الى ما يدنسها ويرديها . وإن العلم حديثه وقديمه ليس بالشىء الذى يمنع النفس عن إطاعة الشيطان . ذلك لأن (العلم) عملية فكرية وليس بعملية نفسية .

فالذى يمنع النفس عن إطاعة الشيطان ، إنما هو خشية الله وخوف الله ، إنما هو العبادات وعلى رأسها الصلاة المقبولة : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » صلاة فيها خشوع وخضوع وتفكر وتدبر .

جاء فى الحديث : « أعلمكم بالله أخوفكم له » . ويراد بهذا العلم : العلم الإلهى والمعارف الإلهية . أى أن المعارف الإلهية لا تحلُّ إلا فى نفس تخاف الله كثيراً وتخشاه كثيراً . فالعلم الكثير فى غير طاعة الله ممد للذنوب كما أثر عن على عليه الصلاة والسلام حيث يقول : « كثرة العلم فى غير طاعة الله مادة الذنوب » .

ويستفاد من الأحاديث الآتية : أن العالم يؤاخذ على ذنبه أضعاف ما يؤاخذ عليه الجاهل : قال رسول الله (ص) : « إن الله تعالى يغفر للجاهل أربعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً » . وقال أيضا : « زلة العالم كبيرة » . وقال على عليه السلام : إن الله تعالى أوحى الى نبي من الأنبياء (ع) : « قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، يلبسون للناس لباس الضأن وقلوبهم قلوب الذئب ، ألسنتهم أحلى من العسل وأعمالهم أمرُّ من الصبر ، إياى يخادعون وبى يغترُّون وبدينى يستهزئون » .

وقال الإمام الباقر (ع) : « من طلب العلم ليباهى به العلماء أو يمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس ، فليتبوأ مقعده من النار ، إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها » . وفى حديث آخر : « لا طاعة إلا بعلم ، ولا علم إلا بتعلم ، والتعلم من معلم ربانى » .

عرفت استاذاً فى علم التربية وعلم النفس : بلغ مرتبة (الدكتورا) ، كان يدرس فى المعاهد العالية . إنه لم يقوَ على كبح نفسه عن شرب الخمور . فكان يشرب بدرجة تؤدى به الى تشويه سمعته مع علمه أن : « شارب الخمر كعابد وثن » ، كما جاء فى الحديث .

فقد ذكر لى أحد تلاميذه أنه شاهده ذات ليلة ملقى على قارعة الطريق فى الأوحال وهو ثمل لا يشعر . يقول : إنى أردت أن أؤدى ما للأستاذ على

التلميذ من حقوق ، فدعوت سيارة وحملته مع السائق ووضعناه فى السيارة ونقلناه الى فندق كان يسكن فيه . قمت بإسعافه قليلاً قليلاً حتى صحا . فقلت : يا أستاذ ، أنت تلقى علينا دروساً فى ضبط النفس وفى التحلى بالأخلاق الفاضلة ومجاهدة النفس البهيمية . فما هذا الذى أرى بك يا سيدى ؟ فأجاب جواباً سوفسطائيا بقوله : إنما أنا أقتل مرارة الحياة بمرارة الخمرة ! وقد فاته أنه يقتل نفسه !

فترون أن ليس هناك أية علاقة بين ما تحمله الحافظة من معادلات وقوانين وخواص وما يقوى عليه التفكير المجرد من استنتاج واستقراء أو تجريد وتعميم ، وبين اتجاه النفس نحو المبدأ الأعلى وإطاعة الله تعالى وردعها الشهوات المميتة وقمعها المرديات . إنهما من واديين مختلفين . فالأول من وادى الحافظة والتفكير والذكاء ، والثانى من عالم النفس . وبينهما بون شاسع . فلو انطفأ العقل بما يلوث به من موبقات وجرائم حل محله الشيطان والخداع والنكراء ومُنىَ النفس بما يبعدها عن الله تعالى حتى تبلغ أسفل سافلين .

إن الله تعالى يقول : « فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون » . والهداية عند البعض ، فى يومنا هذا ، أن ينال الشخص شهادة عالية ! فهو مثقف مهدى ! .

إن الله تعالى يقول : « يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات » فقدم الله تعالى (الإيمان) على (العلم) ، ذلك لأن العلم الحقيق ، وأعنى به المعارف الإلهية إنما يترشح من (الإيمان) . . . فكلما قوى الإيمان ، بتطهير النفس ، بالعبادة والأعمال الصالحات ، ترشح من هذا الإيمان « العلمُ الصحيح » الموصل الى معرفة الله تعالى . واذا أردنا أن نفسر هذه الآية على غير ما قلنا نقع فى مشكلة . ذلك لأنا نرى علماء فى بعض ما أودع

الله فى هذا الكون من خواص ودساتير رياضية ، مجردين عن المعارف الإلهية . بل البعض منهم زنادقة ملحدون . فكيف يرفع الله (حسب الآية المتقدمة) هؤلاء الزنادقة والملاحدة درجات ؟ !

ولا فرق فى هذا المقام بين العلوم الدينية من فقه وأصول وفلسفة . . . وغيرها وبين العلوم الرياضية والفلكية والكيماوية الخ . . فيجوز أن يكون الشخص قد درس الحكمة الإلهية ولكنه مع ذلك ضعيف الإيمان ، يشوبه كثير من الشكوك ، أو درس القرآن دراسة متقنة مع مراجعة كثير من التفاسير ولا يؤمن به كما نرى ذلك فى المستشرقين !.

ذلك لأن الإيمان ليس بالشىء الذى يترشح من الذكاء أو الحافظة بل هو عصارة كف النفس عن المحرمات والقيام بالأعمال الصالحات لوجه الله تعالى . إن الله تعالى يقول : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » . أى أنه لا يؤمن بآيات الله إلا المتقون الذين يخافون ربهم من فوقهم فلا يعصون الله فى السر والعلن .

ويقول الله تعالى فى آية أخرى : « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه والى الله المصير . وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ، إن أنت إلا نذير » . (فاطر : ٢٠) . فالمواعظ والإرشاد والإنذار لا تؤثر إلا فى مَن يخاف الله بالغيب ، (أى بينه وبين الله ، لا يعلم بذلك أحد) وفى مَن أقام الصلاة لوجه الله . وهما بابان عظيمان لتزكية النفس .

ومَن كان لا يخاف الله ويرتكب المعاصى فى السر والعلن ، يظلم نفسه ويظلم الناس ، فنتيجة ذلك : الجحود وعدم الإيمان عاجلاً أو آجلاً . إن الله تعالى

يقول : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » . (الأنعام : ٢٢) . أى أن الظلم لا يترشح منه إلا الجحود بآيات الله تعالى مع تصديقهم بالنبوة أحيانا .

فإذا رأيت شيخاً أو مراهقاً أو شاباً جاحداً مستهزئاً ، مكذباً بآيات الله تعالى فاعلم أنه مجموعة ظلم وجور وعقوق وخيانة وفجور وفسوق . . . سواء أتيحت له الفرص فحقق ما ذُكر أو لم تتح . فإن عقيدة الانسان خلاصة حالته النفسية سواء أظهرت الى الوجود أم لم تظهر .

ثم إن معيار الاختبار يجب أن يكون عاماً ، يعمُّ أفراد البشر قاطبة بلا تفريق وتمييز ، أوتوا بعض المواهب أم حرموا . ولا يمكن ذلك إلا اذا توجه الاختبار الى النفس التى أُلهمت طريق الخير والشر ، بقوله تعالى : « فألهمها فجورها وتقواها » ، كى يشترك فى ذلك الوضيعُ والشريف والغنىُ والفقير والرئيسُ والمرؤوس . فتكون التقوى إذن معياراً للمفاضلة وأساساً لفوز الشخص بسعادة الآخرة ، فقد قال تعالى :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

الدنيا أشبه شىء بمدرسة يطبق فيها طلابها دروس تكامل النفس ، وتعطى لهم عليها درجات . درجات موجبة لأعمال صالحة بما فيها العبادات ، ودرجات سالبة لأعمال سيئة بما فيها العقائد . ثم تجمع هذه الدرجات ، فإن كانت النتيجة موجبة فهو من أصحاب الجنة ، وإن كانت سالبة فهو من أصحاب النار . وهذا معنى قوله تعالى :

« فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية . وأما من خفّت موازينه فأمُّه هاوية وما أدراك ماهيه نار حاميه » . ويقول الله تعالى فى موضع آخر : « والوزنُ يومئذ الحق » .

ليس فى هذه الامتحانات الإلهية مجال للإكمال كالامتحانات المدرسية .

فإما الى جنة وإما الى نار . لأن الانسان ينقطع عمله بعد موته . فلا عمل ولا تحضير ولا تزوّد بعد الموت . (فالدنيا دار عمل ولا حساب ، والآخرة دار حساب ولا عمل) .

وقد جاء فى الحديث ما مؤداه : اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاثة : صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يستغفر له . إن الصدقة الجارية تحتاج الى مال ونفس سخية وقلّ من يوفق اليها ، وأما العلم الذى يأخذ بالفرد الى ساحات القدس والتقرب منه تعالى فقلّ من يوفق الى بثه ونشره اليوم ، وإن ما يكتب اليوم عن الطبيعة والفلك وغيرهما إنما يكتب بأسلوب مادى ، ولا يذكر العبد بعظمة الله وجليل قدرته وحسن إبداعه ، وأما الولد الصالح فأصبح نادراً جداً . وكم ألفيت آباءً يحزنون على سلوك أبنائهم ، ورأيت البعض منهم يبكون حزنا على ما عليه أبناؤهم من نهج معوج ، واتجاه سقيم ، لا يصلون ولا يذكرون الله أداءً لواجب الشكر . ورأيت بعض الآباء يقدم مبلغاً يعتدّ به الى ولده يريد أن يصلى فلا يلبى طلبه ! ورأيت آباءً آخرين يبغضون أبنائهم غاية البغض لعدم قيامهم بواجباتهم الدينية حتى أنهم لا يريدون أن ينظروا الى وجوههم . كل ذلك لشدة إيمانهم .

إن الله تعالى يقول : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » . على أن إطاعة الوالدين أمر واجب بعد توحيد الله تعالى : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » . وفى الحديث : « نظر الولد الى والديه حبا لهما عبادة » . وما أقل الأبناء العاملين بهذا الحديث ! . .

فالعاقل هو الذى لا يعتمد على ما سيقوم به أرحامه وذووه بعد موته من أجله من مبرات وخيرات ، فيبادر بتعمير آخرته قبل حلول أجله .

وقد قال تعالى : « حتى اذا جاء أحدهم الموت ، قال ربِ ارجعونِ لعلى أعمل صالحاً فى ما تركت ، كلا ، إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يُبعثون » .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين جمع الأقربين من قريش : « إن الرائد لا يكذب أهله . والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم . والله الذى لا إله إلا هو : إنى لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة . والله لتموتنَّ كما تنامون ، ولتبعثنَّ كما تستيقظون ، ولتحاسبنَّ بما تعملون ، ولتجزَونَّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً . وانها للجنة أبداً أو النار أبداً » . ولذلك قال تعالى : « وتزوَّدوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقونِ يا أولى الألباب » .

فتعديل درجات امتحان الله تبارك وتعالى إنما يكون فى هذه الدنيا . فمن حصل على درجة (— ٥) مثلاً لعدم الصبر على نائبة جزع فيها يعدله بالصبر على فقر يصاب به ، فينال فيه (+ ٦) مثلاً ، فتكون النتيجة (+ ١) وهوفوق الصفر . وعن على (ع) : « اذا صبرت جرى عليك القضاء وأنت مأجور ، واذا جزعت جرى عليك القضاء وأنت مأزور » .

ومن بخل فى مال أعطاه الله إياه ولم ينفق منه فأمست درجته لعدم الإنفاق الواجب (— ١٠) مثلا ، فإنه يعدله بفقر يصاب به ، فيعطى من هو أفقر منه من ماله الضئيل أضعاف ما كان يعطى حين كان غنياً ، مع مراعاة النسبة ، فينال (+ ١٥) مثلا ، فتكون النتيجة (+ ٥) . فيصفى حسابه فى دنياه قبل أن يحاسب فى الآخرة . ولا أعنى بهذه الأرقام التى جئت بها على سبيل المثال ، أن الله يحاسب العباد على طبقها ، وإنما تمثيل وتقريب وتفسير .

لا ريب أن حساب الآخرة لدقيق جداً . والدرجات فى غاية الدقة أيضا . ولا تقبل الشفاعة فيها إلا اذا كانت الشفاعة مقرونة برضا الله تعالى . لقوله عز من قائل : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » . فإن الأنبياء والأوصياء سلام الله عليهم أجمعين لا يشفعون إلا اذا اطلعوا على مرضاة الله تعالى . فإنهم : « عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

وعن على عليه السلام : « وإن من شيعتنا من لا تناله شفاعتنا إلا بعد عذاب الله له ثلاثمائة الف سنة » .

قال طاووس : رأيت على بن الحسين زين العابدين عليه السلام يطوف من العشاء الى السحر ويتعبد . فلما لم ير أحداً رمق السماء بطرفه وقال : « إلهى غارت نجوم سماواتك وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحات للسائلين . جئتك لتغفر لى وترحمنى وتريني وجه محمد صلى الله عليه وآله فى عرصات يوم القيامة » ، ثم بكى وقال : « وعزتك وجلالك ، ما أردت بمعصيتى مخالفتك ، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاكٌّ ، ولا بنكالك جاهل ، ولا لعقوبتك متعرض . ولكن سولت لى نفسى وأعاننى على ذلك سترك المرخى علىَّ . فالآن من عذابك من يستنقذنى وبحبل مَن اعتصم إن قطعت حبلك عنى . فوا سوأتاه غداً من الوقوف بين يديك اذا قيل للمخفّين جوزوا ، وللمثقلين حُطوا . أمع المخفين أجوز ، أم مع المثقلين أحط . ويلى . كلما طال عمرى كثرت خطاياى ولم أتب . أما آن لى أن أستحيي من ربى » . ثم بكى وأنشأ يقول :

أتحرقنى بالنـــار يا غاية المنى فأين رجائى ثم أين محبتى
أتيت بأعمـــال قباح زرية وما فى الورى خلق جنى كجنايتى

ثم بكى وقال : « سبحانك تُعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تُعصَ . تتودد الى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة اليهم ، وأنت يا سيدى الغنىُّ

عنهم » . ثم خرّ الى الأرض ساجداً . فدنوت منه وشلت برأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده . فاستوى جالساً وقال : « من الذي أشغلني عن ذكر ربي » . قلت : أنا طاووس ، يا ابن رسول الله ، ما هذا الجزع والفزع ؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جانون . أبوك الحسين بن علي وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله (ص) . فالتفت الي وقال : « هيهات هيهات يا طاووس ، دع عني حديث أبي وأمي وجدي . خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً . أما سمعت قوله تعالى : (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون) . والله لا ينفعك غداً إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح » .

فاذا كان علي بن الحسين عليه السلام يفعل مثل ذلك مع عصمته وطهارته بنص من الكتاب والسنة ، فكيف بنا ونحن ملئنا معاصيَ وآثاماً . كل ذلك ليعلمونا سلام الله عليهم آداب التقرب الى الله ، آداب الدعاء والخضوع ، آداب التوبة والاستغفار . لكي تطهر هذه النفوس الملوثة بدموع تذرفها جوف الليل نادمة على صنيعها ، آسفة على فعالها .

إن الأئمة سلام الله عليهم كانوا يعبدون الله تعالى بهذه الآداب العالية أداءً لواجب الشكر ، لما ميزهم الله تعالى عن سائر البشر .

يدخل جابر رضوان الله عليه على علي بن الحسين (ع) يقول : يابن رسول الله ، أما علمت أن الله خلق الجنة لكم ولمن أحبكم ، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم . فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك . (ذلك لأن زين العابدين عليه السلام قد انخرم أنفه وتفتت جبهته وركبتاه وراحتاه مما أدأب نفسه في العبادة حتى سُمي بذي الثفنات) . فيجيبه الإمام عليه السلام قائلا : « يا صاحب رسول الله ، أما علمت أن جدي رسول الله (ص) قد غفر الله

له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فلم يدع الاجتهاد ، وتعبد بأبي هو وأمي حتى انتفخ الساق وورم القدم ، وقيل له . أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

إن الله تبارك وتعالى قد امتحن أنبياءه وأوصياء أنبيائه عليهم السلام امتحانات صعبة شاقة لا يقوى عليها البشر العادى . هذا ابراهيم (ع) قد امتحنه الله تعالى بأن ألقىَ فى النار فكان النار له برداً وسلاماً . وامتحنه بذبح ولده اسماعيل ، وامتحنه بأن أرسل له ملكاً على شكل انسان فقال : سُبوح قدُّوس ربنا ورب الملائكة والروح . فافتتن ابراهيم (ع) بهذا النداء اللاهوتى . فطلب اليه أن يعيد ما قال . فأجابه : أنه لا يعيد حتى يعطيه نصف غنمه ، فأعطاه . فقالها ثانية : « سُبُّوح قدُّوس ، ربنا ورب الملائكة والروح » . ثم ان ابراهيم (ع) طلب اليه أيضا أن يقولها ثالثة . فقال : إلا أن تعطينى بقية غنمك ، فأعطاه . وقالها ثالثة . فهذه مرتبة من مراتب الولاء ، لا يصل اليها البشر العادى ! . .

مراتب الامتحان الالهي

إن الله تبارك وتعالى يختبر عباده حسب عظم نفوسهم وقابلياتهم ، فيبوؤهم ما يستحقون من المنازل الدنيوية والأخروية . قال نبينا صلى الله عليه وآله : « ما أوذى نبيٌّ مثل ما أوذيت » . فكان ابتلاؤه أعظم من ابتلاء من سبقه من الأنبياء والمرسلين سلام الله عليهم أجمعين .

وأما عليٌّ عليه السلام ، فقد امتحن امتحانات تزيد عن العد والإحصاء : منها مبيته على فراش النبي (ص) وعرضه نفسه للقتل . ومنها برازه الى عمرو بن ود الذى كان يعدُّ بألف فارس فى غزوة الخندق . وقد قال فيه رسول الله (ص) : « برز الإيمان كله الى الشرك كله » . وقال فيه أيضاً كما رواه الحاكم فى المستدرك : لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي الى يوم القيامة » . وقد روى الحاكم أيضا أن النبي (ص) قال : « قتل عليٍ لعمرو بن ود أفضل من عبادة الثقلين » .

وأما الحسين (ع) فقد امتحن بما لم يمتحن به من قبله ولن يمتحن به من بعده . والأئمة كلهم امتحنوا بامتحانات صعبة جداً لا يقوى عليها البشر العادى . ولا مجال لذكر ما امتحن به الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين من امتحانات شاقة جداً يفر منها غيرهم .

وقد جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن أشد الناس بلاءً النبيون . ثم الوصيون ثم الأمثل فالأمثل وإنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة ، فمن صحَّ دينه وحسن عمله اشتد بلاؤه ، ومن سخف دينه وضعف عمله ، قلَّ بلاؤه . والبلاء أسرع الى المؤمن التقي من المطر الى قرار الأرض . ذلك : أن الله عز وجل لم يجعل الدنيا ثواب المؤمن ولا عقوبة الكافر » .

والامتحان أوالبلاء إما أن يكون لزيادة الدرجات وبلوغ المنازل الرفيعة وهذا خاص بالأنبياء (ص) والأوصياء (ع) ثم الأمثل فالأمثل، وإما أن يكون لتطهير النفوس مما علق بها من أدران وأوساخ: ذنوب وآثام. فهو تكفير لما اجترحت الأيدى من ظلم وبغى ولما قامت به النفوس من حسد وغيبة ونميمة وكل ما نهى عنه الدين.

فعن أبى جعفر (ع) قال: إن الله عز وجل اذا كان من أمره أن يكرم عبداً وعليه ذنب، ابتلاه بالسقم، فإن لم يفعل ذلك به ابتلاه بالحاجة، فإن لم يفعل ذلك به شدَّد عليه الموت ليكافيه بذلك الذنب، وإن كان من أمره أن يهين عبداً وله عنده حسنة صحح بدنه، وإن لم يفعل ذلك به وسع عليه رزقه، فإن لم يفعل به هون عليه الموت، فيكافيه بتلك الحسنة».

وعن أبى عبد الله (ع): قال: «إن العبد اذا كثرت ذنوبه ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يزال الغم والهم بالمؤمن حتى لا يدع له ذنباً».

أنظروا كيف يأمرنا الإمام (ع) بمحاسبة نفوسنا. فعن أبى الحسن الماضى (ع)[1]: قال: «ليس منا من لم يُحاسب نفسه فى كل يوم. فإن عمل حسنة استزاد الله عز وجل، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه».

إن العبد ليمتحن فى كل يوم من حيـــاته امتحاناتٍ عدة حسب قابليته واستعداده. فطوبى لمن وُفق فى امتحانات الله تعالى بعزم ثابت وإرادة قوية مستمداً التوفيق منه تعالى. فهذه هى الإرادة الحقيقية التى يجب أن تبحث عنها التربية الحديثة: (Pédagogie Moderne) وأن تعمل فى تنميتها.

يقول أحد رجال التربية فى الغرب: كان لى صديق وقد زرنا معاً الهند.

---

(١) انه الامام السابع: موسى بن جعفر (ع).

فرأيته يغيب بعض الليالى . فسألته السبب . قال : إنى لأجد فى إرادتى ضعفاً وأحب تقويتها . أخرج جوف الليل الى الغابة أو الى الصحراء وأبارز الأسد وبعض الحيوانات المفترسة وأهيىء ناراً إن أنا تأخرت عن القائها عليها ثانية واحدة كان فى ذلك موتى المحتوم ، وبهـــذا أجد أن مقاومتى للشدائد أصبحت أكثر من ذى قبل .

نعم ، إن هذا النوع من الأعمال التربوية تقوى الإرادة وإن كتب التربية مشحونة بهذه الأساليب التربوية . ولكنَّ للتوجيه أثراً عظيما فى مستقبل الانسان الدينى وتوجهه نحو خالقه أى فى تكامل نفسه . فربَّ قوى الإرادة يصرف إرادته فى أمور محرمة وأشياء تافهه .

إن الله تعالى يقول : « ومَن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى اذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » . أو يصرف إرادته فى دنيا محضة أى فى تقوية جانب المادة مع اهمال جانب تكامل النفس : الأمر الذى وجد الانسان على وجه البسيطة لأجله . فلو عنيت التربية بناحيـــة التوجيه كما تهتم بناحية تقوية الإرادة لجمع الشاب بين سعادة الدنيا والآخرة . ولكن تربيتنا الحاضرة تربية مادية بنتائجها . تنظر الى الحياة المادية كأنها الهدف الأسمى وتربى الشاب للتزود من هذه الحياة المادية وإن فسدت فى الأثناء النفس وانحطت الملكات الأخلاقية والدينية .

وليس تكامل النفس بشىء يمكن قياسه بأسئلة امتحانية تلقى على الطلاب فى الإمتحانات النهائية ، لأنها أعمال وملكات أكثر منها نظريات وعبارات أدبية . لذلك انحطت الأخلاق الاجتماعية والأخلاق الإسلامية الموروثة : أعنى الصفات الإنسانية الكاملة التى ورثناها عن آبائنا وأجدادنا فناب منابها مجاملات صورية لا تتجاوز الحنجرة وحركات الوجه .

يقول الله تبارك وتعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » . قد خلق الله جل شأنه من النعم والمآكل والمشارب والملابس والمساكن ما يجذب الانسان ببهجته وروائه فيطمع الانسان فيها . ولا تتأتى كلها لكل شخص من مورد حلال طيب . فتغلب الشهوة وينقاد اليها الانسان ، فإذا به يُفسد نفسه ويرتكب الظلم والبغى ليتزود من هذه النعم والمآكل ويتزين بأنواع الزينة فيرسب فى هذا الاختبار النفسى العسير . إن الله لم يحرم على الناس الاستفادة من نعيم الدنيا وزينتها وزبرجها اذا كان من مورد حلال شرعى واستعمل حسبما عينه الشرع : « قل مَن حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرّم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » . (سورة الأعراف) . فنى هذه الدنيا يشترك المؤمن مع الكافر فى التنعم بالطيبات من الرزق وزينة الدنيا الفانية ، أما فى الآخرة فيكون ذلك للمؤمنين خالصة خاصة بهم ، بمقياس لا يحيط به العقل البشرى .

فالدنيا بمظاهرها الخلابة وجمالها الفتان وأشجارها ونباتها ومائها وهوائها مواد للإمتحان : (كالفيزياء والهندسة المجسمة وعلم الهيئة وحساب الاحتمالات و . . . .) ، ولا يقوى على ردع النفس عن الشهوات المحرمة إلا من أوتىَ يقيناً صادقا وتوجها خالصا ولطفا ربانيا : « والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم » . (سورة محمد ص : ١٩) .

قد يصادف الانسان فى عنفوان شبابه مائدة خمر جلس عليها أصحابه فيلحون عليه بالشرب وهو يمتنع لطهارة أودعها الله تعالى فيه بالفطرة ، ثم يلحفون عليه ثانية وثالثة والشيطان بالمرصاد . فهنا صراع بين العقل والنفس

الأمارة بالسوء أو بالأحرى بين العقل (إن لم يُحجب وبقى على فعاليته) وبين الشيطان . فإن غُلب الشاب على أمره فقد سقط فى هوة سحيقة . وإن تذكر أمر الله واليوم الآخر وعزم على الرفض واستعان بالله جل وعلا فى خلاصه ونجاته فإن الله يهيء له أسباب النجاة . وان ارتداعه هذا فى هذا الاجتماع الفاسد وكبحه شهوته بعزم رصين يفتحان عليه أبواب رحمة الله فيزداد بفضله هدىً وتقوى وصلاحا . فقد جاء فى الحديث : « لو مشى العبد نحوى شبراً لمشيت نحوه ذراعا » . وما من تقى إلا ويُمتحن فى حياته بامتحان أو امتحانات نظائر هذا الامتحان .

كثيراً ما تقوى إرادة الانسان على النجاح فى أمور دنيوية ولكن نفس هذه الإرادة تراها مغلوبة تجاه الشهوات والمغريات ، ضعيفة أمام محارم الله تعالى . فالإرادة كل الإرادة اذا استطاع المرء أن يكبح شهواته ويجعل رزقه من مورد حلال طيب . فإن الأموال المحرمة أو المشتبهة لها آثار سلبية فى اتجاه الانسان نحو خالقه وفى قمع الشبهات وحصول اليقين .

أرأيت مرابياً بلغ من الايمان مرتبة تذكر ، أم رأيت سارقاً تخشع نفسه عندما يسمع كلمات الله تعالى . ولا فرق بين السرقة وبين المتاجر المحرمة والمعاملات غير المشروعة والنجاح فى مهمة باستعمال المكر والخديعة . فكل عضو من أعضاء الانسان يمكن استعماله فى حلال أو حرام . وهذا هو معنى الاختيار . فالعين يمكن استعمالها فى الحرام بالنظر الى أعراض الآخرين ويمكن صرفها عن الحرام بالتجنب عن النظر الى المحرمات . فقد جاء فى الحديث : « الأولى لك والثانية عليك » . أى أن الله يغفر لك النظرة الأولى التى جاءت عفواً وأنت آثم فى الثانية مدنّس فيها نفسك . واليد يمكن استعمالها فى دع اليتيم وضربه ويمكن استعمالها فى المسح على رأس اليتيم وأعمال صالحة أخرى كالكسب والعمل فى المعامل وأمثال ذلك . وكذلك الرجل يمكن استعمالها

فى الذهاب للسرقة أو دور البغاء ، ويمكن استعمالها فى حمل طعام الى أرملة بائسة أو السؤال عن حال مريض معوز ومساعدته .

وقد بين الله تعالى كل ما من شأنه ارتقاء النفس وكل ما من ورائه انحطاط النفس على لسان نبيه الأمى (ص) : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (سورة النساء ١٦٣) . وقد أوصى النبي صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين علياً عليه السلام بهذه الوصية :

« سر ميلاً عُد مريضاً ، سر ميلين شيّع جنازة ، سر ثلاثة أميال أجب دعوة ، سر أربعة أميال زر أخاً فى الله ، سر خمسة أميال أجب دعوة الملهوف ، سر ستة أميال أنصر المظلوم وعليك بالاستغفار » .

قال الله تعالى : ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيَّ عن بينة » . (سورة الأنفال : ٤٤) .

انما المؤمنون اخوة

يقول الله تبارك وتعالى فى قرآنه المجيد : « إنما المؤمنون إخوة » فإنما أداة حصر ، أى أن المؤمنين لا يكونون إلا إخوة يتوادُّون ويتحابون ، يؤازر بعضهم بعضا ويعاضد أحدهم الآخر . فالإيمان هو الرابطة القوية فيما بينهم . ذلك لأن الإيمان شعور مشترك يجمع القلوب فيقرب فيما بينها . فكأن الإيمان سيال كهربائى أو خطوط مغناطيسية تؤثر فى الكون فتجذب ماينا سبها وان بعد التشبيه .

ذلك لأن الانسان مجموعة طاقات ، والمادة تشعُّ فتتحول الى طاقة . فكما أن المجال المغناطيسى يتأثر بالمجال الكهربائى فيكون بين الجسمين الحاملين لهذين المجالين تقارب أو تباعد كذلك النفوس تتجاذب بعضها مع بعض لو كانت مؤمنة بنفس الدرجة من الإيمان أو مع تفاوت يسير وتبتعد بعضها عن بعض لو كان الاختلاف كبيراً . ووفقاً لهذه النظرية اختار النبى (ص) علياً (ع) أخاً له فى الدنيا والآخرة وآخى بين المهاجرين ثم آخى بين المهاجرين والأنصار . ولذلك كان يقول على (ع) كما يحدثنا النسائى : « أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصدّيق الأكبر » .

لو أمررنا تياراً كهربائياً على سلك وعلقنا بجنبه إبرة مغناطيسية لرأيناها تتحرك يميناً أو يساراً حسب جهة التيار ، كما هو ثابت فى الفيزياء . أى يتأثر المجال المغناطيسى بالمجال الكهربائى ، لأنهما من وادٍ واحد على وجه التقريب . كذلك تؤثر النفوس بعضها فى بعض ، تتباعد أو تتقارب ، لأنها أيضا من مفاهيم القوى .

فكر فى رجل يمشى أمامك تفكيراً مجرداً عن كل شىء إلا فى نفس ذلك

الرجل ، فتراه يدير بوجهه اليك . ذلك لأن نفسك قدأثرت فى نفسه فوجهته اليك . على أن هناك قواعد يجب أن تراعى : من قوة النفس ودرجة هيمنتها على نفس أخرى .

قد طرد فى أمريكا صاحب معمل أحد عماله ، وبقى هذا العامل لا شغل له . وتأثر كثيراً ، فعمد الى عمل لعله يؤذى به صاحب المعمل وكان يعلم شيئاً من آثار النفس ، فأحضر تصوير صاحب المعمل وأخذ ينظر اليه بحدة ضاربا بمطرقته على سندان بصورة مستمرة ، فصار يحس صاحب المعمل بوجع شديد فى رأسه ويشعر بضربات فى مخه ، راجع الأطباء فلم يتمكنوا من معالجته . يئس من الحياة ، فأراد أن يسترضى من ظلمه . قيل له : إنك طردت عاملاً لك دونما مبرر . فتوجه الى بيت العامل ورأى ما كان يقوم به العامل ، فأرجعه الى محله وشفى مما ألمّ به .

إن هذه الحادثة تعلمنا أن هناك خطوطا مغناطيسية أو ما يشابهها تأثرت بهذه الدقات العنيفة على السندان ، فأثرت فى رأس صاحب المعمل وكادت أن تقضى عليه .

فالتجاذب والتحابب والأخوة من آثار الإيمان الحقيقى ، فكلما زاد إيمان الشخص أصبح له أخوة مؤمنون بصورة طبيعية وهذا من النظم الروحية التى أودعها الله تعالى فى الكون .

وقد روى أنه كان يقاس إيمان الشخص فى زمن رسول الله (ص) بحب على عليه السلام . فكلما كان حب الشخص لعلى (ع) أكثر كان ايمانه أقوى ، على أن لا يبلغ هذا الحب مرتبة الغلو والتأليه ، فقد قال رسول الله (ص) : « يا علىُ ، هلك فيك اثنان : محبٌ غال وعدوٌ قالٍ » .

إنى أعتقد أن هناك سيالاً إيمانياً (كالسيال الكهربائى) يوصل الفرد المؤمن بعلى عليه السلام وهو شمس الإيمان فيحبه . ففى قلب كل مؤمن شعاع

من تلك الشمس حسب درجة إيمانه . فقد قال رسول الله حين برز علىٌّ الى عمرو بن عبد ود : « برز الإيمان كله الى الشرك كله » .

فعلى (ع) الإيمان كله على حد تعبير رسول (ص) والمؤمنون لهم نصيب من هذا الإيمان بدرجة حبهم لعلى ، على أن لا يبلغ هذا الحب درجة الغلو ، فبعد أن كان موجبا يصبح سالبا ، مثال ذلك : (ع = ظا س[1] . وعندما تكون س = ٩٠° ، أو ٢٧٠° ، ينتقل الظل من + ∞ الى — ∞) فيكون المغالى مخلداً فى النار : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

ويؤيد ما قلنا ما روى عن النبى (ص) : فى حديث قدسى : « إن الله عهد لى فى علىٍ عهداً . قلت يا ربّ بينه لى . قال : إن علياً آية الهدى وإمام أوليائى ونور من أطاعنى ، وهو الكلمة التى ألزمتها المتقين ، من أحبنى أحبه ومن أطاعنى أطاعه » .

وعن حلية الأولياء عن النبى (ص) : « قسمت الحكمة عشرة أجزاء . فأعطى علىٌّ تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً منها » .

ترى شخصاً لا تعرفه من ذى قبل ، فتحبه حباً جماً وتود أن تجالسه وتعاشره . كلما تفتش عن السبب لا تهتدى اليه . السبب : هو انجذاب الأرواح المؤمنة بعضها الى بعض بصورة طبيعية .

رآنى يوماً مؤمن من أهل الفضل . فقال : إنى كنت أحبك عن بعد . وإن حبى إياك يزداد يوماً فيوما . فلم أقو على الكتمان . وأظن أنا قد تحابينا فى عالم الذر . فأرجو أن تجعل فطورك غداً عند الصباح فى بيتى ، وقرأ لى

---

(١) لا يخفى أن هذا المثال الرياضي لا ينطبق على الموضوع . وانما ذكر للتقريب والتوضيح . ولم نبلغ من العلم درجة تمكننا من وضع دساتير رياضية لقضايا نفسية . « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

هذا الحديث : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . فالله تعالى بنص الآية : « إنما المؤمنون إخوة . . . » أراد بالمؤمنين أن يكونوا إخوانا يساعد بعضهم البعض .

يحدثنا سعيد بن الحسن عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : « أيجيء أحدكم الى أخيه فيدخل يده فى كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه ، فقلت لا ، فقال : ليس هؤلاء شيعة ... الى آخر الحديث » ... وهذا غاية الكمال فى الأخوة ، أو ليس ديننا دين الكمال . أو ليس هذا الدين قد جاء به الرسول الأمين ليخرج الناس « من الظلمات الى النور بإذن ربهم » . وليس النور إلا ما يبلغ اليه الشخص من الكمالات النفسية من توحيد الله والقيام بما أمر به الله .

يقول الله تبارك وتعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً » . ومعنى ذلك أن الله يحدث فى قلوب المؤمنين حباً ووداً للذين آمنوا به تعالى وقاموا بأعمال صالحة . فإن الإيمان والأعمال الصالحة لها آثار طبيعية ذاتية ، وهى حدوث مودة طبيعية فى قلوب المؤمنين . فقد جاء فى الحديث : « من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبةً بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله الى عز طاعته » .

يقول الله تبارك وتعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » . النعمة هى نعمة الاسلام ونعمة الإيمان . فالمؤمنون متآخون فيما بينهم بنص القرآن الكريم . لا تباغض بينهم ولا تشاحن بل هم « كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضهم بعضا » . هذه أخوة المؤمنين فى الدنيا . وهناك أخوة أبدية بعد الموت فى عالم الخلود فى « جنة عرضها السموات والأرض أعدَّت للمتقين » . وهو قوله تعالى : « إن المتقين فى جنات وعيون . أدخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين » .

فمن لم يدخل فى الأخوة الاسلامية ، فليس من الإيمان فى شىء ، وإن الإيمان لم يلج فى قلبه .

وعن المفضل بن عمر . قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : « إنما المؤمنون أخوة بنو أب وأم . فإذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون » . ومعنى ذلك : أن المؤمنين يتألم بعضهم لبعض وأنهم يعملون ساهرين ، لأجل دفع المكروه عن إخوانهم وإسعافهم وإزاحة الكربة عنهم .

نعم ، إن المؤمنين يتألم بعضهم لألم الآخر بصورة غير اختيارية : (لا عن شعور) . ذلك لأن أشعة الإيمان توصل بعضهم ببعض ، فيشعر هذا بحزن ذاك فيحزن ، ويحسُّ بسروره فيسرُّ .

هذا جابر الجعفى يقول : تقبضت بين يدى أبى جعفر (ع) فقلت جعلت فداك : ربما حزنت من غير مصيبة أو أمر ينزل بى حتى يعرف ذلك أهلى فى وجهى وصديقى . فقال : « نعم يا جابر ، إن الله عز وجل خلق المؤمنين من طينة الجنان وأجرى فيهم من ريح روحه ، فلذلك : المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه . فإذا أصاب روحاً من تلك الأرواح فى بلد من البلدان حزنَ حزنت هذه لأنها منه » . وفى حديث آخر : « المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله ، لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عِدة فيخلفه .

إن للإيمان حيوية تربط نفوس المؤمنين بعضها ببعض وتجعلهم كنفس واحدة . وان هذه الرابطة لا يضاهيها أية رابطة أخرى ، هى رابطة معنوية رفيعة أودعها الله الصلحاء من خلقه . وهو قول أبى عبد الله عليه السلام : « المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد ، إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك فى سائر جسده ، وأرواحهم واحدة ، وان روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها » . وهذا حفص بن البحترى يقول : « كنت عند أبى عبد الله الصادق (ع) فدخل عليه رجل . فقال لى : تحبه ؟

فقلت : نعم ، فقال لى : ولم لا تحبه وهو أخوك وشريكك فى دينك وعونك على عدوك ورزقه على غيرك » . نعم ، المؤمنون يخدم بعضهم بعضا ويفيد بعضهم بعضا كما هو مضمون حديث .

إن الدين الاسلامى قد فرض حقوقا على كل من المؤمنين ، عليهم أن يؤدوها وهو قول محمد الباقر (ع) : « من حق المؤمن على أخيه أن يشبع جوعته ويوارى عورته ويفرج كربته ويقضى دينه ، فإذا مات خلفه فى أهله وولده » .

وهل يتصور البشر أخوّة أعلى من هذه الأخوّة ، وهل يتصور سلام فى الكون أرفع شأناً من سلام يتأتى من تطبيق الدستور المذكور . نعم يصل الانسان الى تطبيق هذا الدستور حرفياً لو قوى إيمانه وزاد يقينه وصار مظهراً للتقوى والورع . فالكمال : فرع الإيمان ورشحات التقوى وآثار الورع . فمن فتش عن الكمال الانسانى فى وادٍ آخر فقد تاه وضل . ولا تطمئن نفس امرئ ولا تعترف بفعالية آثار الإيمان والتقوى فيها إلا اذا كان ممن جرب وسار فى مجالات تكميل النفس بتزكيتها وتحليتها .

هذا مُعلى بن خُنيس يروى عن أبى عبد الله (ع) يقول : « قلت له : ما حق المسلم على المسلم ، قال له سبعة حقوق واجبات ، ما منهن حق إلا وهو عليه واجب ، إن ضيّع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته ولم يكن لله فيه نصيب . قلت له : جعلت فداك وما هى ؟ قال : يا معلى ، إنى عليك شفيق ، أخاف أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل . قال قلت له : لا قوة إلا بالله ، قال : أيسر حق منها : أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك . والحق الثانى : أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره . والحق الثالث : أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك . والحق الرابع : أن تكون عينه ودليله ومرآته . والحق الخامس : لا تشبع

ويجوع ولا تروى ويظمأ ولا تلبس ويعرى . والحق السادس : أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم ، فواجب أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه . والحق السابع : أن تبرّ قسمه وتجيب دعوته وتعود مريضه وتشهد جنازته ، واذا علمت أن له حاجة تبادر الى قضائها ولا تلجئه أن يسألكها ولكن تبادرها مبادرة ، فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتنا » .

هذه درر من درر هذا الدين القويم ولآلئ من لآلئ هذا الناموس العظيم تتلألأ بكل وضوح وجلاء . لآلئ لا يصل الى عمقها فيلسوف تربى فى أحضان المادة الدكناء ولا تعيها إلا قلوب زكية وأرواح نقية . ونسأل الله تزكية قلوبنا وتطهير أرواحنا وأن يجعلنا مؤمنين متآخين .

التراحم فى الاسلام

يصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بقوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً ، يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » . فالمؤمنون متراحمون فيما بينهم متعاطفون ، يرحم بعضهم بعضا ويعطف كل منهم على الآخر ، فإنهم راكعون ساجدون « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » . وإن الركوع والسجود بإخلاص وإقبال ليؤثران فى توجيه النفس الى الله تعالى فتشعّ منهما أنوار من أنوار الله القدسية فتلطف النفوس وتتدرج فى مجالات الكمال فتكتسب الفضائل والمكارم ومنها التراحم والتعاطف . يقول الله تبارك وتعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم » .

فوصف الله المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض ، يتوادّون ويتحابون ويتراحمون فيما بينهم . فلا ترى فيهم محتاجاً ولا بائسا ولا مسكينا . لأن المستطيع منهم يبادر الى مد يد المعونة الى الضعيف ، يفتش عن الفقراء والمساكين ويجهد نفسه فى سد حاجاتهم ورفع الكرب عنهم . لماذا ؟ لأن المؤمن المتخلق بهذه الأخلاق الكريمة القائم بهذه الأعمال الواجبة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة واطاعة الله واطاعة رسوله (ص) لا يكون إلا ولىّ المؤمن الآخر ، يساعده ويؤازره ويضحى بنفسه ونفيسه فى سبيل انقاذه مما أصابه ، حتى يكون موضع رحمته تعالى . لقوله تعالى : « سيرحمهم الله » ، فإن الحياة الاجتماعية السعيدة لا تتحقق إلا اذا توادّت القلوب وتراحمت

وتعاطفت . وان التراحم لا يحصل إلا اذا تمركز الإيمان فى قلوب الناس وكانوا مؤمنين حقا .

إن القوانين المدنية الحاضرة أو التربية الاجتماعية الخالية من الأسس الروحية ومن التوجيهات النفسية الدينية لا تقوى على ربط أفراد المجتمع ربطاً عميقا يؤدى الى سعادة الدارين . ذلك لأن هذه القوانين قيود ميكانيكية لا تلج النفوس ولا تربيها تربية تجعلها متآزرة متحابة متراحمة فيما بينها . ولا شك أن أقل حظ للأمة من الأخلاق ما أمرت به القوانين المدنية وقامت الشرطة بحراسته . فخير رابطة تربط البشر بعضهم ببعض هى رابطة الإيمان . يقول (گوستاو لوبون) : « من الخطأ الضار محاولة بناء الأخلاق على المعقول وحده كما ذهب اليه كثير من الفلاسفة ، لأنه اذا لم يكن للأخلاق سند من المشاعر والروح الدينى ، فلا بقاء لها ولا قوة » . وقد فاته أن ما جاء فى الدين الاسلامى من الأسس الأخلاقية ، منطق معقول يتفهمه المؤمن بنور الإيمان ويعمل به بتساند عقلى . إذ أن دين الاسلام دين العقل . وكل ما أمر به الدين أمر به العقل المتكامل . فإذا كان العقل لا يدرك حكمة بعض الأوامر الدينية فذلك لنقص فيه . وكم من الأوامر الدينيه قد ظهرت حكمها بعد تقدم العلوم والفنون وكان يحار الانسان فى تعليلها قبل ذلك .

نعم ، إن حضارة الأمة فى المقياس الصحيح تتناسب مع مقدار تمكنها من ضبط نفسها وقيامها بواجباتها الأخلاقية . تلك الأخلاق التى أقرها الدين الاسلامى ، تلك الأخلاق التى لا يصل البشر الى تأسيسها مهما تكاملت نفسه ، تلك الأخلاق التى تجعل الانسان أعلى منزلة من الملائكة .

قال الصادق (ع) : « إن أشد ما فرض الله على خلقه ثلاثة : إنصاف المرء من نفسه حتى لا يرضى لأخيه من نفسه إلا بما يرضى لنفسه منه ، ومواساة الأخ فى المال ، وذكر الله على كل حال . . ليس سبحان الله والحمد لله

ولكن عندما حرم الله عليه فيدعه » . يريد الإمام (ع) بذلك أنه لا ينبغى للمؤمن أن يكتفى بقوله : سبحان الله والحمد لله ، بل عليه أن يذكر الله عند كل ما حرمه الله عليه : من استعمال الحيل فى الربا ، والكذب ومخادعة المؤمن فى المعاملة ومطالبة أخيه المؤمن ما ليس له . إن المؤمن يواسى أخاه المؤمن فى المال ، ويساعده ويقرضه . فلماذا نرى أناسا يحملون اسم الاسلام ، فإذا أتتهم امرأة بائسة بذهب لها يسير ، تريد أن ترهنه لديه كى تستقرض مبلغاً لأداء كراء دار حقيرة ، فيجيب بخشونة : ليس عندى شىء ولكن إن كنت ترجعين المبلغ وزيادة فإنى مستعد لذلك ، مع أن لهذا الرجل كسباً يكتسب به أو صنعة يعيش من ورائها ، وإن لم يكن هذان متوفرين لديه فإن أبواب الكسب مفتوحة له . ماذا تصنع هذه المسكينة ؟ تأخذ من هذا المرابى (١٢) ديناراً مثلاً وترجع اليه بعد ٣ أشهر (١٥) ديناراً فتكون قد دفعت ربحاً قدره مائة فى المائة بحساب السنة . أهذه هى المواساة فى المال ؟ ألم ينه الله عن الربا وتوعد عليه العذاب الشديد . ألم يقل (جلّ من قائل) : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التى أعدّت للكافرين » . ألم يبلغه هذا الحديث : « درهم ربا عند الله أعظم من سبعين زنية بذات محرم فى بيت الله الحرام » .

نعم ، إن للمؤمن على المؤمن حقوقاً يجب عليه أن يؤديها حتى يستحق لقب الإيمان . وليست العبادة الصلاة والصوم والحج . . . فحسب ، بل تتجلى العبادة فى كل عمل اجتماعى أمر به الله ، فيه التحابب والتوادد والتراحم والتعاطف وايجاد حياة اجتماعية سعيدة . وهو قول أبى عبد الله عليه الصلاة والسلام : « ما عبد الله بشىء أفضل من أداء حق المؤمن » .

هذا دين جعل القيام بأداء حقوق المؤمن أفضل العبادات وأجلها . أفلا يجدر بالعالم أن يتخذ هذا الدين ديناً عالميا وتربية عالمية لإنقاذ هذا البشر مما

ينتابه من شرور وويلات ؟ أفلا يليق بفلاسفة الأخلاق وعلمائها أن يجتمعوا أياماً وأشهراً وأن يتتبعوا هذا الدين بإمعان وإنعام وأن يتفقهوه بتبصر وأرواح مجردة عن العصبية والحمية الجاهلية فيقرؤوا « الاسلام » كدين عالمى ويجبروا الحكومات على تقبله وتطبيقه . نعم ، من نواميس هذا الدين ما يقوله جعفر الصادق عليه السلام : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه ، ويحق على المسلمين الاجتهاد فى التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض ، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل رحماء بينكم متراحمين ، مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم . . على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله » .

هذا دين اجتماعى يجمع بين سعادة الفرد وسعادة المجتمع وسعادة الانسان بعد الموت ، تلك السعادة التى تستغرق ملايين السنين ، لا نفاد لها ولا انتهاء . تلك السعادة التى هى فوق حدود التصور ودائرة التفكير . نعم ، لا يمكن الوصول الى هذه السعادة إلا اذا طُبق دستور أبى عبدالله (ع) وهو القائل : « اتقوا الله وكونوا إخوة بررة متحابين فى الله ، متواصلين ، متراحمين ، تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه » .

ونسأل الله التوفيق للإيمان الصادق والأخوة الكاملة والتحابب والتواصل والتراحم والتزاور والتلاقى وإحياء أمر الأئمة الأطهار عليهم الصلاة والسلاة .

التآلف فى الإسلام

الإسلام دين الألفة والتوادد والتحابب فى الله ، دين الاجتماع والتعاون والتعاضد ، دين لو عمل بنواميسه وطبقت قوانينه ونظمه لرأيت الأرض جنة من الجنان وفردوساً كان يحلم به افلاطون ، بل فوق ما كان يتصوره افلاطون وغير افلاطون من الفلاسفة بدرجات . ذلك لأن ما كان منبعه فياضاً ، منبعه الإفاضات الربانيـــة لا ينضب ولا يغور بل يزداد بصورة لا تتناهى نحو الكمال . إذ أن المنبع الفياض لا نهاية له ولا أمد . « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » . « وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها » .

إن الله تعالى يقول فى مقام الامتنان على المؤمنين بنعمة الألفة معظماً شأن الائتلاف : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » . وهو القائل : « فأصبحتم بنعمته إخوانا » أى بنعمة الألفة . « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . إن هذا لدستور هامٌّ للأمم الإسلامية يأمرهم بوجوب الاتحاد والاتفاق متمسكين بحبل الله المتين جميعا وهو دينه القويم ، عاملين به ، غير منحرفين عنه قيد شعرة . وقـــد قدم التمسك بحبل الله والتدين بدينه القويم على عدم الفرقة ، مشيراً الى أن التمسك بالدين تمسكاً صحيحاً يؤدى الى عدم الفرقة وتمام الألفة ، لأن الإيمان يلقى فى النفس الانسانية نوراً يتجاذب مع بقية الأنوار الإيمانية التى تماثله ، فألفة المؤمنين أمر طبيعى وخاصية طبيعية كخواص الأجسام المادية .

انظروا ماذا يقول سيد البشر المربى الأعظم خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله فى هذا المقام : إنه صلوات الله عليه يقول : « المؤمن إلف

مألوف ولا خير فى من لا يألف ولا يؤلف » . وهذا هو السر فى أن الدين الإسلامى يرغب الناس كثيراً فى التسليم والمصافحة والمعانقة .

قال رسول الله (ص) : « أولى الناس بالله تعالى وبرسوله من بدأ بالسلام » . فإن رسول الله (ص) والأئمة الأطهار (ع) كانوا يبدأون الناس بالسلام مع مقاماتهم الرفيعة التى انحصرت فيهم ، فإن البدء بالسلام يكسر كبرياء النفس وغرورها . ولا يبعد العبد عن الإفاضات الربانية شىء كالكبرياء والتبختر . وقال على عليه السلام : « لا تغضبوا ولا تقبضوا ، أفشوا السلام وأطيبوا الكلام . وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

وقد جاء فى الحديث : « مثل الأخوين اذا التقيا مثل اليدين يغسل أحدهما الأخرى ، ما تلاقى المؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً » .

إن علياً عليه السلام صاحب ذات ليلة مسيحياً فى الكوفة ، وهو خليفة المسلمين ، حتى كانا فى مفترق الطريق ، فلم يفارقه علىٌّ (ع) بل صاحبه ماشيا نحو بيت المسيحى الى مسافة ما ، ثم ودعه وأمّ الرجوع ، فقال له المسيحى : ظننت أن لك فى هذه الحارة شغلا ، فقال عليه السلام ما مؤداه : كلا ، بل من شأن المصاحب أن يشايع صاحبه الى مسافة ما . هذه أخلاق خليفة المسلمين مع مسيحى وهو دستور رائع يجب أن يقتدى به . فإن الإسلام إنما جاء لإتمام مكارم الأخلاق .

ثم ان الدين الاسلامى قد نص على أن تكون الألفة مع مؤمن يذكر الله ويذكّر الله . لأن الألفة كثيراً ما تؤدى الى الفساد والإفساد . فكم من أناس بسطاء اكتسبوا صفات ذميمة وأخلاقاسيئة بنتيجة الألفة والمصاحبة ، لأنهم لم يفكروا فى ديانة المصاحب وأخلاقه ونبله ، وان هذه النقطة الدقيقة يجب أن تلاحظ فى عنفوان الشباب ودور المراهقة حيث تتهيج

فى الشاب إحساسات شتى وميول عدة . فإن صادق أصدقاء طيبين أتقياء سلم واجتاز هذه المرحلة العصيبة بسلام وإلا وقع فى أشراك شياطين الإنس حيث الهوة السحيقه والتسافل المرير . فخير لشاب لا يجد صديقاً تقياً نجيبا أصيلا أن يبقى وحيداً فريداً لا يعاشر أحداً . فإن العزلة خير من الوقوع فيما يدنس النفس الانسانية ويلوثها ويبعدها عن الساحة القدسية الإلهية . لذلك يقول رسول الله (ص) : « عاشروا مَن يذكّركم الله » . وفى حديث آخر ، « لا تجالس شراب الخمر فإن اللعنة اذا نزلت عمّت مَن فى المجلس » . وفى حديث آخر : « الغناء مجلس لا ينظر الله الى أهله » .

فترون أن الألفة مقيدة بذكر الله وطاعة الله وإقامة حدود الله ، وقد قال الصادق عليه السلام : « إن المسلم اذا رأى أخاه كان حياة لدينه اذا ذكر الله » . وقال (ع) لأبى خديجة : « كم بينك وبين البصرة ؟ قال : فى الماء خمس ، اذا طابت الريح ، وعلى الظهر ثمان أو نحو ذلك . فقال ما أقرب هذا ، تزاوروا وتعاهدوا بعضكم بعضا ، فإنه لابد يوم القيامة أن يأتى كل انسان بشاهد يشهد له على دينه » .

وقد نهى الدين الاسلامى عن التباغض والتدابر وهو القائل : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » . وقد قال رسول الله (ص) : « لا يحلُّ لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، والسابق الى كلام أخيه أسبقهما الى الجنة » . ويراد من الأخ هنا : الأخ المسلم . وكم رأينا إخواناً من أبوين هجر أحدهم الآخر لأمر تافه . ولو رجعوا الى عقولهم لعلموا أن الشيطان هو الذى ألقى بينهم العداوة والبغضاء وأرادهم متفرقين ، متباغضين .

جاء فى أعمال ليلة القدر أن أول عمل وأفضل عمل يقوم به المؤمنون هو قلع الضغائن والأحقاد من القلوب . قال رسول الله (ص) : « لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » . وقال أيضاً : « أيما مسلمين تهاجرا فمكثا

ثلاثاً لا يصطلحان إلا كانا خارجين من الاسلام ولم يكن بينهما ولاية ، فأيهما سبق الى كلام أخيه كان السابق الى الجنة يومَ الحساب » . فحرىٌّ بكل مسلم حدث بينه وبين مسلم آخر إحنة أو سوء تفاهم أن يسبق الى منزله ، يسلم عليه ويتفاهم معه ويقلع الإحنة والبغضاء بكلمات طيبة ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ليكون هو السبّاق الى الجنة .

أنظروا ماذا يقول الصادق (ع) فى هذا المقام : « لا يفترق رجلان على الهجران إلا استحق أحدهما البراءة واللعنة ، وربما استوجب ذلك كلاهما » فقال له ، مِعتب . جعلنى الله فداك ، هذا الظالم ، فما بال المظلوم ؟ قال : لأنه لا يدعو أخاه الى صلته ولا يتعامس[1] له عن كلامه . سمعت أبى (ع) يقول : اذا تنازع اثنان فعادى أحدهما الآخر ، فليرجع المظلوم الى صاحبه حتى يقول لصاحبه : أى أخى ، أنا الظالم ، حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه ، فإن الله تعالى حكم عدل يأخذ للمظلوم من الظالم » .

هل يتصور انسان أن هناك دستوراً يؤلف بين الناس أعظم من هذا الدستور الإلهى ، يأتى الصديق المظلوم الى صديقه الظالم فيتهم نفسه ويقول أنا الظالم ، ليرفع ما بينهما من تشاحن وتباغض ، فيحزن الشيطان إذ ذاك . إذ أنه لتباغض المسلمين بالمرصاد . فقد قال أبو عبد الله (ع) : « لا يزال ابليس فرحاً ما تهاجر المسلمان ، فإذا التقيا اصطكت ركبتاه وتخلعت أوصاله ، ونادى يا ويله ، لما لقى من الثبور » .

قال الباقر عليه السلام : « إن الشيطان يغرى بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه ، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدد وقال : فزت . فرحم الله امرأ ألف بين وليين لنا ، يا معاشر المؤمنين تآلفوا وتعاطفوا » .

ومن أفضل أنواع التآلف صلاح ذات البين وإدامة المودة والمحبة بين

---

(١) لا يتعامس : لا يتغافل ولا يتجاهل .

الأرحام . فإن علياً عليه السلام يقول : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام وإن البغضة حالقة الدين ، ولا قوة إلا بالله ، أنظروا ذوى أرحامكم ، فصلوهم ، يهوّن الله عليكم الحساب » .

وقال عليه السلام : « عليكم بالتواصل والتباذل والتبارّ وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرق ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . يقول الله جل وعلا : « ولا تجعلوا الله عرضه لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم » . « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » .

التزاور فى الاسلام

الإسلام دين جامع لجميع الكمالات التى تؤدى الى كمال الفرد وكمال المجتمع ، وليس ديناً يأمر بالعبادة فحسب . فالمؤمن مستجمع لجميع الكمالات الفردية والاجتماعية وما به يكون الانسان إنسانا كاملا .

وقد زعم بعض من أخذ طرفاً من مدنية الغرب وآدابها الاجتماعية أن الاسلام : دين زهد وانزواء وجمود وخمول ، وأنه لا يصلح لتحقيق مدنية فاضلة تؤدى الى تكامل الأمة وسيرها فى ساحات الرقى والتقدم ، وأخذ يلتمس الرقى فى تقليد الغرب - تقليداً أعمى - فى حياتها الاجتماعية الخالية من أسس الكمال ، تلك الحياة العارية عن الأسس الروحية والفضائل العليا التى يبلغ بها الانسان ذروة الكمال . كل ذلك لجهله نواميس الاسلام وآداب الاسلام وأوامره ونواهيه . ذلك لأن المدارس لم تهتم بهذه الناحية وأهملتها إهمالاً أدى الى مقت الشاب الدينَ الاسلامى وطلبه السعادة والنور فى أحضان الغرب .

نعم ، إن طالبنا ليعلم عن جبال استراليا وجزر الفليبين أكثر مما يعلمه عن دينه : ذلك الدين الذى منَّ الله تبارك وتعالى به عليه من بين سائر الأمم ، وبعث نبيه (ص) فى خير بقاع الأرض وهى مكة المكرمة . ولا تزال مدارسنا لا تدرس الدين الاسلامى تدريساً يشبع الطالب بحقائقه وجلائل سننه وتعاليمه . وكم مدرساً تجدون فى العراق قد أحاط بفلسفة الدين الاسلامى وعمل به عملاً يستوجب الإقتداء والإتعاظ .

ولم يحصل هذا التبلبل فى العقائد وهذه الإتجاهات الباطلة الفاسدة والمبادئ الهدامة إلا من جراء عدم وجود مدرسين أكفاء يدرسون الدين

الاسلامى فى المدارس بعقيدة راسخة وإيمان رصين مع تطبيق حقيقى . وعدم تخصيص حصص كافية تتناسب وسعة هذا الموضوع الحيوى .

بديهى أن الإنسان لا يخلو من اتجاه ، كما لا يخلو مكان على وجه الأرض من هواء بصورة اعتيادية . فإن لم يتجه الفرد الى الحق والصواب ، فهو متجه لا محالة الى الباطل والفساد : « إن النفس لأمارة بالسوء » .

أنظروا الى ما يقوله هذا الدين القويم فى حسن التعارف وإيجاد حياة سعيدة اجتماعية . قال رسول الله (ص) : « ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما الى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه » . هذا دين يوفق بين سعادة المجتمع وسعادة الفرد بربط أعمال الفرد الى الله وتقريبه اليه . ويقوى رابطة العبد والمعبود الى حد بعيد . لأن الكمال الإنسانى يتناسب مع قوة هذه الرابطة . ومن أين يستقى هذا الإنسان المخلوق من نطفة مذرة الفضائل والكمالات ؟ أليس من خالقه العظيم المنعم المتفضل المنان ، وهو القائل : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » . الغربى لا يدخل ضمن روابطه الاجتماعية مفهوم التقرب الى الله والقيام بالأعمال الصالحة لوجه الله ، بل روابطه نفعية مادية حالكة ، لا يرجو من ورائها إلا المنافع الخسيسة ، فهى مظلمة ، قاتمة دكناء . ألا ترى أن الغربى اذا فكر فى مصيره بعد الموت تختلج أعصابه وترتبك أفكاره ، فيزيحها بخمرة أو مجلس قمار أو رقص ، فيدنس بها نفسه أكثر مما هى عليه كى لا يشعر بمصيرها : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .

وعن أنس قال : « كان الرسول صلى الله عليه وآله اذا افتقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه ، فإن كان غائباً دعا له وإن كان شاهداً زاره وإن كان مريضاً عاده .

وعن أبى حمزة عن أبى عبد الله الصادق (ع) انه قال : « من زار أخاه

لله لا لغيره التماسَ موعد الله وتنجز ما عند الله ، وكل الله به سبعين ألف ملك ينادونه ألا طِبت وطابت لك الجنة » .

هذا خيثمة يقول : دخلت على أبى جعفر « وهو الإمام الباقر عليه السلام » أودّعه فقال : ياخيثمة ، أبلغ مَن ترى من موالينا السلام ، وأوصهم بتقوى الله العظيم ، وأن يعود غنيُّهم على فقيرهم ، وقويهم على ضعيفهم ، وأن يشهد حيُّهم جنازةَ ميتهم ، وأن يتلاقوا فى بيوتهم ، فإن فى لُقيا بعضهم بعضاً حياةً لأمرنا ، رحم الله عبداً أحيا أمرنا ، يا خيثمة أبلغ موالينا : أنا لا نغنى عنهم من الله شيئاً إلا بعمل ، وأنهم لن ينالوا ولايتنا إلا بالورع . وأن أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالف الى غيره » .

هذا دين جعل زيارة الإخوان فى الله بمثابة زيارة الله على سبيل المجاز تعظيما لشأن المؤمن واهتماماً بالتربية الاجتماعية فقد قال جعفر الصادق عليه السلام : « مَن زار أخاه فى الله ، قال الله عز وجل : إياى زرت وثوابك علىَّ ولست أرضى لك ثواباً دون الجنة » .

فهذه الزيارة لله وفى الله وابتغاءً لوجه الله الكريم . لا يرجى من ورائها تثبيت فى وظيفة حكوميه أومقدمة لنيل درجة أومقام من المقامات أو جلب نفع مادى ، بل يؤتى بها أداءً لحقوق المؤمن فحسب وتعظيما لشأنه .

هذه زيارة لا يتخللها غيبة ولا اتهام ولا افتراء . هذه زيارة لا ترى فيها محلاً للقمار والميسر ولا أثراً للخمرة ونظرات السوء . هذه مجالس لا ترى فيها التلذذ بأعراض الآخرين من رقص وغرام وتغزل بالباطل . هذه مجالس يذكر فيها اسم الله تعالى ويتخللها تسبيح وتحميد والتحدث فى مابهم المسلمين وقضاء حوائجهم . هذه مجالس تذكر الآخرة وتوجه الإنسان الى محاسبة نفسه فقد جاء فى الحديث : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . وزِنوها قبل أن توزَنوا » . هذه مجالس تكفِّر عن الذنوب بما يتخللها من إنابة واستغفار

فقد جاء فى الحديث : « عاشروا مَن يذكركم الله » . هذه مجالس ينظر اليها الله بنظر الرحمة ويتغمدها بعظيم ألطافه .

نعم ، فى هذه المجالس تزاور يصفه أبو عبد الله عليه السلام بقوله : « من زار أخاه فى الله فى مرض أو صحة لا يأتيه خداعاً ولا استبدالاً ، وكل الله به سبعين الف ملك ينادون فى قفاه أن طبت ، فطابت لك الجنة . فأنتم زوار الله وأنتم وفـــد الرحمن حتى يأتى منزله . فقال له بشير (وهو أحد أصحابه) جعلت فداك . فإن كان المكان بعيداً ؟ فقال عليه السلام : نعم يا بشير ، وإن كان المكان مسيرة سنة ، فإن الله جواد ، والملائكة كثير يشيعونه حتى يرجع الى منزله » .

أنظروا الى أثر زيارة الإخوان فى حسن العاقبة فإن الإمام محمداً الباقر عليه السلام يقول : « إن لله عز وجل جنةً لا يدخلها إلا ثلاثة : رجل حكم على نفسه بالحق ، ورجل زار أخاه المؤمن فى الله ، ورجل آثر أخاه المؤمن فى الله » . فإن « لقاء الأخوان مغنم جسيم وإن قلوا » كما قال أمير المؤمنين على عليه السلام .

لا أعلم نظاماً اجتماعياً أعلى من هذا النظام يكفل سعادة النشأتين ويبلغ بالإنسان الى أقصى حدٍ من مراتب الكمال ، ولا أرى تحابباً فوق التحابب فى الله ولله ، ولا أرى فضيلة أسمى مما نصت عليه التعاليم الإسلامية الرفيعة . ونسأل الله تطهير القلوب وتوفيقَ التحابب والتراحم والتزاور فى الله . . . وما أحوج العالم الإسلامى الى التفاهم والتآزر وصرف هذه الطاقات التى تتجلى فيها الإيمان لدعوة شاملة ورفع لواء الاسلام فى أصقاع الأرض عالياً ، حتى لا تكاد تسمع فى أية بقعة من بقاع الأرض إلا : قائلا يقول : لا إله إلا الله . محمد رسول الله . . .

التعاطف فى الاسلام

اذا تداعت أخلاق أمة عاجلها الفناء . لذلك اهتم الدين الاسلام بتقويم الأخلاق اهتماماً بالغا فوق حدود التصور والخيال وجاء بدساتير متينة مثالية لا يضاهيها أى دستور بشرى . فقد قال رسول الله (ص) : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . فإنما أداة حصر ، أى أن علة بعث الرسل وإرسال نبينا محمد بن عبد الله (ص) إنما هى تكميل مكارم الأخلاق وإبلاغ الانسان الى آخر حد ممكن من الكمالات الأخلاقية ، لكى يخرج من هذه الدنيا زكياً نقياً طاهراً حرياً ليحشر مع : « الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

فمن جملة تلك الأخلاق المثالية الفاضلة ما يرويه محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن سنان عن كليب الصيداوى عن أبى عبد الله (ع) انه قال : « تواصلوا وتبارُّوا وتراحموا وكونوا إخوة بررة كما أمركم الله عز وجل » .

هذا دستور اجتماعى قويم لو عمل به المسلمون لأضاؤا العالم بأنوارهم ولكانوا خير وسيلة لأخراج البشر من دياجير المادية الدكناء .

فعلى المسلمين أن يربوا أولادهم منذ نعومة أظفارهم على التراحم والتعاطف والتوادد والتحابب بصورة عملية : يرسل الوالد ولده لمساعدة جاره العاجز فى شؤونه البيتية ، أو يرسل معه ثيابه التى لا يحتاجها الى أناس فقراء ، أو يرسل معه ما فضل من طعامهم الى بيت مسكين من المساكين أو يعطيه مبلغا ليقدمه الى مُقعد أو ذى عاهة لا يطيق عملا . وليُعلم ولده أن يجعل عمله هذا لوجه الله الكريم وأن يرجو بذلك رضا الله تبارك وتعالى . فإن كثيراً

من الناس يقومون بأعمال صالحة ولكنهم لجهلهم أوظلمة نفوسهم لايقومون بها ابتغاءَ مرضاة الله تعالى بل خدمة للإنسانية . فإن هؤلاء قد يجازون إزاء خدمتهم هذه جزاءاً حسنا فى الدنيا من عز دنيوى ورفاهية وصحة وطول فى العمر ولكن ليست لهم مكافأة أخروية بعد الموت ، ولا يفيدهم عملهم الصالح يوم « لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . فى يوم « يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه ، كلا إنها لظى نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . فى يوم « يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه » . ذلك لأن كمال النفس الانسانية إنما يحصل بتوجهها الى الله تعالى وشكرها لله وخضوعها لله وربط الأعمال كلها الى الله . وكلما قويت هذه الرابطة - أى الرابطة بين العبد والمعبود - سطعت من الأنوار الإلهية على العبد أنوار قدسية وسار العبد فى ساحات الكمال بسرعة متناهية وخرج من عالم الناسوت وتخلص من براثن المادة العمياء ، وما بيناه تفسير لقوله تعالى : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلّا ابتغاءَ وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » . فإن رضا الله تبارك وتعالى منوط بأن تكون الأعمال الصالحة ابتغاءً لوجهه الكريم وتقرباً اليه ، ولا تفيد الخدمات الانسانية المجردة عن روح الشكر والتقرب الى الله تعالى .

ويا حبذا لو قامت المدارس بتأسيس جمعيات إسلامية أو لجان للإرشاد الدينى لتطبيق ما جاء فى الدين الاسلامى من دساتير التراحم والتعاطف بصورة عملية . تجمع هذه الجمعية أو لجنة الارشاد الدينى من الطلاب الأغنياء بعض المبالغ اليسيرة وما خلق (بلىَ) من ثياب وحذاء فتذهب بها الى بيوت الأرامل والأيتام ، فتقدمها بكل احترام وبآداب إسلامية وتعمل فى

إقامـــة الصلاة داخل المدرسة وفى المساجد وإلقاء خطب دينية ، الى ما هنالك . . .

قال أبو عبد الله عليه السلام : « إن من حق المؤمن على المؤمن المودة له فى صدره والمواساة له فى ماله والخلف له فى أهله والنصرة له على من ظلمه ، وإن كان نافلة فى المسلمين وكان غائباً أخذ له بنصيبه ، واذا مات ، فالزيارة الى قبره ، وأن لا يظلمه وأن لا يغشه وأن لا يخونه وأن لا يخذله وأن لا يكذبه وان لا يقول له أفّ ، وإن قال له : أفّ ، فليس بينهما ولاية ، وإن قال له : أنت عدوى فقد كفر أحدهما ، واذا اتهمه انماث الإيمان فى قلبه كما ينماث الملح فى الماء » . (انماث : ذاب) .

ترون أن الإيمان يتناسب مع القيام بالواجبات الاخلاقية ، فكلما قام الانسان بالواجبات الاخلاقية لوجه الله الكريم وطلباً لمرضاته تعالى قوى إيمانه وزاد يقينه وكلما تماهل وتكاسل فى تطبيق الأوامر الاخلاقيـــة الإسلامية ضعف إيمانه وتضعضع يقينه .

هذا أبان بن تغلب كان يطوف مع أبى عبد الله جعفر الصادق (ع) حول البيت والطواف أمر واجب لا يتم الحج إلا به . فعرض له رجل يسأله حاجة يريد به الذهاب معه ، فكره أن يدع أبا عبد الله (ع) ويذهب لقضاء حاجة أخيه المؤمن ، وقد أشار اليه صاحب الحاجة مرة ثانية . واذا بأبى عبد الله (ع) يراه ، فأمر أبان بن تغلب بقطع الطواف والذهاب الى قضاء حاجة الأخ المؤمن ، ولو كان هذا الطواف طواف الفريضة . ثم يسأل أبان الإمام (ع) عن حق المسلم ، فيجيب (ع) : حق المؤمن أن تقاسمه شطر مالك . ثم نظر على أبان أمارات التعجب . فيقول الإمام (ع) : يا أبان ، أما تعلم أن الله عز وجل ذكر المؤثرين على أنفسهم . فيقول أبان : بلى ، جعلت فداك ، فيقول الإمام (ع) : « أما اذا قاسمته فلم تؤثره بعد ، إنما

أنت وهو سواء . إنما تؤثره اذا أنت أعطيته من النصف الآخر » . وقد جاء فى حلية الأولياء : أن زين العابدين على بن الحسين عليهما السلام قاسم الله ماله مرتين .

يقول محمد بن عجلان : كنت عند أبى عبد الله الصادق (ع) فدخل رجل فسلم . فسأله كيف من خلفت من إخوانك . فأحسن الثناء وزكّى وأطرى فقال له (ع) : « كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم . فقال : قليلة . قال : فكيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم . قال : قليلة . قال : فكيف صلة أغنيائهم لفقرائهم فى ذات أيديهم . فقال : إنك لتذكر أخلاقاً قلّ ما هى فى مَن عندنا . قال : فقال (ع) : فكيف يزعم هؤلاء أنهم شيعة » .

يقول أبو اسماعيل : قلت لأبى جعفر - وهو الإمام محمد الباقر (ع) - جعلت فداك : إن الشيعة عندنا كثير . فقال : « هل يعطف الغنىّ على الفقير ويتجاوز المحسن عن المسىء ويتواسون . فقلت : لا . فقال : ليس هؤلاء شيعة . إنما الشيعة من يفعل هذا » .

وقد سأل مُعلى بن خنيس الصادقَ عليه السلام عن حق المؤمن فقال : سبعون حقا . لا أخبرك إلا بسبعة ، فإنى عليك مشفق ، أخشى أن لا تحتمل . فقلت : بلى ، إن شاء الله تعالى . فقال (ع) : « لا تشبع ويجوع ولا تكتسى ويعرى وتكون دليله وقميصه الذى يلبسه ولسانه الذى يتكلم به وتحب له ما تحب لنفسك وإن كانت لك جارية بعثتها لتمهد فراشه وتسعى فى حوائجه بالليل والنهار . فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايتنا وولايتنا بولاية الله عز وجل » .

هذا دين يهتم بشؤون الفرد والمجتمع وإيجاد حياة سعيدة للجميع الى حدٍ بعيد حتى جعل ذلك من صلب الدين وواقعه ، وعدّ ذلك من أفضل العبادات . فإن عليا عليه الصلاة والسلام يقول : « إن لله عباداً يختصهم الله

بالنعم لمنافع العباد فيقرها فى أيديهم ما بذلوها . فإذا منعوها نزعها منهم ثم حولها الى غيرهم .

ليست السعادة الحقيقية فى جمع المال فحسب ، بل فى بذله وإنفاقه لوجه الله الكريم . فبذلك تتكامل النفس وتتخلص من براثن المادة وتتصل بالملكوت الأعلى وتكون إنساناً كما يرتضيه الله تبارك وتعالى ، ونسأل الله أن يوفقنا الى اتباع سنة الرسول وآله الأطهار عليهم الصلاة والسلام ، فنكون متعاطفين متراحمين : مؤمنين .

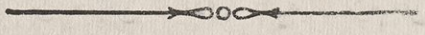

آداب السلام فى الاسلام

قال الله تبارك وتعالى : « واذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسنَ منها أوردوها » ومعنى ذلك : لو أن أحداً سلم عليك بقوله : السلام عليك . فيجب عليك إما أن تقول : (السلام عليك ورحمة الله) أو : (وعليك السلام ورحمة الله) . أو تقول : (وعليك السلام) . فإن قلت : (وعليك) ولم تزد فقد عصيت . كل ذلك لأن الدين الاسلامى يحافظ على حقوق الأفراد غاية المحافظة ويريد بالناس ليكونوا شاكرين مقدرين بعضهم حقوق البعض . فالذى يسلم أولاً هو ذوحق وفضل فينبغى أن يجازى بأحسن مما أتى به . وهذا مايقرُّه العقل ويأمر به الدين الاسلامى . وهل لأحد أن يجد فى الدين الاسلامى أمراً أو نهيا أو تكليفا يخالف العقل المتكامل . وعن ابن عباس فى تفسير الآية المتقدمة : « اذا قال المسلم : السلام عليكم ، فقلت : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فقد حييته بأحسن منهاوهذا منتهى السلام » . وروى : « أن رجلاً دخل على النبى صلى الله عليه وآله ، فقال : السلام عليك . فقال النبى (ص) : وعليك السلام ورحمة الله . فجاءه آخر ، فقال السلام عليك ورحمة الله . فقال النبى (ص) : عليك السلام ورحمة الله وبركاته . فجاءه آخر فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقال النبى (ص) : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقيل يا رسول الله : زدت للأول وللثانى فى التحية ولم تزد للثالث فقال : إنه لم يُبقِ لى من التحية شيئا . فرددت عليه مثله » .

روى الواحدى بإسناده عن أبى أمامة عن مالك بن التيهان . قال : « قال رسول الله (ص) : من قال : السلام عليكم ، كتب له عشر حسنات ومن قال : السلام عليكم ورحمة الله ، كتب له عشرون حسنة . ومن قال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، كتب له ثلاثون حسنة » . وقال رسول الله (ص) :

« السلام تطوع والرد فرض » . ثم الرد ربما يكون من فروض الكفاية . ومعنى ذلك : لو أن رجلاً دخل مجلساً وسلم لا على شخص معين . فإن ردّ عليه : (السلام) شخص من الجالسين أو أشخاص عدة سقط التكليف عن الآخرين . وإن خص بالسلام أحداً من الحاضرين فقد تعين عليه الرد . وقال أيضا : القليل يبدأون الكثير بالسلام والراكب يبدأ الماشي وأصحاب البغال يبدأون أصحاب الحمير . وأصحاب الخيل يبدأون أصحاب البغال . كل ذلك لتعليم الغنى التواضع للفقير بما أنعم الله عليه . وقد دلت الأخبار أن رسول الله (ص) : كان يسلم على النساء ويرددن عليه . وإن السلام على الشابة مكروه تخوفا من استحسان صوتها . فيدخل على المسلم من الإثم أكثر مما يطلبه من الأجر .

وقد مرّ رسول الله (ص) على صبيان فسلم عليهم . وإن الشارع قد أوجب رد السلام وإن كان المخاطب بالسلام فى حالة الصلاة الواجبة أو المستحبة . فإن كنت فى صلاة وسلم عليك رجل أو امرأة بأن قال أحدهما : سلام عليكم ، وجب أن تقول فى الجواب : سلام عليكم . وأن تسمعه . ففى الصلاة تضارب بين حق الله وحق العبد وهو المسلّم ، فالله تعالى لعظيم لطفه آثر حق العبد على حقه وأمر بأن يرد المصلى السلام وأن يستمر فى صلاته من حيث انتهى اليه . وهذا شأن الدين الاسلامى فى جميع أحكامه .

وعن أبى عبد الله عليه السلام : اذا مرت الجماعة بقوم أجزأهم أن يسلم واحد منهم واذا سلم على القوم وهم جماعة أجزأهم أن يرد واحد منهم . وقد قال رسول الله (ص) : ابدأوا بالسلام قبل الكلام . فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه . وقال أيضا : « أولى الناس بالله ورسوله من بدأ بالسلام » . وقال : أبو جعفر الإمام الباقر عليه السلام : « إن الله يحب إفشاء السلام » . وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « من التواضع

أن تسلم على من لقيت » . وقال أيضا : يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير .

هذه آداب يقرها الدين الاسلامى احتراما لحقوق الأفراد مهما كانت مراتبهم . ومع الأسف نرى بعض المسلمين يغفلون عن تطبيق هذا الدستور الاسلامى الرفيع . نرى أناساً يردون السلام مع شيء من الكبرياء والتبختر أو لا يردونه رداً تاما ، فيكونون آثمين . نرى قسما من الناس يردون السلام بصوت خشن قائلين : (عليك) . أو (عليكم) . تكبراً على من تفضل فسلم عليهم . ولا شيء أبغض عند الله من الكبر . فإن الله تعالى يسلب ايمان المتكبر لكبره . فالكبرياء خاصة به تعالى . إن الله تعالى يقول : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » . وان الكبر من أصول الكفر ويؤدى الى ضعف الايمان بل سلبه . فى الحديث ، أصول الكفر ثلاثة : الحسد والبخل والكبر . ثم يستحسن رد السلام مع البشر والابتسام . فإن المؤمن هشٌّ بشٌّ . وإن رسول الله (ص) كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب فلا يحسن بالمسلم أن يرد السلام بامتعاض وخشونة بل يستحب له أن يجازى المحسن مع زيادة لسابق فضله .

قرأت للأستاذ محمد على الحومانى مقالاً قبل حوالى خمسة عشر عاما : يقول فيه ما مؤداه : بينما كنت أسير فى طرقات لندن ، عند الزوال واذا بى أشاهد رجلاً كبير السن واقفاً على عتبة داره يؤذن لصلاة الظهر ، فانتظرت حتى أنهى الأذان . فسلمت عليه قائلا : السلام عليكم ، فأجاب : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . عملاً بالآية المباركة : « واذا حُييتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها أو ردُّوها » . ثم تعارف معى وطلب إلىَّ الدخول الى البيت . فدخلت ، فرأيت انه قام مع عقيلته فصليا صلاة الظهر ، ثم جلسا على مائدة الطعام وألحا علىَّ أن أتناول معهما الطعام وقد لفت نظرى أنهما لم يبدءا

بالأكل حتى قالا : (بسم الله الرحمن الرحيم) ولما انتهيا من الطعام ، قالا : (الحمد لله رب العالمين) . إن الشيخ كان أحد كبار الأساتذة فى جامعة لندن ، قد اعتنق الدين الاسلامى عن تتبع وتنقيب وبحث عميق . وكم من رجال فى الغرب : أولئك الذين لم يلوثوا أنفسهم بالخمور والفجور والمراقص والمجون والربا وأكل لحم الخنزير ، اعتنقوا الدين الاسلامى وخرجوا من الظلمات الى النور . ذلك لأنه لا مجال للضوء والنور (وأعنى به الإيمان) أن يدخل نفوساً مدلهمة حالكة بالمعاصى والآثام : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً استكباراً فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا » . (سورة فاطر : ٤٣) ، لاسيما اذا بلغت النفوس مرتبة من التسافل حتى صارت ترى الحق باطلا والباطل حقا ، أى بلغت درجة من الانحطاط حتى انطفأت آثار الفطرة ، فأمست لا تبصر الحق ، بل الحق لديها ما هى عليه من تسافل مرير : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

ونرى بعض المسلمين اذا دخلوا مجلساً عند الصباح قالوا : صباح الخير . وقالوا عند المساء : مساء الخير . أو رفعوا أيديهم كعلامة للتحية . فلا يحيون الحاضرين بتحية الاسلام ، اقتباساً عما جاءنا من الغرب . ما أثر رفع اليد فى جلب الخير للمخاطب . وما معنى صباح الخير ؟ أى أرجو أن يكون صباحك خيراً . وما قيمة هذا الرجاء إن لم يقترن بمشيئة الله تعالى . وما قيمة الرغبات الشخصية ، والأمر كله لله . فقول المسلم : السلام عليكم ورحمة الله ، وتعقيب ذلك بـ (صبحكم الله بالخير) هو ارجاع الصحة والسلامة والخير الى الله تعالى وطلب ذلك كله للشخص المخاطب ، من الله تعالى .

وقد سمعت فى لبنان : يقول أحدهم لآخر عند ملاقاته ليلا : (سعيدة) . أى لتكن ليلتك سعيدة . ما أثر هذا الأمل فى جعل الليل سعيداً ، لو لم يُرد الله تعالى ذلك . فالأمور كلها بيده تعالى . فطوبى لمن توكل عليه وعمل بما أمر به ، ليفوز بسعادة حقيقية أبدية . إن المدنية الحاضرة فى تحياتها تمثل الدور الجاهلى ، فلا تجد لذكر الله فيها أثراً . وان تقليد الغرب فى الآداب الاجتماعية هو الارتجاع (أى الرجعية) بالمعنى الصحيح .

نعم : إنا قد تأثرنا بمدنية الغرب المادية فى آدابنا الاجتماعية وأصبحنا مقلدين حتى فى ما تعودنا عليه منذ ثلاثة عشر قرنا . اذا دخل الرجل منا قال : مرحبا . عوضاً عن أن يقول : السلام عليكم ورحمة الله . لأنه يرى ذلك أقرب الى القبول وأطيب الى القلوب . مع ان الله يريد بنا أن نذكره دائما كى تتصل أعمالنا وأرواحنا به تعالى ونستقى من ينبوعه الفياض جميعَ الكمالات التى بها يكون الانسان انسانا . فإن « ذكر الله حسن على كل حال » . ولم يستثنِ الشارع موضعاً لا يذكر فيه اسم الله .

ولاريب أن لذكر الله تعالى أثراً عظيما فى ردع النفس عن غلوائها وشهواتها ونزواتها . فقد جاء فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة وجوب التسبيح والتحميد وذكر الله تعالى ، كقوله تعالى : : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا » . وقوله تعالى : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا » . وقال تعالى : « فاذكرونى أذكركم » .

كثيرا ما نجد أناساً تغلغلوا فى المدنية الغربية لا يذكرون اسم الله فى كل يوم وليلة ولا مرة واحدة . إنهم قد يحترمون آباءهم ويقدسون أمهاتهم وهو ما أمر الله تعالى به ، ولكنهم لا يذكرون ولا يعظمون من تفضل عليهم بالآباء والأمهات . وقد جاء فى حديث : « لا يزال ينقص من هذا الدين حتى لا يقال : الله » .

إن العلامة الفارقة بين المدنية الاسلامية والمدنية الغربيه : أن شعار الثانية رفع مفهوم الله عن الحياة الاجتماعية وربط الأمور بحبول مادية مقتضبة خسيسة والاعتماد على الوسائل المادية . ولذلك تتحجر النفس فى هذه المدنية فلا تشعر بما وراء الطبيعة ولا تعترف به . « فهى كالحجارة أو أشدُّ قسوة ، وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون » . وان هذا البشر لميال الى رفع القيود والتدهور والتسافل . فيتقبل ما يؤدى الى التسافل وينطبع عليه أسرع مما يؤدى الى التعالى والتكامل . وان المادية بآثارها ومظاهرها ونتائجها وخلاعتها ومجونها وصحافتها ومسارحها ومراقصها واعلاناتها تدهور وتسافل . لذلك تجد قبولاً بسائق الغريزة من أناس غُلبوا على أمرهم فخالفوا ما تمليه عليهم عقولهم ، فتراءت لهم الشهوات بلباس العقل والفكر والثقافة فاتبعوها حتى صاروا لا يشعرون الى أين هم سائرون . فطوبى لمن حكم عقله ولم تغره المظاهر الخلابة والمناظر الخداعة ، المبعدة عن ذكر الله تعالى والآخذة بهذا الانسان المسكين (المغرور بلفظ الثقافة) الى أسفل سافلين : « وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسَهم يظلمون » .

آداب التلاقى فى الاسلام

إن الدين الاسلامى قد استوعب كل ما من شأنه إبلاغ البشر الى أعلى مراتب الكمال . فأعطى حكمه فى كل أمر اجتماعى أو خلقى أو حقوقى أو عبادى . حكماً هو غاية الأحكام ، حكماً يؤيده العقل السليم ، ذلك العقل الذى لم يتلوث بالمدنسات والجرائم ، حكماً يصل الانسان الى كنهه وحقيقته كلما تكاملت معارفه وسمت نفسه . ومن جملة تلك الأحكام وتلك الآداب : ما يقوم به الانسان الاجتماعى عندما يلاقى انساناً آخر .

فيستحب أن يلاقى المرء أخاه المسلم بالبشر وأن يبدأه بالسلام وأن يظهر اليه أنه يوده ويحبه . فعن أبى عبد الله (ع) : « مجاملة الناس ثلث العقل » . وقد قال رسول الله (ص) : « ثلاث يصفين ودّ المرء لأخيه المسلم : يلقاه بالبشر اذا لقيه ، ويوسع له فى المجلس اذا جلس اليه ، ويدعوه بأحب الأسماء اليه » . وإن من التواضع أن يبدأ المسلم أخاه المسلم بالسلام لينال الأجر والزلفى . فـ « البادئ بالسلام أولى بالله وبرسوله » و « من أخلاق المؤمن الإنفاق على الإقتار والتوسع على قدر الوسع وإنصاف الناس وابتداؤه إياهم بالسلام عليهم » . كما جاء فى الحديث . وقد نهى الدين الاسلامى عن الكلام قبل السلام ، فقد قال رسول الله (ص) : « إبدأوا بالسلام قبل الكلام فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه » .

ومن جملة تلك الآداب : المصافحة . فيستحب أن يصافح المسلم أخاه المسلم ، فإن الذنوب تتساقط عنهما ، لأن الله يريد بالمسلمين أن يكونوا متحابين متوادين ، متآزرين متعاضدين ، وهو القائل : « إنما المؤمنون إخوة » . وقد بالغ الدين الاسلامى فى ذلك فعدّ المتباغضين من المؤمنين خارجين عن الاسلام حتى يصطلحا . روى أبو عبيدة الحذاء ، قال : « كنت زميل

أبي جعفر عليه السلام وكنت أبدأ بالركوب ثم يركب هو ، فإذا استوينا سلّم وسائل مسائلة من لا عهد له بصاحبه وصافح ، وكان اذا نزل نزل قبلي ، فإذا استويت أنا وهو على الأرض سلم وسائل مسائلة من لا عهد له بصاحبه ، فقلت له يابن رسول الله ، إنك لتفعل شيئاً ما يفعله من قبلنا وإن فعل مرة فكثير ، فقال : « أما علمت ما فى المصافحة ، ان المؤمنين يلتقيان فيصافح أحدهما صاحبه ، فما تزال الذنوب تتحاتّ عنهما كما يتحات الورق عن الشجر والله ينظر اليهما حتى يفترقا » . وفى حديث آخر : « إن المؤمنين اذا التقيا فتصافحا أدخل الله عز وجل يده بين أيديهما وأقبل بوجهه على أشدهما حباً لصاحبه ، فاذا أقبل الله عز وجل عليهما بوجهه تحاتت عنهما الذنوب كما يتحات الورق عن الشجر » . ومعنى أدخل الله عز وجل يده بين أيديهما ، أى أنزل عليهما عظيم رحماته وجزيل بركاته . على حد قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » . فان الله تعالى لا يشبه مخلوقاته فى شيء : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

فيستحب للمسلم أن يلاقى أخاه المسلم بالتسليم والتصافح وأن يفارقه بالاستغفار ، وان من يلزم التصافح أعظم أجراً من الذى يدع . وكان رسول الله (ص) اذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذى ينزعها . وقد عظم الله تعالى أجر المؤمن حتى جعله أعلى منزلة من الملائكة ، وقد جاء فى الحديث : « مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائكة » .

كل هذه الآداب ، ليستكمل المؤمن مكارم الأخلاق ويتكامل فى عالم الوجود . وأهم أدب يتأدب به المؤمن ويقربه الى الله بل يجعله أهلاً ليكون من المقربين هو التواضع وقلع الكبرياء عن نفسه ، فان فى كثير من النفوس شيئاً من الزهو والكبر والتبختر والتعجرف ، ولا تخضع هذه النفس لله الذى

خلقها ولا تسجد له ولا تطيعه فى عالم التكامل ما لم تقلع داء الكبرياء عنها ، فالبدء بالسلام والمصافحة وتعظيم أمر الأخ المؤمن ممهدات لقلع صفة الكبر وقمعها . وإن طرد ابليس عن الساحة القدسية الإلهية لم يكن إلا لتكبره وخيلائه . فـ « أكثر أهل النار المتكبرون » كما جاء فى الحديث .

وفى تحف العقول : أن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام مرَّ برجل من أهل السواد دميم المنظر ، فسلم عليه ونزل عنده وحادثه طويلاً ، ثم عرض (ع) عليه نفسه فى القيام بحاجة إن عرضت له . فقيل يا ابن رسول الله ، أتنزل الى هذا ثم تسأله عن حوائجه وهو اليك أحوج ؟ فقال عليه السلام : « عبد من عبيد الله وأخ فى كتاب الله وجار فى بلاد الله ، يجمعنا وإياه خير الآباء آدم (ع) وأفضل الأديان الإسلام ولعل الدهر يردُّ من حاجتنا اليه فيرانا ـ بعد الزهو عليه ـ متواضعين بين يديه ، ثم قال (ع) :

نواصل من لا يستحق وصالنا مخافة أن نبقى بغير صديق

وكان علىُّ بن موسى الرضا عليهما السلام اذا خلا ونصبت الموائد أجلس على مائدته مماليكه ومواليه حتى البواب والسائس . وقد روى الكلينى فى الكافى أن الرضا (ع) دعا يوماً فى سفره الى خراسان بمائدة له ، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم ، فقال له بعض أصحابه ، جعلت فداك ، لو عزلت لهؤلاء مائدة ، فقال (ع) : « إن الرب تبارك وتعالى واحد والأم واحدة والأب واحد والجزاء بالأعمال » .

لنتعلم مكارم الأخلاق من أئمة نوَّروا الأرض بنور كمالهم وكانوا مُثلا عليا للفضائل وكمال الصفات ، لا فى إعطاء الدساتير فحسب ، بل كانوا فى حياتهم العملية فوق ما يملونه من دساتير . فقد روى ابراهيم بن العباس أن الرضا (ع) : « ما جفا أحداً بكلام قط ولا قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه ، وما رد أحداً عن حاجة قدر عليها ، ولا مدَّ رجليه ولا اتكأ بين يدى

جليس له قط ، ولا شتم أحداً من مواليه ومماليكه ولا تفل قط ولا قهقه فى ضحكه ، بل كان يتبسم » .

نعم هذه صفات يحق للانسان أن يدعى بها خليفة الله فى أرضه . فقد جعل الله للانسان مثلاً أعلى لا يعقل أن يتصور مثلاً أسمى منه مهما حلقنا فى جو الخيال واستلهمنا العلم والحكمة ، ذلك المثل الأعلى هو انسان قد بلغ مراتب من الكمال ، يحق له أن يدعى خليفة الله فى أرضه على حد قوله تعالى : « وإذ قال ربُّك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون ، وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » . فالأئمة الأطهار عليهم السلام هم المثل العليا وخلفاء الله فى أرضه .

إن هذه الآيات الشريفة تصرح بأن أنواع العلوم والمعانى التى لم تصل اليها الملائكة مغروسة فى جبلة الانسان ، واذا كان الانسان من سمو الفطرة وشرف التكوين فى درجة تسجد له الملائكة فأى وازع أقوى من هذا يزعه عن مقارفة الرذائل ومقارنة الخسائس . وأى دافع أشد منه يدفعه لطلب الغايات البعيدة وبلوغ النهايات القصوى وذلك بالتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة عليهم السلام .

لو تتبعتم الدين الاسلامى لرأيتم أنه يهدف فى جميع دساتيره ونظمه وتعاليمه الى تكميل النفس الانسانية وإبلاغها أعلى مراتب الكمال .

أنظروا كيف يعرف علىٌّ (ع) الإيمان ويحصره فى مقدسات أخلاقية

فيها الكمال الانسانى . انه (ع) يقول : « الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك ، وأن لا يكون فى حديثك فضل عن عملك ، وأن تتقى الله فى حديث غيرك » . ولا يخفى أن الانسان لا يبلغ هذه الدرجة من الكمال الأخلاقى إلا بالتقوى ، ولا تُعلم مراتب التقوى ولا تدرك إلا بأداء واجب الشكر لله تعالى ، ولا يمكن أداء واجب الشكر إلا بعبادات يتخللها خشوع وخضوع وإقبال نفسى حقيقى فمن ظن أنه يبلغ مراتب أخلاقية دون أن يعبد الله حق عبادته فهو كـ « من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين » .

نعم : إن العبادات واجباتها ومستحباتها ، والمدنسات محرماتها ومكروهاتها وما قرره الشرع من زكاة وخمس وصدقات واجبة ومستحبة وحج وجهاد وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر الى غير ذلك توصل الانسان الى الغاية العظمى التى خلق من أجلها الانسان وهى الكمال النفسى ، إن الفيلسوف قد يعين بصورة ناقصة المثل الأعلى ولكنه لا يقوى أبداً على عرض الوسائل الناجعة التى يبلغ بها الانسان الى تلك المثل العليا . والدليل على ذلك هو نفس الفيلسوف الناقصه ، تلك النفس التى لم تخطُ فى ساحات الكمال : فى مجالات تزكية النفس وتطهيرها شبراً . فكيف يريد أن يكون مربياً للعالم وهو أحوج الناس الى التربية النظرية والعملية فى حقل الكمال النفسى .

فطوبى لمن وعى الحق والحقيقة وأقبل على نفسه فأصلحها ولم تأخذه فى الله لومة لائم ، وارتحل من هذه الدنيا بنفس زكية الى خلود كله سرور وحبور وجله سعادة وهناء لا يتخلله كدر ولا شقاء .

« وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخر لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

التربية الاجتماعية فى الاسلام

الإنسان اجتماعى بالطبع ، فلا يمكن أن يعيش بصورة منفردة . ولابد له من الإجتماع والتعاون . ولكن إن لم يُبنَ هذا الاجتماع على أسس مشروعة صحيحة أدى الى الفساد والإفساد كما نشاهد اليوم . وقد يشذّ الانسان عن الاجتماع المرضىّ عند الله تعالى أو لا يؤدى واجبه نحو المجتمع . أو لا يعلم كيف يقوم بواجبه الاجتماعى فى كثير من الأحيان . لذلك عُنيت الأديان السماوية بالتربية الاجتماعية والأخوة والتراحم والتعاطف والتوادد وصلة الرحم والرفق وإطعام البؤساء والمساكين وإكسائهم . وأكملها وخاتمها الدين الإسلامى . فقد اهتم بالتربية الاجتماعية وشؤون المجتمع الى حد بعيد .

ففى الحديث : « من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » . وقال رسول الله (ص) : « أنسك الناس نسكاً : أنصحهم حباً : وأسلمهم قلباً لجميع المسلمين » .

إن المربين لشعورهم بحاجة المجتمع الانسانى وحيوية قوة الاجتماع أدخلوا التربية الاجتماعية فى مناهجهم وخصصوا لها أبحاثاً وفصولاً وكتباً خاصة . إن التربيه الفردية أو الاستقلالية كانت قد تغلغلت فى المدارس منذ زمن غير بعيد . ومن مظاهرها تخصيص رحلة خاصة لكل طالب وخزانة خاصة ومختبر خاص ومجموعة خاصة من نماذج النبات والحيوان والأحجار أو قطعة أرض يزرعها الطالب بيده الى ما هنالك .

لم يكن هنالك اهتمام خاص بالتربية الاجتماعية . ولكن (فروبل) مؤسس جنينات الأطفال قد تنبه الى هذا النقص ، فقال : « إن المجتمع الحاضر يختلف عن الجمعيات القديمة بأن لها روحاً تسمى بالروح الاجتماعى . فعلى الأفراد أن يوحدوا قواهم المعنوية لينجحوا ويحصلوا على نتيجة محسوسة كما هم

فاعلون فى الحياة المادية وعلينا تقوية التشبث الفردى فى التلاميذ بالألعاب على أن تعقب غاية مشتركة اجتماعية فيكون سرور اللعب مخلوطا بعمل اجتماعى » .

إن الله تبارك وتعالى قد أودع فى الطفل جميع القابليات التى من جرائها يكون الطفل فرداً كاملا مفيداً لنفسه ولمجتمعه . إلا أن الانسان لعدم تفهمه الحياة قد يضغط على هذه القابليات فلا يدعها أن تبرز وتنمو . فالوالدان أو المدرسة كثيراً ما يمنعون الأطفال من الألعاب الاجتماعية أو الفعاليات المشتركة الاجتماعية ، ساهين أن ما من طبيعة أو غريزة أودعها الله تبارك وتعالى فى الطفل إلا ولها فائدة تعود عليه وعلى المجتمع بالخير لو استعملت واستخدمت حسب قوانين يقرُّها العقل والشرع . كان علماء التربية الى زمن غير بعيد يعترفون بمبادئ ثلاثة للطفل : بدنية وعقلية وخلقية وقد فاتهم أن يضيفوا عليها المبدأ الاجتماعى الذى أوشك اليوم أن يسود على المبادئ الأخرى .

يقول (جون دُوى) : الفيلسوف المربى الامريكى فى مقاله : (المدرسة والرقى الاجتماعى) : « الجمعية مؤسسة من أفراد يسعون بفكرة واحدة وشعور واحد معقبين غاية مشتركة . فإن اشتراك الآمال والحاجات فى الجمعيات مما يزيد فى تصادم الأفكار ويؤدى الى تجاذب متقابل . وإن ما يمنع مدارسنا عن الرقى الاجتماعى خلوها عن الوحدة الاجتماعية فى الألعاب والنزه . فالأطفال حين شروعهم بلعب يقسمون الأعمال فيما بينهم ويعينون وظيفة لكل واحد منهم . وإن أفدح نقص فى مدارسنا اليوم اهتمامها بتربية الطلاب فى بيئة غير جامعة لمزايا اجتماعية » . نعم ، إن المدارس الحديثة قد أخذت تربى الطلاب تربية اجتماعية بتوزيع مقدمات الدرس ووسائل الايضاح على ثلة من الطلاب وحملهم على التتبعات المشتركة بشكل اجتماعى . وتشكيل جمعيات مختلفة الى ما هنالك .

وقد يُظن أن التربية الاجتماعية من مكتشفات القرن العشرين ، مع أن الدين الاسلامى قد أيد الناحية الاجتماعية الى حد بعيد . بل ان الدين الاسلامى دين اجتماعى بجميع مظاهره وتعاليمه وذلك بشكل يتناسب مع التكامل الروحى ، يتناسب مع الغرض الأسمى الذى خلق الانسان لأجله . وأى اجتماع خير من اجتماع المسلمين عدة مرات فى صلاة الجماعة فى جو تعلوه الطمأنينة وتغشاه رحمة رب العالمين .

يعيش الانسان فى حياته اليومية فى عالم من عدم المساواة وعالم من منازعات وعداء وبغضاء . وان حياة الأخوة الإلهية التى تتجلى فى صلاة الجماعة تعدّل نواقص الحياة الاجتماعية وتلقى دروساً قيمة عن الود والمحبة والمساواة وتدعم قواعد الوحدة ورفاهية الجنس البشرى .

إن صلاة الجماعة درس عملى لتطبيق قواعد الإخاء والمودة الإلهية وايجاد مجتمع متآزر متعاضد على أساس الإيمان الصحيح . وهكذا تتجلى الأخوة الإسلامية فى صلاة العيد وصلاة الجمعة والحج وتشييع الجنائز والتزاور والتلاقى والمصافحة والمعانقة .

والفرق الأساسى بين التربية الاجتماعية الاسلامية والتربية الاجتماعية الغربية أن التربية الاجتماعية الاسلامية ترمى الى تربية النفس والبدن معاً ، فتزكو النفس وتسير إذ ذاك فى ساحات الكمال حيث لا حد ولا انتهاء . ولكن التربية الاجتماعية الغربية مادية بحتة ونفعية محضة عليها طابع مادى وهو التقدم فى عالم الصناعة وايجاد وسائل الراحة فحسب ، فلا تنفذ الى الروح الانسانية ولا تعمل فى تكميلها وتهذيبها وتطهيرها من الدنس والرجس . ومن آثارها : هذه الحروب التى لا تبقى ولا تذر .

فجدير بالمسلم أن لاينخدع بمظاهر الغرب ، فإن النفوس غير المؤمنة لا يرتجى منها الخير ، وأن يعلم أن تراثه فى عالم التربية وتكامل النفس غنىٌّ وغنىٌّ جداً

ولايحتاج أن يأخذ شيئاً من الغربى فى التربية الإجتماعية والأخلاقية والمدنية . فى شريعة الإسلام الغراء يجد الإنسان الكمال الأخلاقى بأوسع معانيه الفلسفية السامية . ومما يؤسف له أن ثلة من شبابنا يذهبون الى الغرب لتعلم بعض العلوم الاجتماعية والتخصص فيها ! فيحسبون أن ما يمليه الأستاذ أو الدكتور حقائق ثابتة لا شبهة فيها ، ويزعمون أن الدين الاسلامى لم يعالج القضايا الاجتماعية ولم يقل فيها قوله الفصل المؤدى الى الكمال البشرى ، فيسخرون من الدين ويهزأون بعلماء الدين وبكتب الدين ويعبرون عنها بكتب صفراء شأن الجاهل الذى يعادى ما جهله . ولو أن هؤلاء تخصصوا فى الفلسفة الإسلامية وآدابها أودرسوا الدين الإسلامى وعملوا به قبل التخصص فى فرع آخر ، وورعوا واتقوا وجانبوا المعاصى والآثام ، لعدّلوا هفوات دكاترة الإجتماع وأساتذة الأخلاق ، وخرجوا من حدود التقليد الأعمى الى التفكير الصحيح والجرح والتعديل . ولكن هيهات !.

« ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » . (سورة آل عمران : ١٧٩).

ومن هؤلاء الذين يتخصصون فى الدراسات الاجتماعية من يركبه الغرور الى درجة يستهزئ فى كتاباته بعبارات المتدينين التى مفادها : التوكل على الله تعالى فى الأمور ، وتفويض الأمر اليه مع عمل متواصل وجدٍ واجتهاد . فيقول دونما مناسبة : (معاذَ الله) وأمثال ذلك . فكأنه غنىٌ عن التعوذ بالله تعالى من مكائد الشيطان . وقد فاته أن الدراسات الاجتماعية من أسهل المواضيع تخصصاً ، وأسرعها تناولاً ، ولو أدخل هذا المتخصص فى فرع من فروع علم الاجتماع ، جبراً ، فى فرع من العلوم الرياضية أو الفلكية أو الفيزياوية لرسب حتما ولما نال هذا اللقب المغرى (دكتوراه : Doctorat) ولما تكبر وتجبر ولاعترف بالجهل ، والاعتراف بالجهل يفتح على الإنسان أبواب الهداية .

إن العلوم الاجتماعية لا تضبط بضابط من حيث الصحة والسقم كالعلوم الرياضيه والكيمياوية والفيزياوية . فليس هناك كما يدعى: (Déterminisme) لتضارب الآراء فيها وتغير هذه الآراء من حين لآخر ؛ حتى أنك ترى أن الفيلسوف يغير رأيه فى موضوع واحد طيلة حياته مرات مع اتحاد الظروف .

فإذا كان العالم الاجتماعى غير عامل بالدين ومستهتراً بالمقدسات ، فلا يترشح من كتاباته فى موضوع الدين إلا ما يناسب نفسيته التى أخذت تتسافل بالمعاصى والآثام . لأنه أمسى بذلك لا يبصر الحق ويظن (لشهادة قد نالها) أنه قد بلغ الغاية من التتبع والتحقيق . إن الله تعالى يقول :

« بلى من كسب سيئةً وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

فلو أحاطت الخطايا بفرد من الأفراد فلا يترشح منه إلا ما يناسب تلك الخطايا والسيئات . « وكل إناء ناضح بالذى فيه » . وبديهى أن الانسان لو حاد بسوء اختياره عن الصراط السوىّ فإن الله تعالى يبعده عن ساحة القدس ، وهذه سنة الله فى خلقه « سنة الله التى قد خلت فى عباده » . يقول الله تبارك وتعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

ولو كان يشك هذا العالم الاجتماعى فى ما أقول فليعمد الى تجربة مُنجية : فليقم بتطبيق جميع ما أمر به الدين ولينتهِ عما نهى عنه الدين ثم ليأتِ بشىء من المستحبات ، فإنه سوف لا يقول بما كان يقول به قبلاً متبخترا مغروراً . بل يندم على مقالاته المضلة ويبرأ الى الله تعالى منها ، مستغفراً ، منيبا .

ولنختم هذا المقال بذكر دُرر من الأحاديث فى التساند الاجتماعى . تساند يأمر به الدين الاسلامى ولا يعمل به (مع الأسف) المسلمون إلا أفراداً قلائل .

يقول أبو عبد الله عليه السلام : « عليك بالنصح لله فى خلقه . فلن تلقاه بعمل أفضل منه » .

ويقول سلام الله عليه أيضاً : « من لم يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم » .

وعن النبي (ص) : « من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم . ومن سمع رجلاً ينادى يا للمسلمين فلم يجبه ، فليس بمسلم » .

وعن رسول الله (ص) : « الخلق عيال الله . فأحب الخلق الى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سروراً » .

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً : « من ردّ عن قوم من المسلمين عادية ماءاً أو ناراً ، وجبت له الجنة » .

وقال الصادق عليه السلام فى قول الله عز وجل : « وجعلنى مباركا أينما كنت » . قال : نفّاعاً .

فيجدر بالمسلم أن يطلع على هذه الكنوز الثمينة من آداب دينه وأن يُمليها بلسان فلسفى وتحليل علمى وإلهام ربانى (يأتيه من ناحية التقوى والورع) على أساتذة الغرب وفلاسفتها ، فيكون معلماً قبل أن يكون متعلماً . ومؤثراً قبل أن يكون متأثراً . ومن الله التوفيق ولا توفيق إلا بعمل صالح .

الانفاق فى الاسلام

إن الأديان السماوية برمتها تأمر بالرحمة والشفقة والرفق والإحسان ، وخاتمها وأكملها الدين الإسلامى الذى جاء به خاتم النبيين محمد (ص) رحمةً للعالمين لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين » . فكل أمة تعمل بنصوص هذا الدين تكون فى سلام ودعة وطمأنينة ، لا ترى فيها فقيراً ولا مسكيناً ولا بائساً ولا جائعاً ولا عارياً . فالناس كلهم ، إذ ذاك ، فى دعة ورغد ورفاهية تامة كل بحسبه . وهذا شأن الدين الكامل ، فإنه يؤسس مدنية فاضلة لا ترى فى أية ناحية منها خللا يحتاج الى إصلاح بشرى .

وقد شاهدنا النظم البشرية والقوانين الموضوعة ، تتبدل من وقت الى وقت ومن حين الى حين . يشعر الواضعون فيها بالنقص ، فيصلحون ما اعوج منها واذا بهم أمام نقص آخر أو عيب آخر . فالواضعون يضعون القوانين والمصلحون يصلحون والبشر فى تعب وعناء وفى خسر ووبال .

أنى لهذا البشر الذى قد حُدد عقله أن يأتى بشىء كامل لا نقصَ فيه ، إما أن يأتى بشىء خيالى لا مجال لتطبيقه ، وإما أن يأتى بشىء يصلح ناحية ويفسد نواحى عدة ، ذلك لأن النفس التى تضع هذا القانون مهما أوتيت من عقل وتفكير محكومة تجاه شهواتها وميولها ورغباتها وشعورها وانطباعاتها السابقة والظروف التى تحيط بها والبيئة التى تعيش فيها .

يقولون : يجب أن يتناسب النظام مع البيئة . أو يجب أن يؤخذ القانون من روح المحيط . فنجيبهم ما قولكم فى بيئة فاسدة ، فى بيئة متفسخة ؟ أوَهل يصلحها نظام يضعه من هو حامل جراثيم تلك البيئة ؟

يقولون : إن الحاجات تتجدد من وقت الى وقت ، فيجب أن تتغير

التعاليم الدينية حسب الحاجات الحادثة . فنقول : إن الله تبارك وتعالى أعلم بحاجات البشر الحقيقية التى تضمن سعادة الدارين من هذا البشر الناقص . وإن الحاجات الجديدة تعالج ، وتسن لها قوانين على ضوء المبادىء الإسلامية العامة والأصول المقررة فى علم أصول الفقه . نعم ، إن النظام يجب أن يكون مجرداً عن الأهواء والتأثيرات الخارجية والداخلية آتياً من منبع فياض زكى نقى لا كدر فيه .

النظام هو نظام الأنبياء ، والقانون هو ما سنوه ودونوه . فلا سعادة للبشر ولا هناء إلا إذا اتبعت النظم السماوية . وإن أكملها وأسماها هى النظم الإسلامية الخالدة التى تكفل سعادة الانسان فى جميع مرافق الحياة الدنيوية ، فضلاً عن الحياة الأخروية الخالدة . فإن الدين الاسلامى ليس بمجموعة عبادات فحسب بل هو بمجموعة قوانين رصينة وتعاليم خالدة تعين وظيفة الانسان فى معاملاته ومتاجره وفى حياته الشخصية والاجتماعية والمدنية . إلا أن الأهواء البشرية قد طغت عليها ، فمنعت تعميمها فى أرجاء العالم وبذلك بغت على البشرية المسكينة فتاه الناس فى دياجير الظلمات وكانت نتيجة ذلك ظهور مبادىء هدامة . وان أشنع هذه المبادىء الهدامة وأفسدها لهو المبدأ الشيوعى ، وهذا المبدأ هو عصارة المذهب المادى الذى انتشر فى أوروبا باسم العلم والعلم منه براء . هو نتيجة شيوع الفحشاء والمنكرات فى الغرب ، فرجع بثلة من البشرية المسكينة الى جاهلية جهلاء .

وما أثرُ العلم إن لم يقترن بالدين ، أى يتحد بنفس زكية طاهرة تعمل حسبما أمر به الدين . وإن ظهور مثل هذا المبدأ المميت لأمرٌ طبيعى إذا ما درسنا طيش أوروبا وانغمارها فى الشهوات والمنكرات طيلة قرون . « فكل إناء بالذى فيه ينضح » .

لو أردنا أن نعلم صحة مسلك من المسالك فلننظر الى واضعيه ، فإن كانوا

أناساً صلحاء فى حياتهم الشخصية والعائلية والاجتماعية ، يخافون الله ويؤمنون باليوم الآخر لا تجرفهم أطماع الدنيا وزينتها وحب الرئاسة جاز لنا أن نفكر فى تحقيق هذا المسلك وأن نعرضه على النصوص القرآنية والسنة النبوية والنظم الإسلامية الخالدة فإن وافق فذاك ، وإلا ضربنا به عرض الحائط .

إن الدين الإسلامى حثّ على الإنفاق والبذل والكرم وإقراء الضيف والتصدق وإيتاء الزكاة والخمس ضمن آيات عديدة فى القرآن الكريم وأحاديث جمة عن النبى (ص) والأئمة (ع) . وقد عمل بذلك النبى الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والائمة الأطهار عليهم السلام بمقياس مثالى واسع . فلنقتفِ آثارهم ليسود السلام فى العالم ويهنأ البشر قاطبة .

إن الإنفاق فى الدين الاسلامى على نوعين : مستحب مؤكد ، يكاد يكون واجباً ، وواجب مفروض .

يقول الله تبارك وتعالى : « مثلُ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبعَ سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » . ماذا يريد الانسان ؟ أجزاءٌ أعظم من هذا الجزاء ، وهذا هو الإنفاق المستحب استحباباً مؤكداً ، لو عمل به لأصبح الناس كلهم فى رفاهية تامة ولزال الفقر ، وهو غير الزكاة الواجبة .

إن الزكاة الواجبة نفسها تكفى الفقراء والمعوزين والمحتاجين . ذلك لأن الإمام أبا عبدالله (ع) يقول : « إن الله فرض الزكاة كما فرض الصلوة ، فلو أن رجلاً حمل الزكاة وأعطاها علانية لم يكن عليه فى ذلك عيب . وذلك أن الله فرض فى أموال الأغنياء للفقراء ما يكتفون به ولو علم أن الذى فرض لا يكفيهم لزادهم ، وإنما يؤتى الفقراء فيما أتوا من منع من منعهم حقوقهم لا من الفريضة[1] . يقول الله جل وعلا : « الذين ينفقون أموالهم

---

(١) معنى : يؤتى الفقراء فيما أتوا : أي يبتلون بما يبتلون به .

فى سبيل الله ثم لا يُتبعون ما انفقوا منّاً ولا أذىً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . هذا ، حسين عليه السلام يفد عليه أعرابى وهو فى المسجد فيراه مصلياً يقف بإزائه وينشىء قائلاً :

لم يخب الآن من رجاك ومن ... حرّك من دون بابك الحلقه
أنت جواد وأنت معتمد ... أبوك قد كان قاتل الفسقه
لولا الذى كان من أوائلكم ... كانت علينا الجحيم منطبقه

فسلم الحسين (ع) من صلاته وقال : « يا قنبر ، هل بقى من مال الحجاز شىء ؟ » قال : « نعم أربعة آلاف دينار » . فقال : « هاتها ، قد جاء من هو أحق بها منا » . ثم نزع بردته ولف الدنانير بها وأخرج يده من شق الباب حياءاً من الأعرابى وأنشأ يقول :

خذها فإنى اليك معتذر ... واعلم بأنى عليك ذو شفقه
لو كان فى سيرنا الغداة عصا ... أمست سمانا عليك مندفقه
لكن ريب الزمان ذو غِيَر ... والكف منا قليلة النفقه

فأخذها الأعرابى وبكى ، فقال الحسين عليه السلام : « لعلك استقللت ما أعطيناك » قال : « لا ، ولكن كيف يأكل التراب جودَك » .

هذا نموذج من الكمال الانسانى فى الإنفاق ، لا يقوى عليه البشر العادى .

المثل العليا فى الإنفاق

إن الدين الاسلامى حث كثيراً على الإنفاق المستحب وهو غير ما فرض الله تعالى من زكاة وخمس . يقول الله جل وعلا : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » . قال أبو عبدالله عليه السلام : « إن الزكاة ليس يحمد بها صاحبها وانما هوشىء ظاهر ، إنما حقن بها دمه وسُمى بها مسلماً » . فقلت : «أصلحك الله ، وماعلينا فى أموالنا غير الزكاة؟» . فقال: « سبحان الله ، أما تسمع الله عز وجل يقول : « والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » . قال : « قلت : ماذا الحق المعلوم الذى علينا ؟ » فقال: « هووالله الشىء الذى يُعلمه الرجل فى ماله ، يعطيه فى اليوم أو فى الجمعة أو فى الشهر ، قلّ أو كثر . غير أنه يدوم عليه » . قال : « وقلت : قوله عزوجل : « ويمنعون الماعون » فقال : « هو القرض يقرضه ، والمعروف يصطنعه ومتاع البيت يعيره وليس منه الزكاة » . فقلت له : « إن لنا جيراناً ، اذا أعرناهم متاعا كسروه وأفسدوه ، أفعلينا جناح أن نمنعهم ؟ » قال : « لا ، ليس عليكم جناح أن تمنعوهم اذا كانوا كذلك » . قال قلت له : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » ؟ قال : « ليس من الزكاة » . قال : « فقلت له : قوله عزوجل: « إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » ؟ قال : « ليس من الزكاة . وصلتك قرابتك ليس من الزكاة » .

وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره ما لفظه : « ان الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله فى ناس معه ، فقالوا : يا أبا الحسن ، لو نذرت على ولديك . فنذر على وفاطمة وفضة جارية لهما إن برآ مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام . فشفيا وما معهم شىء ، فاستقرض على عليه السلام من شمعون الخيبرى

اليهودى ثلاثة أصوع من شعير ، فطحنت فاطمة صاعا واختبزت خمسة أقراص على عددهم . فوضعوها بين أيديهم ليفطروا ، فوقف عليهم سائل . فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، مسكين من مساكين المسلمين ، أطعمونى ، أطعمكم الله من موائد الجنة . فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياما . فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه . ووقف عليهم أسير فى الثالثة ففعلوا مثل ذلك ، فلما أصبحوا أخذ على (رض) بيد الحسن والحسين وأقبلوا الى رسول الله (ص) فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال : ما أشد ما يسوؤنى مما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة فى محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك . فنزل جبرائيل عليه السلام وقال خذها يا محمد ، هنأك الله فى أهل بيتك فأقرأه السورة وهى سورة الدهر ومنها : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شرّه مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ... الخ » .

وأما على عليه السلام فقد روى المفسرون أنه كان لا يملك إلا أربعة دراهم ، فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سراً وبدرهم علانية فأنزل الله فيه : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية » ، وكان يستقى بيده لنخل قوم من يهود المدينة حتى مجلت يداه ويتصدق بالأجرة ويشدّ على بطنه حجراً .

قال الشعبى : « كان على أسخى الناس ، كان على الخلق الذى يحبه الله : السخاء والجود ، وما قال : لا ، لسائل قط » . وقد قال فيه معاوية : « لو ملك على بيتا من تبر وبيتا من تبن لأنفق تبره قبل تبنه » . وهو الذى كان يكنس بيوت الأموال ويصلى فيها وهو القائل : « يا صفراء ويا بيضاء غرّى

غيرى » . ولم يخلف ميراثا وكانت الدنيا كلها بيده إلا ما كان من الشام . وهو الذى عمل بآية النجوى وتصدق دون غيره .

وأما الحسن بن على عليهما السلام ، فكما روى أبو نعيم فى الحلية ، قاسم الله ماله ثلاث مرات . وقد روى فى المناقب أن رجلاً سأله فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار . وقال : أئتِ بجمال يحمل لك ، فأتى بجمال فأعطاه طيلسانه وقال هذا كراء الجمال . وجاءه أعرابى ، فقال الحسن (ع) : أعطوه ما فى الخزانة . فوُجد فيها عشرون ألف درهم . فدفعها اليه . فقال الأعرابى يا مولاى ألا تركتنى أبو ح بحاجتى وأنشر مدحتى ، فأنشأ الحسن عليه السلام يقول :

نحن أناس نوالنا خضل ... يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا ... خوفا على ماء وجه من يسل

وروى المدائنى قال : خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبدالله بن جعفر حجاجا ففاتتهم أثقالهم ، فجاعوا وعطشوا فرأوا عجوزاً فى خباء ، فاستسقوها ، فقالت : هذه الشويهة ، احلبوها وامتذقوا لبنها ، ففعلوا . واستطعموها فقالت : ليس إلا هذه الشاة ، فليذبحها أحدكم . فذبحها أحدهم وكشطها ثم شوت لهم من لحمها فأكلوا وقالوا عندها . فلما نهضوا قالوا : نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه . فإذا عدنا فألمى بنا فإنا صانعون بك خيراً . ثم رحلوا . فلما جاء زوجها أخبرته . فقال : ويحك تذبحين شاتى لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش !

ثم مضت الأيام فأضرّت بها الحال . فرحلت حتى اجتازت بالمدينة ، فرآها الحسن عليه السلام فعرفها . فقال لها : « أتعرفيننى » . قالت : « لا » . قال : « أنا ضيفك يوم كذا وكذا » . فأمر لها بألف شاة وألف دينار ،

وبعث معها رسولاً إلى الحسين (ع) فأعطـــاها مثل ذلك ثم بعثها الى عبدالله بن جعفر فأعطاها مثل ذلك .

والحسن صلوات الله عليه كان مع هذا الجود المثالى فى غاية التواضع . يمر على فقراء وقد وضعوا كسيرات على الارض وهم قعود يلتقطونها . فقالوا هلمَّ يا ابن رسول الله الى الغداء . فنزل وقال : إن الله لا يحبُّ المتكبرين . وجعل يأكل معهم حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته . ثم دعاهم الى ضيافته وأطعمهم وكساهم . فهذا نموذج من الأخلاق الاسلامية المثالية .

وفى المناقب عن يعقوب بن اسحق النوبختى ، قال : « مر رجل بأبى الحسن الرضا (ع) فقال له : أعطنى على قدر مروءتك ، قال : لا يسعنى ذلك ، فقال : على قدر مروءتى . قال : أما هذا فنعم . ثم قال : يا غلام ، أعطِه مائتى دينار » . قال : «وفرق (ع) بخراسان ماله كله فى يوم عرفة » . فقال له الفضل بن سهل : « إن هذا المغرم » . فقال : « بل هو المغنم . لا تعدنَّ مغرماً ما ابتعت به أجراً وكرماً » .

وروى الكلينى فى الكافى بسنده عن اليسع بن حمزة قال : كنت فى مجلس أبى الحسن الرضا (ع) وقد اجتمع اليه خلق كثير يسألونه عن الحلال والحرام ، إذ دخل عليه رجل طوال آدم . فقال : « السلام عليك يا ابن رسول الله . رجل من محبيك ومحبى آبائك وأجدادك . مصدرى من الحج وقد فقدت نفقتى وما معى ما أبلغ به مرحلة . فإن رأيت أن تنهضنى الى بلدى ، ولله على نعمة ، فإذا بلغت بلدى تصدقت بالذى توليني عنك . فلست موضع صدقة» . فقال له : « اجلس رحمك الله » . وأقبل على الناس يحدثهم حتى تفرقوا وبقى هو وسليمان الجعفرى وخيثمة وأنا . فقال : « أتأذنون لى فى الدخول» . فقال له سليمان : « قوَّم الله أمرك » . فقام فدخل الحجرة وبقى ساعة ، ثم خرج وردَّ الباب وأخرج يده من أعلى الباب وقال « أين الخراسانى ؟ »

فقال : « ها أناذا » . فقال : « خذ هذه المائتى دينار واستعن بها فى مؤونتك ونفقتك وتبرك بها ولا تتصدق بها عنى واخرج فلا أراك ولا ترانى » . ثم خرج فقال سليمان : جعلت فداك ، لقد أجزلت ورحمت . فلماذا سترت وجهك عنه ؟ فقال : « مخافة أن أرى ذلّ السؤال فى وجهه لقضائى حاجته . أما سمعت حديث رسول الله (ص) : « المستتر بالحسنة تعدل سبعين حجة والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له » . أما سمعت قول الأول :

متى آته يوماً لأطلب حاجةً رجعت الى أهلى ووجهى بمائه

الصدقات فى الاسلام

إن الدين الإسلامى قد حث الناس على الإنفاق حثاً لا مزيد عليه ، لو عملوا به لسادت الطمأنينة فى العالم ولما وجد على وجه الأرض فقير . وهذا قوله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين ؟ فذلك الذى يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين » . فجعل الله مآل : دعّ اليتيم وعدم الاهتمام بطعام المسكين : التكذيب بآياته تعالى ورسله وكتبه . فكأن من دع اليتيم ولم يرفه عنه من فضول ماله ولم يحضّ على طعام المسكين تنسلخ عنه العقيدة الدينية شيئاً فشيئاً ، تتوارد عليه الشكوك والأوهام وهو لا يعلم من أين أتاه هذا الانقلاب ، وكيف أمسى مظلماً لا يرى شيئاً وراء المادة الزائلة ، فلا تتسلى نفسه إلا باتخاذ مبادىء فاسدة تتناسب ونفسه المريضة الطائشة ، ويزعم أنه بلغ من التفكير مرتبة أو وجد طريقاً جديداً يحلّ به مشاكل الحياة . وهذا عقاب لمانع اليتيم حقه والمسكين طعامه ، وابتعاد عن رحمة الله وانطماس فى ظلمات ما فوقها ظلمات . « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

فتشوا عن أناس سخت نفوسهم فاهتموا بأمر اليتيم وحضوا على طعام المسكين ، تروا نفوسهم منيرة وضاءة تحبّ الله وتحبّ الحق ، تميل الى الخشوع وتتوجه نحو صانعها وتعبده على قدر ما قامت بالأعمال الصالحة لوجه الله الكريم .

فالإيمان إذن عصارة الأعمال الصالحة ، والتصديق بالدين مآل الاهتمام بأمر اليتيم والحض على طعام المسكين . لذلك كله قد حثّ الدين الاسلامى على الاهتمام بأمر الفقراء والمساكين وندب الى التعطف على الضعفاء والأيتام بإعطاء زكاة واجبة ونفقات مندوبة وصلة الرحم وصدقات

مستحبة . وقد يراد بالصدقات : الزكاة الواجبة ، ولسنا بصدد بيانها الآن .

ولقد قال أبو عبدالله عليه السلام : « لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه أربع خصال : يحسن خلقه ، وتسمو نفسه ، ويمسك الفضل من قوله ، ويخرج الفضل من ماله » . ولقد كان فى وصية رسول الله (ص) لأمير المؤمنين (ع) : أوصيك فى نفسك بخصال ، إحفظها عنى ، ثم قال : اللهم أعنه . . . الى أن قال : « وأما الصدقة فجهدك جهدك ، حتى تقول قد أسرفت ولم تُسرف » لذلك يبيع على (ع) بستاناً له فيعلم بذلك فقراء المدينة ، فيرجع الى بيته وليس معه شيء . ويستأجر داراً للسكنى فى الكوفة وهو خليفة المسلمين . ويحمل الطعام الى فقراء الكوفة جوف الليل ، حتى أن الحسن (ع) بعد رجوعه ليلاً من دفن والده سمع أنين مسكين عاجز فى إحدى خرائب الكوفة ، فجاءه يسأله عن حاله ، فقال : كان لى رجل يأتينى كل ليلة بما أحتاجه من طعام وشراب وقد مضت ثلاث ليالٍ لا أراه يأتينى ، فقال الحسن عليه السلام ذاك أبى ، قد قتل فى محرابه .

وقد جعل الدين الإسلامى التصدق بالليل أفضل من التصدق بالنهار ، لأن صدقة السر تطفىء غضب الرب ، كما جاء فى الحديث . كان أبو عبدالله جعفر الصادق عليه السلام إذا أعتم وذهب من الليل شطره أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم فحمله على عنقه ثم طاف به على أهل الحاجة من أهل المدينة فيقسمه فيهم وهم لا يعرفونه ، فلما مضى جعفر الصادق فقدوا ذلك ، فعلموا أنه كان أبا عبدالله ، أى الصادق عليه السلام . نعم ، هذا دين يقول : « اصنع المعروف الى من هو أهله والى من ليس من أهله فإن لم يكن هو أهله ، فكن أنت من أهله » .

هذا دين يقول : « إن الصدقة بالليل تدفع ميتة السوء وتدفع سبعين نوعاً من البلاء وانها تطفىء غضب الرب » .

هذا دين يقول : « يستحب للمسلم أن يعول أهل بيت للمسلمين ويختار ذلك على الحج وعلى العتق » .

هذا دين يقول : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » .

هذا دين يقول : « داووا مرضاكم بالصدقة » اهتماماً بأمر الفقراء .

هذا دين يقول : « يستحب لمعطى الصدقة أن يقبل يده بعد العطاء » ، ذلك لأن يده قد تبركت وتيمنت ببركة عطفه على الفقير ، وفى الخبر : اذا أعطيته فأغنه . وقال على (ع) : « اذا ناولتم السائل فليردّ الذى ناوله يدَه الى فيه ، فيقبلها ، فإن الله عز وجل يأخذها » .

هذا دين يقول ، « إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة » . لذلك يقول الصادق عليه السلام لابنه محمد : « يا بنى كم فضل معك من تلك النفقة ، قال : أربعون ديناراً ، قال : اخرج فتصدق بها . قال : إنه لم يبقَ معى غيرها ، قال : تصدق بها فإن الله يخلفها ، أما علمت أن لكل شىء مفتاحاً ومفتاح الرزق الصدقة ، فتصدّق بها . ففعل . فما لبث أبو عبدالله إلا عشرة أيام حتى جاءه من موضع أربعة آلاف دينار . قال : يا بنى : أعطينا الله أربعين ديناراً ، فأعطانا أربعة آلاف دينار .

يأتى شيخ من مهاجرة العرب رسول الله (ص) وهو فى المسجد والناس حوله وعلى الشيخ سمل قد تهلهل وأخلق وهو لا يكاد يتمالك ضعفا وكِبراً . فيقول : يا رسول الله ، أنا جائع الكبد ، فأطعمنى وعارى الجسد ، فاكسنى وفقير ، فأثرِنى . فيقول له رسول الله (ص) : ما أجدلك شيئا ، ولكن الدال على الخير كفاعله . انطلق الى ابنتى فاطمة . وأمر بلالا فوقف به على منزل فاطمة (ع) ، فنادى بأعلى صوته : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومختلف الملائكة . . . يا بنت محمد ، أقبلتُ على أبيك سيد البشر مهاجراً من شقة ، عارى الجسد ، جائع الكبد ، فارحمينى ، يرحمك الله . وكان على وفاطمة (ع) ثلاثا ما طعموا طعاما .

فتعمد فاطمة الى جلد كبش مدبوغ بالقرظ كان ينام عليه الحسن والحسين (ع) وتعطيه الشيخ قائلة : عسى الله أن يتيح لك ما هو خير منه . فيقول الشيخ أنا شكوت اليك الجوع ، فناولتيني جلد كبش فما أنا صانع به مع ما أجد من السغب ؟

فتعمد فاطمة (عليها السلام) الى عقد فى عنقها ، أهدته اليها فاطمة بنت عمها حمزة ، فتقطعه من عنقها وتنبذه الى الأعرابى ، وتقول : خذ وبعه . فعسى الله أن يعوضك بما هو خير لك منه . فيأتى الشيخ الى المسجد ويبيع العقد ، فيشتريه عمار بعشرين ديناراً ومائتى درهم وبردة يمانية وراحلة تبلغ الشيخ الى أهله ، فيقول رسول الله (ص) : « لو اشترك فى شراء هذا العقد الثقلان ما عذبهم الله بالنار » .

فينطلق عمار بالأعرابى ويفى بما ضمن له وعاد الأعرابى الى النبى (ص) فقال له : أشبعت واكتسيت ؟ قال : نعم ، واستغنيت بأبى أنت وأمى . فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله : فاجز فاطمة فى صنعها معك خيراً . فيقول : « اللهم أنت إله ما استحدثناك ، ولا إله لنا نعبده سواك ، وأنت رازقنا ، فأعط فاطمة مالا عين رأت ولا أذن سمعت .

فأمّن رسول الله على دعائه وأقبل النبى (ص) على أصحابه وقال : إن الله قد أعطى فاطمة ذلك وأنا أبوها وما فى العالمين مثلى ، وعلىٌّ بعلها ، ولولا علىٌّ ما كان لها كفؤ أبداً . أعطاها الحسن والحسين وما فى العالمين مثلهما . سيدا أسباط الأنبياء ، وسيدا شباب أهل الجنة : وقال : أزيدكم .

فقال سلمان وعمار والمقداد وكانوا الى جنبه : نعم .

فقال : أتانى الروح الأمين وقال : إنها إذا قبضت ودفنت يسألها الملكان فى قبرها : من ربك ؟ فتقول الله ربى ـ من نبيك ؟ أبى ـ مَن وليك ؟ فتقول : هذا القائم على قبرى على بن أبى طالب .

ألا أزيدكم من فضلها ، فيقولون : زدنا .

فيقول رسول الله (ص) : إن الله وكل بها رعيلاً من الملائكة يحفظونها من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها وهم معها فى حفرتها يكثرون من الصلاة عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها . يقول جابر بن عبدالله ان عماراً بعد ذلك طيب العقد بالمسك ولفه فى بردة يمانية وبعث به مع عبده (أسهم) الى رسول الله وقال : أنت لرسول الله مع العقد . ورسول الله يرسل العبد مع العقد الى فاطمة قائلاً : أنت لها مع العقد . فتأخذ فاطمة (ع) العقد وتقول للعبد : « اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله » . يضحك العبد ويقول : ما أكثر بركة هذا العقد ، أشبع جائعاً وكسى عرياناً وأغنى فقيراً وأعتق مملوكا ورجع الى أهله .

هذا نموذج من الكمال الانسانى فى التصدق والإنفاق من فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين (ع) ، وإن حياتها كلها لنماذج رفيعة من الكمالات المثالية التى هى فوق متناول الفيلسوف وفوق مستوى التفكير البشرى . فطوبى لمن تأسّى بها وتخلق بأخلاقها فان « قيمة كل امرئ ما يحسنه » على ما جاء فى كلام على عليه السلام .

* * *

ويمكن تشبيه محصّلة القوى الموجبة والسالبة المؤثرة فى نقطة ما (فى جسم) بقيمة المرء . ذلك لأن القوى المؤثرة فى نقطة م على امتداد محور (س سَ) والمتوجهة الى اليمين تعتبر (كما فى علم الميكانيك) موجبة ، فمحصلتها موجبة أيضا . والقوى المؤثرة فى نفس النقطة م والمتوجهة الى اليسار على نفس الامتداد تعتبر سالبة ، فمحصلتها سالبة أيضا . ثم تركّب هاتان المحصلتان أو تطرح إحداهما من الأخرى (إن كانت على استقامة واحدة ، حسب الفرض) فتكون المحصلة النهائية إما متوجهة الى اليمين ،

فصاحبها إذن من أصحاب اليمين ، فمصيره الجنة ، أو متوجهة نحو اليسار (أو الشمال حسب ما جاء فى القرآن الكريم) فصاحبها إذن من أصحاب اليسار ، فمصيره النار .

يقول الله تبارك وتعالى : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود ، (لا شوك له) وطلح (شجر الموز) منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب (جارٍ أبداً) ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، إنا أنشأناهن إنشاءً ، فجعلناهن أبكاراً عرباً (متحببات الى أزواجهن) أترابا (مستويات فى السن أو مثل أزواجهن فى السن) لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، فى سموم وحميم وظلٍ من يحموم (دخان أسود) لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين (منعمين لاهين عن الطاعة) وكانوا يصرُّون على الحنث (الذنب) العظيم ، وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون ؟ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم » .

* * *

فكل عمل صالح يقوم به الانسان لوجه الله تعالى ، له أثر فعال فى معتقده وسيره التكاملى ، وكل عمل سيء يأتى به الانسان له أثر فعال فى تسافله وولوج الشكوك والريب فى نفسه . فالايمان محصلة الأعمال الصالحة والأعمال السيئة . فالأعمال الصالحة تشكل القوى الموجبة المؤثرة فى نقطة (م) والأعمال السيئة تشكل القوى السالبة المؤثرة فى نقطة (م) أيضاً . فالمحصلة إذن إما أن تكون موجبة أو تكون سالبة . إن الله تعالى يقول : « فأما من ثقلت موازينه (بأن رجحت حسناته) فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفَّت موازينه (بأن رجحت سيئاته) فأمُّه هاوية (مأواه النار) وما أدراك ما هيه ، نار حامية » .

إن الأعمال الصالحة لها الأثر الكلى فى اتجاه الانسان الدينى . فمن أعطى الحقوق المترتبة على أمواله (مثلاً) يرى أن نفسه تميل الى العبادة ومعرفة الخالق جلّ جلاله ومجالس الوعظ والإرشاد . ذلك لأنه بإعطائه الحقوق يجعل ما يدخل فى جوفه طاهراً لا شبهة فيه . وان هذا المأكل الطاهر له أثره الفعال فى توجيه النفس ، فقد جاء فى الحديث : « إن الحجر المغصوب فى الدار رهن على خرابها » . وفى حديث آخر عن النبى (ص) : « ترك لقمة حرام أحب الى الله من صلاة ألفى ركعة تطوعاً ، وردّ دانق حرام يعدل عند الله سبعين حجة مبرورة » . وفى حديث آخر : « من أراد أن يستجاب دعاؤه فليطب مطعمه ومكسبه » .

نعم ، لو كان بعض ما يتجر به الشخص شيئاً محرماً فان الأموال التى تجنى بهذه الوسيلة تكون مخلوطة بالحرام ، فتؤثر فى سير الانسان الدينى والتكاملى .

ولقد جربت ذلك فى أشخاص . فعندما كان ما يتجر به أحدهم حلالاً طيباً ، يوافق ما جاء فى الشرع المحمدى . كان هذا الشخص مصلياً ، صائماً يذهب الى دور العبادة والى « بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال » . وبعد أن أدخل فى ما يتجر به ما حرّم الله ، أخذت نفسه تتسافل شيئاً فشيئاً ، فصار يصلى عند الصباح ولا يصلى عند الظهر ، أو يصلى عند الظهر ولا يصلى صلاة الصبح . ولكنه اذا اعترته حاجة شديدة ، نذر نذراً ، فسافر لأداء نذره ويصلى فى اليوم الذى يفى بنذره فقط . ثم يترك صلاته غير مبالٍ بما سيصيبه من جراء هذا العصيان ، مع تقادم عمره .

فإذا جاءت ليلة القدر هرع الى محال العبادة لانطباع سابق ، فإذا ذهبت ليالى القدر ترك صلاته وهكذا . إلا أنه مع ذلك يعتقد بأصول الدين .

وهكذا لو ثابر هذا الشخص على عدم إخراج الحقوق المترتبة على أمواله[١] ضعف يقينه بأصول الدين بصورة تدريجية فيزول اعتقاده بوجود الحجة المهدى عجل الله تعالى فرجه وانه حيٌّ يرزق ، ثم يشكُّ فى المعاد ، ثم فى النبوة ، ثم فى العدالة الإلهية . وقد يبلغ به الأمر (لو بالغ فى ارتكاب كبائر المعاصى والظلم والبغى) الى الإلحاد . ثم يزعم ، فيوقن أنه كان فى وادٍ من الخرافة . وقد دخل اليوم فى عالم من الثقافة جديد ، وواد من نور ، وتخلص من براثن الجاهلية الجهلاء .

فإذا صادف أناسا يحبذون الدين ويؤيدونه الى حد ما ، أخذ يفسر الدين كما تشاء له نفسه المتسافلة ظانا انه جاء بفلسفة جديدة ! « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

وقد يكون السير سيراً تكامليا بعكس ما قلنا ، يأتى الانسان بعمل صالح هام فى محله ، فيؤثر هذا العمل الطيب فى نفسه ، ففى معتقده ، ثم يقوم بعمل صالح آخر فآخر ، فتمحو هذه الأعمال الصالحات بعض السيئآت : « إن الحسنات يذهبن السيئآت » فيتنور قلبه شيئا فشيئا ، فتتبدد عنه غياهب الشكوك ويسير فى طريق الهداية رويداً رويداً » :

« والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم » (سورة محمد ص) . فيدخل فى عالم من الصلاح والفلاح الحقيقى سائراً نحو تزكية النفس فمعرفة

---

(١) انما ذكرت (اخراج الحقوق كالخمس والزكاة) على سبيل المثال . فكل معصية : صغيرة أو كبيرة ، تؤثر تأثيراً مباشراً في سير الانسان التسافلي ، لو لم يعقبها حالا بتوبة عملية وقلبية . أنصتوا الى ما يقوله زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام . كيف ان الذنوب تميت القلوب وكيف ان التوبة تحييها . انه صلوات الله عليه يقول معلماً ابانا : « الهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي ، وجللني التباعد عنك لباس مسكنتي ، وأمات قلبي عظيم جنايتي ، فأحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي ويا سؤلي ومنيتي » .

الخالق وهى غاية الغايات من تكامل هذا الانسان على وجه الارض .

هذا التحليل له اليوم مصداق فى ثلة من الناس . فليعقب من شاء سير بعض الأفراد العقائدى والدينى خلال ٢٠ عاما مثلاً ، رابطا هذا السير بما بدا منه من أخلاق وأعمال وكسب وتجارة وأمور تطابق الشرع أو تخالفه ليرى صدق ما ذهبتُ اليه . ومن الله التوفيق . ولابد من عمل صالح فى حدود الاختيار لجلب توفيقه تعالى .

الزكاة وأثرها فى تكامل النفس

إن الدين الإسلامى قد استهدف فى جميع نظمه وسننه تهذيب النفس الانسانية وابلاغها أقصى مرتبة من مراتب الكمال ، بل إن الغرض الأسمى من شريعة محمد صلى الله عليه وآله هو تكوين نفس طاهرة زكية خالية من الأدران والأوساخ متحلية بالكمال .

فالنفس الإنسانية أشبه شىء بقطعة حجر فيها معادن خسيسة لا قيمة لها وفيها الذهب الثمين . فإن الكيماوى يجرى على هذه القطعة أنواع العمليات والصناعات ويضعها فى أنواع المحاليل كى يظفر بالذهب الخالص . كذلك الدين الإسلامى : فإنه بقوانينه ودساتيره يجرى على النفس الانسانية أنواع الامتحانات والرياضات النفسية كى تصفو رويداً رويداً مما علق بها من ردىء الصفات وذمائم الأخلاق ، فتتوجه نحو مكارم الصفات وفضائل الاخلاق ، وتتمرن عليها لتكون لها طبيعة ثانية : طبيعة فيها من المكارم والفضائل ما يجعل الانسان قميناً ليتنعم « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » ، جديراً بالخلود فى « جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

فحرى بالإنسان أن يجاهد نفسه ليخرج من هذه الدنيا بالذهب الخالص . ولنعم ما قال الشاعر : « علىٌ الدر والذهب المصفى » .

فإن الانسان ناقص عندما يولد ، وفيه من ذمائم الصفات ما لا يوصف . ولابد له من أن يدخل فى هذا السير التكاملى بتطبيق ما جاء فى الدين المحمدى وأن يتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة (ع) . فلا كمال ولا نجاة إلا بالتمسك بهما والعمل بما أمرا به ، لوجه الله الكريم . ومن وفق الى هذه التجربة المنجية فقد شعر بتلك التجليات القدسية والكمال النفسى نادماً

على ما فرط فى جنب الله ، متأسفاً على ما سوّف من توبة واستغفار وتلافى ما فات .

إذا تتبعتم العبادات بأنواعها وما أمر به الدين الاسلامى من زكاة وخمس وايتاء ذى القربى واليتامى والمساكين وما نهى عنه من خمر وميسر وأنصاب وأزلام وزنا وكذب وغيبة ونميمة وبهتان وافتراء وسرقة وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم وبغى وظلم الى ما هنالك لرأيتم أنها برمتها تستهدف تنزيه النفس الانسانية مما علق بها من أدران المادة والصفات الرذيلة واللؤم والخبث وحب المال والركون الى المادة وتحليتها بالفضائل والمكرمات والصفات الانسانية الكاملة كى تكون لائقة للقاء الله تعالى حرية بالخلود فى نعيم أبدى سرمدى .

ولا مراء أن الله تعالى جلّ عن أن يلاقى ، وإنما يكون العبد بقطعه مراحل التكامل موضع عطفه ورفده ، فيكون مقرباً اليه . انه تعالى يقول : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » (سورة القيامة) . أى تنال هذه الوجوه من مراتب الزلفى بحيث تكون كأنها ناظرة الى ربها . ويقول الله فى آية أخرى : « كلا أنهم يومئذ عن ربهم لمحجوبون » (سورة المطففين) . أى مبعدون معذبون منسيون .

إن الله تبارك وتعالى وهو معطى الكمالات قد خلق الموجودات المادية كلها فى أكمل وجه ، وأراد بالانسان أن لا يشذّ عن سنّة الكمال ، ونبه على ذلك بقوله : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » . فأرسل أنبياء ورسلاً يُملون على الانسان طرق الكمال النفسى . وجهز الانسان بعقل يأمره باتباع سنة الكمال (بصورة فطرية) لو لم يدنس الانسان نفسه باتباع الشهوات ويلوثها بارتكاب الموبقات . فالدين الاسلامى دين صناعة النفس ، دين تكوين النفس وإبلاغها الكمال المنشود .

ومن جملة تلك الصناعات الخطيرة التى لا يمكن أن يتوصل اليها العقل

البشرى بذاته ، هو الزكاة . فالزكاة - كما يقول الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم (ص) : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » - وسيلة لتطهير النفس عن رذيلة البخل والشح . لأن النفس الانسانية مجبولة على البخل بالمال ، مادية مظلمة . فتتنوّر بتقديمها من فضول ما أنعم الله عليها ، فتصفو شيئاً فشيئاً وتتخلق بالكرم والجود وتراض فى هذا الحقل فتؤدى الأمانات الى أصحابها وتوصل الحقوق الى مستحقيها .

فالفرق بين المدنية الإسلامية والمدنية الغربية ، أن المدنية الاسلامية تنظر الى النفس وتستهدفها وتعمل ضمن تحقيق الحياة المادية السعيدة من أجل تكامل النفس وارتقائها . لذلك يستحب للشخص أن يعطى الزكاة المندوبة سراً دون أن يُعلم أحداً بذلك . كى لا يخالط عملية التزكية العجبُ وحبُ الثناء وحب الجاه وأمثال ذلك . فلا يسرى أثر الزكاة والعطاء الى نفس المعطى مع العجب وحب الثناء وحب الشهرة . فلو لم يتوخ فى عطائه هذا وجه الله لن تزكو نفسه ولن تسير فى مجالات الكمال خطوة واحدة .

وهكذا يمزج الاسلام بين المدنية الروحية والمادية ، بل الهدف الأسمى من الدين الاسلامى هو المدنية الروحية . وإنما يحقق الاسلام المدنية المادية للبلوغ الى مدنية روحية رفيعة : إذ « الدنيا مزرعة الآخرة » . والآخرة هى الحياة الحقيقية التى يحق أن يطلق عليها لفظ (الحياة) . ذلك لأن السبب الرئيسى من وجودنا فى هذه الدنيا : بلوغنا الى أسمى مدنية روحية فيها كمال الملكات أى كمال النفس الانسانية ، وهذا الكمال ينتهى الى معرفة الله تعالى . لا يفهم حقيقتها ومداها إلا من تذوق الكمال النفسى . وإن طريقة هذه المعرفة السامية : (معرفة الله تعالى) هى العبادات والأعمال الصالحات . انه تعالى يقول : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » . (سورة العنكبوت : ٦٥) .

لننظر الى بعض حِكم الزكاة وآثارها المادية : نرى بعض الأغنياء يشكون البطنة من كثرة الأكل ، ونرى فقراء يشكون الجوع . فلو أعطى الاغنياء ما فضل عن حاجتهم من الطعام هؤلاء الفقراء ، لما شكى واحد منهم سقماً ولا ألماً . فجدير بالغنى أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ويطفى غلته . ولكن لحبه لنفسه ومغالاته بها يضم الى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير ، فيعاقبه الله فى الدنيا بالبطنة حتى لا يهنىء للظالم ظلمه ولا يطيب له عيشه وفى الآخرة عذاب أليم ! وان أصحاب النار ليعترفون (بعد دخول النار) بعدم إطعامهم المسكين بعد اعترافهم : بتركهم (الصلاة) وذلك بقولهم : « لم نكُ من المصلين ، ولم نكُ نطعم المسكين » وإن الله جل وعلا جعل أحد عوامل التكذيب بدينه : عدم حث النفس أو حث الغير على تهيئه طعام المسكين بقوله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين : فذلك الذى يدعُّ اليتيم ولا يحضُّ على طعام المسكين » .

لذلك يعلمنا المثل الكامل على عليه السلام عندما يخاطب سهل بن حنيف عامله على البصرة بقوله : « أما بعد ، يا ابن حنيف ، فقد بلغنى أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة ، فأسرعت اليها ، تستطاب لك الألوان ، وتنقل اليك الجفان[1] ! وما ظننت أنك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو[2] ، وغنيهم مدعو . فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم[3] . فما اشتبه عليك علمه فالفظه[4] وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه . ألا وان لكل مأموم اماماً يقتدى به ويستضيء بنور علمه . ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه[5] ومن طعمه بقرصيه . ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك . ولكن

---

(١) الجفان ، جمع جفنة : قصعة .
(٢) العائل : المحتاج . مجفو : مطرود .
(٣) المقضم : المأكل .
(٤) فالفظه : فاطرحه .
(٥) الطمر ـ بالكسر ـ الثوب البالي .

أعينونى بورع واجتهاد ، وعفة وسداد . فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا [١] . ولا أدخرت من غنائمها وفرا . ولا أعددت لبالى ثوبى طمرا [٢] . ولا حزت من أرضها شبرا . ولا أخذت منه إلا كقوت أتان دَبرة [٣] ولهى فى عينى أوهى وأهون من عفصة [٤] مقرة [٥] . بلى ، كانت فى أيدينا فدك من كل ما اظلته السماء ، فشحت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوس قوم آخرين . ونعم الحكم الله . وما أصنع بفدك وغير فدك . والنفس مظانها فى غد جدث [٦] . تنقطع فى ظلمته آثارها ، وتغيب أخبارها . وحفرة لو زيد فى فسحتها ، وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر . وسد فرجها التراب المتراكم . وإنما هى نفسى ، أروضها بالتقوى لتأتى آمنة يوم الخوف الأكبر ، وتثبت على جوانب المزلق . ولو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القز . ولكن هيهات أن يغلبنى هواى ، ويقودنى جشعى الى تخير الأطعمة . ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له فى القرص ، ولا عهد له بالشبع ! أو أبيت مبطاناً وحولى بطون غرثى وأكباد حرى ! ! أو أكون كما قال القائل :

وحسبك داءً أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحنُّ الى القدّ ! [٧]

أأقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم فى مكاره الدهر ؟ ! أو أكون أسوة لهم فى جشوبة [٨] العيش ؟! فما خلقت ليشغلنى أكلُ الطيبات

---

(١) فتات الذهب والفضة قبل أن يصاغ .
(٢) الثوب .
(٣) أتان دبرة : حمارة أصيبت بقرحة تحدث من الرحل ونحوه .
(٤) عفصة : نتوء يكون على شجرة البلوط .
(٥) مقرة : نبات مر .
(٦) الجدث : القبر .
(٧) جلد السخلة كان يؤكل في الجدب .
(٨) خشونة .

كالبهيمة المربوطة همها علفها ، أو المرسلة شغلها تقممها[١] ، تكترش[٢] من أعلافها وتلهو عما يراد بها ، أو أترك سدى وأهمل عابثا ، أو أجرّ حبل الضلالة أو أعتسف طريق المتاهة . . . الى أن قال : وايم الله - يميناً أستثنى فيها بمشيئة الله - لأروضن نفسي رياضة تهشّ معها الى القرص إذا قدرت عليه مطعوما ، وتقنع بالملح مأدوما . ولأدعنّ مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها . الى أن قال : طوبى لنفس أدّت الى ربها فرضها ، وعركت بجنبها بؤسها[٣] ، وهجرت في الليل غمضها ، حتى إذا غلب الكرى[٤] عليها افترشت أرضها ، وتوسدت كفها ، في معشر أسهر عيونهم خوفُ معادهم ، وتجافت[٥] عن مضاجعهم جنوبهم ، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم ، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم . « أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

فاتق الله يا ابن حنيف . ولتكفك أقراصك ، ليكون من النار خلاصك .

ولا أظن أن هناك موعظة تؤثر في النفوس كهذه الموعظة . فإن علياً (ع) يضع لنا منهاجاً قويماً لو عملنا به لأوصلنا الى « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . فطوبى للعاملين على ضوئه والناهجين وفق دستوره

---

(١) التقاطها القمامة أي الكناسة .
(٢) تملأ كرشها .
(٣) عركه بالجنب : الصبر عليه كأنه شوك فيسحقه بجنبه .
(٤) النعاس أو النوم .
(٥) تنحت .

الزكاة الباطنة

عن المفضل بن عمر قال : كنت عند أبي عبدالله (ع) فسأله رجل : في كم تجب الزكاة من المال ؟ فقال له : الزكاة الظاهرة أو الباطنة تريد ؟ فقال : أريدهما جميعاً . فقال : « أما الظاهرة : ففي كل ألف خمسة وعشرون . وأما الباطنة : فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج اليه منك » .

ولسنا الآن بصدد بيان الزكاة الظاهرة ، لظهورها . ونريد أن نتكلم عن الزكاة الباطنة . وقد حثّ الدين الإسلامي على هذا النوع من الزكاة : بصلة الرحم والتصدق والإنفاق ، بقوله تعالى : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .

فلماذا يبخل هذا الإنسانُ وقد وعده الله تعالى أنه يخلف له ما أنفقه وهو أصدق الصادقين . أليس ذلك لضعف في الإيمان وخلل في التقوى وانحطاط في النفس وتسافل نحو المادة وركون الى الأرض الفانية وشح مميت ؟ ! وقد جاء في الحديث : « إياكم والشح ، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم (أي الشح) بالكذب فكذبوا ، وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » .

قال علي (ع) : « تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها » . . الى أن قال : « ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام ، فمن أعطاها طيب النفس بها فإنها تجعل له كفارة ، ومن النار حجابا ووقاية . فلا يُتبعنها أحد نفسه ولا يكثرنّ عليها لهفه . وإن من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها ، فهو جاهل بالسنة مغبون بالأجر ، خالي العمل طويل الندم » . وقال : « سوسوا إيمانكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة ،

وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء . فبالصدقة يساس الإيمان ويصان ، ومع عدم أدائها يضعف الإيمان ويزول » .

سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » أهو سوى الزكاة ؟ فقال : « الرجل يوتيه الله الثروة من المال فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف والأقل والأكثر ، فيصل به رحمه ويحمل به الكلّ عن قومه » . وقد قال أيضا : « المعروف سوى الزكاة ، فتقرّبوا الى الله بالبر وصلة الرحم » . حقاً : ليس هناك شيء يقرب العبد الى الله فى السر والعلن ويشوقه الى المناجاة والاستغفار والإنابة والشكر والتسبيح والرضا والتسليم كالبر وصلة الرحم . نعم ، إن البر والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان فى العمر ويدفعان سبعين ميتة سوء . كما جاء فى الحديث .

ولقد قال رسول الله (ص) : « مَن منع الماعون من جاره اذا احتاج اليه ، منعه الله فضله يوم القيامة ووكله الى نفسه ، ومن وكله الله الى نفسه هلك ولا يقبل الله تعالى له عذراً » .

وهذا علىّ الرضا عليه السلام يقول : « سئل رسول الله (ص) هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ قال نعم ، بر الرحم اذا أدبرت وصلة الجار المسلم ، فما آمن بى من بات شبعان وجاره المسلم جائع » . ثم قال : « وما زال جبرائيل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه يورثه » . وهو القائل : « أتدرون ما حق الجار ؟ اذا استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن مرض عدته ، وإن مات شيعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه ، واذا اشتريت فاكهة فأهدِ له ، وإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه

بقتار[١] قدرك إلا أن تغرف له منها . ثم قال : أتدرون ما حق الجار ؟ والذى نفسى بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله » .

وهذا علىٌّ الهادى عليه السلام يدخل عليه أبو عمرو عثمان بن سعيد وأحمد بن اسحق الأشعرى على بن جعفر الهمذانى . فيشكو اليه أحمد بن اسحق ديناً عليه ، فيقول الإمام (ع) « يا أبا عمرو - وكان وكيله - إدفع اليه ثلاثين ألف دينار ، والى على بن جعفر ثلاثين ألف دينار ، وخذ أنت ثلاثين ألف دينار ، وقد اشترى له اسحق الجلاَّب غنما كثيرة يوم التروية فقسمها فى أقاربه .

وهذا علىٌّ بن الحسين (ع) يدخل على محمد بن أسامة بن زيد فى مرضه ، فجعل يبكى . فيقول له الإمام : ما شأنك ؟ يقول : علىَّ دين : خمسة عشر ألف دينار . فيقول الإمام عليه السلام : « فهو علىَّ » .

وعن الزمخشرى فى ربيع الأبرار : انه لما أرسل يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة لقتال أهل المدينة واستباحتها ، كفل زين العابدين (ع) أربعمائة امرأة مع أولادهن وحشمهن وضمهن الى عياله بنفقتهن وإطعامهن ، الى أن خرج ابن عقبة من المدينة . فأقسمت واحدة منهن : أنها ما رأت فى دار أبيها وأمها من الراحة والعيش الهنىء ما رأته فى دار على بن الحسين (ع) . وما كان يأكل الطعام حتى يبدأ فيتصدق بمثله (بثلثه) .

وروى أحمد بن حنبل أن على بن الحسين (ع) كان يعول مائة أهل بيت من فقراء المدينة ، فى كل بيت جماعة . وروى فى الحلية أنه حين مات وجدوا بظهره آثاراً مما كان يحمل بالليل الجراب الى المساكين .

وفى الحلية بسنده عن ابن عائشة عن أبيه : سمعت أهل المدينة يقولون : ما فقدنا صدقة السر حتى مات على بن الحسين (ع) .

وقد روى الصدوق فى العلل بسنده عن سفيان بن عيينة : رأى الزهرى

---

(١) القتار : رائحة الطعام .

على بن الحسين (ع) فى ليلة باردة ممطرة وعلى ظهره دقيق وهو يمشى فقال: يا ابن رسول الله ما هذا؟ قال: «أريد سفراً أعدّ له زاداً أحمله الى موضع حريز». قال: فهذا غلامى يحمله عنك. فأبى. فقال: أنا أحمله عنك، فإنى أرفعك عن حمله... قال الإمام (ع): «لكنى لا أرفع نفسى عما ينجينى فى سفرى ويحسن ورودى على ما أرد عليه. أسألك بحق الله لما مضيت لحاجتك وتركتنى». فلما كان بعد أيام قال له: يا ابن رسول الله، لست أرى لذلك السفر الذى ذكرته أثراً. قال: «بلى يا زهرى، ليس ما ظننت ولكنه الموت وله أستعدّ. إنما الاستعداد للموت تجنب الحرام وبذل الندى فى الخير». وكان ذلك الدقيق قد حمله ليتصدق به ويعدّه زاداً لسفر الآخرة.

كيف لا يكون كذلك، وهو خريج مدرسة على عليه السلام. فعلىٌّ كان يأكل أكلة العبد؟ ويجلس جلسة العبد، وان كان ليشترى القميصين السنبلانيين فيخير غلامه خيرهما ثم يلبس هو الآخر. فاذا جاز أصابعه قطعه، واذا جاز كعبه حذفه، ولقد وُلى إمرة المسلمين خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة، ولا أقطع قطيعةً، ولا أورث بيضاء ولا حمراء، وإن كان ليطعم الناس خبز البُر واللحم وينصرف الى منزله ويأكل خبز الشعير بالزيت والخل، وما ورد عليه أمران كلاهما لله رضىً إلا أخذ بأشدهما على بدنه.

ولقد أعتق عليه السلام ألف مملوك من كد يده، تربت فيه يداه وعرق فيه وجهه، وما أطاق عمله من الناس أحد. وان كان ليصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة.

نستنتج من كل ذلك أن دواء البشر الوحيد هو الدين، ففيه علاج الفقر وعلاج الشقاء وعلاج المفاسد الاجتماعية والأخلاقية والمدنية، وفيه صفاء القلوب واطمئنان النفوس وراحة الوجدان والضمير.

الزكاة الواجبة

إن الدين الإسلامى قد عالج كل نقص فى الحياة الروحية والاجتماعية والمادية ، فأوجد التوازن بين الروح والبدن ولم يهمل ناحية دون ناحية . فبينما يأمر بالصلاة لتزكو بها النفس الانسانية ، فتؤدى بها واجب الشكر وتتطهر مما علق بها من صفات خبيثة وخصال ممقتة لتسمو فتبلغ ذروة الكمال ، يأمر الفرد فى الوقت نفسه بإعطاء الزكاة ، وتقديم شىء يسير من فضول المال الى إخوانه المسلمين الذين حرموا من المال لحكمة يعلمها الله تعالى وهى فى صالح الانسان لو تعمق وتدبر . لذلك ترون أن الله تعالى يكرر فى قرآنه الكريم الصلاة والزكاة متعاقبتين ويصف المتقين بقوله : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

فعن أبى جعفر وأبى عبدالله عليهما السلام : « فرض الله الزكاة مع الصلاة » أى أن الزكاة قرينة الصلاة وفى مرتبتها .

وقد روى عبدالله بن سنان فى حديث له ، أنه نادى منادى رسول الله (ص) فى المسلمين : « زكوا أموالكم تقبل صلواتكم » .

وقد منع رسول الله (ص) جماعة كانوا يصلون فى المسجد عن الصلاة ، ذلك لأنهم ما كانوا يزكون أموالهم . فليعلم مانعو الزكاة ان صلاتهم لا تقبل ولا يموتون على الإسلام . فعن أبى عبدالله (ع) : « من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً » . وقد روى أبو بصير ، قال : قال أبو عبدالله (ع) : « من منع قيراطاً من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم ، ولا تقبل له صلاة » . وهو قوله تعالى : « ربّ ارجعونِ لعلى أعمل صالحاً فيما تركت » ذلك لأن مانع الزكاة يسأل الرجعة عند الموت .

إن الله تعالى قد بالغ فى الاهتمام بأمر الفقراء والمساكين حتى قال جلّ

من قائل : « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وقد سئل أبو عبدالله (ع) عن قول الله عز وجل : « سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة » . فقال : « ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار فى عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب » .

ثم إن الله تعالى هو معطى المال وهو المهيء أسباباً ينال بها الشخص المال الكثير ، وقد وعد جل جلاله : أنه سيعوّض المزكى أضعافَ ما يزكى من ماله ، بقوله : « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » . وبقوله : « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوفَّ اليكم وأنتم لا تظلمون » . وبقوله « وما أنفقتم من شيء فهو يُخلفه وهو خير الرازقين » .

والزكاة مُنمية للمال حافظة لها من التلف والغرق (وهناك حوادث كثيرة تبرهن على صدق ما قلنا لا مجال لذكرها) . كما أن عدم دفع حق الفقراء والمساكين يؤدى الى إنفاق ذلك فى الباطل . فقد قال الصادق (ع) : « مَن منع حقاً لله أنفق فى الباطل مثليه » .

ولقائل أن يقول : فلماذا نرى أناساً لا يؤدون حق الله ولا يزكون أموالهم وهم يزدادون يوماً فيوماً غنىً وثراءً ؟ جواب ذلك : أن الله تعالى يهيء وسائل الهداية والرشاد لكل عبد من عباده ، فيتم عليهم الحجة ، فإن تمادَوا فى غيهم وثابروا على هتك حرمات الله واستهتروا بما سنه الله وقرره ، تركهم وأنفسهم وأملى لهم بإعطائهم من الأموال والأولاد الشيء الكثير وفى الآخرة عذاب أليم . وقد قال جل من قائل : « ولا يحسبنَّ

الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين » . وفى موضع آخر : « لا يغرنك تقلبُ الذين كفروا فى البلاد ، متاعٌ قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » .

وبالزكاة تُحصن الأموال وتحفظ ، فقد قال موسى بن جعفر عليهما السلام : « حصنوا أموالكم بالزكاة » . وإن من لم يزكّ ماله عُدّ فى لسان الشرع سارقا . و « السراق ثلاثة : مانع الزكاة ، ومستحل مهور النساء ، وكذلك من استدان دينا ولم ينوِ قضاءه » . . . الحديث .

إن العقل ليحكم بصورة طبيعية فطرية أن شكر المحسن أمر واجب. وشكر كل شيء زكاته . فإن منّ الله على عبد بعظيم نعمه فليس لهذا العبد إلا أن يقوم بواجب الشكر تجاه خالقه لما ميزه عن بعض مخلوقاته وخصه بلطفه ورفده .

ويلزم أن يتناسب الشكر مع النعمة التى أولانا الله بها . فقد قال على عليه السلام : « زكاة السلطان : إغاثة الملهوف ، وزكاة الجمال : العفاف ، وزكاة القدرة : الإنصاف ، وزكاة الشجاعة : الجهاد فى سبيل الله » .

فيكون إذن زكاة المال أن تعطى شيئا ضئيلاً من مالك الى من فُضلت عليهم بمنه تعالى . هذا أمر طبيعى يحكم به كل ذى وجدان سليم : لم تدنسه الذنوب والآثام ولم تخرجه عن حالته الفطرية الطبيعية الموبقاتُ والأجرام . ولذلك شدد الله النكير على مانعى الزكاة وأبعدهم عن ساحته وتوعدهم بالعذاب الأليم . وقد قال الصادق (ع) : « ما فرض الله على هذه الأمة شيئا أشد عليهم من الزكاة وفيها تهلك عامتهم » .

ما أقل ما فرض الله على عباده ! فقد فرض فى النقدين : الفضة والذهب ، ٢٫٥ ٪ : (إثنان ونصف فى المائة) . أى من كانت له ١٠٠ دينار وبقيت على حالها ومضى عليها حول كامل ، عليه أن يزكيها بأعطاء : دينارين ونصف دينار منها .

ولا فرق ، على رأى بعض العلماء ، بين النقود الفضية والذهبية ، وما يقوم مقامها من الأوراق النقدية . ذلك لأن الأوراق النقدية بمثابة أسناد و (صكوك) تعطى بيد الناس تنوب عن النقود الذهبية والفضية المودعة فى المصارف (البنوك) . وقد توضع فى البنوك إزاء هذه الأوراق النقدية سبائك ذهبية وأحجار ثمينة تبدل الى نقود أيضاً . فالشخص إنما يرجح أخذ الأوراق وحفظها لسهولتها . وليس معنى ذلك أنه يحتفظ بأوراق لا قيمة لها ، حتى تعتبر أوراقا لا علاقة لها بالنقود . ذلك لأن الشخص الذى يستلم هذه الأوراق لو علم أنها لا تستبدل بنقود ذهبية وفضية لما حفظها لديه ولما خاصم خصمه عليها ولما راجع المحاكم . وإن دين الله لا يقبل الالتواء . إذن ، الأوراق النقدية تقوم مقام النقود الذهبية والفضية دونما ريب ، لإمكان تحويلها اليها متى شاء الشخص ذلك ولأنها مدار العيش وتتوقف عليها حياة الفقير .

ولا مراءَ أن الغرض الرئيسى من فرض الزكاة هو تزكية الأموال المتكدسة وإيجاد راحة الفقير العاجز المسكين . فلو جمدنا على الألفاظ ولم نتطرق الى حكمة التشريع فقد ألغينا الغرض الذى وضعت لأجله الزكاة وكأنها لم توضع ، وأبطلنا أعظم حكم من أحكام الاسلام وحرمنا الفقراء والمساكين حقوقهم مع ما هنالك من تأكيد لا مزيد عليه فى الكتاب والسنة .

إن عامة الناس تطلق على الأوراق النقدية : النقود . فتقول : إن فلاناً يملك نقوداً كثيرة مع علمها أنه لا يملك غير الأوراق النقدية . وليس من المعقول أن يقال : إن المعاملات قد تقع على الأوراق النقدية مجردةً عن قيمتها الحقيقية النقدية . ذلك لأن الذى يتعامل بها لو علم أن الحكومة قد أعلنت سقوط هذه الأوراق عن درجة الاعتبار يُلغى المعاملة حالاً ويراها لا قيمة لها . فى الأوراق النقدية زكاة كما فى النقدين اذا بلغ كل منهما حد

النصاب حفظاً لحق الفقير وعملاً بالتأكيدات الواردة فى الشرع ، تأكيداً لا يقلُّ عن الصلاة !

وتستحب الزكاة فى الحبوب مما يكال أو يوزن ، وفى الثمار والبقول وفى مال التجارة والخيل والأملاك والعقارات .

يقول أحد كبار علماء الاقتصاد فى الغرب : ما أحسن ما سنَّه الدين الإسلامى من زكاة الأموال ، فهو العلاج الوحيد لرفع البحران الاقتصادى والتضخم المالى .

أنظروا الى هذه النسبة الضئيلة التى فرضها الله فى زكاة الأنعام الثلاثة : الإبل والبقر والغنم ، فهو لا يتجاوز ٢٫٥ ٪ . ففى خمس من الابل شاة ، وفى ست وعشرين بنت مخاض : وهى الداخلة فى السنة الثانية ، وفى ست وسبعين : بنتا لبون . وشرح ذلك مسطور فى كتب الفقه المختصرة والمفصلة .

وأما زكاة الغلاة : فالعشر : إذا كان السقى بالماء الجارى أو المطر أى بلا واسطة ميكانيكية . فإن كان السقى بواسطة ميكانيكية فنصف العشر أى ٥ ٪ وذلك بعد أخراج الضرائب والمؤن من أجرة الحارث والساقى وأجرة الأرض إن كانت مستأجرة وأجرة الحفظ والحصاد الى غير ذلك .

نعم ، إن الله قد علم أن هذا المقدار الضئيل من الزكاة كافٍ لسد حاجات المحتاجين وإيجاد حياة سعيدة فى هذه الأرض ، ومانع عن تذمر المتذمرين وإفساد المفسدين . وقد قال الصادق عليه السلام :

« إنما وُضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونةً للفقراء . ولو أن الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقى مسلم فقيراً محتاجاً ، ولاستغنى بما فرض الله له . وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء . وحقيق على الله أن يمنع رحمته ممن منع حق الله فى ماله . وأقسم بالذى خلق الخلق وبسط الرزق أنه ما ضاع مالٌ فى برٍ ولا بحر إلا بترك الزكاة . وما صيد

صيد فى بر ولا بحر إلا بتركه التسبيح فى ذلك اليوم ، وإن أحبّ الناس الى الله أسخاهم كفاً ، وأسخى الناس من أدّى زكاة ماله ولم يبخل على المؤمنين بما فرض الله لهم فى ماله » .

نعم ، إن الدين الاسلامى يربّى الفرد بصورة عملية على الصفات الحميدة والخصال المجيدة للبلوغ الى الكمال الإنسانى ، ومنها السخاء ومفتاحه الزكاة . فإن رسول الله (ص) قال لرجل من المشركين : « لولا أن جبرئيل أخبرنى عن الله عز وجل أنك سخى ، تطعم الطعام لشردت بك وجعلتك حديثاً لمن خلفك . فقال له الرجل : وإن ربك ليحبّ السخاء ؟ فقال نعم . قال : (المشرك إذ ذاك) : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله » .

ولجباية الزكاة آداب سامية يعلمنا على (ع) ، فإنه كان يقيم عماد الحق ويشرع أمثلة العدل فى صغير الأمور وكبيرها ، دقيقها وجليلها . ومن جملة وصاياه لمن كان يستعمله على الصدقات :

« انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تروعنّ مسلما ولا تجتازن عليه كارها ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله . فإذا قدمت على الحى ، فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم . ثم امضِ اليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم . فتسلم عليهم ولا تخدج (أى لا تبخل) بالتحية لهم . ثم تقول : عباد الله ، أرسلنى اليكم ولىّ الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم . فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه الى وليه ؟ فإن قال قائل : لا ، فلا تراجعه . . . الخ » .

ويقول (ع) فى مكان آخر مخاطبا عامله على الصدقات : « وإن لك فى الصدقة نصيبا مفروضا وحقا معلوما وشركاء أهل مسكنة وضعفاء ذوى فاقة ، وإنا مُوفوك حقك ، فوفهم حقوقهم ، وإلا فإنك من أكثر الناس خصوما يوم القيامة ، وبؤسا لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون

والمدفوعون والغارم وابن السبيل . ومن استهان بالأمانة ورتع فى الخيانة ولم ينزه نفسه ودينه عنها فقد أحل بنفسه فى الدنيا الذل والخزى وهو فى الآخرة أذل وأخزى . وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة وأفظع الغش غش الأئمة » .

كيف يجب أن نكون ؟

سؤال يجيب عنه كثير من علماء الأخلاق والفلاسفة فى الغرب بطرق عدة ، كل حسب ما توصل اليه من المعتقدات . ولا يتوصل الشخص الى معتقدات إلا بدرجة تكامل نفسه وتجرُّدها من الرجس والأدناس . « وكل إناء بالذى فيه ينضح » .

فالمعتقدات مرآة النفس ، فاذا شئت أن تحكم على أخلاق شخص ودرجة تكامله النفسى عليك أن تبحث عن معتقداته ودرجة عمله فى تحقيق مصاديق تلك المعتقدات مع نفسه ومع غيره . فهذا البحث يهديك الى تقدير درجة نفسية أو درجة كمالية لذلك الشخص .

إنى لا أريد أن أبين هنا شيئاً عن آراء شتى الفلاسفة وعدد من الأخلاقيين فى الغرب ، لتضارب آرائهم وجرح بعضهم البعض . ذلك لأن آراءهم خرجت عن التفكير الفطرى المجرد عن كل شائبة خارجية أو داخلية وإنما أريد أن أستنبط جواب هذا السؤال ببحث علمى بحت .

يرى المطالع فى أحوال الكون : أن الأنجم تسير فى أفلاك معينة لا تحيد عنها ، وكل هذه الأفلاك أو المدارات التى تضبط بمعادلات رياضية متقنة تشير الى النظام الرائع والانتظام البديع الذى أودعه الله فى هذا الكون .

يرى أن للخسوف أو الكسوف حساباتٍ خاصة ودساتيرَ معينة على وجه يمكن حساب زمان وقوعهما قبلاً ومدة دوامهما .

يرى أنه لولا ميلان مدار الأرض عن دائرة الكسوف ٢٣ درجة و ٢٧ دقيقة لما حدث اختلاف الليل والنهار الذى ينتج منه الحر والبرد واختلاف الفصول وفوائد لا تعدُّ ولا تحصى . « ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار

ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير » . (سورة الحج) .

يرى لولا حركة الأرض الوضعية لكان النصف من الكرة الأرضية فى ظلام دائم والنصف الآخر فى ضياء دائم واحتراق شديد . « وترى الجبالَ تحسبها جامدة وهى تمرُّ مرَّ السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء » . (سورة النحل) . « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليلَ سرمداً الى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة ، مَن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟ » . (سورة القصص) .

يرى أن الحكمة البالغة جعلت السيارات (الكواكب) تدور على مسير اهليلجى (قطع ناقص) حول الشمس على أن تكون الشمس أحد محراقيه (بؤرتيه) .

يرى أن الشعاع الحامل الذى يوصل الشمس بإحدى السيارات (الكواكب) يقطع فى أزمنة متساوية سطوحاً متساوية . وفى ذلك من الحكمة الفائقة .

يرى أن مربعات أزمنة الدور النجومى للسيارات (الكواكب) تتناسب مع مكعبات نصف المحور الأطول لمداراتها وفى ذلك الحكمة العالية .

يرى أن نظرية (لابلاس) فى تشكل المنظومة الشمسية موجودة بشكل صحيح لا يقبل الجرح والتعديل فى القرآن الكريم : « أوَ لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حىّ أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسىَ أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون » .

يرى أن تشكل المطر أو الودق قد جاء ذكره فى القرآن لتوجيه الناس الى عظيم صنع الله بقوله : « ألم تر أن الله يُزجى سحاباً (أى يسوق السحاب أو البخار) ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودقَ يخرج من خلاله ،

وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » . والجبال التى فيها من برد هى الثلاجات (Glacir) أو (Iceberg) تتوجه من نوروج الى خليج مكزيك فى المحيط الأطلسى .

يرى أن قوة خارقة تسير السيارات (الأنجم) بانتظام خاص وتمنعها عن الميدان والانحراف والاضطراب . وهذا ما يعبر عنه : بالجاذبية العامة : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفورا » . (سورة فاطر) .

يرى أن الأجسام تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة أى عند تقليل درجة الحرارة ، إلا الماء . فنى الدرجة الرابعة من الحرارة المئوية يكتسب الماء الكثافة العظمى ، فاذا قللنا درجة الحرارة عن (٤° م) تقل كثافة الماء ويزداد حجمه ، فيكون ١ سم٣ من الماء فى درجة الصفر المئوى أقل وزنا عن ١ سم٣ من الماء فى ٣° م ، بخلاف بقية الأجسام ، لذلك يكون الجليد أخف من الماء مع اتحاد الحجم ، فيطفو على سطح الماء . وقد وجد أن حجم الغرام الواحد من الجمد أو الجليد فى درجة الصفر المئوى = ١٫٠٩١ سم٣ ، فاذا ساح الى الماء فى درجة الصفر أيضا أصبح حجمه = ١٫٠٠٠١٢ سم٣ . فالجليد أو الجمد أخف من الماء حتى فى درجة الصفر .

ولولا هذا الشذوذ بأمره تعالى فى تغير الكثافة أى لو كانت كثافة الماء العظمى فى درجة الصفر (لا فى ٤° م) كبقية السوائل لغاص كل ما تجمد من سطح الماء ورسب فى القعر . وتجمد ما يزيحه الجليد الراسب الساقط فى قعر الماء الى الأعلى وعلى هذا المنوال كان يتجمد البحر أو البحيرة من الأعلى الى الأسفل ولأصبحت البحيرة قطعة ثلج ! فلا ترى حيواناً يتنعم بالحياة فى أعماق البحار والبحيرات . ولانقلب البحر برمته الى ثلاجة ما كان يكفى

لذوبانها حرارات الفصول ، لاسيما فى المناطق الباردة ، ولا تنفى عند ذلك انتفاع الانسان بالبحر .

وبما أن الله تعالى قد جعل كثافة الماء العظمى فى (٤° م) فاذا برد الجو وصارت درجة حرارة الماء للسطح العلوى (+ ٤° م) نزل هذا الماء الى القعر لثقله بالنظر الى وزن الماء فى الطبقات السفلى وهكذا حتى تصبح درجة حرارة الماء فى القعر (+ ٤° م) . ثم اذا نقصت درجة الحرارة انجمد السطح الأعلى فقط من البحيرة عن قشرة غير سميكة ، ولما أمكن نزول هذه القشرة الى القعر لخفته وبقى القسم الأسفل من البحيرة سالما من الانجماد تعيش فيه الحيوانات بهناء وسرور .

فيرى أنه لو اطرد انقباض الماء بالبرودة وتمدده بالحرارة كبقية الأجسام (أى لولا هذا الشذوذ رأفةً بالحيوانات البحرية لتبقى حية) لانقلب البحر كله الى جليد فى فصل الشتاء ولتلفت الحيوانات كلها بتجمده ولامتنعت التجارة البحرية ولانقلب الجو جواً بارداً بتأثير الثلوج البحرية ولتعسرت الحياة البشرية . فيستنتج من ذلك كله أن ليس للطبيعة العمياء أن تفكر فى حياة الحيوانات البحرية والتجارة البشرية فتجعل كثافة الماء (+ ٤° م) فى النهاية العظمى خلافاً لبقية الأجسام ! .

يرى قوانين رياضية دقيقة منظمة لا تعدّ ولا تحصى فى ربط الحوادث الفيزياوية بعضها ببعض كلها تحت أغراض حكيمة ومصالح دقيقة .

يرى مثلاً أن التيار المتناوب يفسر بالكميات المبهمة أو المحدثة فى معادلاتها فى الفيزياء العالية .

يرى أن أشعة رونتكن لها من الخواص ما يبهر العقول ، وأن أشعة : أورانيوم وتوريوم وراديوم تنقسم حسب نفوذها فى المادة الى أشعة : آلفا وبتا . لكل منهما خواصها .

يرى أن أشعة S كيف يحصل عليها من أشعة X ويحار فى انتظاماتها وقوانينها .

يرى أن الأشعة الكونية لها من الآثار والقوانين ما يعجز عن استقصائها العلماء وان اشتغلوا مئاتِ السنين ، حتى يقول الفيزياوى نحن فى ساحل بحر من المجهولات لا تُدرك نهايته : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » . (سورة الحجر) .

يرى أن الأجزاء الصغيرة من الماء المعلقة فى الهواء أو الأبخرة عند انقلابها الى الثلج (الصقيع) تأخذ أشكالاً هندسية منظمة بديعة يعجز عن نحتها المهندسون .

يرى ويندهش من النظام المودع فى مختلف أجزاء بدنه ووظائف كل من أعضائه وكذا فى بقية الحيوانات : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير » . (سورة النور) .

يرى أنه لو كتب عشرات الكتب فى ما أودع الله من خواص وقوانين فى عين الإنسان لكان هنالك أيضاً حقائق لا تعدُّ ولا تحصى يجب أن تدوَّن .

يرى أن الحيوانات قد جهزت بوسائل للدفاع عن نفسها الى درجة معينة لغرض خاص وأنها أقل من أن تفكر لنفسها فى ما يسدُّ رمقها ولكنها ترزق وتعيش على الرغم منها : « وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم » .

يرى أن فى الأرض أدوية متنوعة لأمراض الانسان ، فلا يدرى هل وجد الداء قبلاً أم الدواء وما المناسبة بينهما وفى أى محل عقدا مؤتمر حفظ

النسل الانسانى من الأمراض الفتاكة ؟ ومن أين أتت الحيوية (الحياة) الى هذه الجراثيم الحية المولدة لشتى الأمراض ؟

يرى عجائب لا تعدُّ ولا تحصى فى عالم النبات من برى وبحرى والأمراض التى تعتريها وطرق معالجتها ، وأن الرياح تلعب دوراً فى تحقيق مهمة اللقاح ولم يكن هناك توافق نظر بين الرياح والنباتات !

يرى الخوارق فى حياة النملة وكذا فى كثير من الحيوانات وتلك النقوش البديعة على أجنحة الطيور والحشرات يستوحى منها كبار المصورين ويعجز عن ابتداعها الفنانون !

يرى فى الكيمياء النظامَ الرائع فى تركيب العناصر وتشكل أجسام جديدة شتى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار » . (سورة الرعد) .

يرى ويحار من توزع الألكترونات حول البروتونات فى باطن الذرة بطرز هندسى عجيب ويرى أن الألكترون يسيُر بإرادة عالية حكيمة من الخارج ولا يتبع المصادفات بوجه من الوجوه .

يرى أنه لو كتب آلاف الكتب فى تحقيق خواص الذرة ومعادلاتها لبقيت هنالك أيضاً حقائق مجهولة يجب الاعتراف بجهله لها : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

يرى المطالع فى أحوال الكون أن الاختلاف ضارب أطنابه فى كل شىء على وجه يؤدى الى كمال الأشياء وانتظامها فى سير متكامل لا يشوبه نقص ، وهو دليل على إرادة الله تعالى فى تنظيم الأجزاء المختلفة من هذا الكون . « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلقُ

السموات والارض واختلافُ ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين » . (سورة الروم) .

يرى المتتبع أن الجنين فى رحم أمه لا يحتاج الى عين أو أذن إلا بعد الولادة ، وليس للطبيعة العمياء أن تفكر فى المستقبل ، بل من الخطأ أن تنسب الحكمة والتدبير الى الطبيعة (وهى مخلوقة) . فيستنبط من هنا أن الكمال شىء مطرد فى الممكنات مستدام فى جميع أدوارها .

يرى المفكر فى أحوال الكون أن كل شىء قد أخذ قسطاً من الكمال بقدر استعداده وقابليته : « أنزل من السماء ماءاً فسالت أودية بقدرها » . (سورة الرعد) ، وأن الكمال سائد فى كل شىء ولا يشذ عنه شىء . فالذرة كاملة والپروتون كامل والنيوترون كامل والإيونات كاملة والوردة كاملة وشعاع رونتكن كامل : « تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ، وإن من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا » . (سورة بنى اسرائيل) . أى أن كل شىء فى تمام كماله وكمال تكامله ، وانه يشير الى تنزه البارى جل جلاله من كل نقص والى حسن إبداعه وجليل إتقانه الخلقَ : « سبحانه وتعالى عما يشركون » . ولكننا لا نفقه درجة هذا الكمال وحقيقة هذا التنزيه إلا بقدر ما توصلت اليه معلوماتنا ومعارفنا ، ولم تصل معلوماتنا الى حد نفقه بها تسبيح الأشياء والكمالَ المودع فيها إلا ظواهر ومعلومات ضئيلة نسلى بها أنفسنا ، يغتر بها المغرور فيتردى الى أسفل سافلين .

ولا ريبَ أن عدم تفقهنا تسبيح الأشياء إنما هو ناشىء عن الذنوب التى نرتكبها ، فترين على قلوبنا (نفوسنا) فتكون حجاباً حاجزاً عن مشاهدة الحق والواقع . على أن الكثيرين ممن تطبعوا على المدنية الغربية لا يقيمون للذنب وزناً ولا يعتبرونه . « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

إلا أن الله جل جلاله كما يرى فى نهاية الآية المتقدمة حليم غفور « إنه كان حليماً غفورا » ، فلا يترك عبده يتخبط فى دياجير الظلمات بل يهيء له (تفضلاً منه) دواعى التنبه ويقيض له وسائل الهداية والرشاد فى أهله ونفسه وصحبه ومجتمعه وبيئته ، إتماماً للحجة وقطعاً لدابر العذر : « قل : فلله الحجة البالغة » .

ثم يرى المدقق أن الله تبارك وتعالى قد خلق كل هذه الأشياء الكاملة فى صنعها لهذا الانسان ، فهل يجوز أن يكون الانسان : (هذا الذى قد خلق لأجله جميعُ الأشياء فى غاية الكمال) ناقصاً يفسد فى الأرض ، يظلم ويبغى ، يزنى ويفسق . ينهب أموال الناس ويرابى . ثم يرى — بحصر عقلى — أن الكامل وهو الله تعالى لا يصدر منه إلا الكمال . فكيف يجوز على الله أن يرى بين هذه المخلوقات المتكاملة مخلوقاً ناقصاً وأعنى به الانسان ؟ فلابد وأن الله تعالى يقيض لهذا (الانسان) الذى خلق لأجله كثيراً من الموجودات وسائل عدة بُغية تكميله وإيصاله الى الغاية التى خلق لأجلها .

إذن بطريق عقلى بحت ، يصل المتتبع فى أحوال الكون الى وجوب بعث الرسل وعدم خلو الأرض من حجة بالغة من قبل الله تعالى عملاً بسنة الكمال .

على أن الله تعالى قد أودع فى النفس الانسانية بذور التكامل والهداية بصورة فطرية . فإنه تعالى يقول : « ونفسٍ وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها » . ويقول فى موضع آخر : « وهديناه النجدين » أى طريقَى الخير والشر . ألا ترى أن من لم يطلع على العلوم الطبيعية وغير الطبيعية قد تكون له عقيدة راسخة فى الدين تفوق عقيدة من توغل فى كثير من العلوم . لأن كثرة العلم لا توجب الهداية بصورة مطردة . ولا تتناسب درجة الهداية مع كثرة العلم ، وإن الهداية

شعاع يشعُّ من نفس تعمل بالفطرة فلا تفسد فى الأرض ولا تبغى ولا تجور ، من نفس كلها عاطفة وإيثار وأخلاق فاضلة حميدة .

نعم ، إن ما تقوم به الأيدى من أعمال وما تكسبه هذه النفس من درجات هو الذى يسلك بالانسان طريق الفلاح والصلاح . إن الأمىّ يكفيه نمو النبات وهبوط الأمطار ليعترف بوجود الخالق ويزداد يقيناً به تعالى ويعلم أنه إنما خلق لغاية سامية وغرض رفيع وأنه سائر نحو تحقيق تلك الغاية وذلك الغرض . « يا أيها الانسان إنك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » . (سورة الانشقاق) .

إن الله تعالى يقول : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرةَ الله التى فطر الناس عليها . لا تبديلَ لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وفى الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجسانه » . فالمولود يولد موحداً معترفا بخالقه ، لكنه لذنوب يرتكبها ومآكل محرمة يتناولها ، يتغلب عليه شيطانه ، فيجعله متبعاً طريق والديه المعوج . وانه لو لم يدنس نفسه بالمعاصى والآثام ، أو تمكن من غسلها بأعمال صالحات وتوبة واستغفار ، لتوجهت نفسه الى حيث النور ، الى حيث الكمال المنشود : ألا وهو الدين الاسلامى : دين الفطرة . فكم رأينا أفراداً ولدوا من آباء وأمهات غير مسلمين ولكنهم وفقوا الى اعتناق الدين الاسلامى لأهلية فى نفوسهم وصفاء فى أرواحهم .

إن الفيلسوف حسب وظيفته يبحث كثيراً عن المثل الأعلى (Superman) للانسان ، ولكن أنى لهذا الفيلسوف أن يصل الى ما يريده الله تعالى وهو بعيد عن الله وملوث بشتى الجراثيم التى تهلك النفس وتفسد السريرة . أبعد القرآن يحق للفيلسوف أو لغير الفيلسوف أن يبدى نظرية فى الكمال النفسى ؟

أو يخط للبشر خطة تؤدى الى سعادته فى النشأتين ؟ « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » . « فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة . إنهم اتخذوا الشياطين أولياءَ من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون » ،

إن من يرى ليالى باريس وما هنالك من مخازىَ ومفاسد يحكم بأن الانسان هناك مسرف متجاوز الحد الذى عين لتكامله وهو فى سيره السلبى يتدهور الى أسفل السافلين .

ومن يرى التقوى والورع والخشوع لله لدى المؤمنين واجتنابهم المعاصى كبائرها وصغائرها خوفاً من الله تعالى ، واهتمامهم فى قضاء حوائج الناس وقيامهم بأعمال صالحة وما هم عليه من فضائل الأخلاق يحكم بأن هذا الانسان قمين بأن يخلق له كثير من الموجودات وهو سائر فى سير تكاملى يريده الله لعباده فى الأرض .

فالانسان إذا اتبع سنة محمد وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين وجعل التقوى نصب عينيه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا تزحزحه عن طريق الحق مخالفة أهل زمانه ، ثم أبتهل الى الله جل وعلا بخشوع وخضوع وتذلل فى إزاحة كيد الشيطان ووساوسه عن نفسه الشريرة الجموحة العادلة عن الصراط المستقيم (إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى) وقام جوف الليل محاسباً نفسه مستغفراً منيبا ، فصلى وانقطع الى الله باخلاص تام ، تنفتح بصائر قلبه ، فيهتدى الى الحق ، يمقت الملاهى المفسدة للنفس ، وتشمئز نفسه من الأغانى المحرمة وإن لم يكن قد بلغه حرمة ذلك ، (وذلك لصفاء فى نفسه) ، فيترك مجالسة أهل الفسق والفجور ويمتعض من معاشرة أهل البغى والسوء ، ثم يبحث عن أشخاص هم أقرب الى التقوى وقمع الشهوات فيرتاح الى مجالستهم ويستفيد من غرر كلماتهم وجميل بياناتهم . « والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » (سورة العنكبوت) .

فإذا رأيتم رجلاً يستبيح ما حرّم الله وهو يدعى الايمان ، اعلموا أن ايمانه ناقص مبتور وأن فى نفسه من الأمراض المعنوية أمراضاً منعته أن يرى الحق فينطبع عليه .

تولستوى الفيلسوف الروسى المعروف ، بسبب عطفه على الفقراء والمساكين والبؤساء وبذله أموالاً طائلة فى سبيل خدمة الآخرين ، قد رأى بصيصاً من الحق . ولكن نفسه ـ أو قل ـ نتائج أعماله السابقة كانت أقل من أن تدعه ليرى الحق كله جلياً أو يهتدى الى صراط الله القويم (ألا وهو دين الاسلام) . فكان تولستوى يبحث عن الحق وبينه وبين الحق حجاب . وكان الحجاب نفسه . حتى كان مآل أمره أن خرج من مزرعته هائماً على وجهه فى برد قارس كان فيه هلاكه .

إن من ينظر الى ولد لم يبلغ الحلم وهو يصلى بخضوع وخشوع ، يركع ويسجد للمنعم المنان ، يعلم بل يقطع أنه عامل حسب ما لأجله خُلق . لأن من شأن العبد والمنعَّم بنعم المولى أن يشكر مولاه . وذلك أمر فطرى لاينكره كل من كان له مسحة من العقل . إلا إذا كان من الذين رانت ذنوبهم على قلوبهم فأصيبوا بعمى القلب . وهو أشد عمى يصاب به الانسان المسكين بما كسبت يداه . « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . (سورة الحج) . فيستهزىء بالمصلى ويرى الصلاة شيئاً زائداً أو (لا سمح الله) عملاً خرافياً ، ولكنه يفرح ويبتهج لو رأى امرأة مسكينة فى مقطع أحد الشوارع تنظم سير السيارات تحت الثلوج ، حين أن زوجها وأخاها لا شغل لهما ويفتشان عن عمل فلا يلتفت اليهما . وهذا هو التبلبل الاجتماعى بعينه .

نعم ، لو زاغت النفس عن الفطرة يرى الفرد الحق باطلاً والباطل حقاً ، فتتردى هذه النفس لذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها . إن الله تعالى

يقول : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا » . (سورة الفرقان) .

نعم ، إن الغربى ليقدر وفاء الكلب إذا وفى لصاحبه وحرسه بكل نشاط وإخلاص ويكتب فى إطرائه والثناء عليه كتابات قيمة كثيرة . وإنك لا ترى كتاباً للمطالعة إلا وفيه وصف لوفاء الكلب وأنه يقابل الإحسان بالإحسان ويشكر صاحبه بأعماله ووفائه . أجدير بالإنسان وهو أشرف المخلوقات ! أن يكون أحط من الكلب فى تقدير نعم الخالق التى لا تعد ولا تحصى والقيام بواجب الشكر بصلاة وزكاة . . . « وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » .

يتعجب الانسان ويندهش عندما يرى رجالاً من الغرب يتقلبون فى نعم البارى جل جلاله فى قصور مشيدة وأبنية فخمة ومناظر جذابة مع خدم مطيعين فى خفض عيش ودعة وسرور وحبور مع ذلك كله لا يخطر ببالهم أن يفكروا فى مَن أولاهم هذه النعم ومن أين أتتهم ، فيقوموا تجاهه بواجب الشكر .

وقد يكون أحد هؤلاء ذلك الفيلسوف الذى يريد أن يضع دساتير لسعادة البشر ! متبخترا بفلسفته الواهية الحالكة ، مغروراً ببياناته السخيفة ، يريد أن يسنَّ للبشر سنن الرقى والتكامل وهو فى آخر درك من النقصان .

هذا (بنتهام) فيلسوف من فلاسفة الغرب يقول : « إن الأخلاق يجب أن تقوم على المنافع المتقابلة » . وهل هذه أخلاق أم تجارة بأخس معانيها أم بهيمية أو شىء أحط من البهيمية ؟ « مايجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ، فلا يغررك تقلبهم فى البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمَّت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل

ليدحضوا به الحق ، فأخذتهم فكيف كان عقابِ » (سورة المؤمن) .

قد يقول الشخص أمثال (روكفلر) و (فورد) : إنا قد حصلنا ما حصلنا عليه بجد واجتهاد وغيرنا لم يتمكن من ذلك . وقد فاته أن الله هو الذى قد هيأ له أسباب هذه الثروة الطائلة وأوجد له إمكانيات ، وهيأ له ظروفا خاصة . ولولا توفيق البارى جل وعلا لكان حاله حال أحد عماله . وقد يكون أحد عماله أقرب الى الله . وكم بين عماله من هم أشد منه قوةً وذكاءاً واجتهاداً وسهراً على المصالح الدنيوية ! !

« إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح ، إن الله لا يحب الفرحين . وابتغِ فى ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغِ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندى ، أوَ لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون مَن هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » . « سورة القصص : ٧٦ ، ٧٨) .

ذكر لى أحدهم وكان من الذين درسوا الفلسفة الغربية : أنه استقال من وظيفة هامة وعمد الى تجارة الأفرشة والسجادات وكان يملك شيئاً من المال . فكانت تتوارد عليه الأرباح مع جهله بنوعية الأفرشة . وبعد ثلاث سنوات وقف على أنواع الأفرشة جيدها ورديئها وصار يميز بينها تمييزاً صحيحاً . فقدر لنفسه أنه سوف يكون مع هذا الاطلاع أحد كبار الأثرياء بعد قليل . ولكن انعكس الأمر ، فتراكمت عليه الخسائر وحوادث مؤلمة تباعاً ، وأفلس قسم من التجار الذين كانوا يتعاطون معه ، فكان عاقبة أمره الإفلاس أيضاً . وصار يحتاج الى قوت يومه . وقد رأيته ذات يوم وهو فى هذه الحالة ، فدنا منى قائلاً : أمسيت فى حالة أخشى أن تضع الناس فى

يدى فلساً زاعمين أنى سائل مسكين ! ثم سكت وقال : إنى علمت الآن : أن الله هو مدبر الأمور وهو الموفق وليس الفن كل شيء ، وأن هناك يداً خفية لها أثرها فى تسيير الأمور . فمهما كان الانسان موهوبا ، لابد من يدٍ خفية تساعده فى النجاح وتهيىء له الفرص . على أن المواهب كلها منه تعالى . ثم قال : إن ما درسته من الفلسفة الغربية هواء فى شبك ، وعلمت بعد التجارب أنها تفكير بشرى لا توافق الواقع وأيقنت أن نصيحة أمى ـ وأنا طفل صغير ـ هى كل الحقيقة وتمام الحقيقة . إنها كانت تقول لى : « ولدى ، كل شيء بيد الله تعالى » .

* * *

وصادفت رجلاً آخر كان قد ترك الصلاة واندمج فى زمرة من لا يخشى الله . ففصل عن وظيفته وبقى لا عمل له ، فباع كل ما لديه ليقتات بثمنه ، فنفد ما لديه . وبقى حائراً يعالج الجوع . والجوع خير مربٍّ فى كثير من الأحيان . ففكر فى نفسه وفى الغاية التى خلق لأجلها مدة سنتين وهو فى حالة يرثى لها . حتى أيقن أنه محتاج ، وأن الحاجة لا تعرض إلا على أغنى الأغنياء ومعطى الغنى وهو الله . فابتهل اليه جل وعلا وخشع وتذلل وبدأ يصلى ويصوم ويقدس المقدسات . فحسنت أخلاقه وتحسنت سريرته وطابت نفسه . ثم إنى أحببت أن أستقصى سبب هذا الانقلاب التكاملى . فكنت ذات يوم فى بيته عند الغروب ، رأيته حاملا أمه العرجاء وقصد بها الى السطح ، وكان يأتى بها هكذا عند الصباح الى ساحة الدار ، يقدسها أيما تقديس . رأيته عطوفا على أخيه المسكين الذى كان عالة عليه ، وَصولاً أرحامه . رأيته يساعد الفقراء والمساكين . فعلمت أنه لم يقطع صلته بالله تعالى فى زمن كان قد ترك الصلاة فيه . فصرت أنصحه . فوجدته يوم الجمعة فى روضة الإمامين موسى والجواد عليهما السلام يصلى . فهنأته على رجوعه الى صلاته وهديه .

ثم إنه دعانى يوماً الى طعام الظهر . فجىء بالمائدة وانتظرته قليلا حتى حضر . سألته عن سبب التأخير . قال : آليت أن لا أتناول ما منّ الله به علىّ من عظيم الرزق حتى أشكره بصلاة قبلاً . وأصبح رجلاً ديناً يشار اليه بالبنان .

نعم ، هكذا تعمل النوائب فى تكميل بعض النفوس ، فإن إخراجه من الوظيفة وتجرعه آلام الجوع والفقر فتحا عليه أبواب الهداية . لأن المعدة المملوءة قد تكون حجاباً حاجزاً عن الوصول الى الحق ، وأن أبخرتها الكثيفة تغشى الحقائق فلا يشعر الانسان إلا بشهوة نفسه . وهذا أحد الأسباب التى سنّ الله تعالى من أجلها الصوم . وأحد أسباب استحباب الزهادة فى الدنيا .

ولا بأس بذكر هذا الحديث فى هذا المقام : قال سعد لسلمان المحمدى ، فى مرضه : كيف تجد نفسك ؟ . . فبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : « والله ما أبكى حزناً على الدنيا ولكن بكائى : لأن رسول الله (ص) قال : « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب » . فأخاف أن أكون قد تجاوزت ذلك . وليس حوله فى بيته غير مطهرة وإجانة وقصعة .

وقد يتعجب البعض من ذكرى هذا الحديث فى عصر قد بلغت فيه الكماليات أقصى الحدود حتى لم تُبقِ وقتاً للعبادة . كأنه نسى قول الله تعالى : « إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . إن الدين يعطينا المثل الأعلى فى الكمال النفسى لأفراد (Superman) هم أوتاد الأرض . وكل يأخذ من هذا الدين حسب اختياره بمقدار ما يشاء .

* * *

إن الله تبارك وتعالى يتم الحجة على العباد بغية تنبيههم وإرشادهم الى سبل الرشاد بمرض أو ضنك فى عيش أو غرق أو عواصف وزلازل وبلايا أخرى . لعل العبد يفكر فى عاقبة أمره فيعالج نفسه المريضة . إن الله تعالى يقول : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون » . وفى آية أخرى : « وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون » . وفى أخرى : « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » .

* * *

يتجلى الكمال النفسى فى الدرجة الأولى فى (الشكر) . فمن كان شكره أكثر كانت نفسه أسمى وأكمل . فلا يجب أن ينخدع الشخص بعلم الأستاذ لأنه أستاذ . ورب أستاذ لأنعم الله جاحد ! . إذ لا رابطة بين العلم والكمال النفسى .

يقول زين العابدين (ع) مخاطباً رب العباد : « فكيف لى بتحصيل الشكر ، وشكرى إياك يفتقر الى شكر . فكلما قلت : لك الحمد ، وجب علىّ لذلك أن أقول : لك الحمد » .

وإنما كان الأنبياء (ع) أنبياء ، لعظيم شكرهم وكمال إخلاصهم . فقد فدى ابراهيم (ع) بجميع غنمه عندما سمع من ينادى : « سبُّوح قدُّوس ، ربنا ورب الملائكة والروح » . ويقول الله جواباً لأولئك الرؤساء الذين تعجبوا من إيمان مَن آمن من الضعفاء : إنهم إنما آمنوا لشكرهم : « وكذلك فتنَّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

إن الصلاة المفروضة نوعٌ شكر . وقد ورد فى الأخبار : يستحب للعبد أن يقول كل يوم ٣٦٠ مرة : « الحمد لله رب العالمين » . وهذا قليل مما ينبغى أن يقوم به العبد من واجب الشكر تجاه خالقه وبارئه .

وقد يقول الجاهل المغرور : ليس لنا من الوقت ما يكفى لإقامة الفرائض فضلاً عن المستحبات . ولكنه يقضى ساعاتٍ عدّة فى المقاهى ، يتعاطى فيها الميسر ، يغتاب فيها الناس ويقوم بالنميمة ، فيصرف أوقاتاً غير قليلة فى اللهو واللعب : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

إن الله تعالى أكد فى تحريم الخمر والميسر وعظم أمرهما بجعلهما من الرجس وقرنهما بالأصنام والأزلام وجعلهما من عمل الشيطان . فمن تعاطى الخمر أو القمار كأنه عبد الأصنام وقدّسها . والحق ، إن من كان محبوبه الخمرة والميسر لم يكن له طريق الى المقامات القدسية وتدهور الى أسفل السافلين ، فيكون مآله ومثواه ما يناسب نفسيته المتسافلة ألا وهو الجحيم .

فعلى الآباء أن يمنعوا أولادهم من ارتياد المقاهى ومجالس القمار واللهو والرقص . . . الى ما هنالك ، وأن يحظروهم مجالسة الأوغاد والسفلة من الناس وأن يجبروهم على أداء الصلاة والقيام بالفرائض الدينية ويعرفوهم كبائر الذنوب وصغائرها ، وأن يعوّدوهم مساعدة الفقراء والمساكين والأعمال الصالحة وحسن المعاملة وصلة الرحم ومراعاة الجيران ، وأن يحذروهم عواقب الخيانة على حساب الآخرين . فإن ذلك أوجب وأهم من الطعام والثياب . ذلك لأن عاقبة مروق الولد من الدين نار مسعرة : « إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى » .

إن الله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » .

وكم نرى فى زماننا هذا آباءً يعظون أبناءهم ، يرشدونهم ويهدونهم سواءَ السبيل ، ولكن أبناءهم يسخرون منهم فى قلوبهم ويصمونهم بالخرافة

والرجعية ! فاذا رأوهم صلوا ، واذا غابوا عنهم رجعوا الى غيّهم : « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

إن كثيراً من الأبناء اليوم لعوامل شتى هم مصداق هذه الآية : « والذى قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى . وهما يستغيثان الله ، ويلك آمن ، إن وعد الله حق ، فيقول : ما هذا إلا أساطير الأولين » .

من تلك العوامل : خلو التعليم عن دراسة دينية صحيحة وتربية أخلاقية متينة وعدم إدخال دروس الدين فى المدارس العالية ، وعدم إعداد مدرسين أكفاء لتدريس الدين وعدم تعيين مفتشين للدين بصورة خاصة للمدارس الابتدائية والثانوية والعالية وإعطائهم صلاحيات واسعة ، وتقليد الغرب فى فلسفتها المادية وأخلاقها النفعية .

عندما يدرس الانسان الدين الإسلامى ويتتبع أوامره ونواهيه فى المأكل والمشرب ومعاملة الجار والأرحام وفى جميع مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية وينظر فى ما أمر به من عبادات بدنية ومالية وما نهى عنه من معاملات فى المتاجر والمكاسب يقطع أنه هو دين الله فى أرضه ، هو دين يأخذ بهذا الانسان الناقص الى حيث الكمال المنشود .

الترتيب لا يولد الحياة

جاء فى مقال : (الحياة فى علم الحياة) فى العدد السادس من مجلة الاعتدال الغراء نقلاً عن مذهب الماديين : « أن العلماء الحديثين قد ذهبوا مذهباً آخر فى تعليل كيفية حلول الحياة فى مادة (البروتوبلازم) (Protoplasm) وذلك بأن المقدرة على القيام بالأعمال الحياتية ناتجة عن ترتب خاص واندماج أو تألف معلوم بين العناصر التى تكوّن مادة البروتوبلازم الحية » .

وبما أن هذه النظرية عارية عن الصحة لا يعترف بها الفلاسفة المحيطون بمبادئ كافة العلوم وأكثر العلماء الحديثين ، أحببت أن أردّ هذا الرأى ، مع علمى أنه ليس من رأى كاتب المقال ولا معتقده ، دفعاً للشبهات ودرءاً لزلة الشبان ، وانجذابهم الى المذهب المادى الفاسد (Matérialisme) .

إن الدليل الذى يقيمه الماديون على أن الترتيب هو الباعث لحلول الحياة فى مادة البروتوبلازم ، كما جاء فى المقال ، هو أن : (ترتيب ذرات الهيدروجين والأوكسيجين والكاربون ، حسب نظريات الكيمياء العضوية الثابتة ، يُنتج مواد عضوية كالسكر والخشب والنشا وما أشبه) .

وليت شعرى هل السكر بعد قطع علاقته من النبات شىء حى له أعمال حياتية كالتنفس والإفراغ والتغذى والنمو والتوالد وهكذا الخشبة والنشا . فمن شاهد تنفساً وتغذياً ونمواً للخشبة الموضوعة فوق منضدة الكتابة طوال السنين له أن يدّعى بأن فيها حياةً تشبه ما عرفناه آنفا . وهكذا لا حياة للحوامض الحاصلة عن ترتيب خاص لذرات الأوكسيجين والهيدروجين مع عنصر الكبريت أو الكلور على ما هو معلوم فى الكيمياء .

نعم ، إن الحوامض تمتاز بخاصيات مختصة بها ، ولكن هذه الخاصيات

عوارض مادية فاقدة الحياة . ولا شك أن ترتيب الذرات بنهج خاص يسبب خواصَّ جديدة ، ولكن هذه الخواص هى آثار مادية غير حياتية ، ولا تشبه آثار النبات والحيوان من حيث التغذى والتمثل والتنفس الى غير ذلك . وبما أن عملية الترتيب عملية مادية ، فالمعلول يكون أمراً مادياً أيضا ولا يتجاوز حدود المادة ، لأن الحيوية مفهوم غير مادى وليس للمادة أن توجد ما ليس فيها .

ومعلوم : أنا اذا رتبنا آلات مضخة الماء الرافعة (مثلا) حسب ما يجب ، فهل تتحرك بنفسها دون أن تحركها قوة خارجة عنها مسيطرة عليها مؤثرة فى آلاتها وأدواتها ؟ كلا . ولا مراءَ أن روح تلك القوة بما هى قوة ليست من جنس المادة من حيث هى مادة وبينهما بون عظيم . واذا استطاع العالم بعلوم الحياة : (Biologue) أو (Biologiste) أن يقتل حشرة ويأخذ المواد المشكلة لها كالأوكسيجين والهيدروجين والكاربون والآزوت (نيتروجين : Nitrogène) الى غير ذلك بمقدار ما هو موجود فيها ، ويرتب هذه العناصر على الترتيب الذى يراه فيشكل منها تلك الحشرة الحية ، له أن يعترف أن الباعث للحياة هو الترتيب والتأليف : « يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » . (سورة الحج : ٧٣) .

فالترتيب عملية موجودة فى جميع العناصر غير الحية . ولولا الترتيب لما أمكن وجود العناصر المختلفة بصرف النظر عن وجود الحياة . فإن النظريات الحديثة التى لا تزال فى تزلزل وسقوط ، تدَّعى اليوم : أن كل آتوم (ذرة) مركب من پروتون : (الكهربائية الموجبة) المجتمعة فى الوسط والمحاطة بالألكترون : (الكهربائية السالبة) المحددة وعدد آخر من الألكترونات

بحيث يساوى زيادة عدد البروتونات على الألكترونات المحيطة المحددة . وبذلك يتساوى عدد الألكترونات وعدد البروتونات فى كل ذرة ، إلا أن البروتونات كلها مندمجة فى الوسط . فمثلاً : ذرة الليثيوم مركبة من (٧) بروتونات و (٤) ألكترونات محددة .

واذا رسمنا مكعبات حول المركز (البروتون) فى إمكاننا أن نضع (٣) ألكترونات فى رؤوس المكعب ليكون عدد الألكترونات مساوياً لعدد البروتونات . وإن العدد الذرى لكل عنصر يعادل عدد البروتونات أو عدد الألكترونات الموجودة فى ذلك العنصر . وإن هذه النظرية المسماة بنظرية (اوكنت) أبديت من قبل (لويس) و (لانكمو) الامريكيين . إلا أن هناك نظرية أخرى ، تدل على أن الألكترونات ، التى توضع فى رؤوس المكعب كما رأينا فى ذرة الليثيوم والتى نسميها أقماراً ، تدور حول البروتونات المندمجة فى المركز ، كالكواكب السيارة التى تدور حول الشمس .

واذا سلمنا بالنظرية الأولى نرى أن العناصر كلها من كلور ، حديد ، ليثيوم (Lithium) ، كاليسيوم ، هيدروجين ، هليوم . . . الخ . مركبة من (بروتون) و (ألكترون) . ومع اختلاف خواصها فإنها مركبة من شيئين متساويين فى العدد ، مجهولين من حيث الماهية ومرتبين بترتيب خاص . ولولا هذا الترتيب والاختلاف فى العدد لما وجد عناصر مختلفة ولما حصل اختلاف فى الخواص المادية . فالترتيب واختلاف العدد يوجبان تبدل الخواص الكيمياوية فحسب ، لا الحياة !

على أن الترتيب لابد له من مُرتب . فلا يأتى الترتيب المؤدى الى وجود عناصر مختلفة والى وجود ارتباط بين أجزاء العالم ارتباطاً وثيقاً ، عفواً . ومحال أن يعترف العقل الانسانى بأن الترتيب المؤدى الى وجود ما لا يعدّ ولا يحصى من الموجودات - وهى فى غاية النظام وتمام الإتقان - يأتى جزافاً دون تروٍ وحكمة .

* * *

يقول أحد علماء الطبيعة رداً على نظرية الترتيب والصدفة : إننا لو وضعنا فى كيس عشر قطع متماثلة من المعدن وقد كتب عليها الأرقام من (١) الى (١٠) بالترتيب ، فالاحتمال فى أن نعثر على رقم (١) هو واحد من عشرة . ولو أردنا أن نظفر بالرقمين (١ ، ٢) بصورة متتالية فالاحتمال يكون : واحداً من مائة ، واذا أردنا أن نظفر بثلاثة أرقام متتالية ، فمرتبة الاحتمال تكون واحداً من ألف ، واذا أردنا أن نوفق الى سحب الأرقام من ١ الى ١٠ بصورة متتالية فمرتبة الاحتمال تكون : واحداً من عشرة آلاف مليون . واذا علمنا أن الأجزاء التى ترتب هذا الكون مختلفة ، ومتعددة جداً ، وأن ما خلق الله من الموجودات تكاد لا تتناهى ، وأن الترتيب فى هذه الموجودات يختلف بعضه عن بعض ، إذن ستكون مرتبة الاحتمال :

$$\frac{١}{ح_{١٠}}$$

فاذا كانت $ح = \infty$ (أى $ح$ تساوى اللانهاية)

إذن : $$\text{غـــا}_{ح \leftarrow \infty} \frac{١}{ح_{١٠}} = ٠$$

أى أن : غاية $\frac{١}{\infty} = ٠$ لا محالة . . .

يستنتج مما سبق أن قيمة الاحتمال أو الصدفة تساوى الصفر . أى ليس هناك صدفة أبداً (١) .

---

(١) على أن ما فكر فيه هذا العالم من نظرية الاحتمال لا تنطبق تماماً على هذا الكون . لأن الأشياء لم تكن موجودة كلها قبلا وانما وجدت بأمر الله تباعاً وبترتيب بديع وتحت نظم ودساتير . « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة . . » « ويخلق ما لا تعلمون » . « يزيد في الخلق ما يشاء » .

فليس فى الإمكان : أن أجزاء لا تتناهى من هذا الوجود من مادية وغير مادية تترتب ترتيباً بديعاً محيراً للعقول ، يؤدى الى انتظام رائع نشاهده فى هذا الكون ، لاسيما وجود هذه الحيوية فى النبات والحيوان ووجود هذا العقل الإنسانى ! « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . (سورة الرعد) . وفى آية أخرى : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون » . (سورة الروم) . (الودق : المطر) .

* * *

تقول نظرية لابلاس : إن الأرض كانت فى الابتداء قطعة نارية فى درجات عالية من الحرارة . فما كان يمكن أن يعيش على سطحها إذ ذاك لا حيوان ولا نبات ولا ميكروب . فمن أين إذن جاءت هذه الحيوية (أو الروح) للحيوان والنبات والميكروبات لولا خلق الله إياها ؟ : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم مَن يمشى على بطنه ومنهم مَن يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير » .

أنّى للصدفة أن تضع معادلات دقيقة وقوانين محكمة تربط أجزاء العالم بعضها ببعض وأنّى لها أن تخلق الروح والعقل . ثم كيف وجدت هذه الأجزاء المترتبة ؟ هل وجدت فى آن واحد ؟ (وهذا ما لا يوافق عليه العقل لما يشاهد من موجودات جديدة) ، أم وجدت تباعا ؟

فمن الذى أوجدها تباعاً ووضع دستور التتابع والتسلسل فى أجزاء لا تتناهى بحكمة فائقة ونظام رائع . ثم إن الجزء الأول هل وجد من تلقاء نفسه وهو فى غاية الحاجة والافتقار ومؤلف من عناصر عدة ، فى فضاء لابد له من خالق ؟ ومن رتب هذه العناصر ترتيباً حكيما محيراً للألباب ؟ !

ثم من الذى وهب له روحاً تحركه وتعطيه قابلية الايجاد والخلق والتنظيم بقوانين ودساتير رياضية رصينة . أم ماذا ؟ « فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون . كذلك حقّت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون » . (سورة يونس ع) .

* * *

يتألف محرّك الصاروخ من (٣٠٠٠٠٠) قطعة . فإن كان صنع إحدى هذه القطع يخالف الهندسة التى يجب أن تصنع بحسبها مخالفة بسيطة ولم تبذل الدقة المتناهية فى إنتاج كل قطعة أخفق الصاروخ عند اطلاقه وفشل . فكيف بهذا العالم المؤلف مما لا يتناهى من قطع فى عالم الجماد والنبات والحيوان ، ثم ارتباط هذه العوالم بعضها ببعض عدا عوالم الأرواح والعقول .

كما أن للمفكر أن يفكر من الذى هندس القطع التى تتألف منها محرك الصاروخ أم وجدت من تلقاء نفسها ، حتى يأتى دور الصدفة ! على أن درجة الاحتمال فى هذا الترتيب هى الصفر لاسيما اذا كانت الأجزاء لا تتناهى .

إذن وجب بحصر عقلى أن يعترف العقل أن هناك خالقاً قديراً وقد أعطى الوجود ، وأوجد الأشياء بقدرته ورتبها بحكمته . « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

وفى خلق الله تعالى جميعَ ما فى الكون من حيوان ونبات وجماد[1] بصورة زوجية حكمة بالغة ، كى يوقن هذا الانسان أن الوحدة خاصة بالله

---

(١) الذرة تتألف من الكترون (كهربائية سالبة) وبروتون (كهربائية موجبة) . وتدور الألكترونات حول البروتونات كما في المنظومة الشمسية . وان كل نجمة نراها في مسافات شاسعة هي في الواقع نجمتان ، تدور احداهما حول الأخرى . تحقيقاً للزوجية في عالم التكوين .

تعالى ، لا يشاركه فيها أحد ، وأن كل شيء من المخلوقات لا بد له من شريك ومزاوج : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

* * *

وإذا سلمنا بالنظرية الثانية : (وهى أن الألكترونات فى الذرة تدور حول البروتونات المندمجة فى المركز ، كالمنظومة الشمسية) ، نرى أن الحركات حول المركز كلها متماثلة ، إذن لزم أن يكون كل ما فى الكون متحركاً من الابتداء ! فما هو إذن هذا التفاوت فى الموجودات يا ترى ؟ ثم من أين أتت هذه الحركة : حركة الأقمار أو الألكترونات حول البروتونات . ومن المحرك لها ؟ ومن جاء بهذا الترتيب وهذا النظام حتى وجدت هذه العناصر ؟

وسواء سلمنا بالنظرية الأولى أو الثانية فإن الألكترون (الذى هو القوة بعينها) موجود فى ذرات الأجسام ، إذن ليست الذرة بشيء مادى بحت .

فكيف إذن : انقلبت الطاقة أو القوة الى مادة ؟ وقد ثبت حديثاً أن المادة تتحول الى طاقة وقوة : إما بالاشعاع أو بطرق أخرى . وأول من عثر على هذه النظرية (مادام كورى) مدرّسة الفيزياء فى جامعة (صوربون) حينما وضعت فى (جيبها) قطعة من الراديوم أدت الى خدشة فى صدرها بنتيجة الإشعاع وقد خفّ وزنها بعد مدة .

ولسائل أن يسأل : من أين جاءت هذه الطاقات الهائلة التى تكاد لا تتناهى حتى شكلت هذا العالم المادى . وقد وضح الله تعالى ذلك فى القرآن الكريم بقوله : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على

نور يهدى الله لنوره من يشاء . ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم » .

وقد صرح الدكتور (گرستاولوبون) فى آرائه الفلسفية : أن تحول المادة الى القوة مما أوجب إفلاس الماديين (Matérialistes) وتقهقرهم .

فوجب إذن أن نعترف بأن قوة خفية مدبرة عظيمة تسيطر على المادة (التى مخلوقة لها) ، فتعطيها الحياة وتجعلها نباتاً ، فحيواناً ، فانساناً وهو الله تبارك وتعالى ، وأن جوهر الحياة ليس بمادى . كما أنا نرى أن للإنسان نفساً مجردة عن البدن حاكمة عليه . (يعترف بذلك العلم الحديث بعد انكشاف بعض حقائق الذرة) .

إن الإنسان يرى فى منامه أنه يسافر الى بلاد شاسعة ويقوم بأعمال غريبة وقد تستمر أعماله ليالى وأياماً ، وبدنه المادى ملقى على فراشه . أليس الذاهب الى البلاد النائية والقائم بأعمال مختلفة هو نفسه التى بين جنبيه ؟ مع أن النوم لم يستمر إلا سويعات ولكن الأعمال قد تستمر أكثر من ذلك .

وقد اكتشف حديثاً : أن الماء ليس مركباً من الأوكسيجين والهيدروجين فحسب بالنسبة المعلومة ، بل فيه ما لا يدخل تحت المجهر (ميكروسكوب) والأدوات والمواد والمؤثرات التحليلية الموجودة فى المختبرات ، وهو قوة حيوية مفيدة . فإذا كان فى الماء شيء غير مادى ، موجب للحياة ، فكيف لا يوجد فى (البروتوپلازم) وقد قال تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حى » .

يقول (برگسون) الفيلسوف الفرنسى : « إن ما حدا بالإنسان الى النزعة المادية فى تفكيره ، هو ارتباطه بالمكان ارتباطاً وثيقاً » . وإن من يقف على أفكار هذا الفيلسوف الدقيق لا يلبث أن يستهزىء بمبادىء الماديين السخيفة الذين أخذوا فى هبوط مستمر بعد تقدم علم النفس وتسخير

الأرواح أو تحضيرها فى الغرب . (على أن احضار الأرواح عمل حرّمه الدين الإسلامى . وعدّه من كبائر الذنوب كالسحر والتنجيم) .

* * *

أرى أنه من واجب كل مسلم أن يعلم : أن ليس للغرب مع اندماجه فى حياة مادية مدلهمة أن يمد يداً الى ما وراء الطبيعة على حد قول (گوستاولوبون) ، فإنه كان يقول : « لقد علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل الى ما وراء الطبيعة » .

ولكنه لو تمسك بدين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعبد الله وأطاعه وقام بأعمال صالحات لوجهه تعالى وجرد نفسه مما علق بها من غرور ودنس ورجس وأوساخ مادية وترك عبادة المادة والزخارف الدنيوية حتى يبلغ مرتبة المخبتين وتكون نفسه مطمئنة بعد أن كانت أمارة بالسوء ، فلؤامة ، لآمن بما جاء فى الدين مما يتعلق بما وراء الطبيعة ، وكان من الذين « يؤمنون بالغيب » ولدخل فى زمرة أولئك الذين يقول على عليه السلام فيهم : « وهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون . وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون . قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة . وأنفسهم عفيفة . صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة . تجارة مربحة يسرها لهم ربهم . أرادتهم الدنيا فلم يريدوها . وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها . أما الليل فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن . يرتلونه ترتيلا . يحزنون به أنفسهم ويستثيرون دواء دائهم . الخ ... »

ذلك لأن ليس للإنسان أن يدرك المجرد ويوقن به قبل أن يتجرد مع كونه فى عالم الشهود . فإن الذنوب والآثام والشهوات والنزوات ظلمات بعضها فوق بعض ، تحجب النفس الانسانية عن رؤية الحق والواقع وتمنعه من أن يمد يداً الى ما وراء الطبيعة فيكون من الذين لا يؤمنون بالآخرة

وتزين له أعماله ويظن بل يوقن أنه سائر سيراً حسنا وأنه من المهتدين ! : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون . أولئك لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الأخسرون » .

فليجرّب من كان يرتاب فى ما أقول . فلقد شاهدت أناسا كانوا منحرفين وقد وفقوا بفضل من الله أن يخطوا فى ساحات الكمال بعزم رصين ، فصاروا ممن يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وذلك بترك المعاصى والآثام . وكم شاهدت من أطباء وغير أطباء يحضرون مجالس الوعظ والإرشاد ومجالس تفسير القرآن الكريم بخشوع ورغبة ، ورأيت من بين هؤلاء متهجدين متعبدين ، يقومون بأعمال صالحات .

* * *

وانى اكرر هنا دستور تكامل النفس بصورة بسيطة : كل ردع لهذه النفس عن مشتهياتها المحرمة يفتح على الانسان بابا من أبواب الهداية ، فقد جاء فى الحديث : « النظرة سهم من سهام إبليس لعنه الله ، فمن تركها خوفا من الله آتاه الله إيمانا يجد حلاوته فى قلبه » . ويراد بالنظر : النظر الى من حرم الله من النساء . وكل ذنب يقترفه الانسان يسدّ عليه بابا من أبواب العقل الفطرى الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، فيسد عليه بابا من أبواب الهداية . فيلج إذ ذاك شيئا فشيئا فى أودية من الضلال والظلمات . دليل ذلك : ما قاله على عليه السلام : « من قارف ذنبا فارقه عقل لم يعد اليه أبداً » .

إن التركيب والتحليل وما فى المختبرات من أجهزة دقيقة فنية للقيام بتجارب فى الفيزياء العامة (Physique générale) و (Bactériologie) و(Biolcgie) لا تكفى للاطلاع على حقيقة الحياة أو الحيوية الموجودة فى النبات أو الحيوان . على أن التجربة وحدها لا تفيد علماً يقينياً اذا لم تكن

مستجمعة للشروط اللازمة من الوضع والمكان ومختلف الحالات . كما أن أخذ النتيجة من التجربة على فرض صحتها ليس داخلا فى التجربة نفسها . فالتجربة شيء والاستنتاج أو الاستقراء شيء آخر . أى أن التعليل وربط المشاهدات والنتائج ليس بأمر مادى .

إن مظاهر التجربة أمور مادية والاستنتاج أمر عقلى . وقد يقوم الشخص بتجربة فيستنبط منها نتيجة مغلوطة لنقص فى المحاكمة أو لاستيلاء الميول الخاصة على القوة المفكرة ، فتصبح النتيجة غير صحيحة . فينساق الى قبول هذه النتيجة المغلوطة أناس عقولهم بعين الدرجة من ضعف المحاكمة ، الظلمات فى النفس ، ونفسياتهم متفقة مع نفسية هذا المجرب المنحرف أو قريبة منها (١) . فتصبح النتيجة المغلوطة برهة من الزمن كحقيقة راهنة ثابتة ! : « ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » ، (سورة الروم) حتى يقيض الله من يقوم بتجارب أخرى مع استنتاج صحيح فيردها ويجرحها . وقد وقع ذلك فى أوروبا مراراً . فقد أخفق المادى مرة بعد أخرى ! ولكن آثامه حجبت عليه طريق الهداية وأخذ يتشدق باسم العلم ! وبينه وبين العلم مسافات لا تحدُّ . « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . (سورة المطففين : ١٤) .

فالنظريات تتبدل من حين الى حين ولا ينبغى أن يعتمد عليها وتتخذ كحقيقة يستحيل عليها التزلزل ، ذلك لأنها ليست كالرياضيات البحتة حقائق ثابتة .

* * *

(١) أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . (سورة الحج : ٤٦) . فلا يفيد السير في الأرض في سلوك النفس التكاملي مع قلوب متحجرة ونفوس مدلهمة مظلمة بذنوبها وآثامها .

إن الفلاسفة الواقعيين يعترفون أن علمنا ومعرفتنا بالنسبة الى الأجسام (المادة) ناقصة وستبقى ناقصة الى الأبد . ويقولون : « إننا لا نعرف إلا أفكارنا الخاصة » ، فأنى لهم بعد اعترافهم هذا أن يتوصلوا الى حقيقة الحياة وحقيقة الروح .

يقول دكارت : « فإذا سلمنا أننا لا نستطيع معرفة الواقع مباشرة امتنعت علينا معرفة الواقع على الاطلاق » .

أنّى للمحاط (الانسان) أن يحيط بالمحيط (وهو الله) . لذلك يقول علي عليه السلام : « تكلموا فى خلق الله ولا تكلموا فى الله . فإن التكلم فى الله لا يزداد صاحبه إلا تحيراً » . وقال عليه السلام أيضا : « كيف أصفه بالكيف وهو الذى كيف الكيف حتى صار كيفا . فعرفت الكيف بما كيف لنا من الكيف » (يريد به الله تعالى) .

* * *

أنى لهذا الإنسان أن يحيط بالله تعالى وقد كان فى ابتداء أمره جرثومة (نطفة) ولم يكن له أدنى تصرف فى توجيه هذه الجرثومة وتحولاتها فى الرحم وبعد الخروج من الرحم . وكان ولا يزال مسيراً إلا ما كان من إرادته[1] فى اتباع طريق الخير وطريق الشر . فـ « لا جبر ولا تفويض ، بل أمر بين الأمرين » . ويؤيده قول علي عليه السلام : « عرفت ربى بفسخ العزائم ونقض الهمم . لما هممت فحيل بينى وبين همى ، وعزمت فخالف القضاء والقدر عزمى علمت أن المدبر غيرى » .

وفى القرآن الكريم : « إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . وفى آية أخرى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيدا » . وفى آية

---

(١) أي من ارادة الانسان نفسه .

أخرى أيضا : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . وفى آية أخرى : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون » .

كل هذه الآيات تدل دلالة واضحة على أننا نحن المسؤولون عن سلوكنا واتجاهاتنا وعن أعمالنا السيئة . والله قادر على تغيير سلوكنا وهدايتنا لو جعلنا نفوسنا لائقة الى قبول فيوضاته القدسية بالمداومة على أعمال صالحات . وفى استطاعته تعالى أن يسدّ علينا أبواب رحمته وهدايته وأن يبعدنا عن ساحات القدس ، إن لوثنا أنفسنا بالذنوب والآثام وذمائم الأخلاق .

* * *

أنظروا كيف يصف الله تعالى مراتب تكامل الجنين فى رحم أمه : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظامَ لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين » . وقد جاء فى تفسير : « أنشأناه خلقاً آخر » أى أن الله تعالى أنشأه خلقا آخر بنفخ الروح فيه .

ما معنى نفخ الروح فى جسم مشكل من عظام ولحم . ذلك لأن الروح ليس من المادة فى شىء . ولعل الروح هى مشيئة الله تعالى وإرادته سبحانه . فهذه المشيئة أو الإرادة بقوله تعالى : « كن » تنقلب الى طاقة وقوة . والقوة لها مظاهر وأنواع حسب مشيئته تعالى . فتارة تكون هذه الطاقة أو القوة : (أى الإرادة الإلهية المتحولة الى الطاقة بأمره تعالى) عقلاً وتارة تكون روحا ونفسا إنسانية أو نفسا حيوانية ، وتارة تكون هذه الحيوية التى نلمسها فى (البروتوپلازم) وتارة تكون مادة . أى أن هذه الطاقة تنقلب الى مادة بأمره تعالى على ما ثبت فى العلم الحديث ، وذلك بعد التعرف الى فلق الذرة (تحطيمها) أو : دمج الذرات أو نواها . فإنهما يتيحان لنا من القوة

العظيمة ما يجلّ عن الفهم والتقدير . فالطاقة التى تخرج من رطل واحد من اليورانيوم تعدل طاقة الحرارة التى تخرج من مئات الأطنان من الفحم أو من ألوفها . والطاقة التى تخرج من دمج نوى ذرات الهيدروجين أعظم .

وقد ذهب (آينشتاين) أن الطاقة الكامنة فى الذرة تساوى الكتلة مضروبة فى مربع سرعة الضوء . أى :

$$ط = ك \times س^{٢}$$

وبما أن سرعة الضوء = ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ كيلو متر فى الثانية ، فإن الطاقة فى فى ذرة ما تشكل مقداراً هائلا . أى :

$$ط = ٩٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ك = ٩ \times ١٠^{٢٠} \times ك$$

فإذا ما فلقت (حطمت) أى أخرجت الطاقة الكامنة فيها الى الخارج جاءت بالتدمير والتحطيم .

ويمكن حساب الطاقة المتحررة من تفاعل نووى : من معرفة النقص الحاصل فى الكتلة . ذلك لأن العلم لم يتوصل بعد الى إخراج جميع ما فى الذرة من طاقة الى الخارج . ففى انفلاق نواة اليورانيوم يتحول نحو عشر الواحد فى المائة الى طاقة . وهكذا لتكوين ذرة هليوم عند انصهار أربع نوى من الهيدروجين يتحول سبعة أعشار الواحد فى المائة الى طاقة . وهكذا . . .

إن مشيئة الله بالنسبة الى إيجاد الشىء جليله ودقيقه على حد سواء . إن الله تعالى يقول : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » . ولقد قال جلّ من قائل : « إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون » . فالمشيئة الربانية هى الموجدة للأشياء بقوله تعالى : « كن » أى الإرادة وحدها أو الطاقة المنبعثة من هذه الإرادة هى الموجدة لهذه العوالم من : عقلية ونفسية وحيوانية (وحيوية) ومادية .

إن فهمى القاصر قد بلغ الى هذه المرتبة من التحليل . ولعل الله تعالى يقيض من يوصلنا الى حقائق أخرى إبداءً لعظمته تعالى وإظهاراً لجليل قدرته . ولقد جاء فى حديث قدسى : « والذين عملوا بما علموا لنهدينهم الى ما لا يعلمون » .

* * *

على أن الإيمان بالله تعالى وبما وراء الطبيعة وبالأنبياء والمرسلين وأوصيائهم (ع) ليس أمراً صعبا يستدعى الإطلاع على شتى العلوم والمعارف الكونية . وإنما الإيمان أمر معنوى قلبى يترشح من نفس طاهرة وقلب زكى . وإن لهذا الإيمان درجاتٍ تتناسب مع درجة طهارة النفس . كما أن الإيمان بأن الروح والحيوية وأن كل شىء فى هذا الوجود أوجده واجب الوجود : - وهو الله تعالى - ليس متوقفا على معرفة حقائق علم الكيمياء وعلم الحياة : (Biologie) . فقد يصل الأمىُّ الى إيمان رصين لا يبلغه من بلغ مرتبة (الدكتورا) فى أصعب الفروع . والفرق بينهما ناشىء عن درجة طهارة النفس .

إن هذه الحقيقة (أو النظرية) لا تستدعى الشك والارتياب . والتجربة تبرهن على صدق ما ذهبتُ اليه . فليجرّب من شاء . فإن الطرق واضحة جلية لا غبار عليها . وكتب الدين كثيرة والمراجع متوفرة . وإن الذنوب تحجب القلب (النفس) عن رؤية الواقع . لذلك جاء فى حديث عن النبى (ص) : « إن مثل الصلاة كمثل نهر جارٍ يمرُّ بباب أحدكم . فيغتسل به فى اليوم والليلة خمس مرات ، فلا يبقى عليه شىء من الأدران . وكذلك الصلاة لا تُبقى على الانسان شيئا من الذنوب » .

وغير خافٍ أن النبى (ص) إنما عنى بهذه الصلاة . الصلاةَ المقبولة ، وهى التى تمحو الذنوب فتطهر النفس بقوله (ص) : « مَن لم تنهه صلاته

عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » . وعن الإمام الصادق (ع) : « من أحب أن يعلم أُقبلت صلاته أم لم تقبل ؟ فلينظر هل منعته عن الفحشاء والمنكر ؟ فبقدر ما منعته قبلت منه » .

وأهم ما يجب أن يقوم به هذا المجرب أن يردّ الى الناس حقوقهم ويطهر مأكله ومشربه عن الحرام والمشتبهات ، وأن يترك ما كان يقوم به من موبقات ومدنسات . وأن يعاشر أهل التقوى والورع ويترك معاشرة تاركى الصلاة ومانعى الزكاة ... الخ ليرى كيف تتجلى له الحقائق وتتقشع عنه سحائب الشكوك والأوهام ...

* * *

ولقد ذكر لى من أثق به : أن رجلاً قرويا كان يسكن فى قرية قريبة من (رشت) وكان يعيش من كدّ يمينه ، لم يخالط مأكله ومشربه شئ من الحرام أبداً . وكان يهيء ما يحتاجه من مأكل ومشرب وملبس فى بيته ومزرعته . وكان مع ذلك متقربا الى الله بأعمال صالحة : يتعبد ويشكر الله تعالى على ما أولاه من نعم ، يعطى فضول ماله الى الفقراء والمعوزين ويطبق ما كان يعلم من الآداب الإسلامية . فأشكلت عليه مسألة شرعية . جاء الى عالم دينى فى مدينة (رشت) ليتبصر فيها . فدخل المدينة عند الظهر . وسمع المؤذن يؤذن . فبادر الى صلاة الظهر فى أفضل أوقاتها وأخذ طريقه الى بيت العالم الدينى . فدخل عليه قائلا : إنى أرى شيئا غريبا فى هذه البلدة . فسأله العالم ، وما الذى تراه ؟ قال : لم أرَ فى شوارع المدينة إلا بهائم : حميراً وبغالا . . ولم أصادف فى طريقى إلا شخصين على شكل إنسان . أين ذهب الناس ؟ !

أدرك العالم الدينى ، لطهارة نفسه وتضلعه فى شتى العلوم ، السببَ فى هذه الرؤية الباطنية . وأن الرجل لطهارة مأكله ومشربه وحسن سريرته وتطبيقه أوامرَ الشرع تطبيقاً صحيحاً أخذ ينظر بنور الله ، وتتمثل له بعض

الخلائق حسب حالتهم النفسية الصحيحة وما بلغوا من التسافل والتكامل من جراء أعمالهم وما اجترحت أيديهم . ثم إن العالم الدينى خاطب القروىّ قائلا :

- هل تناولت طعام الظهر ؟

قال : كلا . فدعا العالم خادمه وقال له : إذهب الى السوق وائت بطعام الى هذا المؤمن ، (مع وجود طعام فى البيت) . أطاع الخادم أمر سيده وجاء بطعام من السوق وقدمه الى القروى . فأكل القروى وجلس فى مجلس العالم وأخذ يسأله عن مسائل شتى ، حتى مضى شطر من الوقت ، ثم أمر خادمه بأن يأخذ هذا القروى الى الشوارع ويعود به الى البيت . قاد الخادمُ القروىّ وصار يسير معه فى الشوارع ورجع به الى البيت فسأله العالم : ماذا رأيت ؟ قال : « رأيت الشوارع مملوءة بالناس » . فقال العالم : « إن الطعام الذى تناولته قبل ساعات مشتبه فيه ، فيه الطاهر والخبيث . وإن طعاماً مخلوطاً بالحرام أو النجس ليؤثر فى النفس تأثيراً سيئاً وإن كانت النفس لا تعلم ذلك . فيخرج هذا الطعام الانسانَ عن الحالة الملكوتية أو العالم القدسى ، فلا تتجلى له الحقائق كما كانت تتجلى قبلا . إلا أنك سترجع الى حالتك السابقة بعد رجوعك الى قريتك إن شاء الله » .

* * *

نعم ، لقد جاء فى حديث : « الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا » . ذلك لأن علاقتهم المادية : (هذه العلاقة التى تكون حجابا حاجزاً دون رؤية الحق والواقع) ترتفع مع الموت ، فتتجلى ، للروح المجردة عن المادة ، الحقائقُ .

ويقال عن أحد المؤمنين انه اشترى مقداراً من التمر من تمار . فلم ترقه تمرة واحدة ، فاستبدلها بغيرها عند الانصراف دون أن يستأذن التمار . فلم يتوفق تلك الليلة الى صلاة الليل ونام حتى الصباح . وقد رأى فى ما يرى

النائم أن رجلا يقول له : إن تلك التمرة أثرت فى نفسك فحرمت مناجاة ربك .

إن ظلمات بعض النفوس اليوم تعزى فى الدرجة الأولى الى تلوث المآكل والمشارب بكثير من المحرمات ، سواء باختلاط يحصل من جراء المعاملات الربوية فى المصارف والبنوك أو بشراء بضاعة بصكوك يعلم معطيها أنها تنزل فى البنوك حتما بحساب الربح البسيط أو المركب ، أو بكذب فى المعاملات والعقود ، حتى عند الزواج ، أو خديعة عند عرض السلعة التجارية أو الجهل بما أمر الله فى المعاملات ، وعدم الحضور فى مجالس العلماء للتفقه فى المكاسب والمتاجر المحرمة الى غير ذلك .

ومما لا شك فيه : أن كل خديعة أو تمويه أو كذب فى مقدمات النكاح أو فى الأوصاف التى يقع عليها الرضا بالزواج لتؤثر فى اتجاه النسل نحو اليمين أو اليسار .

يقول على عليه السلام : « يا كميل أنظر فيمَ تصلى وعلامَ تصلى ، فإن لم يكن من وجهه وحله فلا قبولَ . يا كميل ، القلب واللسان يقومان بالغذاء ، فإن لم يكن ذلك من وجهه وحله لم يتقبل الله لك تسبيحاً ولا شكراً » .

فالإنجذاب الى ما وراء الطبيعة والإيمان بالغيب والاعتراف بوجود الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله أمر قلبى . سواء اعترف بهذه الحقيقة من سلك مسالك مادية أو لم يعترف . فلابد من تعمير القلب (النفس) وتزكيته وتطهيره ليكون حرياً للاعتراف بما وراء المادة العمياء .

إن الله تعالى يقول : « وليبتلىَ الله ما فى صدوركم وليمحّص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » (سورة آل عمران) ،

• • •

أنظروا الى ما يقوله علىٌّ (ع) حين يسأله ذعلب اليمانى قائلا : « هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين ؟ » فيقول عليه السلام : « أفأعبد ما لا أرى » .

فقال : « وكيف تراه ؟ » . فقال : « لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان . قريب من الأشياء غير ملامس ، بعيد عنها غير مباين ، متكلم لا بروية ، مريد لا بهمة ، صانع لا بجارحة ، لطيف لا يوصف بالخفاء ، كبير لا يوصف بالجفاء ، بصير لا يوصف بالحاسة ، رحيم لا يوصف بالرقة . تعنو (تذل) الوجوه لعظمته ، وتجب (تضطرب) القلوب من مخافته » .

يقول الحسين بن على (ع) مخاطباً رب العباد : « سبحانك متى غبتَ حتى تحتاج الى دليل يدلُّ عليك . ومتى بعدتَ حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك . عميت عينٌ لا تراك عليها رقيبا ، وخسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبك نصيبا » .

فالعالم مهما بلغ من العلم بأحوال الكون لا يمكن أن يؤمن إلا اذا طهرت نفسه وصلحت أعماله وطاب مأكله ومشربه . فيكون علمه إذ ذاك مؤيداً لعقيدته ، يستدل به على خصمه . فقد جاء فى الحديث : « البلاهة أدنى الى الإخلاص من فطانة بتراء » .

على أنى لا أنكر أن كثرة الاطلاع فى أحوال الكون والوقوف على أسراره وغوامضه وما أودع الله فيه من دقائق يزيد المؤمن إيماناً وتثبتاً ويمنحه خشوعا وتقديسا لله تعالى . ولا يخفى أن لابد هناك من نفس بلغت مرتبة ولو ضئيلة من الطهارة ومن إيمان يترشح من تلك النفس . فيرسخ هذا الإيمان بكل ما يرى الانسان من مظاهر عظمة الله تعالى فى ما خلق من أشياء مادية ونفسية ، وقوى وطاقات ومعاجز وكرامات الى ما هنالك .

فقد كان فى جامعة بيروت الإمريكية أستاذ للفلك العالى ، كان اذا تكلم عما أودع الله من معادلات وقوانين مدهشة فى نظام الكواكب والأنجم ، فاضت عيناه بالدموع ، فيسأل عن السبب ، فيجيب : لو رأيتم ما أرى

لذبتم خضوعا وخشوعا لمن أقام هذا السماء بهذا الترتيب البديع الذى يحار فى استقصائه أولوا الألباب !

* * *

قلت : إن العلم بأحوال الكون لا يولد العقيدة بل يؤيدها . إن الله تعالى يقول : « واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً . فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون » . (سورة التوبة : ١٢٧) .

فحال العالم بالعلوم الحديثة والجاهل بها فى مقام الإيمان على حد سواء . لأن القضية قضية استعداد فى القلب وصفاء فى النفس وخلوها من الكبر . إن الله تعالى يقول : « كذلك يطبع الله على كل قلبِ متكبر جبار » . وإن الكبرياء وحدَه يجرُّ الانسان الى إنكار المعاد ، على حد قوله تعالى : « وقال موسى : إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » .

فإذا ادلهمَّ القلب وتلوث ، فلا قبولَ ولا إيمان ، بل جحود وكفر . لذلك جاء فى حديث قدسى « من أخلص لله أربعين صباحا جرت من قلبه على لسانه ينابيع الحكمة » . فترون أن ينابيع الحكمة والمعارف الإلهية إنما تفيض على الانسان من جراء الإخلاص والخشوع والخضوع والتذلل بين يدى رب العباد .

دواؤك فيك وما تبصر ... وداؤك منك وما تشعر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

* * *

إن معرفة النفس طريق لمعرفة الخالق . فقد جاء فى الحديث : « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه » . وعن على (ع) : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

وقال المسيح (ع) : « إعرف نفسك تعرف ربك » . ونسأل الله تعال أن يطهر نفوسنا حتى نتعرف اليها فنزداد معرفة بالله تعالى . وإنى أختم هذا المقال بهـــذا الحديث ففيه الحكمة البالغة . فقد قال على عليه السلام : « إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى فى قلبه . . . الى أن قال : قد خلع سرابيل الشهوات . وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به . فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى . وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى . قد أبصر طريقه وسلك سبيله ، وعرف مناره ، وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ، ومن الحبال بأمتنها ، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس » .

فمفاد هذا الحديث حقيقة ما بعدها حقيقة . يعلم ذلك من وُفق الى تحقيقه ، فسار فى عوالم الكمال .

ولا تكاملَ لهذا الانسان إلا بالإسلام .

[انتهى ، ولله الحمد ، الجزء الأول . وسيليه الجزء الثانى ، إن شاء الله تعالى .]

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦	١٠	حجبت	حجب
١٢	١٦	هندسة	هندسية
٣٣	١٧	تفكيره	تفكره
٤٩	٨	كاوين	كلوين
١٠٩	٦	لا تناله	لا تدركه
١٩٧	٣	glacir	glacier

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
١١	لماذا وُجدنا
١٦	ماذا يراد من الدين
٢٢	دين العقل - ١ -
٢٦	دين العقل - ٢ -
٣١	العقل والإيمان
٣٧	منزلة العقل والعلم فى الدين الإسلامى
٤١	تأخر العلوم الحديثة عن الدين
٤٦	تأخر العلوم عن الحقائق الدينية
٥٠	علاقة الدين بالعلم والظن
٥٥	الدين والعلوم الحديثة
٥٩	لا تنافى بين الدين والعلم الصحيح
٦٣	لا تنافى بين الدين والعلم الحديث
٦٨	رأس الحكمة مخافة الله
٧٣	أثر الخشية فى تكامل النفس
٧٨	قيمة البلايا فى تكامل النفس
٨٢	أثر النوائب فى تطهير النفس وتكاملها
٨٦	أثر الصوم فى تكامل النفس
٩٥	أثر الحج فى تكامل النفس
١٠١	كل منا ممتحن لا محالة
١١٢	مراتب الامتحان الإلهى
١١٨	إنما المؤمنون اخوة
١٢٥	التراحم فى الاسلام
١٢٩	التآلف فى الاسلام
١٣٤	التزاور فى الاسلام
١٣٨	التعاطف فى الاسلام
١٤٣	آداب السلام فى الاسلام
١٤٩	آداب التلاقى فى الاسلام
١٥٤	التربية الاجتماعية فى الاسلام
١٦٠	الإنفاق فى الاسلام
١٦٤	المثل العليا فى الإنفاق
١٦٩	الصدقات فى الاسلام
١٧٨	الزكاة وأثرها فى تكامل النفس
١٨٤	الزكاة الباطنة
١٨٨	الزكاة الواجبة
١٩٥	كيف يجب أن نكون
٢١٣	الترتيب لا يولد الحياة

توزيع : مكتبة النهضة
شارع المتنبي — بغداد
تلفون — ٨٢٦٨٩

ثمن النسخة من الجزء الثاني : ١٧٠ فلساً
« « « « الثالث : ١٧٠ فلساً

ثمن هذا الجزء : مائة وسبعون فلساً

التكامل في الإسلام

الجزء الثاني

يجد القاريء في هذا الجزء : أجوبة شافية ردّاً على مزاعم الماديين
وأدلة قطعية على وجود الصانع جل جلاله وما يفيد
الشباب في سيرهم التكاملي من عقيدة وعمل

بقلم

احمد أمين

خريج جامعة استانبول : الرياضيات العالية والفيزياء الرياضية العالية

(الطبعة الثالثة)

al-Takāmul

التكامل في الإسلام

الجزء الثاني

يجد القاريء في هذا الجزء : أجوبةً شافيةً ردًّا على مزاعم الماديين
وأدلة قطعية على وجود الصانع جل جلاله وما يفيد
الشباب في سيرهم التكاملي من عقيدة وعمل

بقلم
احمد أمين

(الطبعة الثالثة)
١٣٨٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام :

لا مالَ أعودُ من العقل ، ولا وحدةَ أوحشُ من العُجب ، ولا عقلَ كالتدبير ، ولا كرَمَ كالتقوى ، ولا قرينَ كحسن الخلق ، ولا ميراثَ كالأدب ، ولا قائدَ كالتوفيق ، ولا تجارةَ كالعمل الصالح ، ولا ربحَ كالثواب ، ولا وَرَعَ كالوقوف عند الشبهة ، ولا زهدَ كالزهد في الحرام ، ولا علمَ كالتفكّر ، ولا عبادةَ كأداء الفرائض ، ولا ايمان كالحياء والصبر ، ولا حَسَبَ كالتواضع ، ولا شرفَ كالعلم ، (ولا عزَّ كالحلم) ، ولا مظاهرةَ أوثق من المشاورة .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد نفذت ، والحمد لله ، نسخ الطبعة الأولى للجزء الاول من هـذا الكتاب في مدة وجيزة ، مما يدل على أن الرغبة الدينية وحب الاطلاع على حقائق الاسلام متأصلان في النفوس ، وأن الدين حاجة ملحّة للمجتمع لا يمكن أن ينفك عنه بحال من الاحوال وبأية قوة من القوى . وأن تساهل البعض في تطبيق الاحكام الشرعية وتعاليمها انما هو أمر عارض يزول باصلاح المجتمع من حيث التمسك بالفضائل والمكرمات ومراتب التقوى .

نعم ، ان الدين أمر طبيعي ارتكازي فطري في روح البشر ، لا ينفك عنه أحد الا اذا غيّر الفطرة بالفسوق والعصيان . ولذلك عمدت كنيسةروما الى ادخال الخمور والفجور فى الاندلس العربية المسلمة بشتى الوسائل ليفر الدين من جراء تلويث النفوس . فيمكن الاستيلاء على البلاد المفتوحة من قبل المسلمين . وقد نجحوا في ذلك وأصابوا الهدف .

فالرجل مهما أراد انتزاع نفسه عن الدين ، لا يمكنه ذلك ، الا اذا سعى بشتى الوسائل في اذهاب أو اضعاف العقل الفطري ، المرتكز فيه التوجيه الديني على حدّ قوله تعالى : « فطرةَ الله التي فطر الناس عليها » .

استمعوا لما يقوله الامام موسى بن جعفر عليهما السلام ، عن كيفية هدم العقل وانسحابه لهشام أحد أصحابه :

« يا هشام ، من سلّط ثلاثا على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله : من أظلم نور تفكره بطول أمله ، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه ، وأطفأ

نور عبرته بشهوات نفسه ، فكأنما أعان هواه على هدم عقله ، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه » .

« يا هشام ، كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك ، وأطعت هواك على غلبة عقلك » .

انظروا كيف يصف الله تعالى العقلاء وأولي الالباب . فليعرض من شاء نفسه على مفاد هذه الآيات البينات ، فان وجد أن أعماله مصداق هذه الآيات فليحكم : أن عقله يعمل عمله وهو غير منسحب عن فعاليته . وان لم توافق نفسه وأعماله منطوق هذه الآيات ، فليعلم أن عقله الفطري قد فارقه وانسحب عنه ، وأن الشيطان تمركز فيه وحلّ محل العقل .

ان الله تعالى يقول : « أفمن يعلم أنما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، انما يتذكر أولو الالباب : الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ،ويدرؤون بالحسنة السيئة، اولئك لهم عقبى الدار: جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » . (سورة الرعد : ٢٢) .

فالعقل الطبيعي غير الملوث بالذنوب هو العقل الذي يعمل بكل ما جاء في الآيات الكريمة المتقدمة من صفات وأعمال . والذي يخالف بعض ما جاء في الآيات المتقدمة انما هو ناقص العقل ، والذي يخالف جميع ما جاء فيها انما هو مسلوب العقل ، هدم عقله بسوء اختياره وفساد أعماله (١) .

---

(١) وقد قال الله تعالى : « واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ! »

ومن المؤسف أن أوربا لم تتشرف بالديانة الاسلامية • دين الحياة ودين تصفية النفوس استعدادا لـ«جنة عرضها السماوات والارض أعدت للمتقين» • وقد توجهت اليها المسيحية المحرفة التي لا قواعد فيها لتأسيس دولة عادلة ، فعارضت العلم واستبدت وضغطت على الحريات بأساليب لا تبررها المسيحية الروحية البحتة ، فأدى ذلك الى عداء بين العلماء المحدثين ورجال الكنيسة • وأخذ يستفحل هذا العداء حتى أدى الى تبلبل في العقائد وفصل الدولة عن الكنيسة وبالتالي معاداة الكنيسة ونمو الالحاد والزندقة وظهور مذاهب مادية شتى ، فأنجبت فلاسفة ! ما دبين أمثال : (فورباخ ، بوخنز ، نيتشه ، شوپنهاور ••••) •

ولو أن الفلاسفة ! الماديين استطلعوا تعاليم الاسلام وفلسفته العادلة التي تطابق المنطق الطبيعي ولا تقر نظرية الكبت في المسيحية ، وجانبوا الى حدٍ ما الطيش والشهوات المميتة للنفوس والمفسدة للمجتمع لتغيرت فلسفتهم ولأخذت تؤيد الاسلام كدين عالمي خالد •

وكم رأينا من الفلاسفة تغيرت وجهات نظرهم في مقتبل العمر وفي نهايته، فبعد أن كان أحدهم موحداً بالفطرة أصبح ملحدا ، أو اهتدى من جديد فغدا موحدا •

فحين يقول أحد هؤلاء الفلاسفة ! : « ان الاخلاق الدينية تعارض ميول الانسان الطبيعية » ، انما يعني الاخلاق الدينية التي تعلمها عن المسيحية المحرفة • ولو تتبع الدين الاسلامي لعلم أنه دواء الروح ، وأنه دين يستجيب لكل الغرائز وجميع الميول بشكل لا يؤدي الى فساد الدنيا والآخرة • وليس في الاسلام كما في المسيحية المحرفة : طبقة سيدة وأخرى مسودة • ولا يقر الاسلام الظلم والاضطهاد • بل جاء لرفعهما بقوله : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » • وبقوله كما في الحديث : « أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب » ،

« ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى » • وأقر القصاص والديات بين جميع الطبقات •

ولو أن كنيسة روما كانت قد ساعدت على دخول الاسلام الى اوربا وتابعت الواقع والحق ، لرأيت بلاد أوربا من أحسن بلاد الله تطبيقا لتعاليم الاسلام في السياسة والعلم والاقتصاد والحياة الاجتماعية وما وجد الالحاد طريقه الى مدارس الغرب •

وعسى أن يستيقظ العالم في يوم من الايام من رقدته وينتبه من سباته تاركا العصبية العمياء وراء الظهور ، فيعتنق الدين الاسلامي دينا عالميا كما تنبأ بذلك (برناردشو) مطبقا اياه في جميع شؤون الحياة حتى يصل الى طمأنينة وحياة وادعة ، لا في الدنيا فحسب ، بل بعد الموت أيضا في عالم خالد يستمر ملايين السنين •

وليس الاستدلال الفلسفي أو على حد تعبير البعض : (العلمي !)، الا رشحات النفس الانسانية، سواء أكانت متكاملة أم متسافلة •فالنفس المتسافلة فلسفتها فلسفة رجعية أي هي فلسفة تعاكس الفطرة ، تعاكس ما أودع الله تعالى في نفس الانسان من توحيده والاعتراف بعظمته، وترك الظلم والجور والبغي• والتعاطف والتراحم(١) ••• الخ • وهي تبرهن ، على ما تزعم بطرق علمية!؟ على انها في طريق الحق وعلى صراط مستقيم وما عداه ضياع وكبت !؟•••

والنفس المتكاملة ، أو بالاحرى : النفس السائرة نحو الكمال ، فلسفتها فلسفة بناءة ، متكاملة ، وبراهينها براهين توافق الفطرة وتطابق الواقع والعقل الفطري غير الملوث بالاجرام والفسوق •

---

(١) عن أبي عبدالله (ع) : « من كانت له دار ، فاحتاج مؤمن الى سكناها فمنعه اياها ، قال الله عز وجل : ملائكتي بخل عبدي على عبدي بسكنى الدنيا، وعزتي فلا يسكن جناني أبدا » •

فحالة النفس من حيث التكامل والتسافل تسبق موضوع الدليل والاستدلال مهما سمي علميا ! أو فلسفيا ... فيجب قبل ان ينظر فى الدليل أو سير الاستدلال ، أن ينظر في حالة الفيلسوف النفسية وأخلاقه الشخصية مع ذويه وأصدقائه ، وصفاته الكمالية في صغره وبعد كبره ، كما يفعل مع الانبياء والاوصياء سلام الله عليهم أجمعين .

ذلك لان الفلسفة ليست بشيء ثابت ثبوت الرياضيات البحتة ، حتى لا تقبل التحريف والانحراف . فطريق الحق والواقع واحد لا يتعداه ، والفيلسوف الحقيقي المتكامل ، هو الواجد لهذا الطريق المستقيم الذي لو انحرف الانسان عنه قيد شعرة لما أصاب الواقع في الصميم .

وان التجارب تدل على أن الشخص انما يصل الى عقيدة فلسفية خاصة حسب درجة صفاء نفسه وأخلاقه وسلوكه في سره وعلنه وفي ظروف مختلفة. ففلسفة الفرد هي رشحات نفسه من حيث الضعة والكمال . والعقيدة هي عصارة السلوك الشخصي وغايته . وان هذه الحقيقة لمن أهم المواضيع الفلسفية التي يجب ان يعنى بها المفكرون من فلاسفة وعلماء ، كي لا ينخدعوا بفلسفة المتفلسفين وهراء المتطفلين، دون تمحيص للنفسيات والصفات المتغلغلة في النفوس في ظروف مختلفة وما تجترح الايدي من ذنوب وآثام . وهذا هو السر في تحتيم طائفة من المسلمين : (العصمة) فى الانبياء (ع) والاوصياء(ع) من بعدهم . فبالعصمة يعلم أنما يترشح من المعصوم صاف ، نقي لا كدر فيه.

على أنا نعترف أن الفلسفة المادية لا تقيم وزنا للغذاء الروحي ولا ترى قيمة للنفس الانسانية وحاجاتها الطبيعية من سمو وكمال ، فالنفس الانسانية في نظرها كالخشبة الجامدة لا تحتاج الا الى صبغ وتدهين !..

والحقيقة الثانية التي يجب ان يعنى بها الفلاسفة والمفكرون ، ان النفوس تتصل بعضها ببعض وتتصادق وتقترب اقترابا طبيعيا ، (لا لأغراض خاصة

موقتة) حسب درجاتها من الكمال أو التسافل • فالنفس الشريرة تميل الى مثلها والنفس الطاهرة تميل الى مثلها أيضا مع حفظ الدرجات في التكامل والتسافل • وقد قالوا قديما :

«عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي»

ولقد جربت ذلك في حياتي وتتبعت الموضوع بشتى جوانبه عند كثيرين، فوقفت على صدق ما أذهب اليـــه • ولعل للنفوس خطوطا مغناطيسية أو مجالات كهربائية من نوع خاص غير مادي • تختلف من حيث نوع الخطوط أو المنحنيات حسب الصفات والخصال ، أو حسب درجات التكامل أو التسافل فتميل بعضها الى بعض أو بعضها عن بعض ، كالابرة المغناطيسية بالقرب من ابرة مغناطيسية أخرى • ذلك لان العالم حسب آخر ما توصل اليـه العلم المادي مجموعة من قوى جاذبية ومغناطيسية وكهربائية ، سواء كانت ظاهرة أو باطنة • وقد خلق الله تعالى أيضا عدا هذه القوى المادية ، أنواراً مختلفة وقوى متنوعة لا تمت بالمادية في شيء « الله نور السموات والارض » • وان لكل نفس فلسفة (على ما قدمنا) تتناسب ودرجة تكاملها أو تسافلها ، وهي تصر على صحة فلسفة تتبناها وتبرهن عليها بشتى البراهين • وتظهر لها أن هذه البراهين صحيحة ، لانها توافق ما عليه نفسه من ضعة أو كمال • وليست هذه البراهين بدساتير رياضية كي يرى الخطأ واضحا فيها أو في تطبيقها • فيلفق هـذا الفيلسوف في البرهان ويأتي بمقدمات باطلة ويبني عليها بناءً أوهن من بيت العنكبوت • انها هي نفسه والبراهين هي من نوعها • بل هي هي •••

فلسائل أن يسأل : اذن ، كيف يتجلى الحق والواقع ؟ يتجلى الحق والواقع بعد الاطمئنان بكمال نفس الفيلسوف (أو معطي النظرية) أو سيرها في عوالم التكامل وتحليتها بالفضائل والمكرمات المتفق عليها عند العقـلاء

والافاضل : كالصدق والوفاء وعدم الغيبة أو النميمة ، وحب الخير والقيام بحاجات الناس لوجه الله ، وعدم الانحراف عن الفطرة : أي الايمان بالله الخالق المتعال ...

يقول الله تبارك وتعالى: «ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها» . فالفضيلة والرذيلة أمور ارتكازية راسخة فى النفوس ، مهما كانت هذه النفوس بدائية ، يشعر بها فاعلها ، عند القيام بها من ارتياح أو انكماش ، ولكنه لو ثابر على الرذيلة تصبح هذه طبيعة ثانية ، ووجدانا ثانويا (Conscience) بانسحاب العقل ، فلا يشعر فاعلها اذ ذاك بعتاب وجداني أو وخزة الضمير كقاطع الطريق . وقال تعالى : «ثم رددناه أسفل سافلين» . وحاشا لله أن يريد بعبده التسافل . انما ينسب هذا الرد اليه ، لانه تعالى هو الذي سن هذا القانون العام ، على حد قوله تعالى : « فلما زاغوا(١) أزاغ(٢) الله قلوبهم ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » (سورة الصف : ٦) .

وان علم النفس الحديث أو بالاحرى : علم آثار النفس يقول بانحراف الوجدان أو الضمير (Conscience) من وقت الى آخر ، حسب البيئة والاعمال التي يقوم بها الانسان ، فبعد ان كان يرى السرقة رذيلة ، يراها بعد ممارستها طويلا فضيلة ومكسبا . ونحن نقول عندما كان يرى الوجدان السرقة رذيلة كان الحاكم هو العقل الطبيعي وبعد ممارسته السرقة طويلاً انسحب العقل وحلّ محله الشيطان والنفس المطيعة له ، فصار يرى الرذيلة مكسبا وفضيلة .

وأنت أيها القاريء الكريم ، سترى في فصول هذا الكتاب بعض حقائق الاسلام : دين الحق والفطرة . فتتجلى لك عظمة الاسلام فتشكر الله

---

(١) عدلوا عن الحق ومالوا عنه .

(٢) تركهم وسوء اختيارهم .

اذ ذاك على ما منّ عليك وعلى البشر أجمع بهذا الدين الحنيف والشريعة السمحاء : دين الكمال البشري الخالد .

وأختم هذه المقدمة بخطبة لسيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومقتدانا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم . فقد خطب ذات يوم ، فقال :

« أيها الناس ، ان لكم معالم ، فانتهوا الى معالمكم . وان لكم نهاية ، فانتهوا الى نهايتكم . ألا ان المؤمن يعمل بين مخافتين : بين أجل قد مضى ، لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى ، لا يدري ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، وفي الشبيبة قبل الكبر ، وفي الحياة قبل الممات . فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتَب وما بعدها من دار الا الجنة والنار » .

وأورد أيضا هذين الحديثين ، ليعلم أن الاسلام ، (وان لم يعمل به المسلمون !) ، قد عالج القضايا الاقتصادية ، بشكل يؤدي الى تكامل النفس والسير في عوالم الكمال والتقرب منه تعالى . لا ضغط فيه ولا اجبار ، ليربي النفس الانسانية تربية تكاملية واقعية ويحقق لها (الاختيار) . ليستند الثواب والعقاب على اختيار الفرد .

قال رسول الله (ص) : « ان الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم » .

وعن أبي عبدالله (ع) : « أيما مؤمن حبس مؤمنا عن ماله وهو محتاج اليه ، لم يذقه الله من طعام الجنة ولا يشرب من الرحيق المختوم » .

أفى الله شك فاطر السماوات والارض

ان كان هناك شيء من أوضح الواضحات وأجلى البديهيات فهو : وجود الله تعالى ، الموجد لهذه النفوس والمعطي لها هذه القابليات الخارقة البديعة • فالطفل يشعر بهذا الشعور : وهو وجود موجد له وصانع ، لما يرى حوله • ذلك ، لان الله تعالى قد أوجد فيه قابلية التفكير • فهو اذا بلغ السنة الرابعة أو الخامسة ، يبدأ ، فيسأل : لماذا ؟ ولأي سبب ؟ من صنع هذا ؟ من أوجد هذا؟ ومِن أين وُجد ذاك ؟

ان الله تعالى قد أتم الحجة على عباده بأن غرس فيهم قابليـــة التفكير وارجاع الاشياء (المسببات) الى أسبابها • فالطفل على سذاجته وطبيعته الفطرية يعترف بوجود خالق له • كيف لا ، وهو يرى أن ليس له أن يتصرف في نفسه وهو فى غاية العجز وأنه لم يصنع عضوا من أعضاء بدنه • ثم ان الله قد جهز عقله بارجاع كل معلول الى علة • وكل مسبب الى سبب • وهو القـائل « فطـرة الله التي فطـــر الناس عليها » أي ان الانســان بالفطرة وبصورة طبيعية يعترف بوجود خالقه وموجده • ولذلك ، سُمّي دين الاسلام بدين الفطرة ، أي ان كل ما فيه فطري وضروري ، يعترف به العقل بصورة طبيعية ارتكازية • وان هـذا الاعتراف بوجود الخالق شيء مرتكز مـن قبل الله تعالى في عقل الانسان منذ نعومـة أظفاره • وعدا ذلك ، فان الله بقوله جل من قائل :

« واذ أخـذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذُريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذريةً من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون» (سورة الاعراف : ١٧٣) ، قد أتم الحجةعلىعباده

فحسب مفاد هذه الآية المنيفة : ان الله تعالى قد أحضر في عالم الذر كل

انسان ذكرا أو أنثى وجعلهم شهودا على أنفسهم وأخذ منهم الاعتراف على وجوده ووحدانيته • بقوله : ألستُ بربكم • فقالوا : بلى • شهدنا •

أي :أخرجهم الله من أصلابهم على نحو توالدهم نسلاً بعد نسل الى يوم القيامة ، فخرجوا كالذر ، فعرَّفهم نفسه وأراهم صنعه كما جاء فى بعض التفاسير • وانما فعل ربنا جل جلاله ذلك كي لا يقول قائل : انا كنا عن الاعتراف بوجود الله ووحدانيته غافلين ، أو يعتذر المعتذر عند الاشراك أو الكفر بالله وبما أنزل قائلا : انما أشرك آباؤنا » ، وأما نحن فـ (كنا ذريةً من بعدهم) ، فلا ينبغي أن نعاقَب ونهلك • قالوا ذلك اعتراضا على الله وختموا مقالهم بقولهم : « أفتهلكنا بما فعل المبطلون » • أي أن آباءنا قد أشركوا وذهبوا مذهبا باطلاً ، فما ذنبنا حتى نهلك ؟

وقد قال بعض المحققين : ان في قوله تعالى : «ألست بربكم» • اشارةً لطيفة : فانه سبحانه استنطقهم الاقرار منهم بربوبيته لا بوجوده ، تنبيها على أنهم كانوا مقرين بوجوده في بداية عقولهم وفطرة نفوسهم •

نعم ، ليس لأحد أن يعتذر بهذا العذر • وأن يقول : اني اتبعت دين أبي وأمي ، فصرت أدين بما دانوا أو أشركت « والعياذ بالله » ، لان ابي كان مشركا • او انكرت وجود الله ، لأن أبي كان منكرا لوجود الله • فان مخالفة الفطرة أمر يأتيه الفرد من تلقاء نفسه وسوء اختياره • بل لافساده سريرته وطبيعته الفطرية المتوجهة الى الحق والواقع بالفطرة •

انظروا ، ماذا يقول علي عليه السلام • انه صلوات الله عليه يقول : « ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله ومعه وبعده » • هذا غاية ما يبلغ الانسان من معرفة ربه ، اذا كان قد بلغ من طهارة النفس مرتبة من مراتب الكمال • ومن مثل علي (ع) في ترويض النفس وتكميلها • فقد كان يغمى عليه مرات في الليل من خوف الله تعالى •

ان الانسان ليعصي ربه باختياره وارادته ، دون أن يجبره على ذلك أحد • انه يفسق ويظلم ويبغي وينهب أموال الآخرين ويهتك أعراضهم • انه يكذب ، ويغتاب ، فيفسد فى الارض ، ثم لا يرتدع ولا يتوب ولا يندم• وقد يكون ما يدخل في جوفه ليس من مورد حلال طيب لسوء اختياره • كل هذه ترين على نفسه وقلبه وعقله « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ، فتفسد لوحة نفسه الصافية البيضاء • فتصبح مظلمة حالكة دكناء • لا تبصر الحق ولا تعي • فهذه الذنوب وتلكم المعاصي تمسي حجابا حاجزا دون رؤية الحق والواقع ، ثم ان الشيطان له بالمرصاد ، فيمنيه حسن العاقبة وأنه على صواب من أمره • انه تعالى يقول :

« ومن يَعشُ (١) عن ذكر الرحمن نقيض (٢) له شيطانا فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى اذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ، فبئس القرين »(٣) •

فالله تعالى يجعل لأولئك الذين تمادوا فيغيهم وبغيهم وظلمهم وفجورهم وفسوقهم ولم يعقبوها بتوبة وعمل صالح ، قرناء من الشياطين يصدونهم عن السبيل ، لانهم بلغوا مرتبة من التسافل لا يجدي معها أي توجيه وارشاد • ثم انه يطمئن الى ما هو عليه من مذهب أو مسلك جديد • فيزعم أنه قد بلغ مرتبة سامية من الهداية • وانه كان قبل هذا في ضلال وخرافة ، يحمل عقائد سخيفة ، أولدتها جهالة القرون الاولى وسذاجة عقولهم ، وها هو في عصر الذرة • حين أن برگسون (Bergson) الفيلسوف الفرنسي الموحّد الذي أتعب نفسه في العلوم الرياضية برهة من الزمن ، عندما ينظر الى تلك

---

(١) أي ومن يعم •
(٢) نقدر ونتح •
(٣) سورة الزخرف : ٣٧

المعادلات والخوارق في الذرة ، يقول : ان الله موجود في الذرة ، يبدعها ابداعا ، وينظمها تنظيما •

ف (بركسون) عندما يرى في الذرة حركات فى غاية الحكمة لا ربط لها بالصدفة • يذعن أن يدا ربانية موجودة في الذرة نفسها ، تعمل في هـذا الترتيب الحكيم •

نعم ، ان الاخلاق المذمومة ، الكذب والافك والآثام ، على اختلاف أنواعها ، تجعل للشيطان مجالاً للولوج في نفس هذا الانسان الذي سلك طريق الغواية والضلالة بأعماله • فتجعله منكرا للبديهيات وأولها : وجود الخالق جل جلاله •

انه تعالى يقول : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمعَ وأكثرهم كاذبون » • (سورة الشعراء) •

فاذا استولى عليه شيطانه يكون الهه هواه على حد قوله تعالى :

« أفرأيت من اتخذ الهه هواه ، أفأنت تكون عليـه وكيـلا » • (سورة الفرقان) •

نعم ، ان التمادي في الظلم يؤدي الى الظلمات ، فيزيح عن الانسان الاعتراف بأوضح البديهيات وهو وجود الله تعالى • « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضل الله: وما لهم من ناصرين» • (سورة الروم)

انه ينسى أن أبيقور (Epicure) وهو الفيلسوف ! اليوناني ، كان ينكر وجـود الخالق ولا يعترف بمـا وراء الطبيعـة وذلك قبل الميـلاد بـ (٣٠٠) سنة •

أسفا على الفلسفة حين يدعى منكر أوضح البديهيات فيلسوفا ! نعم ، كان لهذا الملحد : (أبيقور) أتباع ملاحدة منحرفون • كل ذلك لتبديلهم

الفطرة (لوحة نفسهم البيضاء) بآثام وأجرام وفسوق وفجور وشهوات ونزوات ، الى نفسية جاحدة جامحة ، لا ترى الحق ولاتبصره .

هذه حقيقة من أوضح الحقائق . فليجرب علماء النفس وليتتبعوا أحوال الناس ، كي يروا صدق ما أقول . فالاعمال الصالحة والاخلاق الفاضلة ومراعاة حقوق الآباء والامهات والارحام تؤدي الى الاعتراف بوجود الخالق والتوجه الى الدين الصحيح ، ذلك الدين الذي يدعمه العقل ولا يختلف معه في شيء ، ذلك الدين الذي لا يحيد عن المنطق الصحيح قيد شعرة . فان المسلك الذي يختاره الانسان أو الدين الذي يكون عليه انما يتناسب مع درجة طهارة نفسه وكمالها . ان الله تعالى يقول : « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءً يجزَ به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيرا(١) » . (سورة النساء) .

ان المنطق الانساني يبقى ثابتا في حل المعادلات الرياضية أو الفيزيائية أو المحاكمات الهندسية ... الخ أي في كل ما يتعلق بالامور المادية الحسية . ولكن هذا المنطق يحيد عن الطريق السوي والاعتراف بالله عند الزيغ والانحراف عن السبل القويمة واجتراح السيئات ، أي أن العقل الفطري يكون محجوبا عند اسوداد النفس وادلهمامها . فيقوم مقامه عقل شيطاني، يملي على هذا المسكين المنحرف ما يشاء : من إنكار الخالق وعدم بعث الانبياء وعدم الاهتمام بأمر الصلاة والصوم والزكاة والخمس . الى ما هنالك . وقد قال الله تعالى : فمن أظلم ممن ذُكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه ، انا جعلنا على قلوبهم أكِنة(٢) أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا(٣) وان تدعهم الى الهدى ، فلن يهتدوا اذن أبدا » .

---

(١) النقير هي النقرة التي فى ظهر النواة ويضرب به المثل فى الشيء الطفيف

(٢) أكنة : أغطية .

(٣) وقرا : صمما .

ان الله تعالى يتم الحجة على عباده بتذكيرهم بآياته وما يجب عليهم أن يقوموا به . ولكنهم يُعرضون منكرين . فيفسقون ويفسدون ، فتظلم نفوسهم وتدلهم قلوبهم فتكون اذ ذاك محجوبة عن رؤية الحق والواقع كأن عليها أغطية وكأن في آذانهم وقرا وصمما ، فلا يفقهون الحق ولا يرون الواقع البديهي . فلا تفيد فيهم الهداية مهما دعوا . فيأتي اذ ذاك ، دور الاستهزاء بالمقدسات ، وما أنزل الله من أوامر ونواهٍ . فقد قال تعالى :

« ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » . (الروم : ١٠) .

وما يأتيهم من نبيٍّ الا كانوا به يستهزئون » . (سورة الزخرف) .

قلنا : ان الانسان ليتسافل لسوء سريرته وفساد أعماله وعقوقه وشروره . الخ ... الى مرتبة يختم الله معها على سمعه وقلبه ويجعل على بصره غشاوة كي لا يبصر الحق . وذلك ، لانه أمسى جرثومة فساد لا تطهره الا نار جهنم . فاذا تدهور الانسان الى هذا الحضيض كان من المنكرين لوجود الخالق ، على أن له تعالى في كل شيء آية تدل على أنه واحد لا شريك له . لذلك يقول الله تعالى في سورة الجاثية :

« أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » .

نستجير بالله من هذه المرحلة أو الهوة السحيقة . نعم ، ان الله تعالى لا يضل فردا من الافراد الا بعد اتمام الحجة عليه بأنواع الهداية والارشاد بعقله الفطري أولا وبأنبياء ومرسلين وكتب سماوية ومرشدين ثانيا ، فان أبى وكفر واتبع الطرق الشيطانية من فساد وإفساد ، يسد اذ ذاك على نفسه أبواب الهداية على حد قوله تعالى : « وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون . ان الله بكل شيء عليم » . (سورة التوبة) .

أجل : ان الافك والاثم وارتكاب كل ما نهى الله تعالى عنه يؤدي الى الكبرياء ومن ثم الى الاستهزاء بالمقدسات على حد قوله تعالى :

ويل" لكل أفاك (١) أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم • واذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا اولئك لهم عذاب مهين » • (الجاثية : ٩) •

وقد يؤدي ذلك الى الاستنكاف من سماع ذكر الله وآياته على حد قوله تعالى : « انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون » •

فقد لاقيت شخصا في احدى العواصم الاسلامية قبل حوالي ثلاثين عاما كان يشكو أذان الصبح عند الفجر • كان يقول : ان هذا المؤذن في هـذا الجامع يوقظني بأذانه عند الفجر من نومي • أليس هناك رادع أو مانع ! نعم ، ان من يقضي ليله في سفاسف الامور ويسهر في أمور باطلة الى بعد منتصف الليل ، في أمور تذهب بدينه ودنياه ، يريد أن ينام عند الفجر الى بعد طلوع الشمس بساعات • وقد يأتي الى فراشه ثملا ، لا يعي ولا يشعر ، قد تلوثت نفسه بهذا المسكر الذي أقل ما يفعله بالشخص أنه يزيل ايمانه بالمقدسات ويجعله يستهزيء بها ، ففي الحديث « شارب الخمر كعابد وثن » • أي : أن المثابرة على استعمال المسكرات تؤدي الى انكار المقدسات ، فيترك شيئا فشيئا عبادة الخالق جل جلاله ويؤول أمره الى عبادة المادة وحب الدنيا الفانية ، فيكون كمن عبد الاوثان • أي يرجع بمدمن الخمر الى جاهلية جهلاء • « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون » (٢) • نعم ، قد يؤدي بهؤلاء الاشخاص الحال : أنهم يمتعضون من سماع ذكر الله وآياته • فيكونون مصداق هذه الآية الكريمة : « واذا ذكر الله وحده اشمأزت

---

(١) كذاب • (٢) السجدة : ١٨ •

قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون» • (سورة الزمر : ٤٧) •

ان الله تعالى كما فى الآية الآتية يحصر الاعتبار بالآيات والاتعاظ بعصارات العلوم الطبيعية وما خلق الله في هذا الكون من عجائب وما وضع من دساتير وقوانين ، في من كان متصفا بالصبر والشكر • انه يقول :

« ألم ترَ أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته • ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » (١) •

وقد جاء في الحديث : « الايمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر » • ولا يعلم معنى هذا الحديث وأثره في تكامل النفس الا من جرب ذلك وأخذ يسير في ميادين تطهير النفس وتزكيتها • ولكن من تسافلت نفسه وتلوثت بأنواع المظالم والموبقات يرى الحق باطلا والباطل حقا • فيتذرع تبريرا لموقفه بالمنطق الحديث ! ظنا منه أن الدساتير الاخلاقية تتغير حسب ميول الناس وشهواتهم • فاذا تسافلوا ، فما هم عليه من التسافل في الاخلاق هو المنطق ! لكنه : حديث وجديد ! لزعمهم ان لكل زمان منطقا ! ان هذا النوع من الاعتقاد ناشيء عن الاعتقاد بأن الله تعالى لم يرسل نبيا لتكامل الانسان ورفع نواقصه ، وأن البشر يسير حسبما يحب ويريد • فلا تسافل ولا تكامل ! بل التكامل ما عليه الناس فى كل وقت من عادات مهما كانت متسافلة في متن الواقع •

هناك فرق بين المنطق (Logique) وما عليه الناس من عادات وأفكار مملوءة بالشهوات : (Mentalité) أو الذهنية • فان المنطق يجري في حل المسائل الهندسية والفيزيائية والكيميائية ، وقد أودعه الله تعالى في الانسان تفضلاً منه ورحمة ولا تبديل يعتريه • ولكن العادات والذهنية الحاكمة

(١) سورة لقمان آية : ٣٠

وما عليه الناس من أخلاق تتسافل وتتكامل : وتتغير ، فلا يجوز أن يعبر عنها بالمنطق الحديث والمنطق منه براء .

ولقد سمعت وأنا أدرس في الجامعة من أحد المهوسين المدافعين عن أخلاق الغرب مدحا كثيرا ، لاسيما عن الحرية التي شاهدها في حياتهم . وذكر لي شاهدا على صحة قوله : أن رجلا من رجال الغرب كان يفسق في غرفته ، فاستأذن عليه صديق له ، فأذن له بالدخول . ودخل ، فلم يكترث ولم يرتبك كأنه يقوم بعمل طبيعي ، ذلك لان الفسق في نظره عمل طبيعي : أهذه حرية أم سلوك بهيمي ؟!

ان سنن الكمال ثابتة لا تغير فيها حسب الزمان والمكان . سواء ارتضى الغربي أو لم يرتضِ . فليس هناك مجال للقول بالمنطق الحديث والمنطق القديم . فلا قديم ولا حديث . والحق ثابت على لسان الانبياء (ع) .

«يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » . (سورة الاعراف : ٢٥).

فطوبى لنفوس تقيدت بالفضيلة وسارت بارادة وعزم رصينين في ساحات الكمال لتصل الى الغاية التي قد خلقت لاجلها ولم تتأثر بزخارف الغرب ومدنيتها المادية الشهوانية ، فزادت ايمانا بخالقها وبارئها .

***

وكم قرأنا فى تاريخ الاسلام : أن أناسا أسلموا بمجرد سماع آيات الله البينات : القرآن الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ، فقالوا: ما هذا بكلام الآدميين ، وانما هو كلام سماوي أنزله رب العالمين . كل ذلك لصفاء في نفوسهم وفطرة لم تتلوث بالظلم والموبقات .

وهذا خير دليل على أن الانسان لو خلي ونفسه ولم يلوث نفسه بالجرائم والموبقات يعترف بخالقه وبكل ما أنزل الله ، بصورة فطرية . ويرى ذلك من أوضح الواضحات ومن البديهيات ، ولا يشك في ذلك قيد شعرة ، على حد

قوله تعالى : « أفي الله شك" فاطر السموات والارض» • الا ان الذنوب وعلى رأسها الخمور تؤدي به الى هذا الجحود أي مخالفة الفطرة • فقد جاء في الحديث القدسي : « وكل عبادي خلقتهم حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروا بأن يشركوا بي غيري » •

وقد جاء في بعض ما نشر عن اسباب استيلاء الغربيين على الاندلس : أن كنيسة روما كانت مضطربة أيما اضطراب من جراء دخول المسلمين الاندلس وانتشار الاسلام في تلك الاصقاع • فكانت تعقد الجلسات والاجتماعات لمعالجة هذا الامر • حتى استقر رأيهم على أن يرسلوا كميات وافرة من الخمور بصورة سرية الى الاندلس وأن يؤسسوا تحت الارض معامل سرية لاستحصال الخمر ، فيقدموا للمسلمين ولا سيما رجال الحكم الخمرة بثمن بخس أو متبرعين • فانتشرت الخمرة بين المسلمين ، لا سيما أصحاب النفوذ والثراء ، وانتشر نتيجة لذلك ، الترف والفساد بأنواعه ، فضعفت العقيدة وذهبت الغيرة والتضحية في صيانة الدين وصيانة وطن المسلمين • وكانت نتيجة ذلك أن ارتحل الدين الاسلامي من اسبانيا وأصبح في خبر كان •

نعم ، ان الاعتراف بوجود الخالق لمن أوضح الواضحات وهو من أشكل المشاكل وأوعرها لو تدنست النفس بفجورها وخمورها ، بغيها وظلمها •

***

أنظروا الى دكارت (René Descartes) وهو الفيلسوف الفرنسي الرياضي (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م) كيف توصل الى وجود الخالق جل جلاله ، لعدم تلويثه نفسه بما يبعدها عن الاعتراف بأوضح الواضحات •

انه شك أولا فى وجود نفسه ، فقال : « أنا أفكر ، اذن أنا موجود » • ثم قال : ان لديّ فكرة الكمال وأنا غير كامل ، فلو كنت مخلوقا من قبل

ذاتي لكنت خلقت ذاتي كاملا ، لانني أمتلك فكرة الكمال ، ولان اعطائي لذاتي ضروب الكمال ، سيكون ولا ريب ، أقل صعوبة من أن أجذب نفسي من العدم ، وبما أني غير كامل ، فأنا اذن ، لم أخلق نفسي بنفسي » .

يقول علي عليه السلام عن الله تعالى : « شيء لا كالاشياء » ومعنى ذلك أن الله تعالى لا يشبه ما نراه من الاشياء أو نتصورها .

يستنتج من كلام علي (ع) ما يلي : أنا محدود ، فعليه يجب أن يكون الله تعالى غير محدود . ذلك لان المحدودية قيد ولابد أن يكون هناك من يقوم بهذا التحديد . والله جلّ من أن يحده أحد أو يحده شيء وهو خالق الاشياء وسابق عليها (١) . ثم انّ علمي محدود . وعلمي من الله تعالى، ولولا اعطاء الله اياي القوى العقلية والفكرية لما علمت . فيجب ان يكون علم الله تعالى غير محدود . لانه الكمال المطلق . ولا يشبهه شيء . وهكذا نقول في قدرة الله تعالى : ان قدرتي محدودة ، اذن قدرة الله تعالى غير محدودة ولا تتناهى . أنا أبصر بعين والله تعالى هو معطي العين وهو لا يشبهني في شيء و لايحتاج الى آلة لانه هو خالق الآلات ، اذن ، لا يحتاج الله تعالى في الابصار الى عين (أي الى آلة) . وقد جاء في الادعية الرجبية : « يا من لا يُنعت بتمثيل ، ولا يمثل بنظير ، ولا يُغلب بظهير » .

ويستحيل على العقل أن يعترف للخالق بخالق آخر ، اذ لابد من خالق أزلي لم يُخلق ، لا يحده زمان وهو خالق الزمان والمكان وموجدهما ، كان

---

(١) وقد جاء فى دعاء يقرأ فى كل يوم من ايام رجب : « يا موصوفا بغير كنه ، ومعروفا بغير شبه ، حاد كل محدود ، وشاهد كل مشهود ، وموجد كل موجود ، ومحصي كل معدود ، وفاقد كل مفقود ، ليس دونك من معبود ، أهل الكبرياء والجود ، يا من لا يكيف بكيف ، ولا يؤين بأين ، يا محتجبا عن كل عين ، يا ديموم ،يا قيوم وعالم كل معلوم » .

قبل ان يكون شيء غيره .

قيل لعلي بن موسى الرضاعليه السلام وهو الامام الثامن من الأئمة الاثنى عشر المعصومين (ع) : يا ابن رسـول الله ، ما الدليل على حدوث العالم ؟ قال : « أنت لم تكن ثم كنت ،وقد علمت انك لم تكوّن نفسك ، ولا كونك من هو مثلك.وقال عليه السلام «اني لما نظرت الى جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه ، وجر المنفعة اليه ، علمت أن لهذا البنيان بانيا بناه ، فأقررت به مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وانشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات ، علمت أن لهذا مقدرا منشئا » .

ان هذا المادي المتطفل على العلم ، والعلم منه براء ، يريد أن يحيط بالله الذي لا يحده شيء ، يريد من شخصيته المحدودة في كل قابلية وفي كل ملكة ، المحدودة في الجسم والنفس . يريد منها أن تحيط بخالقها الذي لا تتناهى كل صفة من صفاته التي هي نفس ذاته .

ما أعظم هذه الفقرات من دعاء يقرأ فى كل يوم من أيام رجب : « يا من سما في العز ففات خواطر الابصار ، ودنا في اللطف فجاز هواجس الافكار ، يا من توحد بالملك فلا ند (١) له في ملكوت سلطانه ، وتفرد بالآلاء والكبرياء فلا ضد له في جبروت شأنه . يا من حارت في كبرياء هيبته دقائق لطائف الاوهام ، وانحسرت دون ادراك عظمته خطائف أبصار الانام » .

أترى أن ذرات التباشير على السبورة تشعر بتشكيلات أعضاء من رسـمها على السبورة ، تشعر بعقل الراسم ونفسه ومحاكماته ، هل لهذه الذرات (ذرات التباشير) أن تحيط براسمها ومصورها . كلا ... على أن

---

(١) الند : المثل ، جمعه : أنداد .

الراسم على السبورة لم يكن قد أوجد ذرات التباشير من العدم والموجد لها غيره وهو الله تعالى ، بل رتب الذرات أو الاجزاء بشكل آخر • (مع عدم جواز التشبيه) • فكيف بهذا الانسان المغرور ، يريد ان يحيط بخالقه الذي أوجده من العدم • كان نطفة ، فعلقة ، فمضغة ••• الخ • وقد سار في أدوار التكامل التكويني مراحل عديدة جدا كما رسمها الله ، وقف على بعضها العلم الحديث •

ان الاعتقاد بوجود الخالق أمر ارتكازي في الانسان • ولكن هـــذا الانسان بارتكابه المعاصي وباتباعه أوامر الشيطان يحيد عن الفطرة ، فينكر خالقه ويتخذ لنفسه مما صنع بيده آلهة ، فيعبد الأوثان والحيوانات الى ماهنالك •

لذا يسأل أتباع موسى (ع) نبيهم موسى (ع) أن يجعل لهم الها !

«وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون[1] على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال انكم قـــوم تجهلون • انهؤلاء متبّر (٢) ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون» •(سورة الاعراف:١٣٤)

سئل أعرابي عن الدليل على وجود الصانع (الله) ، فقال : « البعرة تدل على البعير ، وآثار الاقدام تدل على المسير ، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا يدلان على الصانع الخبير » •

وسئلت عجوز عن الدليل على وجود الصانع ، فقالت : دولابي هذا ، ان حركته تحرك وان لم أحركه سكن •

كل ذلك لان فكرة الاعتراف بوجود الخالق مرتكزة في النفس الانسانية من القديم • أي أن الله تعالى أودع هذه الفكرة فى النفس الانسانية عنـــد خلقه اياها • فهي ان لم تتلوث تعترف لا محالة بخالقها بالفطرة • وان هذا

---

(١) يعكفون : يقيمون ويلازمون • (٢) متبر : مدمر ومهدم •

الاعتراف أمر فطري خارج عن ارجاع المعلول الى العلة . على أن الطرق لمعرفة الخالق كثيرة جدا وأهمها ارجاع المعلول الى العلة . فالانسان المفكر (غير الملوّث فطرته) لا بد وانه يؤمن بموجد أزلي لم يوجده شيء وهو الله الكامل على الاطلاق . لا يشابه ما خلق في شيء من الاشياء .

ولولا ايداع الله تعالى في العقل الانساني ملكة البحث عن علة الاشياء لصعب علينا السير في ساحات العلم . ولكن هذا البشر العادي عندما يلوث نفسه بالمعاصي والموبقات ، يحجب عقله الفطري الذي يعترف بعظمة خالقه وكمال صنعه بصورة طبيعية ، فلا تفيده الادلة ولا ربط المعلولات بعللها . على حد قوله تعالى : « نسوا الله فنسيهم » (سورة التوبة : ٦٨) . وقوله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » (سورة الكهف : ٢٨) .

وقد يسأل بعضهم : لماذا يسد الله تعالى على بعض عباده أبواب الهداية . ذلك ، لان نفوس هؤلاء تبلغ من التسافل والانحطاط مرتبة لا ينفع معها أي ارشاد ووعظ . فتستحق الخذلان ، فتسد عليهم أبواب الهداية . ان الله تعالى يقول : « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه وانهم لكاذبون » . (سورة الانعام : ٢٨) .

ومع الاسف ، ان طبقة الضالين والمنحرفين هم أكثر عددا على وجه البسيطة من المؤمنين بالله تعالى . فانه تعالى يقول : « وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون[1] » . « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » . (سورة يوسف : ١٠٣) .

أسفا لبعض هؤلاء الذين قد بلغوا مرتبة مرموقة من ثقافة العصر ، ثم هم ينكرون أوضح ما في الوجود ، ألا وهو الله تعالى ، لادلهـــام في النفس

(١) الانعام : ١١٧ ... (يخرصون : يكذبون) .

وظلمات بعضها فوق بعض • ولانهم (مع مزيد الاسف) قد بلغوا مرتبة من تسافل النفس من جراء ما ارتكبوا من موبقات حتى صاروا لا يشعرون بما هم فيه من انحطاط نفسي مرير • « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون • وأملي لهم ان كيدي متين » • (سورة الاعراف : ١٨٢)•

* * *

يقال عن بعض الفضلاء أنه لما أراد أن يكتب رسالة في اثبات وجود الخالق (واجب الوجود) ، قالت له زوجته : ماذا تريد أن تكتب ؟ فقال : أريد أن أكتب رسالة في اثبات الخالق • فقالت له : « أفى الله شك فاطر السموات والارض » • فعدل عن تأليف ما أراد •

نعم ، ان نفس هذه الامرأة كانت صافية نقية ، لم تلوث بكثير من المعاصي والآثام • ومن أين كانت تأتي الذنوب الى بنات كن يتربين تربية دينية في البيوت ثم ينتقلن الى بيوت أزواجهن دون أن يشاهدن رجالاً آخرين • فهل كان يأتيهن الذنوب من جراء التبرج ومخالطة الشبان أم من جراء الحضور في مجالس القبول مع ما هنالك من ميسر ورقص واستماع الى الاغاني المحرمة ••• أم من جراء الحضور في مجالس اللهو واللعب •أممن جراء الاتصال بالرجال في حدائق عامة حتى الصباح حيث تطفأ المصابيح ! لذلك كانت تبقى النفس صافية لا يتخللها رجس يزيح الانسان عن الاعتراف بهذا الامر البديهي وهو وجود الخالق جل جلاله • ولا شيء ككبائر الذنوب يزيح الفطرة عن عملها ، ويبعد العقل عن الاعتراف بأوضح الواضحات وهو الله تعالى •

أجل لو تلوثت النفس الانسانية ومرضت بالذنوب ، أخذت تشك في أوضح الواضحات وتريد دليلا على وجود الخالق وقد لا يفيدها أي دليل

وذلك لظلمات في النفس وذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها . ان الله تعالى يقول : « ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين » . وقد سد المفسد على نفسه باب الايمان بالله ورسله . « واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون » . (سورة التوبة : ٩/١٣٥) . ويؤيد الآية المتقدمة قوله تعالى : « أوَ لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون » . (سورة التوبة : ٩/١٣٦) . (يُفتَنون : يُبتلون) .

وانما سمي الخالق تعالى بواجب الوجود ، اذ لا يمكن تصور وجود هذه المخلوقات بهذه الخواص العجيبة والانظمة المدهشة والقوانين المتقنة والمعادلات الرصينة والدقة المتناهية وارتباط بعضها ببعض الا بتدبير خالق واجب وجوده أزلي سرمدي لم يوجده غيره ، وهو واجب الوجود جل جلاله والا لما وجد كل شيء .

***

يقال : ان ملكا من الملوك كان يشك في وجود الصانع وهو الله تعالى . وكان قد تنبه الى ذلك وزيره . فأراد أن يزيل عن الملك ما يختلج في صدره من شك . فأمر بصورة سرية ببناء قصور عالية واجراء مياه جارية واحداث بساتين عامرة وحدائق غناء في مفازة من الارض . ولم يُعلم الملك بذلك . ثم ذهب الوزير بالملك الى تلك المفازة على سبيل المرور ببلدةما ، فلما رأى الملك ذلك سأل الوزير قائلا : من الذي بنى هذه القصور ومن هو الذي نظم هذه الحدائق ؟ فأجاب الوزير قائلا : قد حدث كل ذلك من تلقاء نفسه ! وليس لها بانٍ ولا صانع !

غضب الملك وقال بامتعاض : أفيمكن ذلك ؟ أفيجوز أن تنظم هذه

الحدائق بهذا النظام البديع وتبنى هذه الغرف بهذا الترتيب الجميل دون أن يكون هناك منظم ومرتب ؟. ما هذا الجواب السخيف ؟ فأجابه الوزير ، قائلاً : إن كان ممتنعاً وجود هذه القصور والحدائق دون بانٍ لها وصانع ومرتّب ، فكيف يصحّ وجود هذه المخلوقات المتنوعة مع ما فيها من جمال وكمال وترتيب ، وهذه السماوات والأرض بهذا النظام البديع والدقة المتناهية دونما صانع وخالق قدير متعالٍ ؟ فتنبه الملك وأيقن بالحق والواقع وزال شكه.

ان التصديق بوجود الخالق أمر فطري . ولا يعتريه الشك أو لا يزيحه الا الكبائر من الآثام والذنوب وقد قال تعالى : « فأقِم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » [1] . فقد ورد في تفسيرها : أنهم فطروا على المعرفة أي على معرفة الخالق جل جلاله . وقال رسول الله (ص) : كل مولود يولد على الفطرة . ولذلك ترى الناس عند اشتداد الأمور وتعسُّر الأحوال وفي الأهوال يتوجهو ن الى مَن خلقهم ، يرجون منه كشف ما توجه اليهم من النوائب والبلايا بصورة فطرية . لأنهم مجبولون على ذلك .

كم رأينا من الطيارين عند حدوث عطل في طياراتهم وعلمهم بالسقوط لا محالة ، تضرعوا الى الله تعالى وتوسلوا به بإخلاص لا مزيد عليه . فنجوا بشكل خارق لم يكن بالحسبان . نقرأ ذلك في كثير من المجلات . ويشهد لذلك قوله تعالى :

« ولئن سألتهم مَن خلق السموات والأرض ليقولنّ الله » . وفي آية أخرى : « قل أرأيتم [2] إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، اغيرَ الله

---

(١) سورة الروم : ٣١ .

(٢) أرأيتم : أي أخبروني .

تدعون إن كنتم صادقين ، بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون اليه إن شاء ، وتنسون ما تشركون » ٦/٤١

وفي آية أخرى : « هـو الذي يسيِّركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك (١) وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم • دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لَنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم اذا هم يبغون (٢) في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » • (سورة يونس : ٢١) •

وكم رأينا مصداق هذه الآية في الحرب العالمية الثانية • حتى الملحدين الذين كانوا يتجاهرون بالالحاد والزندقة والمسك المادي ويدعون اليه ، كانوا يطلبون الى الناس والى رجال الدين : أن يتوسلوا بالله تبارك وتعالى في المعابد والكنائس ، ليمنَّ الله عليهم بالنصر والتفريج • وقد فعل سبحانه • ولكنهم رجعوا بعد ذلك الى طيشهم وخمورهم وفجورهم وبغيهم ! ونشر الالحاد والزندقة بشتى الطرق والأساليب • وأخذوا يتذرَّعون بما وجدوا (على زعمهم !) من قوانين غير ثابتة في حياة النبات والحيوان في سيرهما التكاملي ! مطبقين اياها خطأً على الحياة الاجتماعية للانسان ، ظناً منهم أنهم قد توصلوا الى فلسفة الحياة !

ـ لهذا آمنت بالله (٣) ـ

يقول الدكتور : ا • ج • كرونين « كنت ملحداً عندما كنت أدرس الطب في جامعة لندن ، وعندما كنت أقف أمام جسم انساني في غرفة التشريح ، أحس بأنني أمام جهاز شديد التعقيد ، وفي الوقت نفسه ، كنت أفكر فى الروح الخالدة فى الله وكانت ابتسامة الاستخفاف والسخرية ترتسم على وجهي ،

---

(١) الفلك : السفن . (٢) يبغون : يظلمون .

(٣) نقل هذا المقال من مجلة المختار لشهر كانون الثاني ١٩٥٦ لأهميته .

وكنت أرى في ذلك كله أسطورة قديمة بالية . وكان يشاركني في هـذا الشعور أكثر طلاب الجامعة » .

« بقيت هكذا الى أن أصبحت طبيباً وسافرت الى منطقة المناجم بجنوب (ويلز) ، وصرت أجدني أنفذ في مملكة الروح الانسانية . لقد شاهدت معجزة ميلاد الانسان وجلست الى الموتى واستمعت في الظلام الى رفرفة أجنحة الموت فتخلّى عني غروري ، فصرت أؤمن بالله » .

« ورأيت العمال كلهم يؤمنون بالله . ولا يمضي اسبوع واحد دون أن يقع هناك ما يؤيد إيمانهم بالله وتوكلهم عليه » .

« لن أنسى ذلك اليوم ما حييت . فقد حدث انفجار مروع أدى الى سقوط المنجم على ١٤ عاملاً ، وبقي هؤلاء العمال مدفونين تحت التراب خمسة أيام كاملة . وظلت القرية تصلي لله لأجلهم ، وأخيراً استطاع رجال الاسعاف أن يشقوا طريقهم الى المنكوبين واستمعوا الى دعاء خافت ينبعث من الأنقاض: انه صوت العمال ، يترنمون بانشودة : « يا أرحم الراحمين » .

« أخرجوا أحياءً من تحت الأنقاض وهم منهوكو القوى والتفّ حولهم ألوف من العمال وراحوا يرددون : « يا أرحم الراحمين في كل حين » .

« وعندما وقفت الى جوار هؤلاء المنكوبين ، اجتاحتني هـذه الموجة من الدعاء والصلوات . انها دليل آخر على أن ايمان الانسان ، قد تجاوز كل كلام وكل تعبير » .

« وبعد سنة انتقلت للعمل في منطقة اخرى ، والتقيت بممرضة كانت تشتغل ليلَ نهار في التمريض والإسعاف مدة عشرين عاماً وهي تدور مسافة طولها عشرة أميال يومياً بلا توقف للقيام بما هو فوق واجبها . فقلت لماذا لا تطلبين زيادة لراتبك ؟ فانك تستحقين أكثر مما يعطى لك . — فقالت بعد صمت يسير : اذا كان الله يعلم أنني أستحق هذه الزيادة ، فهـذا كل ما أطمع فيه » .

« حادث المنجم وايمان هذه الممرضة الساذجة . كل ذلك قد أخرجني من عذاب الشك والقلق وأوقفني على أرض ثابتة عالية من الايمان » .

« نحن لا نستطيع أن نبرهن على وجود الله كما نبرهن على المعادلات الرياضية . ولكن اذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه ودقته وضخامته وروعته فلا بد أن نفكر في إله خالق . مَن ذا الذي يتطلع الى السماء فى ليلة صيف صافية ويرى النجوم اللانهائية وهي تتألق بعيداً ، ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله ، لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء » .

« وعالمنا هذا وهو يدور في الفضاء في حركة دقيقة منظمة وفي فصول متتابعة ، هذا العالم لا يمكن أن يكون مجرد كرة من المادة خالية من الدلالة، قد نزعت من الشمس والقيت في الفضاء ، بلا معنى ولا سبب » .

« اطرح عن رأسك ، ان شئت ، كل ما قالته الكتب المقدسة عن الله وعن العالم ، وان الله قد سوى العالم بيده في ستة أيام ، واقبل ، ان شئت ، نظرية التطور كاملة ، وتتبَّع الخليقة منقوشة على الحفريات ، وتتبع سير الأنواع ، وترقيها حتى بلغت صورة الانسان ، واقبل — ان شئت — كل النظريات العلمية التي قامت عليها ، فانك ستواجه لغزاً غامضاً وسراً عميقاً ، لا يمكن أن تقول ان هذا كله قد صدر من العدم ، فلا شيء يخرج من لا شيء » .

« ومنذ بضع سنوات ، عندما كنت في لندن نظمت نادياً للشبان ودعوت اليه أحد المشتغلين بعلم الحياة ، ليلقي محاضرة للأعضاء . وقد اختار هذا الباحث الممتاز موضوع محاضرته عن « بداية عالمنا » وتحدث بأسلوب العالِم الملحِد ! وجعل يصف عصور «الآيون» السابقة على التاريخ . وكيف تحولت الأرض على مرِّ هذه العصور من الغازية الى السيولة ، الى الصلابة ، وكيف أن الأرض كانت مطمورة في مياه المحيطات ، وكيف أن الأمواج تعلو وتهبط

على القشرة الأرضية ، وكيف أن القشرة الأرضية قد تكونت نتيجة تفاعلات طبيعية كيميائية . وكيف أن هـذا التفاعل مع الزبد قـد أدى الى تكوين سطح الأرض التي نعيش عليها ، ومن هـذه الارض ظهرت الحياة الاولى على هيئة پروتوپلازم » .

« وعندما فرغ المتحدث من محاضرته ، صفق له الحاضرون تصفيقاً مهذباً ، ولكن تلميذاً وقف فى صورة عصبية وسأله : لا تؤاخذني يا سيدي ، لقد حدثتنا عن الامواج الهائلة التي كانت تضرب الشواطيء ، ولكن كيف وجدت هذه المياه كلها أول الامر ؟ » .

« وساد صمت كله حرج واحمر وجه الاستاذ المحاضر ، وقبل أن يجيب بكلمة واحدة ، اغرق الموجودون في الضحك . لقد انهـار منطقه الحديدي بسؤال من تلميذ صغير » .

« والحقيقة هي أنه لا يوجد في كل هذه الابحاث العلمية عن الطبيعة والحكمة منها والعمليات المروعة الرائعة لتي تجري فيها . أساس واحد سليم لإنكار وجود الله بل ان الانسان ليجد نفسه مضطراً الى القول بأن هناك عقلا كبيراً وراء هذا الخلق والحياة وقوانين الطبيعة » .

« والعقبة الكبرى التي تقف في وجه الايمان ، أمام أناس كثيرين ،هي وجود الشر والألم بين الناس . كيف يمكن الإيمان بالله مع وجود العواصف المهلكة والفيضانات المغرقة ، والمجاعات والاوبئة والزلازل والبرق المحرق ، والرعد الصاعق والموت في أقسى صورة ..؟ إن هذه الأشياء لا تدلّ على وجود إله كامل خير ! [1] » .

---

(١) لم يبلغ (كرونين) ما قاله سيد المرسلين محمد (ص) : « ان الله اذا احب عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه» وفى هذا تصفية للنفوس الملوثة وتزكية للارواح المدنسة . فالدنيا مدرسة تكامل وتطهير وما يبتلى به الانسان من فقر ومرض وفقد الأولاد وزلازل وحريق ورعد وصواعق انما هي مواد وضعت من جانب الله ليمارسها الانسان فى هذه المدرسة الكونية ، يطهر بها نفسه فيكفر عن ذنوبه

« ومما يؤسف له حقاً : أننا في هذا العصر المادي لا يشغلنا الا البحث عن اللذة . ونسى أن اللذة ليست هي كل شيء ، وليست نهاية كل شيء في هذا الوجود . فاذا نحن آمنا بالله وآمنا بخلود الروح الانسانية ، فاننا ندرك أن حياتنا ليست تفاهة عابرة ، وانما هي تجربة واستعداد وتهيؤ . وان حياتنا ليست الا لحظة من اللحظات الابدية . وامتحاناً لصبرنا ، عندما يجيء ذلك اليوم الذي نقف فيه على أعتاب الآخرة » .

« وحين نرضى عن الشقاء والألم واليأس والاسف ، فاننا نخضع لإرادة الله ، وهذا الرضاء والايمان المشرق ، هو الذي يرينا الله . فان العقل مهما تبلغ قدرته ، لا يبلغ الا قشرة واهنة من الابدية . والله يتجلّى للقلب لا للعقل » .

« حدث ، بعد ان زرت معبداً في ايطاليا ورأيت فيه لوحات فنية رائعة تمجد الله . وبعد أن تجولت في حديقة الدير ، أن رأيت عجوزاً قد أقعده الروماتيزم يعمل فى هذه الارض منذ ٣٠ عاماً ، ورحت أسأله عن حياته ، فقال وهو يشير الى الحديقة : « انني أرى أشجار الكريز وهي براعم ، ثم أرى أزهارها وبعد ذلك ثمارها ، فيزداد إيماني بالله » .

وقابلت ذات مرة رجلا في شمال انجلترا ، كان يفخر طول حياته بأنه

وينال بها درجات فى الصبر والرضاء والتسليم . ويقول الله تعالى « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » . الدنيا دار تكامل وتصفية . ولا يتكامل الانسان الا بعبادة ربه ، وبالعبادة يزداد معرفة بالله . وان الاعمال الصالحات من اهم مراتب العبادة . وقد قال الله تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » . والعبودية . (كما جاء فى الحديث) تتجلى فى خمسة اشياء : (١) خلاء البطن . (٢) تلاوة القرآن . (٣) صلاة الليل « ٤ » التضرع عند الصبح . (٥) البكاء من خشية الله . فمن أراد أن يزداد ايمانه وتصفو نفسه ، فتنكشف له حقيقة الحياة وفلسفة النوائب فليطبق ما يتحقق به العبودية ، ليرى كيف تتقشع عنه الشبهات ويدخل فى عالم من الطمأنينة جديد . « ألا بذكر الله تطمئن القلوب ! » .

رجل ملحد ! وحرم ابنته الوحيدة من الميراث • لأنها تزوجت مدرساً شديد الايمان بالله • وفي نهاية حياته أصيب بمرض عضال • فحاول جهده أن يبرر موقفه بالنسبة لزوج ابنته ••• وكان زوج ابنته يستدرجه بين الحين والحين الى مناقشة تنتهي عادة بقوله : « لا تخدع نفسك ، انني لست نادماً على شيء ، فما زلت أكفر بالله » •

« وفي يوم ردت عليه ابنته قائلة :

— « ولكن الله يا أبي يؤمن بك ! » •

وأمام هذه العبارة سقطت آخر مقاومة لهذا الرجل الملحد » •

« فمهما نفكر ونفعل ، فنحن من صنع الله ، وكلمة واحـدة تكفي لشكره وحمده » •

« وانا لنلمح خلال القرون التي لا تحصى ، عدداً لا نهائياً من الناس قد عاشوا حياتهم نبيلة طيبة ، وكان الله مثلهم الأعلى • لقد أعطى الخائف شجاعة ومنح الضعيف قوة ، وأنزل السكينة على قلوب الحائرين ، وملأ بالأمل قلوب البائسين ، انه في كل واحد منا ، اذا نحن بحثنا عنه » •

لقائل أن يقول : لماذا كان (ا • ج • كرونين) يسخر من الاعتقاد بالله عندما كان فى الجامعة • وما هي العوامل التي جعلته يؤمن بالله ايماناً رصيناً بعد تعيينه في منطقة المناجم • فإن ما شاهده من مناظر وحوادث تشاهد من قبل كثيرين من الملاحدة ولا تؤثر إلا في القليل منهم جداً •

ان للايمان بالله عواملَ شتى • منهـا طهارة المأكل والمشرب ، البر بالوالدين ، صلة الرحم ، العمل الصالح لوجه الله ، اجتناب الفسوق والخيانة ، والانفاق وأظنه أهمها : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون • اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » [1] •

---

(١) سورة : المؤمنون : الآية : ٦١ •

ولا شك أن الشاب ينهمك في ملذات غير مشروعة في شبابه الا من عصم الله • وان حياة الجامعة واختلاط الجنسين حافزان قويان للولوج في ما نهى الله عنه ، ثم ان الغرور الذي يصيب الطالب الجامعي لثقافة ينالها يجعله لا يبالي بوالديه وأرحامه ، وهذه وغيرها أسباب حقيقية تؤدي الى اسوداد القلب وظلمة النفس وتكون حجاباً حاجزاً دون رؤية الحق • انه تعالى يقول : « فلا تطع المكذبين ، ودّوا لو تدهن فيدهنون • ولا تطع كل حلاف مهين ، همّاز مشّاء بنميم • منّاع للخير معتد أثيم ، عُتلّ بعد ذلك زنيم • أن كان ذا مال وبنين ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » • (أساطير : خرافات) •

ولا ريب أن النفس الانسانية في عنفوان الشباب طاغية باغية • منقادة للشيطان الذي يزين له عمله ، أمارة بالسوء أكثر من وقت آخر الا من عصم الله تعالى ، وان النفس كثيراً ما تميل عن الطاعة لما هنالك من مشقة وهكذا شأن الدواء • وتميل الى المعصية ، لما هنالك من لذة ورغبة ، كمريض يتناول ما يضره لما فيه من لذة • لذلك جاء في الحديث : « حُفّت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » • وقول علي (ع) : « واعلموا أنه ما من طاعة لله شيء إلا ويأتي في كره • وما من معصية لله شيء الا ويأتي في شهوة • فرحم الله رجلاً نزع شهوته وقمع هوى نفسه » • ولا مراء أن الفسق يؤدي الى ظلمات في النفس ، فشكوك ، فجحود ، فالحاد ! على حد قوله تعالى : ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون » • (سورة البقرة : ٩٨) •

لكن الدكتور عندما انتقل الى معالجة المرضى في منطقة المناجم صار بعيداً عن تلك الحوافز التي تسوّد القلب ، وأخذ يقوم بمعالجة المرضى وأعمال أخرى صالحات ، مما جعل تلك النقاط السوداء التي تلبّدت على قلبه تزول رويداً رويداً ، فصار يؤمن بالله تعالى • « للذين أحسنوا ، الحسنى وزيادة » • (سورة يونس : ٢٧) •

لذلك يعمل الدين الاسلامي في ابعاد وسائل اللعب وكل ما يؤدي الى الفساد وتسافل النفس في كل بلدة ، وذلك بجعل ثلة من الناس (وهم المحتسبون) يقومون لوجه الله بالوعظ والارشاد مطبقين أحكام الحِسبَة ، متجولين في الأسواق والشوارع ، يمنعون الناس من النقص فى المكيال والميزان والغش ومزاحمة المارة وبيع السلع المضرة والمحرمة والتجاوز على حقوق الآخرين وما يضر بالأخلاق العامة [١] ، وبذلك يكون المحيط (البيئة) محيطاً صالحاً لا يتأثر فيه الشاب تأثراً سلبياً يؤدي به الى التسافل .

وان ما جاء في الدين الاسلامي من دساتير وقوانين كلها تعمل في دفع الظلم عن هذا الانسان . فالكذب ظلم ، والزنا ظلم ، وقتل النفس المحترمة ظلم ، وعقوق الوالدين ظلم ، وشرب الخمر ظلم ، والبخل ظلم ، والحسد ظلم ، والكبر ظلم ، وعدم اعطاء حقوق الفقراء والمساكين ظلم : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ! » [٢] . وعن الصادق (ع) : « اتقوا الظلم ، فإنه ظلمات يوم القيامة » . وفي حديث آخر : « اجتنبوا دعوات المظلوم ولو كان كافراً ، فانها ليس دونها حجاب » . فبالظلم يسوَدّ القلب وتدلهمّ النفس . فيأتي دور الجحود والإلحاد !. على حد قوله تعالى : « إن الانسان لظلوم كفّار » . (١٤/٣٤) .

وان الآية الآتية تشرح لنا بوضوح كيف أن الذنوب تؤثر في النفس ، فتبعدها عن رؤية الحق والواقع : « أوَلم يهدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ، أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » [٣] . كما أن الآية الآتية تدل دلالة واضحة : أن الفسق مزيل للايمان : « تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ،

---

(١) ويراقبون السراق ويجمعون اللقطة وهو كل ما يرى مطروحاً لا صاحب له .

(٢) سورة المعارج : الآية : ٢٤ .

(٣) سورة الاعراف : ٩٩ .

فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ، وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين » [١] .

وقد يكون الانسان مجموعة ظلم وطيش وفسق وفجور . فلا يفيده أي وعظ وارشاد ، فلا شيء يجعله موقناً بالله الا نار جهنم : « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها ، فاصبروا أو لا تصبروا ، سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون » [٢] . فيكون اذ ذاك مصداق هذه الآية : « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون » [٣] . ونستجير بالله من هذه المرحلة المتسافلة .

فلا ينبغي للمؤمن أن يبهره ما لهؤلاء الجاحدين من مال وبنين وحياة طيبة وادعة (Confort) . ذلك لأن الله تعالى يقول : « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » [٤] . فإن الله قد زيّن لهم أعمالهم فى الدنيا وتركهم وما هم عليه من ظلمات ، بقوله : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم ، فهم يعمهون » [٥] . (سورة النمل : ٤) . وقربهم الى الهلاك مستدرجاً إياهم بتواتر النعم عليهم على حد قوله : « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين » . (سورة الأعراف : ١٨١) .

---

(١) سورة الاعراف : ١٠٠ .
(٢) سورة الطور : ١٦ .
(٣) سورة الأنفال : ٢٣ .
(٤) سورة المؤمنون : ٥٤ .
(٥) يعمهون : يتحيرون ويترددون فى ضلالهم .

أدلة أخرى في اثبات الصانع

سئل الصادق (ع) (وهو الامام السادس) : عن الله تعالى : فقال للسائل : « يا عبد الله ، هل ركبت سفينة قط ؟ قال : بلى ، فقال : «فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك ؟ » . قال بلى . قال : فهل تعلّق قلبك هناك : أن شيئاً من الأشياء قادر أن يخلصك من ورطتك . قال : بلى . قال الصادق (ع) : « فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حين لا منجيَ ، وعلى الاغاثة حين لا مغيث » .

فلو لم تكن فكرة التوجه الى الخالق متمركزة لدى الانسان لما توجه الى خالقه عند نزول كارثة من الكوارث .

ان الله تعالى يقول : « واذا مسَّ الانسانَ الضر دعانا لجنبه [1] أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا الى ضر مسَّه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » [2] .

فالمسرف ، أي الفرد الذي خرج بأعماله عن حد الاعتدال فاتخذ الربا مكسباً عوضاً عن أرباح المكاسب المحللة واتخذ الزنا أو اللواط ديدناً بدلاً من زوجة شرعية صالحة ... الى غير ذلك ، ينسى خالقه بعد كشف الضر عنه . فيُنسَى ان تمادى في النسيان . ان الله تعالى يقول : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » [3] .

وقد ذكر لي أحدهم وكان أمياً ، أن سخلة له جاءها المخاض ، فعسر عليها الأمر وشق كثيراً وطال معها الوجع مدة غير قليلة من الزمن . ثم انها رمقت

---

(١) مضطجعاً .
(٢) سورة يونس : ١٣ .
(٣) سورة الحشر : ١٩ .

ببصرها نحو السماء مستنجدة مستغيثة مما ألمّ بها واذا بها تضع حملها صحيحة سالمة . فاذا كانت الحيوانات تتوجه الى خالقها بصورة فطرية ، فما بال هذا الانسان ! وهو أشرف المخلوقات ، ! هذا الانسان الذي يتسافل بعض أفراده من جراء نفوسهم الملوثة وما اجترحت أيديهم فيكون أحط من الحيوان على حد قولـه تعالى : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » (١) . « ان شرّ الدوابّ عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون » (٢) . وهذا معنى قوله تعالى في سورة التين : « ثم رددناه أسفل سافلين » وحاشَ لله أن يظلم أحداً أو أن يردّ أحداً ، دونما ذنب ، الى أسفل السافلين . وانما الانسان نفسه ، يأخذ بنفسه المسكينة لسوء اختياره وكثرة فحشائه الى أسفل الدركات ولكن الله ينسب ، ارجاع العبد الى أسفل السافلين اليه بقوله : (رددناه) ، لأنه هو الذي سن هذا القانون ووضع هذا النظام العادل « سنة الله في الذين خلوا من قبلُ ولن تجد لسنة الله تبديلا » (٣) .

قال الباقر عليه السلام ، وهو الامام الخامس ، في تفسير قوله تعالى : « حنفاءَ غير مشركين به » : هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها . وفي تفسير قوله تعالى : « لا تبديلَ لخلق الله » أي فطرهم الله على المعرفة . وقد جاء في روايات كثيرة : « أن الفطرة هي التوحيد » . ولذلك يسأل أحدهم عن الدليل على وجود الصانع ، فيجيب : أغنى الصباح عن المصباح .

وحكى الفخر الرازي عن رجل : أنه اتفق في بعض الأزمنة جدب وقحط شديد . فخرج الناس الى الصحراء للاستسقاء ودعوا فلم يستجب لهم . قال

---

(١) سورة الفرقان : الآية : ٤٧ .
(٢) سورة الأنفال : ٢٤ .
(٣) سورة السبأ : ٣ .

الرجل : فصعدت الى الجبال • فرأيت ظبياً يسرع الى المياه من شدة العطش ، فلما انتهى الى الغدير ، رآه جافاً من الماء ، فتحير وجعل يكرر النظر الى السماء ويحرك رأسه مراراً ، فظهرت سحابة وارتفعت وأمطرت ، حتى امتلأ ذلك الغدير • فشرب الظبي ورجع •

وروي عن سليمان بن داود (ع) : أنه خرج يستسقي • فمر بنملة ملقاة على ظهرها ، رافعة قوائمها الى السماء • وهي تقول : « اللهم ، انا خلق من خلقك ، ولا غنى بنا عن رزقك ، فلا تهلكنا بذنوب غيرنا » • فقال : سليمان عليه السلام : « ارجعوا فقد سقيتم بغيركم » •

ونقل عن صياد : أنه رأى ظبية ترضع ولدها • قال : فلما قصدت أن أصيدها فرت مني وتركت ولدها • فأخذته • فلما رأته في يدي رفعت رأسها الى السماء وكأنها تستغيث وتستعين بالله تعالى ، فاذا بحفرة في طريقي ، فوقعت فيها ، وانفلت ولدها من يدي ••• فأخذته أمه وذهبت به •

ولسائل أن يسأل : لماذا ترفع الأيدي الى السماء حين يريد الانسان أن يسأل الله تعالى قضاء حاجة ملحة وحين يتضرع ويستغيث • ويمكن أن يقال في جواب ذلك : لا شك أن الله تعالى منزه عن المكان وهو خالق المكان وما كرة الأرض في هذا الفضاء اللانهائي الا جرم صغير جداً من ملايين ملايين ملايين بل من عدد لا يتناهى من الأجرام التي خلقها الله في هذا الكون ، فلا أسفل ولا أعلى لصغرها بالنسبة الى عظمة الكون • ولكن لما كانت السماء منشأ الخيرات وتوحي رفعتها وعظمتها وعلوها (حسب ظن الانسان الخاطىء) ، عظمة الله القادر الجليل (والله هو الذي خلقها وكونها من العدم ، وهو الذي يوحي ويعرّف الانسان عظمته) ، وحيث لا شيء أكبر من الله وأن الله لا يحده شيء وهو غير متناه في جميع الملكات لذلك كله ، فطرت طبيعة الخلائق تعظيماً لله تعالى على التوجه الى السماء ، لعلوها ، عند طلب الرزق وسائر الخيرات وعند الالتجاء في الشدائد والملمات • مع العلم أن الله لا يوجد في

جهة دون جهة . وهو في كل مكان ولا يخلو منه مكان . « وهو معكم أينما كنتم » .

وقد قال بعض الأبدال في إثبات الخالق جل جلاله : « انك لم تخلق جسدك ولا روحك ولا حياتك ولا عقلك ولا ما خرج من اختيارك من الآمال والاحوال والآجال ولا خلق ذلك ابوك ولا امك ولا من تقلبت بينهم من الآباء والأمهات . لأنك تعلم يقيناً أنهم كانوا عاجزين عن هذه المقامات ولو كانت لهم قدرة على تلك الماهيات ما كان قد حيل بينهم وبين مرادهم فصاروا من الأموات . فلم تبق مندوحة أبداً عن وجود صانع واحد منزه عن امكان الحادثات ، خلق هذه الموجودات التي قد كانت معدومات ، فصارت موجودات » .

اذا نظر الانسان الى هذا الكمال الرائع الذي أودعه الله في تمام مخلوقاته من « آميبا Ameoba » [1] الى الانسان : في الجماد والنبات والحيوان ، ثم الى ربط التنظيمات الأرضية ، بالتنظيمات السماوية ربطاً لا ينفك بعضها عن بعض « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » [2] . ثم الى هذه القوانين التي تربط الحوادث الكونية من فلكية وفيزيائية وكيميائية بعضها ببعض ، ثم الى المعادلات التي يراها في ما يشكل الذرة من ألكترون وبروتون ونيوترون وغيرها ، ثم ما يعترف به من عجز في تفهم حقائق لا تتناهى في هذا الكون : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، ان الله عزيز حكيم » [3] يقطع بأن المنظم لهذا الكون حكيم قادر متعال . وليس للانسان الا أن يخضع له إجلالاً وتعظيماً ، خشوعاً وخنوعاً .

لذلك كله ، فإن الطريقة في اثبات وجود الخالق جل جلاله هي طريقة نظر وتدبر واعتبار وتفكر . انظروا الى هذه الآية المنيفة وتدبروا فيها ،

---

(١) الكائن الحي ذي الخلية الواحدة .

(٢) سورة الملك : ٤ .

(٣) سورة لقمان : ٢٧ .

كيف توضح عظمة الخالق بأوضح بيان وأجلى تبيان . انه تعالى يقول :

« إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابّة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون [1] » . (سورة البقرة : ١٦٠) .

حقاً إن اختلاف الليل والنهار وما ينتج من ذلك من فوائد جمة لأمر عجيب .. فليرجع من شاء الى كتب الفلك وعلم الأحياء والجغرافية الطبيعية ليدرك الى حدٍّ ما كيف ربط الله تعالى أجزاء العالم بعضها ببعض لحدوث الحياة على وجه الأرض . ثم ليدعُ ربه ليجعله من قوم يعقلون . فيقول : « ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانك [2] فقنا عذاب النار » . ان الله قد عظم أمر (اختلاف الليل والنهار) بقوله : « وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار ، أفلا تعقلون » . فعقبه بعد الاحياء والاماتة لاهميته الفائقة . فلا عقلَ لاولئك الذين لا يوحّدون الله في آياته .

وها نحن نذكر نبذة يسيرة عما ينتج من دوران الأرض حول نفسها كمثال لما أودع الله من نظم خارقة لادامة الحياة على وجه الأرض وارتباط هذه الأنظمة بعضها ببعض بحيث لا يدع مجالاً المقول : بالصدفة ، وأنى للصدفة أن توجد من الجماد نباتاً وحيواناً (حيوية) وانساناً فعقلاً الخ « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون » .

لولا دوران الأرض حول نفسها بهذا النظام البديع لاستحالت الحياة على وجه الأرض . ذلك لأن للأرض جاذبية تجذب المياه نحو مركزها . وتحدث من دوران الأرض حول نفسها قوة طاردة تطرد الأجسام عن سطح

---

(١) قال رسول الله (ص) : « ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها » .

(٢) سبحانك : تنزيهاً لك ، وسبح الله ، أي نزهه وقدسه .

الأرض الى خارجها (قوة عمّركزية) • ولكن سرعة الدوران تختلف في نقاط الأرض المختلفة ، لكروية الأرض • فالمدينة التي على خط الاستواء تقطع بنتيجة دوران الأرض حول نفسها في الساعة الواحدة ، الف ميل وتزيد قليلا • ولكن مدينة مدريد عاصمة أسبانيا (التي هي على عرض ٤٠°) لا تقطع فى ٢٤ ساعة محيط الأرض كله • فسرعة دورانها نحو ٨٠٠ ميل في الساعة • وكلما صعدنا الى الشمال (نحو القطب) تكون سرعة المدن أقل فأقل من جراء حركة الأرض حول نفسها • فإن الله جعل الأرض في القطبين متفرطحة ، أي ليست الأرض كرة تماماً • لذلك : فالقطب أقرب الى مركز الأرض من مدينة واقعة على خط الاستواء • فتكون الجاذبية على القطبين أكثر •

وإن زيادة الجاذبية عند القطبين عن الجاذبية عند خط الاستواء تؤدي الى دفع الميـاه من خط الاستواء الى القطبين • ولكن زيادة قوة الدافعة (القوة الطاردة) عند خط الاستواء منها عند القطبين تدفع بالمياه من القطبين الى خط الاستواء • وقد تعادلت القوتان : (قوة الجاذبية والقوة الطاردة الناتجة من حركة الأرض حول محورها) ، من حيث زحلقة البحار والمحيطات الى القطبين أو الى خط الاستواء ، بحيث توزعت مياه هذه المحيطات توزعاً عادلاً كما نرى • ولولا هذا التعادل لغرق ما على أواسط الأرض من أشياء وأحياء • وهذا تقدير قدره الله تعالى بقدرته • « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم • » • (سورة الحجر : ٢١) •

ولو دارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدوره الآن لتناثرت المنازل وتفككت الأرض وتناثرت الأرض نفسها في الفضاء • وذلك بتأثير القوة الطاردة الحاصلة من حركة الأرض حول نفسها بصورة سريعة ، كما ينقطع خيط المقلاع في يد الطفل اذا أداره بسرعة كبيرة بتأثير القوة (عن مركزية) الطاردة •

$$\text{قم} = \frac{\text{ك س}^2}{\text{نق}}$$ (بالوحدات المطلقة) •

ولو تباطأت الأرض في دورانها حول نفسها أي أخذت تكمل دورتها حول نفسها في (١٠٠) ساعة مثلاً بدلاً من ٢٤ ساعة، لمات ما على الأرض من حيوان ونبات . ذلك لأن نصف الأرض يصبح معروضاً للشمس مدة طويلة مما يؤدي الى اماتة ما على الأرض من جراثيم وحيوان ونبات بتأثير حرارة الشمس المهلكة . واذا أراد المتتبع أن يستعرض ما هنالك من حكم فائقة في دوران الأرض حول نفسها بهذه السرعة الحالية وربط الحياة بـه لاحتاج الى تأليف كتاب خاص بل كتب عدة . « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء » . (النمل : ٩٠) .

وقد قال تعالى أيضاً : « وكل فى فلك يسبحون » فلا سكون في هذا العالم على حد قوله تعالى : « كل يجري لأجل مسمى » .

***

ثم لولا كثافة الماء بمقدار يعتد به (١ غم/سم^3 في ٤° م) لما أمكن أن تسير السفن والفلك في البحار والأنهار . « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون » .

وان نزول الأمطار أمر عجيب يعزى الى تأيُّن الجو وأسباب أخرى عدة قد رتبها الله تعالى ليس هنا موضع ذكرها وقد بينا شيئاً يسيراً منها فى الجزء الأول من هذا الكتاب . ثم أمر الرياح والعواصف يستدعي بحثاً عميقاً ، ولدوران الأرض من الغرب الى الشرق أثر خطير في ذلك . وفي كل ذلك : « لآيات لقوم يعقلون » .

فما بال الملحدين والماديين ينكرون وجود الخالق ؟ أليست لهم عقول ؟ نعم ، كانت لهم عقول ، عقل فطري معترف بوجود الخالق وجليل عظمته قبل أن يولدوا ، ولكن انسحب وأسدل عليه ستار من الظلمات من جراء الفسوق

والفجور ، فانكمش واختفى وقام مقامه الشيطان ، يملي عليه ما شاء من زندقة والحاد • والدليل على ذلك : أن هذا الملحد ، لو تمكن من توبة ، ورجوع الى الله تعالى وأعمال صالحات يكفّر بها عن سيئاته « ان الحسنات يذهبن السيئات » ، لرأى أن عقله يرجع اليه • معتبراً بما خلق الله ، من سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، خاشعاً تجاه عظمته وجلاله •

ولقد كنت أفكر في أمر هؤلاء الماديين ، فصرت أعتبرهم أناساً شذوا عن الطرق العلمية الصحيحة وأساليب البحث ، واعتمدوا في ادعاءآتهم على السفسطة والخيال و « من عنديات » لا يدعمها العلم الصحيح ، فلا ربط في ما يستندون اليه من أدلة واهية ، وأرى : أن علاج هؤلاء : أن يجبروا على دراسة الرياضيات العالية ، ونظريات آينشتاين ونظريات السطوح (القسم المجسّم من الهندسة التحليلية) فالفيزياء الرياضية العالية فنظرية الأعداد فحساب الاحتمالات فالفلك العالي • فانهم ولا شك يتخبطون خبط عشواء عند حل تلك المعادلات التي بقيت لا تحل وأمست لغزاً من الألغاز ، فيعترفون إذ ذاك بجهلهم • لأنه لابد للمعادلة التفاضلية (Equation différentielle) من حل صحيح لا يتعداه ، وليست القضية هاهنا ، قضية : (أرى ، وأظن ، ولعلّ وسوف يكشف لنا العلم !) ، هذه الكلمات التي يرددها المادي • فاذا شاهد عجزه وتصاغره تجاه عظمة العلم بل عظمة ما أودع الله من قوانين ودساتير في ربط أجزاء هذا العالم ، عند ذلك يعترف بجهله ، وان هذا الجهل يدفع عنه الغرور ، فيجعله معترفاً بمن أودع هذه المعادلات والقوانين الرياضية الصعبة في هذا الكون ، إن أزاح عن نفسه الخمور والفجور ولو بصورة موقتة •

ما من دابة الا أمة

ننقل هنا فقرات مما جاء فى مقال كتبه الدكتور عبدالمحسن محمد صالح ، المدرس بكلية العلوم في جامعة القاهرة عن النمل الأبيض وما أودع الله تعالى فيها من غرائز تفسيراً لهذه الآية الكريمة : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا [1] في الكتاب من شيء ، ثم الى ربهم يحشرون » • (سورة الأنعام : ٣٨) • « والذين كذّبوا بآياتنا صمٌّ وبكم في الظلمات ••• » •

« النمل الأبيض حشرة تعيش في جماعات على مستوى عالٍ من الحياة الجماعية ، ولكنه مع هذا الرقي وباء مدمر • وتخريبه في الاقليم الجنوبي يعتبر هيناً اذا ما قورن بما يحدث في المناطق الاستوائية الحارة حيث يبني مستعمرات ضخمة تضم الواحدة منها عدة ملايين • يعيش فى سراديب أرضية دون أن يرى ، ويخرب دون أن يحس به أحد • فهو يقوم بعمل سراديب أو أنفاق كثيرة مختفية في الشبابيك والأبواب وسقوف المنازل • فهو يأكل الخشب والتبن الذي يدخل في (اللبن) أي في الجدار المصنوع من الطين •

منذ أيام استيقظ أهل قريـــة من قرى مركز « أبو حمص » بمديرية البحيرة « عزبة شلبي » ليجدوا أنفسهم بلا قرية وبلا مساكن سلط عليهم العدو : « النمل الأبيض » أسلحته الفتاكة وتركهم بلا مأوى •

والآن تعالَ معي لزيارة مستعمرة من تلك المستعمرات الضخمة التي بناها النمل الأبيض في أواسط أفريقيا :

ستجد برجاً شامخاً في الهواء ، يبلغ ارتفاعه عن سطح الأرض حوالي ستة أمتار • ومحيط قاعدته قد تصل الى خمسة عشر متراً •

---

(١) ما فرطنا : ما تركنا .

انها كحصن من حصون العصور الوسطى ، مصمَّمة بطريقة خاصة . فهي على هيأة أعمدة مخروطية متصلة عند قواعدها بالمستعمرة الأصلية . ومادة البناء مكونة من الطين الذي يخلطه النمل بلعابه فتصير متينة قوية كأنهـا الخرسانة المسلحة . وهذا المبنى الضخم مقفل كأنه القبر ، ساكن سكون الموتى .. لكنه يموج من الداخل بملايين الأفراد ، هذه واحدة من المستعمرات .

وتجد في جهة أخرى حصناً صمم بطريقة خاصة . اذا سألت عنه أحد الأهلين فسيخبرك بأنه « البوصلة » .

وبواسطة هذا المبنى يستطيع الأهالي معرفة الجهات الأصلية في الصحاري والجبال ! ذلك لأن لها سطحين عريضين . أحدهما يشير الى الشرق والآخر يشير الى الغرب ، وسطحين ضيقين متجهين الى الجنوب والى الشمال !؟

ولا يمكن أن تشذ عن هذه القاعدة أي مستعمرة من مستعمرات هذا النوع من النمل . ولهذا يثق الأهالي فى ذكائه الغريب . ولم يستطع أحد أن يعرف الحكمة التي تكمن وراء هذا النظام .

واذا سرت في مكان ثالث . فستجد المستعمرات المعلقة . وهي التي يبنيها بعض أنواع النمل ويثبتها على أفرع الأشجار وغصونها .

وقد بلغ الذكاء حداً بعيداً عند بعض الأنواع التي تقطن في المناطق التي تكثر فيها الأمطار . فيبنون ستائر أو حواجز تتدلى من أعلى المستعمرة تماماً ، كما تبنى أسقف المنازل في البلاد المطيرة مثل انكلترا أو غيرها . فاذا ما هطلت الأمطار ، انحدرت على الستائر لتسقط بعيداً ، فلا يبتل البناء .

وهناك أنواع تسكن المناطق الجافة ذات الحرارة الشديدة ، فيبني النمل فيها أنفاقه ، وعندما يجد الجفاف قد حل بالمستعمرة ، تتفتق عنده حيلة أو غريزة [1] للتغلب على مثل هذا الأمر ، فيقوم بعمل أنفاق أرضية تمتد الى عدة

---

(١) وهي ما أودعه الله تعالى فيه .

أمتار تحت سطح الأرض حتى تصل الى مستوى الماء الجوفي بالتقريب • وعندئذ يخرج منه بخار الماء لينتشر في أنحاء المستعمرة • فيخلق جواً رطباً • كأنه جهاز صمم لتكييف الهواء •

والآن تعالَ بنا لنزور إحدى هذه المستعمرات المبنية فوق سطح الأرض من الداخل •

ستجدها مدينة منظمة يسكنها عدة ملايين من الأفراد يحكمها ملكة وملك ، ورعية تتكون من العساكر والشغالة • لكل وظيفة معينة لا يتعداها •

ولكل مبنى نظام خاص • يحتفظ به الجنس على مدى الأجيال • ليتناقله الخلف عن السلف كأنه سر لا يبوح به لأحد سواه •

سآخذك الآن الى القاعة الكبرى التي تتوسط المستعمرة ، انها حجرة فسيحة نظيفة جهزت لعودة الملكة من حفلة زفافها في الهواء •

وعندما يتم التلقيح تعود ومعها الملك ليدخلا الحجرة الملكية ولا يتركانها بعد ذلك أبداً لعدة سنوات قد تصل الى الثلاثين أو الخمسين عاماً •

ويفقد الملك والملكة أجنحتهما • ثم تأتي الرعية أو الشغالة لتتمسح بملكتها كما يتمسح السذج بأضرحة الأولياء [1] ويحيط بالملك والملكة حرس

(١) لا نوافق الكاتب فيما ذهب اليه . فان استلام الحجر الأسود بمكة ، واستلام أضرحة الأولياء أو التمسح بها ، انما هو لاظهار الولاء والحب ، مع العلم ان ليس للمادة أثر فى تقرب العبد الى الله تعالى ، وانما يتقرب العبد الى ربه بحب أوليائه ، لأنهم عباد الله المخلصون ، وبتقوية الرابطة بينه وبينهم بهذا الاستلام . لأنهم كانوا أذلاءً لله مطيعين ، وانما يتقرب العبد الى الله بالقيام بما قرب أولياء الله الى الله من أعمال ليكون : «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً » . (سورة النساء : ٧١) .

على أن هذا الحب (حب الأولياء) من رشحات الايمان . يعترف بذلك من جرب تكامله الايماني طيلة حياته .

فها هنا اضافة تشريفية ، كجلد المصحف ، فيقبل الجلد لاحتوائه المصحف ، وكتقبيل الحجر الأسود ، لقضية تاريخية لا مجال لذكرها . ونذكر الكاتب بقول الشاعر :

خاص من جنود أقوياء لا يغفلون عن الحراسة أبداً .

ويأتي الشغالة ليقدموا للملك والملكة غذاءً ملكياً خاصاً ... وتظهر على الملكة أعراض الحمل . فتنتفخ بطنها حتى تصل الى مائة مرة من حجمها الأصلي . فلا تستطيع أن تنتقل من مكان لآخر . وتتحول بعد هذا الى آلة سريعة لوضع البيض ، فهناك نوع يضع حوالي ٣٦ الف بيضة في يوم واحد أو ١٣ مليون بيضة فى كل سنة .

أما أعظم الملكات نشاطاً فهو جنس (ماكروتيرمس) . ففي كل ثانية تمر ، تكون الملكة قد وضعت بيضة . وتستمر هذه العملية دون توقف لمدة ثلاثين عاماً تكون قد وضعت فيها ما يقرب من ٩٤٦ مليون بيضة .

ووراء الملكة يقف نفر من الشغالة لا تهدأ حركتهم . فعندما تضع الملكة البيض يحمله هؤلاء الى حجرات خاصة تشبه حجرات التمريض حتى يتم فقسه .

فاذا ما تركت الحجرة الملكية من أي باب من أبوابها العديدة ، لوجدت أمامك ما يشبه الشوارع والحارات التي تتصل بآلاف الحجرات .

فهناك ركن خاص للخدم يقومون بتنظيف المستعمرة ، وركن خاص بالتمريض وفيه يربى الأفراد الجدد ، ويقدم لهم طعام خاص ، حتى يصيروا أفراداً جدداً ينضمون الى رعية الملكة .

وتوجد عدة حجرات مغلقة ، وهي سجن المستعمرة التي يساق اليه الأسرى من الحشرات الاخرى حية . ثم تزج داخل هذه السجون تحت حراسة

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وان هذا التمسح ليدل أيضاً على احترام الأفراخ للامهات . فليتعلم الانسان هذا الأدب الرفيع من هذه الحشرة : ف « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

قوية ، وبعدها يهجم عليها النمل الأبيض ليأكلها كما تفعل قبائل نيام نيام مع الجنس البشري .

وقد تجد في بعض المستعمرات مخازن لمواد التموين التي يحتاجها النمل من وقت لآخر . فاذا ما توجهت الى أعلى المستعمرة وجدت صالة كبيرة تتصل بعدد وفير من الحجرات ، وقد شيدت هذه القبوة الكبيرة لتجديد الهواء فى المستعمرة .

واذا ثقبت عدة ثقوب في المستعمرة ، لوجدت عدة فكوك قوية قد ظهرت أمامك ، انهم حرس المستعمرة الذين يسهرون على حراستها بالليل والنهار وهم يقفون على هذه الفتحات كأنهم يتأهبون لأي هجوم .

ثم تأتي الشغالة فيفسح الحرس لها مكاناً تنتقل فيه ، لتقوم بعملية ترميم في هذه الثقوب ، حتى تعود الى ما كانت عليه من قبل .

وللحراس وظيفة أخرى عامة . فهم يصحبون شغالتهم اذا ما تركوا مستعمراتهم سعياً وراء الرزق . فتراهم يحيطون بهم من كل جانب ليدفعوا عنهم أي مكروه قد يصيبهم من أعدائهم .

وعندما يعود الشغالة الى بيوتهم يقف حرس خاص على الأبواب ليمنع أي حشرة دخيلة قد تندس بين أفراد المستعمرة .

والمستعمرات تختلف في تعميرها على حسب النوع الذي يسكنها .. فهي قد تعمر سنوات قليلة ، وقد يصل عمرها الى ثلاثين عاماً أو أكثر وقد يصل الى ١٠٠ عام .

فقد جاء في أحد التقارير أنه في عام ١٨٧٢ م كانت هناك مستعمرة ضخمة قائمة ، عاقت الفنيين عند مدهم لاسلاك التليفون في بعض جهات استراليا . وكان لابد من تحطيمها حتى يمكن أن يتمموا عملهم ، فحطموها بالديناميت . وكان عمر المستعمرة فى ذلك الوقت لا يقل عن ٣٥ عاماً . وبالرغم من هدم

المستعمرة في عام ١٨٧٢ ، فقد وجدوها تزخر بالحياة حتى عام ١٩٣٥ — أي عاشت حوالي مائة عام » .

***

وقد فات الكاتب أن يكتب شيئاً عن منطق النملة وطرق محادثتها . وأخلاقها ونفسياتها . فإن العلم الحديث لا يزال بعيداً عن التوغل في مثل هذه الأمور التي لا تدخل في صميم المادة . ان الله تعالى يقول : « وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ، إن هذا لهو الفضل المبين ، وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى اذا أتوا على واد النمل ، قالت نملة يا أيها النملُ ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكاً من قولها ، وقال ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » .

وقد كشف أخيراً شيء عن منطق النحل بحركات تقوم بها . فإن النحلة تذهب للكشف عن أزهار . فإن كانت هذه الأزهار قريبة ، رجعت ترقص رقصاً خفيفاً ، تريد أن تفهم قرب الأزهار . وإن كانت الأزهار بعيدة ، رجعت ترقص رقصاً متواصلاً سريعاً . ولعل هذه الحركات ترافق منطقها الذي لم يقف عليه العلم الحديث . بل وقف على الحركات فظنّها منطقاً .

من الذي أودع تلك الحياة الاجتماعية الرائعة في حياة النملة وهذا المنطق والحركات في النحلة . كل ذلك دليل واضح على وجود الله القادر المتعال الذي أودع في كل زاوية من هـذا الكون من وسائل الاعتبار والتدبُّر ما يبهر العقول . « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق » ولكن الله حصر الاعتبار ، فالتوجه الى الحق في الخاشعين المنيبين الطائعين بقوله : « تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب » . فلا يعتبر من اسودَّ قلبـه

بالاجرام ولا يسلم اسلاماً حقيقياً ، على حد قوله تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » . فلا يلتقي الاسلام مع الاجرام . فاذا جاء الاجرام انسحب الاسلام . وكان المجرم منسياً يلهو ويلعب كما يشاء ، « نسوا الله فنسيهم » . « فذرهم يخوضوا ويلعبوا » . فيكون شيئاً فشيئاً مصداق هذه الآية ، ونستجير بالله من ذلك : « ومن يضلل الله فما لـه من هادٍ » .

كيف يتسرب الشك الى النفوس

كيف يتسرب الشك الى النفوس وتندك الفطرة فلا تعمل عملها • راقبوا أشخاصاً عندما كانوا فقراء بائسين وما كانوا عليه من اعتقاد بالله وصلاة وصوم واحسان الى آخرين • ثم راقبوهم وهم قد خرجوا من مرحلة الفقر الى غنى وثراء لا يعطون حقوق الله ، يتجبرون ويتكبرون [1] ويتكلمون فوق ما هم مدركون • ظناً منهم أنهم قد بلغوا غاية الفهم ووصلوا الى الحقيقة ! حين أنه لا تناسب بين كثرة المال والمعرفة والكمال • فتراهم يتكلمون كثيراً ولا يريدون أن يصغوا الى ما يفيدهم وينجيهم من عذاب أليم • راقبوهم في حالاتهم الخاصة تجدوهم لا يخضعون الا لمادة أضخم وأرقى وأعظم • ولو أن هؤلاء أنفقوا مما منّ الله عليهم من مال وجاه ، وقاموا بحوائج الناس ولم يتكبروا وعاملوا الناس بأخلاق فاضلة ، حضروا الجماعة وتفقدوا أحوال الفقراء وأوجدوا لهم عملاً يقتاتون من ورائه ، لم يتسرب الشك الى نفوسهم بل ازدادوا ايماناً ويقيناً بالله وأصبحوا ملائكة تتنور الأرض بنور احسانهم وتضيء ببركات أعمالهم ولنالوا سعادة الدارين •

ولعلك تقول اني أجد شباناً في مقتبل العمر ، لم يملكوا شيئاً من الثراء ، ولم يركنوا الى ركن وثيق ، ولكنهم مع ذلك منحرفون غير عاملين بما أمر به الدين • نفوسهم مدلهمة ، مظلمة ، لا يصلون ولا يخشعون ، ولكن اذا اعترتهم كارثة عظيمة توشك أن تودي بحياتهم تمسكوا بالخالق العظيم • فما سبب انحراف هؤلاء ؟

وقد حققت عن سلوك هؤلاء وحالاتهم النفسية وأخلاقهم الشخصية •

---

(١) ان الله تعالى يقول : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » . وفى الحديث : « أكثر أهل النار المتكبرون » .

فألفيتهم ضواري وحيوانات مفترسة عند الاستطاعة وسنوح الفرصة ، لا يبالون بارتكاب المعاصي وأنواع الفسق اذا ما وجدوا الى ذلك سبيلاً . غير وصولين آباءهم وأمهاتهم وأرحامهم . هتاكين للحرمات ، فهم في خلواتهم غير ما هم في محاضرهم .

وانما الايمان رشحات الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والقيام بأداء الحقوق الواجبة (بل المستحبة) .

لذلك ترى الايمان عند هؤلاء ضعيفاً بل قد تجده عند البعض منهم معدوماً فهم لا يصلون ولا يقدسون المقدسات . بل ملء صدورهم الشكوك والرَيب ، يستهزئون بالمقدسات اذا خلوا بمن يوافقهم في طيشهم ومروقهم .

فلا يفيد في هؤلاء النصح والوعظ والارشاد بل اصلاح هؤلاء يكون ، اما بنظام صارم يبعدهم عن ارتكاب الموبقات ويفرض عليهم القيام بما أمر به الدين ، فتلين قلوبهم شيئاً فشيئاً . (لأن الرياء ، كما يقال ، قنطرة الحقيقة) . واما بترك ما هم عليه من مدنسات وآثام وعقوق وكذب وأخلاق فاسدة ومعاملات غير مشروعة « الدين المعاملة » بصورة تدريجية . فإن نفوساً مدلهمة مظلمة لا تستطيع تقديس الله تعالى وتعظيمه ، وان حب الله تعالى لا يحلُّ الا في نفوس فيها شيء من الصفاء .

يقول الله تبارك وتعالى : « وكذلك نري ابراهيم ملكوتَ [1] السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنَّ [2] عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل [3] قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً [4] قال هذا ربي . فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قومِ اني بريء مما تشركون ،

---

(١) أي عجائبها وبدائعها . (٢) أي ستره الليل بظلامه . (٣) غرب .
(٤) طالعاً .

اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ، حنيفاً ، ومـا أنا من المشركين » (١) .

ان هذه الآية تعلمنا الطريقة التي يجب أن نسير عليها لارجاع المنحرفين الى الفطرة . فإن ابراهيم (ع) يفرض أن ربه وخالقه كوكب رآه في الليل ، ثم رآه آفلاً غائباً عن الأنظار فعلم أنه متغير ومتحول من مكانه . والمتحول لابد له من محوِّل ، فهو اذن محتاج الى غيره مُسَيَّر بارادته . وان شيئاً كهذا غير قائم بنفسه لا يكون رباً بل هو مربوب : والرب هو المحرِّك لهذا الكوكب والمنظم لحركاته ، لأفوله وشروقه وحركاته الأخرى ..

يستنتج من كل ذلك أن لابد للمحدَث من محدِث ولابد للنظام من منظِم ، لا سيما اذا كان هذا النظام بالغاً أسمى مراتب الدقة ، فيه من المعادلات والدساتير ما لا يحيط به البشر مهما تسامى في عالم التفكير . « ومن أين جاءه هذا التفكير ؟ » .

إذن وجب أن يكون هناك خالق قدير عليم ، خلق هذا الكون بقدرته ، وجعل فيه من النظم والدساتير ، ما لا يصل اليه البشر ، بعلمه . خالق لم يخلقه غيره ، خالق أزلي قديم ، لم يسبقه شيء من الأشياء ، وهو خالق كل شيء ، معطي الوجود ، ولم يعطه الوجودَ غيرُه .

ان العقل المجرد عن الشوائب والمدنسات ليحكم بصورة فطرية أن لابد من إله موجود من تلقاء نفسه ، أزلي ليس بحادث ، قديم لم يسبقه شيء ، هو موجد جميع ما في الكون المادي والمعنوي بهذا النظام البديع . كان ولم يكن معه شيء .

فطوبى لأولئك الذين لم يحجبوا الفطرة بتلويث نفوسهم ولم يحجبوا العقل السليم بسوء فعالهم . « صبروا أياماً قليلة أعقبتهم راحة طويلة » . فصاروا الى جنات الخلد مهنَّئين فرحين مستبشرين .

---

(١) سورة الانعام : ٧٩ .

***

فمن أحسَّ بشك أو شكوك في نفسه • فما عليه إلا أن يبدأ حالاً بمعالجة نفسه : بأن يترك ما نهى الله عنه من موبقات لقوله تعالى : « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون » (١) • وأن ينتهي عما كان عليه من اجرام وظلم لقوله تعالى : « كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم » (١) • وفي آية أخرى : « ان الله لا يهدي القوم الظالمين » •

وأن يطهر مأكله ومشربه ويجعلهما من مورد حلال طيب ، وأن يجانب الترف لقوله تعالى : « وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون » • وقد قال رسول الله : « لا تجالسوا الموتى ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : كل غني مترَف » •

وأن يساعد الفقراء والجيران ويتفقد أحوالهم فقد قال رسول الله (ص) : « ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع » • وفى حديث آخر : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله » •

وأن يبذل من فضول ماله » ، فقد قال الله تعالى : « ومن يوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون » • أي ومن يُحفظ من شُحِّ نفسه • والشحُّ أشد البخل •

وأن يترك الكذب • فقد جاء في الحديث : « الكذب يجانب الايمان » • وفي حديث آخر : « إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار » • وفي حديث آخر : « إياكم والكذب ، فإنه جمَّاع الآثام » • وقد قال أحد الفلاسفة : بترك الكذب يوقن الانسان بخالق معبود عظيم » •

---

(١) سورة يونس : ٣٤ . (٢) سورة الشعراء ٢٠١ .

وأن يترك الغيبة والنميمة والافتراء والخيانة • فقد جاء في الحديث : « الغيبة أشد من الزنا » • وفي حديث آخر عن الرسول (ص) : « يؤتى بأحدكم يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى ويدفع اليه كتابه ، فلا يرى حسناته • فيقول : الهي ، ليس هذا كتابي • فإنه لا أرى فيه طاعتي • فيقول الله تعالى له : إن ربك لا يضل ولا ينسى ، ذهب عملك باغتياب الناس • ثم يؤتى بآخر ويدفع اليه كتابه ، فيرى فيه طاعات كثيرة ، فيقول : الهي ، ما هذا كتابي • ما عملت هذه الطاعات • فيقول الله سبحانه : ان فلاناً ، اغتابك فدفعت حسناته اليك » •

وان يبرّ والديه ويصل أرحامه • فقد جاء في الحديث : « ووالديك فبرّهما وأطعمهما حيّين وميّتين ، فإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل ، فإن ذلك من الايمان » • وفي حديث آخر ، « لا صدقةَ وذو رحم محتاج » •

وأن يترك مجالسة الأوغاد ويترك مجالس اللهو وسماع الأغاني المحرمة • فقد جاء في الحديث : « مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار » • الا اذا كان بغية الارشاد والهداية • وفي حديث آخر : « الغناء مجلس لا ينظر الله الى أهله » • وقال علي عليه السلام : « جالس أهل الخير تكن منهم ، وباين أهل الشر ومن يصدّك عن ذكر الله ، تبِن عنهم » •

وأن يجالس الفقراء والمساكين ويسير في حوائجهم • فقد جاء في الحديث : « ان الفقراء هم صفوة الخلق ، وان من أراد الله فليطلبه عند الفقراء » • وقد قال محمد الباقر (ع) وهو الامام الخامس : « اياكم ومجالسة الأغنياء ، فإن الانسان يجالسهم وهو يرى أن لله عليه نعمة ، فما يقوم حتى يرى أن ليس لله عليه نعمة » •

ان الشك لا يأتي إلا من جراء ذهاب العقل ولا ينسحب العقل إلا من جراء رجس في النفس والرجس أساسه الذنوب وعدم القيام بما أمر الله من

عبادة وأخلاق فاضلة وتراحم وتعاطف على حد قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » .

(سورة يونس : ٩٩) .

وان كل عمل صالح يؤدي الى قليل من الهداية ، فقليل من الايمان ، ثم ان الله تعالى يزيد في ايمان الشخص تفضلاً منه ورحمة . فيزداد العبد ايماناً ويقيناً على حد قوله تعالى : « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » .

(سورة الكهف : ١٣) . فالناس مجزيون بأعمالهم ومؤاخذون حسب أفعالهم . فقد قال نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : « انما أعمالكم تَرِد اليكم » .

فطوبى لأولئك الذين قاموا باصلاح نفوسهم بعزم رصين وأزالوا عنها الشكوك والأوهام ، فازدادوا ايماناً ويقيناً وخرجوا من الظلمات الى النور : « أوَمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » [1] .

إن العقل لو لم يلوث بالمعاصي والآثام وبقي على فطرته لا يصيبه أي شك فيعترف بصحة كل ما جاء في الدين الاسلامي الحنيف ، على حد ما قاله سيد الوصيين علي عليه السلام : « يشهد بذلك العقل ، لو سلم من أسر الهوى » . فلا شيء ترتاح اليه النفس الانسانية ، كدين الاسلام ، ان بقي العقل على فعاليته . ولا شيء كالضلال ترتاح اليه النفس ان انسحب العقل عن فعاليته : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم مَن في السموات والأرض طوعاً وكرهاً واليه يرجعون » .

---

(١) سورة الأنعام : الآية : ١٢٢ .

تفنيد أقوال الماديين

ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون [١] » .

فالله تبارك وتعالى بعظيم قدرته : تلك القدرة التي ليس للبشر أن يصل الى شيء من حقيقتها ، يفلق الحب والنوى ، فيكون نباتاً وشجرة ذات جذور وساق وأغصان وأوراق وأزهار . ولو كتب في هذا السير التكاملي للنبات مئات الصفحات ، للزم أن تدون أيضاً آلاف الصفحات . أفيكون كل هذا من تلقاء نفسه ، هذا ما لا يقره حيوان فكيف بانسان . ولكن ، مع الأسف يغلق هذا الانسان على نفسه الاعتراف بوجود الله ، بما كسبت يداه ، إن الله تعالى يقول : « ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ،حتى يروا لعذاب الأليم» ، (سورة يونس) . ولا تحق كلمة الله عليهم الا لما اجترحت أيديهم من معاصي وآثام تقشعر منها الجلود وتستك منها الآذان .

فهل علم العلم الحديث كيف يخرج الله الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وما حقيقة الحيوية ؟ وكيف تتولد هذه الحيوية ومن المعطي لها ؟ ان ما يقوله الماديون لا يستند على تفكر علمي مركز خال من الهذيان . انما هو تخيلات يرافقها خبث وظلمات وتصورات باطلة لا يدعمها دليل علمي أو تأييد تجربي . بل هو اتباع للهوى ولما يمليه عليهم شيطان سيطر على عقولهم ، « أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا » . (٢٥/٤٣) .

ان الماديين يتذرعون بما قاله داروِن عن تكامل الأنواع . وهو ليس ممن أنكر الخالق . وقد قال : اني لا أعلم كيف جهز هذا الانسان بالعقل والمنطق . وقال أيضاً : ان الانواع مشتقة كلها من أصل واحد ، أو أصول معدودة ، نفخ فيها الخالق روح الحياة » .

---

(١) سورة الانعام : ٩٥ .

فـ (داروِن) يعتقد بأن الأنواع استمدت الحياة من خالق أوجدها ، ثم أخذت بالتنوع على مقتضى نظرية الانتخاب الطبيعي • وقد ردت نظرية الانتخاب الطبيعي من قبل علماء آخرين جاؤا من بعده •

قال العلامة المشهور (روسل دلاس) نديد (داروِن) في كتابه : (عالم الحياة) : « ان الظواهر القائمة بالكائنات الحية هي من العجب وخصائصها من التفوق على جميع الصور المادية الخاضعة للنواميس الآلية طبيعية وكيماوية ، بحيث أنه من العبث المحض أن يحاول علماء الاحياء الوقوف على سر مظاهرها العجيبة وتحديد ماهية الحياة بوضوح تام وبعبارات علمية » •

وقال : أرنست هيكل الألماني :

« ان كل خلية لها روح تدبرها ولكنها لا تشعر بوجودها » •

وقال : توماس هكسلي :

« الحياة هي علة الأجسام ، لا أنها نتيجة لها • لأنه لا يصادف الباحث في الآميبا : (الكائن الحي ذي الخلية الواحدة) مهما توسل بالآلات الدقيقة التي نملكها اليوم أي أثر للتركيب الجثماني فيها • فإن هذه الاحياء لا شكل لها ومجردة عن الأعضاء ومن الاجزاء المحدودة ومع ذلك فإنها تملك الخصائص والمميزات الأصلية للحياة • ، حتى انها تستطيع أن تبني لنفسها قواقع ذات تراكيب معقدة أحياناً وعلى غاية ما يمكن من الجمال » •

نعم ، إن (داروِن) ، كما قلنا لم يكن منكراً لمبدع هذا الكون ، إلا أن الماديين المتهوسين ، هؤلاء الذين طغت نفوسهم ، فبغت ، فلفقت هذه الأفكار الزائفة التي لا يرافقها المنطق بحال ، نسبوا اليه نظرية النشوء بشكل يعطل تصرف الله تعالى في هذا الكون • كمدمن الأفيون يعزو كل كمال وصحة الى الأفيون !

قال بعض العلماء المحدثين : إن كل كائن حي غير مولود ولا متكامل

عن حي آخر . وان كل حي قد خلق بصورة مستقلة وان كان هناك تشابه في بعض الأصناف .

وقال القسم الآخر من علماء العصر الحاضر : « ان الله تعالى خلق عدداً معيناً من الكائنات الحية وأودع في قسم منها قابلية التكامل ، فتكامل البعض منها بإذن الله وبما أودع الله فيها من قابليات وامكانيات ، فوجدت أصناف مختلفة وفصائل متعددة والأمر كله لله » .

وقد ثبت أخيراً أن البيئة لا تؤثر في خلق عضو أو ايجاد كائن حي أكمل وأرقى . وإن أثر البيئة ضئيل جداً وأثرها ينحصر في العوارض الخارجية كاللون . حتى أن الطول يعزى الى عامل وراثي ولولاه لما اختلفت الأطوال .

ثم زاد هؤلاء الماديون فقالوا : «ان الاستعمال مولد للعضو وموجد إياه» . (Fonction fait organe) وقالوا : « ان الحاجة تولد العضو » . حين أنه قد ثبت : أن عضواً من الأعضاء ، مهما استعمل في ناحية من النواحي ومهما دعت الحاجة لا يأتي بعضو جديد . فمن ولد مثلاً مقطوعَ الكفِّ ، مهما استعمل يده ، لا يولد له هذا لاستعمال كفاً وان توالت الدهور .

ان المادي ليعترف أن لا حد لقدرة الطبيعة ، وان هذه الطبيعة تخلق كل شيء ولها منطق وعقل وتدبير ، تنظم الأشياء وترتبها خيرَ ترتيب ، وتربط بينها بدساتير رياضية متقنة ، تؤدي الى دوام واستمرار . اذن ، فليقل لنا المادي ، دونما مغالطة ، ما هي على وجه التحديد هذه الطبيعة التي تخلق كل شيء ولا حدود لقدرتها على حد تعبير داروِن ؟

فإن لم تكن الطبيعة شيئاً معيناً له حدود معلومة وماهية مفهومة ، فما المبرر المنطقي أو العلمي لترك فكرة الإله والاستعاضة عنها بفكرة الطبيعة ؟ أليست القضية ، قضية عاطفة متحجِّرة وقلب أعمى ، يبصر الحق فينكره . وقد جاء في الحديث : « ما ضُرِب ابن آدم بعقوبة أعظم من عمى القلب » .

ولعل المادي يريد أن يرى الهاً يشبهه من حيث الأعضاء ، أي الهاً محتاجاً الى أعضاء ومركباً من أجزاء • ولكن المحتاج مصنوع بيد مَن يرفع حاجته ، والرافع للحاجات لا يشبه خلقه فى شيء ، وهو غير محتاج الى غيره وهو الله سبحانه • « سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً » •

غريب أمر هؤلاء الماديين • يرون حادثة أو حادثتين فيفسرونها تفسيراً خاطئاً ، حسب ميولهم ، لأنهم ملحدون قبل العثور على مكتشفات العلماء : تلك التي ان دلت على شيء ، فانما تدل على عظمة الخالق جل جلالـه • فيستنتجون من هذه الحادثة أو الحادثتين استنتاجاً باطلاً يوافق أهواءهم •

نعم ، انهم قبل العثور على هذه الحادثة أو الحادثتين كانوا ماديين منحرفين عن الصراط السوي • ورأوا أن هذا الظرف من الزمان هو ظرف العلوم والمكتشفات ، ومن لا يسند ادعاءه ، بل هوى نفسه ! الى العلم ولا يذكر كلمة (Science) يعد جاهلاً وتُردّ نظريته ! ، فأخذوا ينسبون أفكارهم الزائفة التي هي من رشحات أهوائهم وانعكاسات نفوسهم الى العلم، والعلم منها براء • وقد يبلغ ببعضهم الطيش درجة قاصية ، فيسمى هذيانه (من عندّياته) فلسفة • حين أن مرحلة الفلسفة متأخرة عن العلم ، الفلسفة : هي الربط بين عصارات العلوم وحقائقها • فما لم يثبت علمياً كيف يجوز أن تُحاك منه فلسفة في عصر الذرة !

وقد برهنا في الجزء الأول من هذا الكتاب (صفحة ١٩٩) : عدم امكان القول بالصدفة ، مع ما نرى من أجزاء لا تتناهى قد ترتبت بعضها أثر بعض بطريق منطقي • وهل رأيت سيارة توجد مرتبة أجزاؤها ترتيباً محكماً بالصدفة؟ أو صاروخاً يحدث صدفة ، وأيهما أعقد ؟ المكروب مع ما فيه من حياة ، أم القمر الصناعي المسير بقوة الصاروخ أولا ، ثم حسب ما أودع الله في الكون من قوة جاذبية ثانياً ؟ وما قيمة القمر الصناعي تجاه قدرة الله تعالى ؟ على أن

الانسان لو لم يجهز بعقل فعّال .. ولم يكن قد خلق الله قبلاً ما يصنع منه الصاروخ من عناصر ومواد وقوى . فهل كان من الممكن الوصول الى القمر الصناعي ؟ فماذا الجحود ؟ ثم مَن هو الذي أوجد المادة الأولى وأوجد فيها تلك القابلية الهائلة ، حتى تنبثق منها هذه القوى الهائلة المدبرة المرتبة . ومن جهزها بعقل حتى تودع هذا السير التكاملي في النبات والحيوان وتعطي الحياة للكائنات الحية وتجهز الانسان بعقل مرتب منظم ، فإن فاقد الشيء لا يعطيه ! فلابد وأن العاقل الأزلي ، العاقل الذي لا يدرك مدى عقله وحكمته هو الذي خلق العقل وهو الله سبحانه . « تعالى الله عما يشركون » .

كان يقول (لاووازيه) الكيميائي المعروف : ببقاء المادة : (Rien ne se perd, rien ne se crée . أي أن المادة لا تفنى ولا تستحدث . انه اعترف بقوله : (ان المادة لا تخلق من تلقاء نفسها : Rien ne se crée أن لابد من وجود خالق أزلي حكيم هو خالق الأشياء كافة ، أودع فيها نظماً ودساتير عميقة ، وأن المخلوقات تتأثر بعوامل شتى وليس الله بمتأثر بشيء وهو المؤثر وحده . وهو خالق الزمان والمكان ، ولا يمكن أن يتصور وقت لم يكن الله فيه موجوداً ، فهو أزلي أبدي سرمدي .

قد فُند قانون (لاووازيه) بعد اكتشاف بعض حقائق الذرة ، فيجب أن يسمى اليوم بقانون تبادل الألكترونات . فإن قانون (لاووازيه) المذكور لا ينطبق في الانفعالات النووية وفعالياتها ، بل ينطبق على فعالية الألكترونات وتغييراتها الخارجية ولمدة موقتة أي بمقدار عمر الأرض .

ان نظرية (دالتون — لاووازيه) تدرس منذ ٢٠٠ سنة في الجامعات ، وقد أدت الى تحريف أفكار بعض الشبان لتفسير البعض إياها تفسيراً خاطئاً يوافق ميول الملحدين مع ما فيه من خطأ فاحش . ذلك لأن نفوساً ضالة جعلتهم يظنون أن المادة (الصماء !) شيء أزلي وأبدي وهي باقية دائمة

لا نفاد لها ولا زوال • فاستنتجوا خطأ قِدم العالم المادي وعـدم وجود خالق لـه •

لقد تحطم قانون لاووازيه مع تحطيم الذرة وفلقها ومعرفة الألكترون والبروتون المشكلين للذرة • وثبت أن هذا العالم المادي مجموعة طاقات تكدست على شكل لا يعلمه الا الله تعالى حتى صارت مادة بأنواع مختلفة وترتيب يؤدي الى وجود هذا العالم بهذا النظام البديع • ولا يمكن حدوث هذه المراحل اللانهائية الدقيقة المترتبة والمؤدية الى هذه الحياة الا بالاعتراف بعاقل جبار لا نهائي وهو الله تعالى • ففي ملعقة من الزئبق طاقة تتمكن من تسيير قطار كبير سبع مرات حول محيط الأرض • وان الجهد الكهربائي الذي يمكن الحصول عليه عند انفلاق الذرة يعادل ستة ملايين وُلت حين أن جهداً كهربائياً مقداره ٢٢٠ وُلتاً يؤدي الى هلاك الانسان • وان قانون أينشتاين : $E = MC^2$ الطاقة الكامنة في الذرة تساوي الكتلة ، مضروبة فى مربع سرعة الضوء) يجعلنا نعلم مقدار ما كدّس الله تعالى من طاقات لايجـاد هذه العوالم •

وقد أثبت العلم الحاضر أن جميع ما في الكون من مواد وعناصر ستتلاشى فلا يبقى إلا وجه الله الكريم « كل شيء هالك الا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون »[1] وذلك لأنهم رأوا أن الالكترون الموجب يتصادم مع الالكترون السالب في بعض الأحيان فينعدم كلا الالكترونين ويفنيان وهذا ما يدعى (Annihilation de la matière) أي انعدام المـادة أو موت المادة • ان الله تعالى يقول : « كل من عليهـا فان ويبقى وجـه ربك ذو الجلال والاكرام » (٥٥/٢٧) •

ما أعظم القرآن حين يقدم لهذا البشر خلاصة ما يمكن أن يتوصل اليه العلماء بعد جهد جهيد •

---

(١) سورة القصص : ٨٨ •

أين (بخنر) هذا المادي المعروف حتى يرى ما توصل اليه العلم ، حيث جعل أساس الموجودات : القوى (أو الطاقات) وأثبت أن الموجودات : كلما ابتعدت عن المادية ، كلما كانت كثيرة التأثير وكثيرة الفعالية ، كالكهرباء والنفس والعقل والملائكة ... الى ما هنالك .

أين (بخنر) حتى يرى أن مئات الأطنان من مواد وعناصر تنعدم في كل ثانية في الفضاء وتتحول الى أشعة وأمواج وينقص بصورة تدريجية من وزن الأرض « أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها » (١) .

أولم يفكر هذا المادي من أين جاء لهذا الانسان هذا المنطق والاستنتاج والاستقراء والتعميم والتجريد . وكيف تمكن من النطق وربط ما في الدماغ بالناطقة . أفيحدث كل ذلك بأعمال انعكاسية !؟ وما معنى الانعكاس في حل المسائل المجردة وما تأثيره ؟ ان هذا لهذيان !

وهل التفكير عمل ميكانيكي وهل هو نتيجة الڤيتامينات التي تأتينا مما نأكل ونشرب . فلماذا لا يمكن معالجة الغباوة والبلاهة وايجاد نبغاء بالڤيتامينات ، فإن كان ذلك ممكناً لامكن أن يكون الناس كلهم علماء فى الرياضيات العالية ! وفهموا جميعاً « نظرية النسبية » بدساتيرها .

ولقد جرحت نظرية « العقل السليم في الجسم السليم » . فقد شاهدت في الجامعة شاباً نحيفاً ضعيف المزاج ، كان بارعاً في الفيزياء الرياضية العالية . وما قولك في الرياضيين برياضات بدنية (Athlètes) ، فلقد وجدتهم أبعد الناس عن التفكير المجرد . وهل علم العلم المادي كيف يحدث النبوغ وما سببه . هل هو مادي بحت ، أم ماذا ؟

ثم من أين جاء لهذا الانسان الحدس (Intuition) وما علاقة (الحدس) بالأعمال الانعكاسية ؟. ان الرياضي ليعترف أن (الحدس) يلعب دوراً هاماً

(١) سورة الرعد : الآية : ٤١ .

فى حل المسائل الهندسية والحسابية وكشف النظريات ، وقد يصل الانسان الى حل مسألة بإلهام خاص .

ثم ان الصدفة (المصادفات) تلعب دوراً هاماً في المكتشفات الحديثة ، فبينما يعمل المكتشف في تجربة ما ليعلم ماذا سيحدث بنتيجة هذه التجربة واذا بـه يسهو فيربط الأسلاك على غير ما يريد ، فتحدث حوادث جديدة وخواص غريبة فتفتح على المكتشف أبواباً جديدة من العلم . وهكذا كشف ربط الاسلاك بصورة متوازية في الاعمدة (بحث الكهرباء) وكشفت الاشعة السينية (Rayon x) وكثير من مخترعات أخرى لا مجال الى ذكرها . ذلك لأن الاكتشاف هو الظفر بما أودع الله من خواص ودساتير في الكون . وهل للمادة الصماء أن تضع دساتير ؟

ذكر لنا مدرس الهندسة التحليلية في الجامعة ، أنه قد أشكلت عليه مسألة ، فكلما فكر فيها لم يقوَ على حلها . وذات ليلة رأى في ما يرى النائم انه يحل المسألة بصورة صحيحة . فانتبه من نومه فزعاً وقال لزوجته ائتيني بالسراج حالاً لأدوّن الحل ، فأتت له بالسراج ودوّن الحل وكان الحل صحيحاً .

يقال : ان العقل الباطن كان يعمل طيلة ليلته في حل المسألة . ما حقيقة العقل الباطن ؟ وما الذي جعل العقل الظاهر مع ما بذل من جهد جهيد طيلة أيام أن يتقاعس أو يعجز عن الحل ، حتى تصل النوبة الى العقل الباطن ؟ وما النسبة بينهما ؟ أللانسان عقلان ؟ ثم ما حقيقة الحدس ؟ وكيف يلهمنا حلولاً عجيبة لم تكن بالحسبان . وما علاقة العقل الباطن أو الحدس بالالهام؟ وما مبلغ علم البشر بهذه الحالات النفسية ، فإنه لا يتجاوز عن بعض الظواهر بصورة ناقصة ! ونظريات تجرح وتعدّل من وقت الى وقت .

***

قد قطع قسم كبير من ظفر (أديسن) أثناء قيامه بتجربة في مختبره • فزاره صديقه المهندس • وتأسف لما حدث • فقال له (أديسن) : سأعرض ظفري هذا على طبيب حاذق ، وسيعيده على ما كان عليه بعد مرور ٤٠ يوماً • فقال المهندس متعجباً : « ومن هذا الطبيب الحاذق ؟ » فقال أديسن : هو الله •

غريب أمر هؤلاء الماديين • فانهم مع جهلهم واخفاقهم فى فهم العلوم المادية • كنظرية (أينشتاين) النسبية ، يعطون أحكاماً سخيفة لا تتفق والواقع في شيء • هل كان أحد هؤلاء الماديين يقوى على حل ما صعب من معادلات تفاضلية (Equations différentielles) وهل كان أحدهم يقوى على حل غوامض نظرية السطوح في الهندسة التحليلية ؟

غريب أمر هذا المادي • انه يرى أن المكتشف يصرف سنين من الوقت للعثور على قانون أو نظرية مع ما أوتي من قوة في التفكير والمحاكمة والحافظة وتفوّق على الأقران • ثم يقول بعد ذلك كله : ان المادة (الصماء) هي التي صنعت لنفسها هذا القانون وشقت طريقها لتنال كمالاً أو لتتكامل ! أو أن تكامل هذا الكائن الحي كان نتيجة طفرة ! Mutation أو طفرات عجيبة !• (Mutations tératologiques) • ولا يفكر أن ارادة الله هي التي مكنت لهذا الكائن الحي أن يأخذ بهذه الطفرة المرادة من جانب الله شكلا خاصا • وأن ارادة الله تعالى ومشيئته هي التي أوجدت الامكانيات •

أنى لهذا الكائن الحي وهو في غاية الضعف وتمام الاحتياج (كالانسان) أن يوجد لنفسه من العدم شيئاً ويؤسس لنفسه طريق التكامل • فما بال الانسان لا يقوى على ذلك ؟•• ليجعل نفسه غير محتاج الى كثير من الأشياء • لكنها هي النفوس تضل وترتدّ بسوء اختيارها ومجونها وطيشها •

ان الله تعالى يقول : « ولو شاء ربّك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً •

أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين • وما كان لنفس أن تؤمن الا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون • قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (١) •

ويقول الله تعالى في مكان آخر : « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » (٢) •

وفي آية أخرى : وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون • كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين • ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون (٣) • لقالوا انما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (٤) •

كانت فرضية (Hypothèse) التطور : (Evolution) وأعني بها فرضية : (لامارك ــ داروِن) • قد أثرت في نفوس كثير من الناس ، ففسروها تفسيراً خاطئاً حسب ميولهم النفسية ، مما أدى الى الاعتقاد بأن الكائن الحي في تغير مستمر من تلقاء نفسه وليس له حالة ثبات ولا استقرار ، وأن هذا الكائن الحي يتلاءم (Adaptation) في نموه مع البيئة ، فيتغير بحسبها • وان البيئة هي المؤثرة في تغير وتطور هذا الكائن الحي بما فيها من مؤثرات وعوامل ! حتى أنهم أرادوا تفسير ما يدرس في علم طبقات الأرض من مواضيع حسب هذه النظرية المغلوطة • حتى أن البعض منهم فسروا أخلاق الأمم ومعتقداتها حسب هذه النظرية وعزوها الى اختلاف البيئة أو المحيط !

---

(١) سورة يونس : ١٠١ . (٢) الانعام : ١١١ .
(٣) يعرجون : يصعدون . (٤) سورة الحجر : ١٥ .

ولكن سرعان ما وجد علماء آخرون شكّوا في صحة تطبيق نظرية (دارون) وفحصوا الكائنات الحية على اختلاف أنواعها فحصاً دقيقاً وجربوا واختبروا كثيراً فلم يظفروا بما قاله (دارون) من حلقات رابطة بين الكائنات الحية جميعها . وعلموا أن الكائنات الحية قد خلقت كل حسب فصيلتها ونوعها بصورة مستقلة دون أن يتكامل عن (آميبا) = الكائن الحي ذي الخلية الواحدة .

وعلموا أيضاً أن التركيب الوراثي (Génotype) والتركيب الحيوي (Biotype) هما أساساً الأنواع . وهما يبديان مقاومة دائمية عنيفة تجاه الحوادث الخارجية أي لا أثر للبيئة عليهما أبداً . ولقد ثبت أيضاً أن ما هنالك من استعداد وقابليات للتكامل والنمو في الدواب والكائنات الحية ، موجود ومعبأ في العامل الوراثي (Géne) أي في ذرات النطفة بصورة ثابتة ولا تأثير للبيئة في حصول هذه التطورات والتغييرات .

كما أنه لا تأثير للبيئة في حدوث الطفرات (Mutations) التي نشاهدها في ذرات النطفة أي في (Géne) . وأخفقت النظرية القائلة : « ان تغيرات البيئة التدريجية هي السبب الرئيسي في حدوث الطفرات » .

يقول أميل كوينو (Emil Guynot) : « ان الطفرات تحدث دونما علة أو سبب ، بل بالصدفة » . وهذا دليل على أن هنالك خالقاً قد أمر بهذه الطفرة وكوّنها . وهذا ما أدى الى هانري بركسون (Henri Bergson) الفيلسوف الفرنسي أن يكون موحداً .

« وفي كل شيء له آية تدلُّ على أنه واحد »

عبثاً يحاول هذا المادي أن يبرهن ويثبت ، وان سمى المادية مادية نظرية أو جدلية . ذلك لأنه يعترف في كتاباته حين يعجز عن الاستدلال : أن العلم لا يؤيد ما يقول . وانما العلم سيكشف له فى المستقبل صحة ما يدعيه الآن ، وصحة ما يعجز عن فهمه وتطبيقه وفق معطيات العلم في الوقت الحاضر ! وهل

يجوز التمسك بقواعد نظرية تخالف العلم ، رجاءَ أن يأتي زمان يكشف فيه العلم صحة النظرية !

فأنت أيها المادي ، جئت ، مع جهلك بحقائق الكون ، جهلاً غير متناه ، بنظرية « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ [1] الجبال هدًّا » (سورة مريم : ٩٣) .

***

ولنعد الى ما يقوله المادي (Matérialiste) ، انه يقول : الوجود قديم ، وان المادة قديمة ، وهي مصدر كل ما وجد في العالم ، تلازمها خصائص لاتنفك عنها وهي ترقى من الجماد الى أكبر عالِم ألمعي ! والمادة مقودة بنواميس غير متزلزلة ، ولا عقل للمادة ولا شعور . ولكنها تعمل في خلق أشياء في غاية الاتقان وكمال النظام ! لا تنفك عن حكمة وعقل جبار ، وان ما يُرى من آثار التدبر والتعقل في سير الحوادث وارتباطها ينتهي بالتحليل العلمي ! الى المادة الأولية وما فيها من خصائص ذاتية . ولا شيء وراء المادة . وما يقال عن ما وراء الطبيعة ونزول كتب سماوية وارسال أنبياء انما هو كلمات فارغة تمسك بها الجهال وبعض الناس لأغراض خاصة ومصالح معينة ، وسوف لايمضي قرن أوقرنان حتى نرى العالم أجمع يدينون بالمبدأ المادي ويسيرون على المحجة المادية البيضاء ! ويخرجون من دياجير الظلمات والخرافات الى حيث الحق والواقع !

هكذا يتخبط المادي في ادعاءآته ومن عندياته ومتناقضاته . انه يقول : الوجود قديم ويريد به المادة ، ويقول المادة قديمة . هل من الطريق العلمي أن ندعي شيئاً دونما دليل . فاذا كان المادي يتبنى فلسفة حسية ، فكيف يجوز له أن يدعي شيئاً لم يحسه ولم يره ، وأن يقول بقدم المادة وأنها غير

(١) تخرّ : تسقط .

مخلوقة ، مع اعترافه أنه يجهل أصول الكائنات ومصائرها • وهل يتمكن المادي أن يتسلسل بصورة غير خيالية ، بصورة غير ظنية ولا حدسية من المادة الاولى الى وجود العقل الانساني ، فيوضح لنا بصورة متقنة وأدلة متينة مراحل هذا التسلسل وعللها • هل له أن يقول مثلاً عن علة حدوث الماء بنتيجة اتحاد الاوكسجين والهايدروجين بنسبة معينة بعد امرار تيار كهربائي • ما أثر هـذا التيار وما حقيقته ؟ هل تمكن المـادي من أن يفسر لنا حقيقة الجاذبية ومن أين أتت وكيف صارت وهكذا يفسر لنـا حقيقة الكهرباء وحقيقة (الابصار) ، وحقيقة السماع ، وحقيقة العقل ، (ولعله لا يعترف بالعقل !) ألم يتوغل هذا المادي في أعماق العلوم كي يرى هنالك من مجاهيل لاتتناهي عددا وإحصاءا ، ألم يعلم عندما اكتشفت (الاشعة الكونيـة) نادى العلماء بصوت رفيع : أننا أصبحنا أمام أودية من المجاهيل ••• ماذا يقول المادي ، لو سألناه : هل مجهولاتنا بالنسبة الى ما في هذا العالم من خصائص ومعادلات وحقائق أكثر أم معلوماتنا الناقصة التي تصحح وتعدل يوماً بعد يوم •

أليس الأفضل أن يتمسك المادي بآخر ما توصل اليه العلم الحديث من حقائق الذرة ، فيعترف بأن المادة مخلوقة • وانها طاقات تكدست فأصبحت مادة بمقدار معين على ما ثبت أخيراً فى علم الذرة • « انا كل شيء خلقناه بقدر » (١) • ذلك لأن الشيء غير مؤثر في نفسه وغير قادر أن يغير شيئاً من ذاته • فالتمسك بما أثبته العلم بعد جهد جهيد أولى من التمسك بأمر خيالي لا يدعمه دليل • فاذا كان الأصل هو الطاقـة (لا المادة) وأن الطاقات تكدست فكانت عناصر مختلفة كالحـديد والأورانيوم والألمنيوم و ••• وأشياء أخرى لا نعلمها بنسب معينة وبنظام خارق ومعادلات متقنة : « وكل

(١) سورة القمر : ٤٩ .

شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » [١] ، اذن وجب أن نعترف للطاقة بعقل جبار وفعالية غير متناهية وادراك وشعور • وهذا ينافي ما يدعيه المادي • وبما أن الشيء حسب قانون القصور الذاتي الثابت في علم الفيزياء ، غير مؤثر في نفسه ، فلابد من مؤثر خارجي قد أثر في هذه الطاقات بحكمة فائقة وتدبير خارق ، وهو لا يشبهها في شيء ، حتى كان هذا العالم الذي نراه •

ثم نسأل المادي : أليست المعادلات ووضعها نتيجة عقل مفكر جبار ، لا سيما اذا كانت متعددة تكاد لا تحد ، أليس تنظيم أجزاء وأعضاء الحشرة أو الحيوان دليلاً على عقل فعال ، لا سيما اذا كانت هذه التنظيمات في الجماد والنبات والحيوان متعددة الى حد تكاد لا تتناهى وبأشكال مختلفة ونظم حكيمة متباينة ، هذا عدا ولوج الروح فيها •

ثم هل الترتيب بين الأجزاء يولد الحياة وما العلاقة بين الترتيب والحياة؟ وليس هناك الا دعوى وخيال وهوى نفس ضلت عن الطريق بآثامها وقساوتها• « انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » • ان المادي يقول بنظرية لابلاس : ان الشمس والكواكب التابعة لها كانت في البداية قطعة من السديم ، ثم انتزعت منها هذه الكواكب والى مسافات معينة وصارت تدور حول الشمس بحكم الجاذبية ، وان الأرض كانت ابتداء قطعة من نار : (معادن مذابة) كما يظهر لنا ذلك عندما ننزل الى باطن الأرض مسافة يعتد بها • فإن درجة الحرارة تزيد (٣٠) درجة مئوية لكل كيلو متر عمقاً • وهكذا تبلغ نحو عمق (٥٠) كيلومتراً من سطح الأرض درجة انصهار الصخر • وهي تقع ما بين ١٢٠٠ درجة مئوية و ١٨٠٠° م • والبراكين وما يخرج منها من صخر منصهر خير دليل على ذلك • فالكرة الارضية ، بناء على هذا ، تتألف من قشرة كروية جامدة سمكها نحو ٥٠ كيلومتراً ، تلتف حول قلب الأرض

(١) سورة الرعد : ١٠ .

التي هي نار حامية : من صخر مصهور ومعنى هذا أن لب الأرض سائل « أوَلم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » (١) .

فاذا كانت الأرض عند انتزاعها عن الشمس ناراً حامية فلا يبقى فيها كائن حي ولا أساس للحيوية . فكيف يفسر لنا المادي وجود الكائن الحي على وجه الأرض وكذا النبات وما فيه من نظم وجمال .

وكيف بالتحليل العلمي يمكن ارجاع عقل الانسان الى المادة الاولى الأزلية ، لا سيما بعد الاعتراف بأن الأرض كانت قطعة نار سيالة حامية . ومن أودع فى المادة الاولى هذا العقل الجبار لتضع دساتير رياضية رصينة في هذا الكون ، وتتسلسل هذه المادة وتتدرج مراحل تكاد لا تتناهى : مراحل معقولة حكيمة ، ثم تنظر في حاجة ما سيوجد في المستقبل ، فتهيئها قبلا ، وهل للمادة الصماء غير العاقلة (على ما يقوله المادي) أن تفكر في مستقبل الاشياء وحاجاتها وتعين مثلا أوقاتاً لخروج السن والشعر في الانسان والحيوان ... الخ

حقاً ان التفكير المادي تفكير عامي لا يمت بالاسلوب العلمي بصلة : « ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس » (٢) .

يقول (روبينيه) في كتاب « الفلسفة الحسية » :

« ان الفلاسفة الحسيين يريدون الابتعاد عن كل وهم وخيال وبناء فلسفتهم على المشاهدة المحسوسة . ولكنهم بعيدون عما يدعون كل البعد . وهل من الفلسفة الحسية أن يقال جزافاً بقدم المادة وأبديتها ، وهل من الفلسفة الحسية الحكم بعدم وجود عالم أرفع منها وهل منها : الاعتماد على افتراضات علمية غير ثابتة ومتزلزلة وبناء مذهب الحادي عليها » .

---

(١) سورة الأنبياء : ٣١ . (٢) سورة النجم : ٢٣ .

وهل يصدق الحس في ما يعطى من معطيات وما المصحح له ، أليس العقل ؟ فكيف يجوز الاعتماد على فلسفة حسية أساسها الحواس . وكيف يجوز الاعتماد على نظريات علمية لا ثبات لها ولا استقرار . وكيف يجوز أن تبنى فلسفة الحياة الاجتماعية : من اقتصادية وأخلاقية وادارية على نظريات تتبدل من حين الى حين . ألم يدرس المادي تاريخ العلوم . ألم يتتبع تغير النظريات وتحولها . وهل الفرضية : (Hypothèse) دستور رياضي مجرد لا يقبل الشك والارتياب . وهل وجود أتباع كثيرين لنظرية ما يدل على صحتها . « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » (٢) . (سورة الأنعام : ١١٦) .

ان المادي يقول : ان المادة مقودة بنواميس ثابتة غير متزلزلة . من الذي قاد هذه المادة حتى أمست مقودة تبعاً لهـذه النواميس ؟ هل المادة نفسها فكرت ، فوضعت هذه النواميس والقوانين ؟... فما بال الانسان وهو ذو عقل لم يعلم لحد الآن الا شيئاً يسيراً جداً عن حقائق حياة النبات والحيوان والدساتير الرياضية المودعة في هذا الكون . إذن ، عقل المادة فى الأزل أعظم بكثير من عقل هذا الانسان المتكامل علمياً يوماً بعد يوم . ومع ذلك يشكو جهلاً مريراً لا نهاية له .

ثم ان القوانين والمعادلات الرياضية التي تعمل في تنظيم هذا الكون وربط الأرض بالسماء وربط أجزاء السماء بعضها ببعض بمعادلات لا تعدّ ولا تحصى ، (وقد وجدت تباعاً) ، كيف كانت موجودة في الأزل في المادة ؟ والمادة كانت مشكلة من ماذا ؟ ومن الذي شكلها ؟

ان العلم الحديث يقول ، بعدم وجود مادة في الأزل . وانما طاقات أوجدها الله تعالى ، تكدست بارادته ، فصارت مواد كما يشاء سبحانه .

---

(١) يخرصون : يكذبون .

وتتلاشى هذه المواد فتكون طاقات وهذه بدورها تتلاشى فلا يبقى الا وجه الله ذو الجلال والاكرام .

ثم كيف قطعت الطاقات هذه المراحل الحكيمة التي هي في غاية الاتقان وتمام الدقة وتكاد لا تتناهى . ذلك لأن الكون على حد تعبير (آينشتاين) مجموعة دساتير رياضية .

وأين الدستور والعقل من المادة . وان المادي ينفي العقل عن المادة خشية أن يقال : ان العاقل الفعال والمسيِّر للمادة هو الله تعالى . وهكذا يستدل الفيلسوف الفرنسي (برگسون) على وجود الله جل جلاله . ثم ليقل لنا المادي ، اذا كانت المادة فاقدة العقل ، فكيف تحدث هذه العوالم المعقولة المتقنة بدساتيرها وخصائصها من مادة بلا عقل .

كيف يجوز الاعتماد على ما يقوله المادي : وهو ادعاء لم تثبت أركانه ، ادعاء أوهن من بيت العنكبوت ، ذلك لأنه حيث لا يجد جواباً مقنعاً يتذرع بكبريائه وغروره ، أي بهذا العلم الذي لم يقطع فيه البشر الا مراحل ضئيلة وضئيلة جداً ، يعترف بذلك كبار العلماء الباحثين ، لا اولئك الذين انحصرت دراستهم في مدارس بسيطة أياماً قليلة ، وتركوا البحث والتنقيب وصاروا يكتبون دونما تدقيق وتحقيق . يتذرع المادي بالعلم تذرعاً واهي الأركان ، متفكك العرى والأوصال ، بعيداً عن المنطق الطبيعي والفطري ، ذلك لأن العلم مهما كان ناقصاً يدل على موجد قادر متعال . وخلاصة القول : ان المادي ينسب (من عنديّاته) واقتراحاته وادعاءآته بل هذيانه الى العلم اعتباطاً ، ويسمي مدعياته وهوى نفسه نظريات علميـــة ! وبينها وبين العلم الواقعي الصحيح مسافات . وان قضية تاريخية أو قضيتين ، كافية لتجعل للمادي دليلاً وبرهاناً دون ملاحظة ما هنالك من عوامل .

ان المادي كلما عجز عن جواب مسألة تعرض عليه ، قال : « ان كنا نجهل

السبب الآن ، فإن العلم سيكشف لنا ذلك » . إذن كيف يجوز أن تملى على الناس نظرية الحادية واهية الأركان ، ويعوّل في اثباتها على ما سيكشف العلم فى المستقبل من مكتشفات .

ثم من الذي ألهم الحيوانات ، لا سيما الدنيئة منها ، ما به قوامُ حياتها قبل أن ينتقل بطريق وراثي ؟ وما حقيقة الانتقال الوراثي على الوجه الصحيح ؟

ان المادي يقنع بالتعريف فحسب ، فيقول : جاذبية ، وراثة ، دون أن يتوغل فيقول لنا عن الماهية والواقع . وان الوصف اللغوي أو الاصطلاح لا يغني عن الحق والواقع شيئاً .

حقاً ، ان المادي قد حجب نفسه عن المنطق الصحيح ، (هذا المنطق الذي يستعمله في حل المسائل الكيميائية أو الفيزيائية) ، حين يأتي دور ارجاع المخلوقات المترتبة غاية الترتيب الى مرتب حكيم عليم . ذلك لأن قضية الاعتراف بالخالق ليست بقضية منطقية فحسب ، بل هي رشحات النفس الزكية . فالقضية قضية نفسية بحتة ، لا أثر للمنطق في ذلك ، ومعنى ذلك : أن منطق هذا المادي منطق صحيح في العلوم المادية ، ولكنه ينسحب عندما يأتي دور الاعتراف بالله تعالى لظلمات في النفس « انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذن أبداً » . (سورة الكهف : ٥٦) .

ان المنطق الانساني منطق طبيعي ثابت الأركان ، لا تبدله الأهواء والنفوس مهما اصطلح عليه من اصطلاحات وعبر عنه بتعابير مختلفة، فالانسان انما يعترف بخالقه بنور منه . والمنطق الطبيعي ، اذ ذاك ، يؤيد ذلك . ولولا هذا النور لما أمكن الاعتراف وان قوي الشخص على حل أصعب المسائل الرياضية . «ومن لم يجعل له نوراً فما له من نور » . (سورة النور : ٤٠) .

ولا يحل هذا النور القدسي الا في نفوس فيها شيء من الصفاء • وقد اعتادت الى حد ما على عمل صالح واخلاق فاضلة ، بعيدة عن الخمور والفجور • •

نعم ، قد يصبح الانسان بفجوره وفسوقه ، فبظلمات نفسه أحط من الطير والجماد • فهما يسبّحان الله ويقدّسانه ، على حدّ قوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبّح له من في السموات والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون » (سورة النور : ٤١) •

فنحن نقترح على المادي أن يرتب لنفسه منهاجاً للقيام بأعمال صالحات لا لنيل مقام دنيوي أو طلب شهرة أو صيت ، ثم ليترك ما هو عليه من ارتكاب المحرمات ، لا سيما الكذب ، ليرى كيف تزكو نفسه شيئاً فشيئاً ، فتحل فيها معرفة الخالق ، فخشوع ، فطمأنينة مابعدها طمأنينة ، « ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب » • (سورة الرعد : ٢٨) •

ليعلم المادي أن هذه النظريات الفلسفية ! التي اخترعها والتي يعتمد عليها الآن هي نظريات متحولة ، متبدلة ، سيظهر له فسادها بعد حين ، كما ظهر فساد كثير من النظريات العلمية والفلسفية منذ العهد اليوناني الى يومنا هذا ، وسيأتي يوم يكون فيه أكبر عالم في يومنا هذا تلميذاً لأولئك الذين سيظهرون بفضله تعالى بعد أعوام أو قرون •

ثم ان النفس الانسانية ليست من المادة فى شيء • فلا يجوز تطبيق خواص المادة وقوانينها في تكميل النفس الانسانية وسير الانسان التكاملي ، وجعل الاقتصاد أساساً لكل فضيلة • ولا يعلم حقيقة النفس وطرق تكاملها الا خالق النفس وهو الله تعالى • فوجب إذن ، أن يبعث الله أنبياء ومرسلين حاملين دساتير نفسية من عنده تعالى لتكميل البشر •

إن كل ما يسنّه البشر لتكميل نفسه ملوّث ، مبتور ، آت من رشحات نفس ملوثة ناقصة • إذن ما يترنم به المادي لظلمات نفسه : من عدم انزال

كتب سماوية وارسال أنبياء ، انما هو كلام فارغ لا يدعمه دليل . «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون» (١) .

فجدير بالمادي أن يتنازل عن غروره وأن يقطع بأن خالق الكون يريد بهذا الانسان الكمالَ ، ذلك لأن سنّة الكمال ضاربة بأطنابها في هذا العالم ، فلا ينبغي أن يستثنى منها هذا الانسان ، وما يسنّه الناقص ناقص . والله أعلم بما خلق ، وأعلم بطرق تكامل نفس خلقها ، وهي النفس الانسانية . وأن يقطع أن الله أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين بغية تكميل هذا الانسان ، ومعهم جميع ما يحتاجه الانسان في شتى الحقول ، من نفسية وعبادية ، واجتماعية وقضائية وادارية واقتصادية ، وان دين الاسلام وهو خاتمة الأديان مستجمع لجميع ما يؤدي الى تكامل هذا البشر ولم تمسه يد التحريف ، فجدير به أن يتخلى عن غروره ، وطيشه وغلوائه ، وفجوره وخموره . وأن يتمسك بدين محمد خاتم النبيين (ص) ، لكي يعلم بعد قليل ما كان عليه من خطأ فاحش وظلمات بعضها فوق بعض .

***

ان الفلاسفة الواقعيين يعتقدون أن علمنا ومعرفتنا بالنسبة الى الأجسام تبقى ناقصة الى الأبد وأننا لا نعرف الا أفكارنا الخاصة .

ان القرن التاسع عشر كان قرناً متّسماً بالمادية ، فقد ساد الاعتقاد في الاوساط المادية أن المادة هي كل شيء وان الانسان يساوي كذا غراما من الآزوت وكذا غراماً من الحديد وكذا غراماً من الكالسيوم وكذا غراماً من الماء (بما فيه من اوكسجين وهايدروجين) . . . الخ . . وليس وراء ذلك شيء ! ولم يُحسب للروح أو النفس والعقل حساب . وصاروا يدعون أن العقل وليد المادة والمادة هي التي تخلق النفس والعقل ! (ولا تنسَ قول علي عليه السلام : كثرة العلم في غير طاعة الله مادة الذنوب) .

---

(١) سورة البقرة : ٩ .

حتى اذا تقدمت العلوم المادية بما فيها الفيزياء الرياضية وعلم الذرة وتقدمت الرياضيات العالية بما فيها الميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي ، وتطورت الفلسفة على ضوء هذه المكتشفات التي هي مفخرة القرن العشرين ، أخذت تقول الفلاسفة الواقعيون والعلماء الحقيقيون (أولئك الذين لم تلوث نفوسهم) : أن العقل هو الكل في الكل ، والعقل هو مسير المادة ، وصاروا يعتقدون أن هناك عالماً آخر وراء العالم الذي تنحصر فيه الفيزياء ، وأن هذا العالم وحدة روحية أو عقلية وأن العقل وحده هو الشيء الحقيقي ، وان المادة هي من مخلوقات العقل ، بخلاف ما كان يقال قبل ٥٠ سنة حين طغيان المسلك المادي . والنفس هي الأساس والمادة خادمة لها وان الروح أو النفس لا تفنى بعد موت الانسان .

كل ذلك لما رأوا من عجائب ما أودع الله تعالى في الكون تحت دساتير رياضية رصينة ، وحقائق لمسوها في بنية الذرة لا يمكن أن تفسر الا مع الاعتراف بخلاق عظيم وعقل فعال [1] .

وهكذا يتكامل الفيلسوف فى معتقداته وفي فلسفة يتبنّاها لو تكامل نفسياً . والدكتور جود (Dr. C. M. Joad) خير مثال في ما نذهب اليه . انه يقول : عندما تخرجت من الجامعة كنت لا أعي ولا أفهم شيئاً عن حقيقة الكون وكنت أعتقد : أن المادة ، الحياة والقيمة : (Matter, Life and Value) هي أمور مختلفة ، مستقلة بعضها عن بعض ، اجتمعت لتتفاعل بعضها مع الآخر . ثم عدلت عن هذه العقيدة ، وعلمت ان هذه الاشياء الثلاثة هي على الأرجح وجهات لوحدة واحدة أو مظاهر لفعل إله خالق .

لو سألت أحد هؤلاء الماديين لماذا يجذب المغناطيس الحديد ولا يجذب الرصاص ، يعجز عن الجواب وغاية ما يقول : ان هناك خاصية في هذا الجسم

---

(١) وكان لاحضار الأرواح (على ما يعبرون !) ، هيبنوتيزم (Hypnotism) واسبيريتيزم (Spiritism) أثر فى التوجيه الروحي .

دون غيره . ونحن نسأل كيف اكتسب هذا الجسم هذه الخاصية دون غيره . وما حقيقة هذه الخاصية وما حقيقة الجذب ؟ ومن هو الواهب لهذه الخاصية ؟ هذه أسئلة يجيب عنها المادي بكلمة واحدة : « لا أعلم » . أو : « سوف يكشف لنا العلم ذلك » . وهل يجوز لمن يدعي العلم أن يتكهن بقوله : « ان العلم سيكشف لنا » ويبني نظريات مغلوطة على أساس واهن . ثم يقول نفسه: « قد انصرم دور الكهانة ونحن نعيش في عهد الحقيقة والواقع ، عهد العلم والحقائق وقد خرجنا عن دور الاحتمال ! » .

ان الله تعالى يقول : « ما لهم به من علم الا اتباع الظن » [١] .

انظروا كيف يفصل الله جل جلاله ما خلق من أنواع النبات والابداع الكامن فيها . انه تعالى يقول :

« وهو الذي أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نباتَ كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان [٢] دانية [٣] وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه [٤] . ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » [٥] . وان ما دوّن في كتب النبات تفسير لبعض ما جاء في هذه الآية الكريمة . وسوف تدون كلما تفضل الباري جل جلاله على هـذا البشر بالكشف والتنقيب آلاف الصفحات . ولكن لا يعتبر بكل ما دوّن في الموسوعات الخاصة بالنبات وما سيدون الا المؤمنون ، على حد قوله تعالى في نهاية الآية : « ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة يونس : « ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » .

نعم ، لابد للمعتبر بهذه الآيات البينات من قليل من التقوى فقليل من

---

(١) سورة النساء : ١٥٦ . (٢) قنوان : جمع قنو : عنقود التمر .
(٣) قريبة التناول . (٤) حينما ينضج . (٥) سورة الأنعام : ٩٩ .

الايمان . ولا يعطى الشخص قسطاً من الايمان الا اذا كان له عمل صالح يقوم به من وقت لآخر : بصلة رحمه ولو بمقدار ضئيل ، أو مساعدته بعض الفقراء والمعوزين ولو كانت هـذه المساعدة قليلة جداً ، أو تفقده حال المساكين والبؤساء ، ولو بين فترات متباعدة الى ما هنالك . فإن هذا العمل الصالح على قلته وضآلته مصباح ضعيف الضوء ينير القلب ، فلا يطفأ العقل . فالعقل ، اذ ذاك ، يقوم بوظيفته الطبيعية في حدود معينة وهو توجيه صاحبه الى الخالق المعبود : « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » [1] . ان التقوى (اجتناب المعاصي) والمأكل الحـلال الطيب يفتحان على الانسان أبواب الهداية ، فيفرق بين الحق والباطل ويؤدي ذلك أيضاً الى القيـام بتكفير الذنوب وجلب غفران الله تعالى . تدبروا مفاد هذا الحديث لتروا كيف ان الله تعالى وسعت رحمته كل شيء وأراد بالناس جميعاً الاهتداء . فقد قال رسول الله (ص) : « أبى الله أن يجعل الباطل في قلب الكافر حقاً وأبى أن يجعل الحق في قلب المؤمن باطلاً » .

انظروا كيف يوضح الله تعالى أن العمل الصالح مقدمة لنيل الفيوضات الربانية ودرك أنوار الهداية الالهية . انه تعالى يقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبلَ السلام . ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » [2] ومعنى ذلك ان الله يهدي الفرد الى سبيل الهداية والسلام والى طريق يؤدي الى روح وريحان ، ان اتبع هذا الفرد رضوان الله تعالى بالاجتناب عما حرم الله والعمل بما أمر الله . نعم ، انه لينطفىء العقل انطفاءً تاماً أو ينسحب انسحاباً كاملاً اذا غـدا

---

(١) سورة الأنعام : ٢٩ . (٢) سورة المائدة : ١٦ .

الفرد جرثومة فساد وقسوة . « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » [١] .

فليست الآيات البينات والمعجزات الباهرات هي الكل في توجيه الشخص نحو خالقه . بل لابد من نفس بقي فيها شيء من الصفاء والنور ، لتبصر به الحق . انه تعالى يقول : « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » [٢] . وهو القائل أيضاً : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » [٣] . وفي آية أخرى : « ان الله لا يهدي القوم الظالمين » [٤] . وفي أخرى : « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » . (الأنعام : ٣٣) . وقد سد طريق الهداية على اولئك الذين خسروا أنفسهم بالمعاصي . « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » . (سورة الأنعام : ٢٠) .

فانحصر توفيق الاهتداء في أناس لم يبلغوا من الفسق والظلم مرتبة تسد عليهم أبواب الهداية ، فتنطفىء بذلك عقولهم . فيخرجون من زمرة أولي الألباب . انه تعالى يقول : « ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » . فالذي لا يعتبر بما خلق الله وبما أودع من نظام في اختلاف الليل والنهار لا يعد من أولي الألباب . وما على من وجد في اتجاهه الروحي زيغاً وانحرافاً الا أن يفتش عما قام به وما يقوم به الآن من ظلم وجور فيقلع عما هو فيه من اعتداء وتجاوز ، كي يسير في سيره التكاملي ، وتتجلى له الحقائق وينكشف له الواقع . فلا يمكن مد الأيدي الى ما وراء الطبيعة الا من زاوية تزكية النفس وتطهيرها من الأرجاس والأدران . وقد نص على ذلك كثير من الفلاسفة الواقعيين .

أنظروا كيف يصف الله تعالى ما أودع من نظام رصين في سير الشمس والقمر ، لا يعلم مدى ذلك الا من درس الرياضيات العالية ومعادلات الحركة

---

(١) سورة المؤمن : ٣٤ . (٢) سورة القصص : ٥٦ .
(٣) سورة الصف : ٥ . (٤) سورة الأنعام : ١٤٥ .

في الميكانيك الرياضي والميكانيك السماوي • على أن وراء ما توصل اليه الفلك العالي ، معادلات ودساتير كثيرة جداً بل دساتير لا تتناهى سوف يمنّ الله تعالى على المتتبعين من علماء الفلك بالكشف والعثور • انه تعالى يقول : « هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك الا بالحق نفصّل الآيات لقوم يعلمون » (١) •

حقاً ، ان المنغمرين في علم الفلك العالي على ضوء ما توصل اليه العلم الحديث ، قلّ أن ينحرفوا عن الاعتراف بعظمة الله الذي وضع هذه النظم الدقيقة والقوانين الرياضية • ورأيت منهم من تفيض عيناه بالدموع فرحاً وخشوعاً لله تعالى ، ولكنك ترى كثيراً من الملحدين ، ممن لا يستطيعون فهم معادلات الفلك العالي وقوانينه مهما حاولوا ، منحرفين عن الصراط السوي لكبر في النفس وقساوة في القلب • فقد جاء في الحديث : « ان أعمى العمى عمى القلب » • وقد أوضح لنا ربنا تعالى فلسفة الايمان بقوله : « الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » (٢) • أمثال بوخنر ، فورباخ ، كارل ماركس اليهودي ، انگلز ، شوپنهاور وغيرهم • ان الله يصف هؤلاء بقوله : « ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً » • (سورة الكهف) • ويصفهم بالجدل ، جدل ان دل على شيء فانما يدل على فساد فلسفتهم وفساد ما بني عليها من قوانين • وذلك بقوله تعالى : « ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل • وكان الانسان أكثر شيء جدلا » • (سورة الكهف) وبقوله : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتّبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه الى عذاب السعير » • (سورة الحج : ٣) •

---

(١) سورة يونس : ٥ • (٢) سورة المؤمن : ٣٧ •

الا أن هذا المادي سوف يعترف بالواقع لا محالة حين لا يفيده الندم على ما فرط في جنب الله : « ويوم يُعرض الذين كفروا على النار • أليس هذا بالحق • قالوا : بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » • (الأحقاف : ٣٣) •

انظروا كيف يتم الله تعالى الحجة على عباده ويأتي بدليل قاطع على وجوده بقوله : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة • ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » [1] •

أنى للذكر أن يخلق لنفسه أنثى ، ومن أين جاءت هذه الحاجة وكيف فكر هذا الذكر أن يجعل الأنثى بشكل يؤدي الى استدامة النسل مع تعقد المراحل في تشكل الجنين • هذا ما يقوله الفيلسوف (مونتني) • حقاً ، ان انكار الله تعالى ضرب من الجنون • فهؤلاء المنكرون هم مجانين جنوا على أنفسهم وعلى من هم على شاكلتهم ببغيهم وظلمهم وفسقهم ، فذهبت عقولهم • ومن ليس له عقل يدرك به خالقه فهو مجنون لا محالة •

في عهد الرسالة ، صادف رسول الله (ص) في طريقه رجلاً خولط في عقله ، فقال له أحد أصحابه : انه مجنون ، فأجابه رسول الله (ص) ما مؤداه : انه مريض ، والمجنون من لا يفكر في آخرته •

هل توصل هذا المادي الى فلسفة اختلاف الألسنة والألوان بصورة صحيحة عميقة ، دون الاكتفاء بالظواهر • وهل درى عوامل اختلاف الألسنة ، وكيف تكلم الانسان وكيف ارتبط اللسان بالفكر ، حتى أمسى معبراً عما يختلج في نفسه • وان الله تعالى يقول : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان في ذلك لآيات للعالمين • ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون • ومن

(١) سورة الروم : ٢٠ •

آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » [١] .

فحصر سبحانه وتعالى الاعتبار بالآيات الكونية وما أودع من حالات مختلفة تضبط بقوانين رياضية متقنة بالعقلاء دون غيرهم . أي أن العقلاء هم وحدهم يعترفون بعظمة الخالق ويتدبرون في أحوال الكون والحوادث الكونية ولذلك يقول تعالى في سورة الحشر : « فاعتبروا يا أولي الأبصار » . « وما يذّكر الا أولوا الألباب » . فلا بصيرة ولا لب لغير المؤمنين . وجلّ ما عند هؤلاء الملاحدة ذكاء أو تفكير يقوم بلطفه تعالى فى ادارة شؤونهم والهام العلاقات الموجودة بين الحوادث (سواء أكانت النفس ملوثة أم لم تكن) ، كل ذلك تفضلاً منه تعالى ، « قتل الانسان ما أكفره » . ولكن الاستبصار والتوجه الى مقامات القدس لا يتم الا في نفس زكية طاهرة . فهؤلاء هم أولوا الألباب حقاً ، لخروجهم من حضيض المادة الى تفهم ما وراء الطبيعة والعروج الى حيث الطمأنينة والخلود ، الى ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر .

---

(١) سورة الروم : ٢٧ .

هل من حاجة الى الدور والتسلسل في اثبات الصانع

جاء في بعض الكتب الكلامية بشأن اثبات وجود الخالق : أننا لو فرضنا أن ب مثلاً خلق ا ، و حـ خلق ب ، و د خلق حـ ، وهكذا ... ينتهي بنا الفرض الى ما لا نهاية له من الموجودات ، خلق المتقدم منها المتأخر . وهذا ، تسلسل ، والتسلسل باطل . لأنه لابد من خالق لم يخلقه آخر . حتى ينتهي الأمر الى خالق هو في الحقيقة خالق جميع الأشياء .

ومما لا شك فيه : أن المخلوق ليس فيه قابلية الخلق . لأنه ان كان فيه قابلية الخلق لأوجد شيئاً من العدم . أو تصرف في نفسه فحقق ما يريد . والمصنوع ليس بصانع شيء من العدم . أما صانع التلفزيون مثلاً فهو قد جمع أجزاءه مما وجده قبلاً . ووجد أن له عقلاً يعقل ويستنتج وهو لا يعلم كيف أتاه . يرى نفسه يأكل وتخرج فضلاته وتقوم أجهزته بأعمال دقيقة مختلفة وهو لا يحيط بكل ما هنالك من أسباب وعلل . ولا يعلم كيف كان كل ذلك . فليس للمخلوق أن يخلق شيئاً من العدم . ومن أين يأتي لهذا المخلوق قابلية الخلق من العدم ، وهو عاجز عن التصرف في نفسه . فاذا قلنا باستحالة خلق المخلوق شيئاً من العدم ، لم يبقَ مجال للقول بهذا التسلسل من المخلوقات أو من الخلاقين وجعلِ المتقدم خالقاً للمتأخر . د ، حـ ، ب ، ا . فلا ضرورة لهذا الفرض الباطل : (التسلسل) ، بل لا يبقى مجال لتصوره .

وأما الدور : فهو أن يكون وجود ا متوقفاً على وجود ب ووجود ب متوقفاً على وجود ا ، فأصبح وجود ا متوقفاً على وجود ا . أي وجود ا متوقف على نفسه . ويقولون ان هذا : (دور) ، والدور باطل ، أي توقف وجود شيء من الممكنات على نفسه باطل . لان الممكن لكونه ممكنا أي مصنوعا ومخلوقا من قبل غيره ليس له أن يوجد نفسه بنفسه حتى يكون وجوده متوقفاً على نفسه . والله تعالى هو الذي متوقف وجوده على نفسه

لم يُسبق بعدم وهو واجب الوجود ، أي لابدّ من وجوده لوجود هـذه المخلوقات بهذا النظام البديع .

لا أظن أن رجلاً قبل أن يدرس علم الكلام يفكر في الدور كما يفكر في ذلك المشتغل في علم الكلام . ذلك ، لأنه يرى أن كل ما فى الكون من نبات وحيوان وجماد مفتقر غاية الافتقار ، وذو حاجات شتى ونواقص عدة ومحل للحوادث ، ومضطهد تحت نير الحوادث والكوارث . وليس له أدنى تصرف بل ليس له أن يغير شيئا من تركيبه الاساسي من تلقاء نفسه . فلا يفكر أن هناك خالقين يتوقف وجود كل منهما على الآخر . حتى يأتي : دور توقف وجود الشيء على نفسه . بل يقطع أنه لابد من خالق لا يشبه خلقه في شيء . لما يرى من عجز وافتقار في من سواه . خالق لا تؤثر فيـه المؤثرات ولا الحوادث بل هو خالق المؤثرات والحوادث وموجدها . هو الذي خلق الأشياء برمتها ونظمها ورتبها ووضع فيها قوانين ليس للعلم أن يقف الا على جزء ضئيل منها . وذلك أيضاً بمشيئة الله والهامه المكتشفين تفضلاً منه ورحمة .

فلا أرى كثير فائدة من تمسك علماء الكلام بالدور والتسلسل في اثبات الصانع جل جلاله . لأن هذا النوع من التفكير ليس بطبيعي ولا فطري ، وليس بمعقول ، ولا تؤيده الحوادث . وان الانسان قد جُهز بفضله تعالى بعقل يحكم بوجود خالقه بصورة طبيعية دون اللجوء الى تعلم مناقشات الكلاميين والحكماء . بل قد يكون العامي أقوى اعتقاداً من الكلامي بوجود الصانع لنورانية في نفسه حصل عليها من جراء ما قام به من أعمال صالحات لوجه الله تعالى تعالى وعبادات خالصة دونما رياء . «والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » (١) .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (٢) .

---

(١) سورة العنكبوت : ٧٠ . (٢) سورة آل عمران : ١٤٢ .

استحالة معرفة الله معرفة تامة

اذا كان الانسان لا يقوى على معرفة نفسه ولا يتمكن من أن يتعرف الى حقيقة النفس أو الروح « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (١) • فأنى له أن يعرف خالق الروح معرفة تامة•

اذا كان الانسان لا يقوى على معرفة حقيقة الجاذبية الأرضية أو حقيقة القوة الكهربائية أو حقيقة الألكترون فأنى له أن يعرف حقيقة خالق الجاذبية وخالق الضوء والكهربائية وخالق الألكترون • وهل ترى أن المتناهي وهو هذا الانسان ، في مقدوره أن يحيط باللامتناهي وهو الله تعالى •

وما من شك أن ما خلق الله تعالى من عوالم ، تكاد لا تعدّ ولا تحصى • وقد عُلم أنه تتشكل في الكون كرات جديدة وتبيد أخرى • وان العلم الحديث ليعترف بالعجز عن الاحاطة بما أودع الله من خواص وقوانين رياضية ومعادلات رصينة تربط حوادث الكون وأجزاءه بعضها ببعض • وان علم البشر بالنسبة لهذا العلم اللانهائي : (الخواص والقوانين الكونية) شيء ضئيل وضئيل جداً : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » (٢) • وان علم الله تعالى الذي وضع هذه الخواص والقوانين لا يتناهى ولا يحاط به • اذن تنتج من هذه المحاكمة : أن علمنا : (علم البشر كله) ، بالنسبة الى العلم المودع فى هذا الكون يكاد يكون صفراً ، بل هو صفر ، ذلك لأن نسبة المحدود الى غير المحدود صفر • فاذا فرضنا علم البشر = ب • والخواص والدساتير التي

(١) سورة بني اسرائيل : ٨٧ • (٢) سورة الكهف : ١٠٩ •

أودعها الله تعالى في هذا الكون (أو الأكوان) = لا نهاية = ∞

$$\therefore \quad \frac{ب}{\infty} = ٠$$

اذن وجب أن نقول (بطريق أولى) ان علم البشر بالنسبة الى علم الله تعالى ، ذلك العلم الذي لا يدرك غوره ، صفر أيضاً ٠

فلنفرض علم الله = ∞

أي لا نهاية = ∞ مرفوعة الى قوة ∞

$$\therefore \quad \frac{ب}{\infty^{\infty}} = ٠$$ دون أي ريب ٠

فكيف يرجو هذا البشر أن يعرف الله تعالى معرفة تامة وأن يحيط به احاطة كاملة وهو في الحضيض ، (لكنه مغرور لما منّ الله عليه بمعرفة بعض الدساتير وبعض المكتشفات !) ٠

ان الماديين تذرعوا بسخافات عجيبة ، وأرادوا أن يروا الخالق في تحاليلهم الكيميائية أو تجاربهم الفيزيائية أو بعين مجردة ، أو مجهزة بمكبرة وغيرها ٠ حين أن الله ، وهو الذي لا يحدّه مكان ولا زمان ، هو خالق كل هذه الآلات وهو خالق العقل الذي قام بترتيب هذه الآلات Telescope . ٠

أنى للحواس الخمس أن ترى الله تبارك وتعالى وهي محدودة القوى والقابليات وكثيرة الأخطاء ٠ والعقل هو المصحح لهذه الأخطاء ٠ أوَما رأيت في بعض كتب الفيزياء خطوطاً مستقيمة مقطوعة بخطوط أخرى ، و نظرت اليها لألفتيها تتقاطع ولكن لو اختبرتها وجدتهـا متوازية ٠ وترى أيضاً خطين مستقيمين أحدهما أطول من الآخر ، ولكن لو دققت لوجدتهما متساويين في الطول وهذا دليل على خطأ العين ٠ والعقل وأعني به الذكاء أو التفكير هو المصحح له ٠

أو ما رأيت كيف يعوج القضيب حين يوضع قسم منه في الماء • وذلك لانكسار الضوء واختلاف سرعة الضوء فى وسطين مختلفي الكثافة (الهواء والماء) • ما الذي يصحح خطأ العين ويريك أن ليس هناك اعوجاج حقيقي • انما هو العقل •

وهكذا السراب فانك ترى أن هنالك ماءً وأشجاراً فاذا وصلت الى ذلك المكان ، لم تجد شيئاً ، كل ذلك بتأثير انكسار الضوء لاختلاف كثافة طبقات الهواء وترى النجمة في غير موقعها الحقيقي لنفس السبب •

هل رأيت كيف : أن الدرهم الملقى في قعر اناء فيه ماء كيف يرى في مستوى أعلى من القعر حسب قوانين الانكسار (Refraction) .

أرأيت كيف يحصل القوس والقزح • والألوان الزاهية على (وغف) الصابون المعروض لضوء الشمس بنتيجة التكاسر : (Différaction) وكيف يحلل الضوء بهذا أو بالمنشور • هل العين حين تشاهد هذه الألوان تعتقد أن هنالك تكاسراً او تعتقد ان ألوانا مختلفة وجدت في (وغف) الصابون • ما الذي يصحح هذا الخطأ •

ان الأذن لا تقوى أن تسمع صوتاً تردده [1] في الثانية أقل من (٢٠) أو أكثر من (٢٠٠٠٠) ذبذبة وان الاهتزاز وجميع ما يؤدي الى حدوث الصوت موجود لكن الاذن لا تسمع ولا تحس • لأن قابليتها محدودة •

إذن لا يمكن الاعتماد على الحواس الخمس في اثبات وجود الخالق وذلك لأن الحواس كثيراً ما تخطىء ولا يصحح هذا الخطأ الا العقل • فالعقل هو الذي يعتمد عليه في التعرف الى الأشياء • وبالعقل يعرف الله ويوحّد •

هل للحواس الخمس أن تشعر بتيار ضعيف على سلك ، كلا ، بل

---

(١) التردد هو عدد اهتزاز الجسم المهتز فى الثانية . أو عدد تذبذب الشوكة الرنانة ذبذبات كاملة في الثانية .

الـ (گلڤانو متر) هو الذي يعرفنا وجود هذا التيار الضعيف • ان الاخطاء البصرية كثيرة ، فلا يعتمد على البصر فحسب ، أي دون مداخلة العقل والتجربة لمعرفة الأشياء • أوَما ترى أن الأرقام البيضاء تبدو أكبر من الأرقام السوداء • ولا يمكن الاعتماد على حاسة اللمس دائماً • فاذا أمررنا كرة بين السبابة والابهام وهما متقاطعان فاننا نحس أن المار كرتان لا كرة واحدة • وعضو السمع لا يعطي الأثر نفسه في جميع الناس • فالموسيقيون يستطيعون تمييز النغمة الموسيقية الخاطئة فوراً • اذن لا يمكن أن نجزم أن الملاحظة السطحية المباشرة تطابق الحقيقة بصورة دائمة •

أنظروا الى ما يقوله علي عليه السلام فى هذا المقام : « الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد ، ولا تحويه المشاهد ، ولا تراه النواظر ، ولا تحجبه السواتر • الدال على قدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده وباشتباههم أن لا شبه له » •

فما هو الذي يجعل هؤلاء الماديين مع دراستهم للفيزياء وكثير من علوم الطبيعة أن ينكروا الخالق • نعم ! ان المؤثر الحقيقي في ذلك ، انما هو شهواتهم ونزواتهم وبغيهم وظلمهم حتى منعوا بذلك الفطرة أو العقل من القيام بعمله الطبيعي ، وحجبوه من ان يؤثر أثره • « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون » [١] •

« ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين • وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون • كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت [٢] سنة الأولين [٣] • ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا انما سُكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » [٤] •

ويتصور البعض بأنهم لا يمكنهم أن يعترفوا بوجود الله تعالى لأنهم

---

(١) يونس : ٣٥ . (٢) خلت : مضت . (٣) سورة الحجر : ١٤ .
(٤) سورة الحجر : ١٥ .

عاجزون عن ادراكه ، فالانسان السوي الذي لم يلوث الفطرة بما كسبت يداه والذي يتمتع بغريزة حب الاستطلاع العلمي لا يحتاج الى رؤية الله أكثر من حاجة الفيزيائي الى رؤية الألكترون • وكل محاولة في كلتا الحالتين باطلة ولا قيمة لها • فالألكترون لا يمكن ادراكه مادياً ومع ذلك فهو معروف تماماً بآثاره أكثر من قطعة من الخشب • ثم ان العلم يعترف بوجود فراغ غير مدرك تسبح فيه الألكترونات • فراغ ذي ثلاثة أبعاد لكل ألكترون وثلاثين بعداً لكل عشرة ألكترونات • ويعترف أن هذا الألكترون ما هو الا موجة احتمال،ويعترف بوجود جزيئات كالنيوترونات (الكهارج) والانتينيوترونات التي افترض وجودها لأسباب تناظرية رياضية بحتة • ويتقبل بدون تردد وجود تلك الكيانات المتناقضة ظاهرياً ولكنه يرفض ومع الأسف (باصرار) أن يتقبل وجود ذي قوة خارقة خلاقة ، كوّن هذه الأشياء التي يعترف بها مع عدم امكان رؤيتها بأية واسطة من الوسائط • « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » •

دخل رجل من الزنادقة على أبي الحسن : علي بن موسى الرضا (ع) وهو الامام الثامن وعنده جماعة ، فقال أبو الحسن عليه السلام : « أيها الرجل، أرأيت ان كان القول قولكم ، وليس هو كما تقولون ، ألسنا واياكم سواء شرعاً لا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكّينا وأقررنا • فسكت الرجل • ثم قال أبو الحسن عليه السلام : وان كان القول قولنا ، وهو قولنا ، ألستم قد هلكتم ونجونا • فقال : رحمك الله • أوجدني كيف هو ؟ وأين هو ؟ فقال : ويلك ، ان الذي ذهبت اليه غلط • هو أيّن الأين بلا أين وكيّف الكيف بلا كيف ، فلا يعرف بكيفوفية ولا بأينونية ، ولا يدرك بحاسة ولا يقاس بشيء • فقال الرجل : فاذن ، انه لا شيء ، (إذ) لم يدرك بحاسة من الحواس• فقال أبو الحسن عليه السلام : ويلك ، لما عجزت حواسك عن ادراكه أنكرت

ربوبيته . ونحن اذا عجزت حواسنا عن ادراكه أيقنا أنه ربنا بخلاف شيء من الأشياء . قال الرجل فأخبرني : متى كان . قال أبو الحسن عليه السلام : « أخبرني متى لم يكن فأخبرك متى كان » . قال الرجل : فما الدليل عليه ؟ فقال أبو الحسن عليه السلام : « اني لما نظرت الى جسدي ولم يمكني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجرّ المنفعة اليه ، علمت أن لهذا البنيان بانياً فأقررت به ، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وانشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات ، علمت أن لهذا مقدراً ومنشئاً » .

ومن الواضح أنه لا يعرف الله تعالى أحد حق معرفته الا هو . فقد جاء في الحديث : « سبحان من لا يعلم كيف هو الا هو » . انه تعالى يقول : « ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم » . فليس للبشر ان يعرف كيف خلق الله السموات والأرض وكيف خلق هذه النفوس . وبطريق أولى يستحيل عليه أن يعرف الله تعالى معرفة كاملة . لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « سبحانك ما عرفناك حق معرفتك » . ومعنى سبحانك: أي ننزهك ربّنا عن كل نقص ومن كل عيب ، فأنت الكامل الذي لا نقص فيه .

إذن كيف يجوز للناقص وهو هذا الانسان أن يعرف ربه معرفة تامة . الا أن هذا الانسان الناقص ، لو تكامل بتزكية نفسه وتطهير خلده واتباع أوامر مولاه (وهو الله تعالى) ، واجتناب ما نهى عنه ، يتكامل شيئاً فشيئاً تكاملاً عين الله تعالى له حدوده . فقد جاء في الحديث :

« أعلمكم بالله أخوفكم له » .

فيزداد هذا الانسان معرفة بالله تعالى حتى يكون مصداق هذا الحديث ، حيث قال رسول الله (ص) يوماً لعلي عليه السلام : « يا علي ، لم يعرف الله الا أنا وأنت ، ولم يعرفني الا الله وأنت ، ولم يعرفك الا الله وأنا » . كيف لا يكون

كذلك ، وان علياً عليه السلام كان يغمى عليه من خوف الله تعالى كل ليلة مرات . ولا شك أنه يراد من هذه المعرفة : أسمى مرتبة من معرفة يتمكن البشر من الوصول اليها بأذن الله تعالى . واما المعرفة الحقيقية فمستحيلة . لقول علي (ع) : « لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن » . ولقوله عليه السلام : « لا تناله الأوهام فتقدره ، ولا تتوهمه الفطن فتتصوره » وقوله (ع) :«فلسنا نعلم كنهعظمتك الا أنا نعلم انك حي قيوم » . وقوله عليه السلام : « عظم من أن تثبت ربوبيته باحاطة قلب أو بصر » .

قال رسول الله (ص) : « ان الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار . وان الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم » .

وقال موسى بن جعفر (ع) : وهو الامام السابع من الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام : « ان الله أعلى وأجل وأعظم من أن يبلغ كنه وصفه ، فصفوه بما وصف نفسه وكفّوا عما سوى ذلك » .

وقال علي عليه السلام : « لم يطلع العقول على تحديد صفته ، ولم يحجبها عن واجب معرفته » . لذلك نعرف الله ونوحده بالفطرة معرفة تتناسب مع امكانياتنا .

وقال عليه السلام أيضاً : « لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه بحقائق الايمان » . وقال عليه السلام : « فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من أثبته يبصره » .

أنى لهذا البشر العادي أن يعلم كيف هو خالقه ، فاذا كان علي (ع) وهو أكمل الخلق بعد رسول الله (ص) يقول : « كيف أصفه [1] بالكيف وهو الذي كيّف الكيف حتى صار كيفاً ، فعرفت الكيف بما كيف لنا من الكيف » فكيف بالآخرين . لا سيما اولئك الذين قيدوا أنفسهم بقيود من شهوات

(١) أي كيف اصف الله تعالى .

وبخل وحسد وكبر . فقد جاء في الحديث : « أصول الكفر ثلاثة : البخل والحسد والكبر » .

فمهما أوتي الانسان من علم وحكمة ليس له أن يصف الله تعالى حق الوصف ، لانه محدود فى كل ما يفكر والمحدود لا يحيط بغير المحدود . والمحاط لا يحيط بمن يحيط به « سبحانه وتعالى عما يصفون » . ولقد قال رسول الله (ص) : « لا أحصى ثناءاً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

وقد قال علي عليه السلام : « وكمال الاخلاص نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة » . وقال (ع) أيضاً : « لا تقع الأوهام على صفته » .

فمخلوقات الله خير دليل على وجود الله تعالى وهو القائل : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » . (سورة فصلت : ٥٣) .

قال بعض العلماء : « المتفرد بالوجود هو الله سبحانه ، اذ ليس موجود معه سواه . فإن ما سواه أثر من آثار قدرته ، لا قوام له بذاته ، بل هو قائم به فلم يكن موجود معه . لأن المعية توجب المساواة في المرتبة والمساواة في المرتبة نقصان في الكمال . بل الكمال لمن لا نظير له في رتبته وكما أن اشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاً فى الشمس بل هو من جملة كماله وانما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في المرتبة ، كذلك وجود العالم كله يرجع الى اشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً . اذن معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال » .

على أن في هذا التشبيه نظراً ، يجب أن لا يفوت القارىء اللبيب ، ذلك لان الشمس باشعاعها واشراق ضوئها (أو نورها) تفقد طاقة ، وليس الله تعالى كذلك ، « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » [1] .

---

(١) سورة الشورى : ١٠ .

ان الله تعالى يقول : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » . ذلك لأن كل إله يريد ما لا يريده الآخر . وهذا مما يؤدي الى الاختلاف والفساد في النظم التي تربط الأرض بالسماء . وان توافق الالهان ، فإن تأثير أحدهما كاف لايجاد ووجود هذا الكون . فيمنع تأثير الآخر فيه مرة أخرى . مع ما هنالك من اتصال وثيق بين ما نراه من دساتير فيزيائية وفلكية في السماء والأرض تربط البعض بالآخر ربطاً وثيقاً لا يجعل مجالاً للشك بأن المرتب واحد لا شريك له :

« أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، ءاله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمَّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالهـا أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً ، ءاله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون (النمل : ٦٢) .

وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام فى وصاياه : « واعلم يا بني ، أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته ، ولكنه اله واحد كما وصف نفسه ، لا يضاده في ملكه أحد ولا يزول أبداً » .

وان الله وهو الكامل على الاطلاق قد أخبر عن نفسه : أنه واحـد لا شريك له . « ومن أصدق من الله قيلا » .

وقد ذكر الصدوق قدس سره في كتاب التوحيد : « أن أعرابياً قام يوم الجمل الى أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أتقول ان الله واحد ؟ فحمل الناس عليه وقالوا : يا أعرابي ، أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسيم القلب ؟ فقال : أمير المؤمنين دعوه ، فإن الذي يريده هو الذي نريده من القوم .

ثم قال : يا أعرابي : ان القول في أن الله واحد على أربعة أقسام : فوجهان منها لا يجوز على الله عز وجل ، ووجهان يثبتان فيه . فأما اللذان لا يجوز : فقول القائل : واحد ، يقصد به بابَ الأعداد . فهذا لا يجوز . لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد ، ألا ترى كفرَ من قال : « ثالث ثلاثة .

وقول القائل : هو واحد الناس ، يريد به النوع من الجنس ، فهذا ما لا يجوز عليه . لأنه تشبيه ، وجل ربنا عن ذلك وتعالى .

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه : فقول القائل : انه واحد ليس له في الاشياء شبيه ، كذلك ربنا . .. وقول القائل : انه عز وجل أحديُّ المعنى ، يعني بأنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم ، كذلك ربنا عز وجل .

غريب أمر هذا الانسان ، كان فاقداً جميع ما عليه الآن من ملكات وقوى . ولولا أن الله تعالى منَّ عليه بهذا الفكر لكان حيواناً أو جماداً . فهو يفكر ويدبر بقدر ما أوتي من جانب الله تعالى من قوى .

فمن السخافة ان أراد هذا الانسان أن يعلم كيف أعطاه الله هذا المقدار من الفكر ، وكيف هو علم الله ، وكيف قدرته ، وكيف يقول للشيء كن ، فيكون ... وهو لا يحمل الا هذا الشيء القليل المحدود من الفكر بفضله تعالى . واذا سلط الله على عقله جرثومة ضئيلة لأمسى مجنوناً ومهزلة للناس أجمعين . الا أن الله يمهل ويؤخر هؤلاء المغرورين من الماديين المتحجِّرة عقولهم : (تلك العقول التي كانت مضيئة بالفطرة) ، لظلمات في النفس ، جاءتهم من جراء شتى المعاصي ، يؤخرهم : « اليوم تشخص [1] فيه الأبصار . مهطعين [2] مقنعي [3] رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم [4] وأفئدتهم هواء » . (سورة ابراهيم : ٤٤) .

---

(١) تفتح فيه الأبصار فلا تغمض هولا وفزعاً .
(٢) مسرعين . (٣) رافعيها الى السماء .
(٤) أي لا تطرف أعينهم بل تبقى شاخصة .

وهو القائل : « فـذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث [١] سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون [٢] خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة ، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » [٣] .

يقول الامام محمد الباقر : الامام الخامس عليه الصلاة والسلام : « ما سمي (يعني الله تعالى) عالماً قادراً الا لأنه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين . وكلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع من قِبلكم مردود اليكم » . ومعنى ذلك أن هذا الانسان الناقص يتصور لله تبارك وتعالى كمالاً يتناسب مع نقصه . لأن الناقص لا يترشح منه الا شيء ناقص . كما أن الكامل وهو الله تعالى لايترشح منه الا الكمال . فكلما فكر الانسان في الله تعالى لا يتجاوز تفكيره حدوداً معينة محدودة تقل عن الواقع مسافات لا تحدّ . فأفكارنا بشأن عظمة الخالق أفكار ناقصة مخلوقة من قِبلنا مردودة الينا ، لا توافق الواقع في شيء .

وقال بعضهم : لعل النمل الصغار تتوهم أن لله تعالى زبانيين ، لأنهما كمالها ، وتتصور أن عدمهما نقصان . هكذا حال بعض الناس في وصف خالقهم !.

***

قد اختلف جماعة من اللاهوتيين والأخلاقيين والعقليين والماديين في ما هم عليه من عقائد ونزعات . فأحبوا أن يتحاكموا الى (آينشتاين) ليروا رأيه في الله جل جلاله . فأجاز لهم أن يمكثوا عنده ١٥ دقيقة لكثرة أشغاله . فعرضوا عليه سؤالهم قائلين : ما رأيك فى الله ؟

فأجاب قائلاً : « لو وُفقت أن أكتشف آلة تمكنني من التكلم مع الميكروبات ، فتكلمت مع ميكروب صغير واقف على رأس شعرة من شعرات

---

(١) القبور . (٢) الى نصب : الى كل ما ينصب للعبادة . يوفضون . يسرعون . (٣) سورة المعارج : ٤٢ .

رأس انسان وسألته أين تجد نفسك ؟ لقال لي : اني أرى نفسي على رأس شجرة شاهقة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . عند ذلك أقول له : ان هذه الشعرة التي أنت على رأسها انما هي شعرة من شعرات رأس انسان ، وان الرأس عضو من أعضاء هذا الانسان . — ماذا تنظرون ؟ هل لهذا الميكروب المتناهي في الصغر أن يتصور جسامة الانسان وكبره ؟ كلا ، اني بالنسبة الى الله تعالى لأقل وأحط من ذلك الميكروب بمقدار لا يتناهى . فأنى لي أن أحيط بالله الذي أحاط بكل شيء بقوى لا تتناهى وعظمة لا تحد » .

فقام هؤلاء المتشاجرون من عند (آينشتاين) وعلموا أن الحق مع جماعة اللاهوتيين . انه تعالى يقول : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » [1] . وفي آية أخرى : « ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا » [2] .

ان المادي هو مصداق هذه الآية المباركة : « ان الانسان لربه لكنود [3] . وانه على ذلك لشهيد ، وانه لحب الخير لشديد » .

***

ما أعظم ما يقوله علي (ع) حين يصف عظمة الله تعالى بقوله : « الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ، ولا يحصي نعماءه العادّون ، ولا يؤدي حقه المجتهدون . الذي لا يدركه بعد الهمم ، ولا يناله غوص الفطن ، الذي ليس لصفته حدّ محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود » .

مالبرانش : (Malebranche) (١٦٣٨ — ١٧١٥ م) فيلسوف افرنسي موحد . له نظريات في التوحيد ، لا بأس بذكر البعض منها :

انه يقول : نحن ننتقل من فكر الى فكر ، ومن تصور الى آخر ، ومن

---

(١) سورة الانعام : ١٠٤ . (٢) سورة النساء : ١٢٦ .
(٣) كنود : كفور ، يجحد نعمة الله .

ممكن الى ممكن ، حتى ننتهي بوجود عظيم ، ممتنع ادراكه تماماً لعظمته ويستحيل معرفته معرفة تامة لعدم تناهيه . ذلك لأن كل موجود من الموجودات (سواه) قائم به . أما هو ، فمستغن عن أي مقوِّم . وهو قائم بذاته منذ الأزل . وهذا الوجود (أي الله تعالى) وجود لا نهائي .

انه يقول : بما اني في استطاعتي ان أتصور وجودا لانهائيا ، اذن وجب أن يكون هذا الوجود موجوداً ، لأنه لا يمكن تصور شيء معدوم [1] . اذن ، ربنا غير متناه ولا يحدّه شيء . ذلك لأني استطيع أن أتصور اللانهائي بقدرته . فالله هو واجب الوجود .

انه يقول : لا يمكن رؤية الله تعالى ولا فهمه حق الفهم ولا تفهيمه حق التفهيم . ويكفي في يقيننا أننا نؤمن بوجوده بآثاره .

انه يقول : « نحن ندرك وجود الله دونما واسطة ، حين أن الأشياء كلها (عدا الله تعالى) انما تدرك به تعالى وبما أودع الله من وسائط وأدوات . فلا حاجة لتجلّي مفهوم الله تعالى في أذهاننا الى واسطة أو أدوات . نحن لا نعرف الله بفكر وسيط . فانه هو الفكر ! وهو فكر الأفكار ومعطي الأفكار » .

هذا ما يقوله مالبرانش . ولكن ، انظروا الى ما يقوله سيد الأوصياء أمير المؤمنين علي عليه السلام فى هذا المقام في دعاء الصباح حين يخاطب ربّ العباد . انه صلوات الله عليه يقول :

« يا من دلّ على ذاته بذاته وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته وجلّ عن ملائمة كيفياته » .

---

(١) خلافاً لما يقوله (فورباخ) المادي ، حيث جعل ما هو دليل وجود الله دليلا على عدمه ، لظلمات فى نفسه . وقدسئل صديق لي عن الدليل على وجود الباري . فقال : « سؤالك هذا خير دليل على وجود الله » .

على أن لـ (مالبرانش) في القضاء والقدر ومسائل أخرى نظريات لا تتفق مع الواقع وما جاء في الدين الاسلامي . وأنّى لفيلسوف لم يستق الحقائق من خزائن آل الرسول سلام الله عليهم أجمعين أن يصل الى حقائق ثابتة غير متزلزلة .

ان (مالبرانش) يوافق صدر المتألّهين صاحب الأسفار بقوله : « الوجود خير محض والشر أمر عدمي » .

فطوبى لنفوس لازمت التقوى وجانبت الآثام وسفاسف الأمور حتى المكروهات فتجلت فيها الحقائق بفضل منه تعالى واضحة جلية ، لا غبار عليها ولا شكوك ، فعرجت الى عوالم القدس والحقيقة الأبدية ...

فقد قال علي عليه السلام : « ان من أحب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف ، فزهر مصباح الهدى في قلبه » .

وطوبى لنفوس تطلعت الى رحمات الله تعالى باخلاص وخشوع واعمال صالحات ، فقد جاء في الحديث القدسي : « ان لربكم في أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرّضوا لها » !..

لا تقاس الناس بالمال ولا بالجاه ولا بعلم لا يعمل به . بل تقاس بدرجة معرفتها خالقها أو بدرجة تزكيتها نفوسها . ولا تزكو النفوس الا بالتقوى . فتتعرف الى الخالق سبحانه بدرجة ما تقوم به من تزكية . « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . وفي الحديث : « رُبّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به ، لو أقسم على الله لأبرّه » .

***

ان مقياس الكمال عند الماديين هو : المادة !.. فمن كانت مادته من حيث المال والجاه أعظم ، كان الى الكمال أقرب . لذلك يخاطب (فرعون) قومه ،

هؤلاء الذين لم تفد فيهم دعوة موسى عليه السلام لفسوقهم وفجورهم كما تخبرنا الآية الآتية : « ونادى فرعون في قومه ، قال : يا قوم ، أليس لي ملك مصر • وهذه الأنهار تجري من تحتي ، أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين • ولا يكاد يبين ، فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فاستخف قومه فأطاعوه ، انهم كانوا قوماً فاسقين »[1] • حين أنه لا قيمة للدنيا ولا للمادة ، عند الله تعالى ، في مجالات التكامل • فان النفس غير المادة بل تضاد المادة • « الدنيا والآخرة ضرتان » • الا أن المادة تؤثر في الكمال النفسي اذا وقعت وسيلة خير وعطف ورفع حاجة الآخرين اوجه الله • وفي الحديث : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء » • والكافر هو الجاحد لنعم الله ، الذي لا يقوم بما أوجب الله عليه من واجب الشكر : من عبادات وأعمال صالحات • وهل هناك دين يعلّم البشر كيفية القيام بواجب الشكر كدين الاسلام • ولذلك عُدّ غير المعتنق لدين الاسلام وغير العامل به كافراً • « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فان يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » • (سورة آل عمران : ٧٩) •

يرى الاستاذ جب : « أن الاسلام ليس ديناً بالمعنى المجرد الخالص الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة • بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية » •

ويقرر الاستاذ (برج) : أن فلسفة الاسلام الاجتماعية تقوم دائماً على وضع المصلحة العامة فوق المصلحة الفردية • وذلك على عكس أوروبا التي تزعم أنها مسيحية • ويقرر في موضع آخر أن مبدأ الاخاء الانساني هو أساس فلسفة الأخلاق الاجتماعية في الاسلام • ولذلك يؤكد الاستاذ أن ليس

---

(١) سورة الزخرف : ٥٠ — ٥٣ •

هناك مجتمع آخر سجل له التاريخ من النجاح كما سجل للاسلام في توحيد الأجناس الانسانية المختلفة مع التسوية بينهم في المكانة والعمل وتهيئة الفرص للنجاح في هذه الحياة • ويرى الاستاذ أن لابد لأوروبا أن تتعاون مع الاسلام في سبيل تقدمها الروحي والثقافي •

هل هنـاك تولد ذاتي ؟

قد برهنت العلوم الطبيعية على أن ليس للبيئة أو الطبيعة أدنى أثر أو تأثير في خلق البشر أو الكائنات الحية ، وأن الكائنات الحية برمتها قد وجدت بالقدرة الالهية المتجلية في فعالية النطفة والعوامل الوراثية (جينات Génes) والكروموزومات .

ان ثلة من الناس (ومع الأسف) كانوا يظنون أن البيئة هي الخلاقة لبعض الحشرات أو الحيوانات . وكانوا يعتقدون أنه لو وضعت لبنتان نديتان احداهما فوق الأخرى تتولد بعد مدة يسيرة عقارب كثيرة بينهما .

ان هذه العقيدة كانت سائدة من لدن عهد (أرسطو) الى القرن السابع عشر . وان بعض الناس لا يزالون يعتقدون أن الديدان والضفادع والعلق تتولد من تلقاء أنفسها فى اللحوم الفاسدة العفنة أو في المياه النتنة الآسنة . ويظن البعض أن البيئة هي الخالقة لهذه الكائنات الحية ، وهذا ما يسمى بنظرية التولد الذاتي : (Génèration Spontanée) .

كما أن البعض يظنون أن (الأميبات) أو الكائنات الحية ذات الخلية الواحدة والأسماك والقواقع وغيرها انما تتولد في المياه بتأثير حرارة الشمس وضوئها ومواد أخرى موجودة في الماء . ودليلهم على ذلك أن السمكة لو اخرجت من الماء ، فانها تموت حالاً .

ولقد برهن العلم الحديث على أن البيئة ليست بخلاقة للحياة وانما هي عامل مساعد للنمو واستمرار الحياة . فقد أثبت (ردي Redi) سنة ١٦٨٨ م ، بعد اجراء تجارب عدة عميقة . أن الديدان التي تتولد في اللحوم العفنة انما تتولد من بويضات الذباب الموجودة في اللحوم ، ولولا هـذه البويضات لما وجد كائن حي .

كان يقول الطبيب البلجيكي (وان هلمونت Van Helmont) قبل

(٣٥٠) سنة : انه لو ملىء كوز بالدقيق وسد فوهة الكوز بقماش بال ملوث عتيق ، فإن الفأرة تتولد في وسط ذلك الدقيق • وان هذه الفأرة تأخذ بالتوالد بعد ذلك شيئاً فشيئاً •

إلا أن (ردي) فنّد هذه النظرية : بأن جاء بدورق زجاجي ذي عنق ملتوٍ طويل ، بعد أن وضع فيه قطعة لحم ، فعقم داخل الدورق وسد فوهته سداً محكماً • وجاء أيضاً بدورق آخر وضع فيه قطعة لحم ولم يسد فوهته ، فرأى أن الديدان تتولد في اللحم الذي وضع في الدورق المفتوح فقط من جراء ما تضعه الذباب من بويضات على اللحم • وقد أجرى هذه التجربة مع لحوم مختلفة ومتنوعة فرأى انه يتولد نوع واحد من الذباب مهما اختلفت اللحوم وتنوعت ، وفي نوع واحد من اللحم تتولد انواع مختلفة من الذباب لاختلاف البويضات التي تقع على ذلك اللحم من الخارج • فأثبت بهذه التجربة أن التوالد الذاتي فكرة سخيفة وأن التولد لا يكون الا عن بويضة سابقة أو تلقيح سابق : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » • (سورة الحج : ٧٢) •

ثم ان (ليون هوك Leewen Hoek) اكتشف المجهر Micro-scope) واكتشف بذلك الميكروبات (الجراثيم الحية) التي لا ترى بالعين المجردة • وضع (ليون هوك) قطرة ماء تحت مجهره فرأى أن الأحياء المجهرية: (الابتدائيات ذات الخلية الواحدة) تسير في هذه القطرة يميناً ويساراً • فأدى ذلك الى تنازل الماديين عن رأيهم السابق بالنسبة الى تكوّن الحيوانات والحشرات من البيئة أو بتأثير البيئة والمحيط • ولكنهم أخذوا يقولون بعد ذلك : ان المكروبات والكائنات الحية تتولد من تلقاء أنفسها في المياه العفنة •

ولقد حدث شجار عنيف بين الموحدين والماديين : (Matérialistes)

منذ سنة ١٦٧٦ م . وهي السنة التي أثبت فيها (ليون هوك) : أن ليس في المطر (حين تحول البخار الى سائل) كائنات حية ، وانما تدخل فيه كائنات حية حين هطوله وملاقاته (أي المطر) الأرض واختلاطه بالغبار والتراب . واستمرت الى سنة ١٨٧٦ م وهي السنة التي أيد فيها تندال : (Tyndall) نظرية هوك . حتى جاء (پاستور) وبرهن بصورة قطعية ، أن لا تولد ولا توالد الا من كائنات حية سابقة وأن الكائنات الحية هي موجودات مستقلة تدخل في المطر من الخارج عند هطوله أو بعد سقوطه على الأرض وليس للبيئة أن تولد شيئاً حياً . ففندت نظرية التوالد الذاتي تفنيداً قطعياً . مع ذلك ، جاء (برتلو Berthelot) فادعى أن الكائنات الحية (Bactéris) التي تحصل نتيجة تخمير العنب انما هو أمر مادي وليس هناك موجودات حية سابقة كانت سبباً لوجود هذه الكائنات الحية . وقال بالتكون الذاتي Auto) (dynamisme أو الحركة الذاتية . ولكن (پاستور) قام بتجربة على أشجار العنب تشبه تجربته السابقة من حيث التعقيم ومنع تسرب كائنات حية من الخارج . فرأى أنه لا تحصل (باكتري) أو جراثيم للتخمير . وأن (الخلايا : Cellules) التي توجب التخمير انما تقع على حبات العنب من الخارج قبل النضج والحلوان بأيام وليس للبيئة أن تولد شيئاً حياً أبداً .

لكن الماديين ما برحوا ينتهزون الفرص لاثبات نظريتهم السقيمة . حتى اذا اكتشف المجهر الالكتروني (Microscope Electroniqe) وتمكن العلماء من معاينة الجراثيم ما بعد الذرية (Ultravirousses) التي كل واحدة منها أصغر من حبة الدخن (٠٠٠ ٧٠) أو مائة الف مرة ، أخذوا يقولون : « ان هذه الجراثيم انما تتولد من المادة الميتة نفسها وليس هناك عامل حيوي أو موجود حي سابق تولدت منه وان الاحياء المترشحة وما بعد المترشحة (Virous, Ultra virous) انما هي مواد كيميائية سامة وليست هناك

حيوية سابقة » . وتنازلوا عن القول بأن الفأرة تتولد من مادة ميتة ! ولكنهم بقوا مصرين على أن الحيوية انما تأتي من الشمس على وجه الأرض وان الأحياء المترشحة وما بعد المترشحة (الجراثيم ما بعد الذرية) هي مولودة المحيط والبيئة وان البيئة (الجامدة الصماء) هي الموالدة لها !

الا أن علماء الاحياء برهنوا على فساد هذه النظرية أيضاً بتجارب دقيقة أخرى ، وأخفق الماديون اخفاقاً نهائياً ، وعلم أن كل كائن حي انما يتولد من كائن حي آخر أو بانتقال النطفة بالتلقيح .

اذا كانت نظرية التولد الذاتي صحيحة وأن التفاعل الكيميائي وأشعة الشمس وذرات آلفا وگاما وأمواج كاسميك وما فوق البنفسجي وآزوت وبخار الماء وغيرها تكفي لحدوث الحياة على وجه الأرض دون خالق للحياة والحيوية لزم أن نرى رأس قرد مثلاً يتشكل في القفار والصحارى بصورة تدريجية ، ثم تتشكل له ساق فأطراف وهكذا ...

فعلم من كل ذلك أن ليس للبيئة أن تخلق كائناً حياً وان الحيوية شيء قد جاء من الخارج وليس بأمر مادي بحت . وان الله تبارك وتعالى هو الذي خلق الكائنات الحية وأعطاها نفسا وروحا بقدرته ولا يمكن ادخال النفس والروح في المعادلات الكيميائية أو التحليلات الرياضية . « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا» .

وزيادة في التوضيح نقول : انا لو ملأنا حوضاً كبيراً بالماء واتخذنا الاحتياطات اللازمة لعدم دخول بويضات السمك أو الضفدع فيه ، فلا نشاهد ، مهما انتظرنا ، سمكة أو ضفدعاً في ذلك الحوض وان طالت الأعوام . مع أن الشمس على ما يعتقده الماديون : (أنها أساس الحياة وموجدها) تعمل عملها وترسل أشعتها . ولكنها غير خالقة للحياة ، بل الشمس عامل من عوامل النمو واستمرار الحياة على هذا الترتيب الذي نراه .

ان الماديين : هذه الطبقة الجاحدة وجودَ الخالق ! يحاولون أن يجعلوا العوامل الطبيعية المادية مبدءاً وسببا للحيوية والحياة. الا أن العلم يخالفهم في طيشهم وهذيانهم وضلالهم وهم ينسبون (ومع الأسف) نظرياتهم الفاسدة ! الى العلم . والعلم من ذلك براء .

وكم من أشياء ينسبها هؤلاء الى العلم ويدعون أنها نتيجة درس وتمحيص علمي والعلم بعيد عنها كل البعد . « انها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » ويراد بها النفوس .

وما يقال عن تبديل الطاقة بالمادة (Matérialisation) انما هو في النواحي المادية فحسب . ان الطاقات المادية : الكهربائية أو الحرارية أو الحركية . وغيرها تتكدس فتشكل مادة : وهذا لا يعني أن هذه الطاقات المشعة مثلاً من الاورانيوم أو الراديوم تتكدس فتولد حيوية وروحاً ونفساً . وقد ثبت في الفسلجة أن الخلية : (Cellule) انما تتولد من خلية حية أخرى اذن ثبت أن الروح من أمره تعالى ، « قل الروح من أمر ربي » .

يستنتج مما تقدم ان المادة لا عقل لها كي ترتب وتنظم ولا منطق لها لتفكر في مستقبل الأشياء وما تحتاجه . وما أعظم قوله تعالى حين يقول : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ، ألم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ، ما يمسكهن الا الله ، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

وما القمر الصناعي الا نتيجة فكر أودعه الله في بعض عباده ومواد وعناصر أودعها الله في أرضه وتوالي أيادي كثيرة من العلماء منذ ٤٠٠ سنة قبل الميلاد الى يومنا هذا . وهل قوبل هذا الفوز والاكتشاف بالشكر ؟ « وقليل من عبادي الشكور » .

ولقد قالوا : ان المثل العليا تابعة الى ما يحدث من نظم اقتصادية وكذا

الحياة الاجتماعية نتيجة من نتائج الوضع الاقتصادي ! ، وهكذا تسافلت البشرية نفسياً من جراء تركها ما أمر الله به على لسان أنبيائه (ع) حتى صارت لا تؤمن الا بالمادة وما يحقق شهواتها • فأمست فلسفتها فلسفة بهيمية : فلسفتها أن تقول : « لا تهمني أخلاق فلان وانما تهمني أعماله » • حتى أمست تعتقد أن هنالك تنافياً بين ركوب الطائرة أو الاستماع الى المذياع أو النظر الى التلفزيون [1] ، وبين السمو بالنفس الى أعلى مراتب الكمال حسب ما رسمه الله لنا في قرآنه الكريم •

حتى أمست أمريكا بلد الحرية الشخصية المطلقة ! والبلد الذي نادت بفصل الفضائل والأخلاق عن الحياة العمليـــة تفصل ٣٣ موظفاً في وزارة خارجيتها لاصابتهم بالشذوذ الجنسي ! لأن هؤلاء لا يمكن ائتمانهم على أسرار الدولة !

حتى أمسى الولد الثري لا ينفق على أبويه العاجزين !

حتى أن جلسة من جلسات الكونكرس (Congress) الأمريكي تتعطل ، لأن امرأة كانت تسكن في عمارة مواجهة للمجلس وقفت في شرفتها عارية تماماً ، لا يستر جسدها شيء ، فينشغل الأعضـــاء بفتنتها الشيطانية وتتعطل أعمال الدولة ، ريثما يبعث رئيس المجلس يرجو ، السيدة الفاضلة ! تدخل غرفتها أو تكتسي شيئاً ، ليتسنى للمجلس أن ينظر في سياسة العالم •

حتى تأتي فتاة أمريكية الى باريس فتنزع ثيابها كاملة وتضعها في حقيبة لها يدوية وتمشي وهي عارية في شوارع باريس لتُري الناس الدرجة التي وصلت اليها أمريكا في الحرية والتقدم الخلقي !

كل ذلك من جراء هذا الاختلاط البريء ! والانتهاء الى فساد وافساد في الأرض • « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن

---

(١) في ما لا يثير الشهوات ويؤدي الى تسافل النفس وترك ذكر الله تعالى من أغاني ومناظر •

فيهنّ ، بل أتيناهم بذكرهم ، فهم عن ذكرهم معرضون » (١) .

فطوبى لنفوس اتبعت الحق والواقع وترفعت عن أدران المادة العمياء والملذات المميتة للنفوس واستجابت لله وللرسول لما فيه حياتها وسعادتها في الدارين :

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنكم اليه تحشرون » . (سورة الأنفال : ٢٤) .

***

تكاد لا تجد فيلسوفاً ، درس الرياضيات العالية أو الفيزياء الرياضية العالية أو الفلك العالي وتوغل فيها ، ملحداً ينكر وجود الخالق . ف (برگسون) و (أينشتين) و (وكاميل فلا مريون) وأمثالهم موحدون . ذلك لأنه عندما يرى أحدهم ان جميع أجزاء الكون مرتبطة بعضها ببعض بدساتير رياضية متقنة ، وأن الرياضيات مفتاح فهم ظواهر الطبيعة ، عند ذلك يعلم انه لابد من عاقل قد ربط أجزاء هذا الكون بعضها ببعض . وأن هذا العاقل الجبار هو الله تعالى : واهب الوجود ومرتب اجزاء هذا الوجود ترتيباً محكما بقوانين رياضية رصينة لم يصل العلم الحديث الا الى جزء ضئيل وضئيل منها جدا .

لذلك كان يحاول (أينشتين) ان يستنبط من معادلة المجال المتواصل وحدها عموم الفيزياء بما فيها عالم الذرات والخصائص الكمومية (Quantiques) .

وكان يقول : « لولا الاعتقاد الجازم بالنظام الباطن الذي يسود عالمنا لما قامت للعلم قائمة . فهذا الاعتقاد هو الدافع الرئيسي لكل اكتشاف علمي وسيبقى كذلك الى الابد » .

---

(١) سورة : المؤمنون : ٧٣ .

وهو القائل : « ما من شك ان كل بحث علمي عميق يقوم على عقيدة تشبه الشعور الديني : مؤداه أن العالم مؤسس على العقل ومن الممكن تفهمه » .

لكن الفلاسفة ! الذين رسبوا كثيراً في الرياضيات في تحصيلهم الابتدائي والثانوي وفروا من الرياضيات العالية لعدم فهمهم لها ، وانما صاروا يذكرون اصطلاحات منها في كتبهم ! ، أخذوا يصدرون أحكاما جزافاً عن الكون دون ارجاعها الى أصول ثابتة رياضية ومبادىء عقلية عميقة وسموا اعتباطاً نظرياتهم الفاسدة بل أهواءهم فلسفة ! وجاؤا باصطلاحات جديدة لا يؤيدها العلم ، فخدعوا العوام والسذج من الناس .

ان هؤلاء الذين لا يقبلون نقاشاً لهذيانهم ، صاروا يأخذون الفلسفة من وسطها وبيد واحدة — ان هؤلاء ، بنفوسهم الملوثة وصفاتهم الذميمة وما يترشح من هاتين ، شوشوا على الناس الحقائق الفطرية الحقة وأفسدوا على ثلة من عباد الله عقائدهم بالمبدأ الاعلى . انهم اخفقوا في النمو وكسب الشهرة والصيت في الأوساط العلمية ، فعمدوا الى ترويج الزيغ والالحاد وما يترشح من نفوسهم المتسافلة : « وكل اناء ناضح بالذي فيه » .

ـ القصور الذاتي ـ

القصور الذاتي أو الاستمرارية : (Inertie) موضوع معروف في الفيزياء ،يعترف به الفيزياويون ،وهو : أن الجسم لو كان ساكنا لبقي ساكنا على حالته الاصلية ، فلا يتحرك من تلقاء نفسه الا بمحرك آخر ، ومع ذلك يحاول أن يبقى على حالته السابقة . لذلك لو كنت جالساً في قطار ساكناً ، والقطار ساكن وتحرك القطار بسرعة ، تأخر القسم الاعلى من بدنك في متابعة حركة القطار عن القسم الملتصق بسطح القطار . كل ذلك ليحافظ على سكونه أي على حالته السابقة . فاذا استمر القطار في حركته أخذ بدنك يتحرك مع القطار . فان وقف القطار فجأة ، فان القسم الاعلى من بدنك ليحافظ على حالته السابقة (أي الحركة) ، فيتحرك قليلا الى الامام عند وقوف القطار فجأة .

مثال آخر : انا لو وضعنا فوق اناء (كأس) قطعة من المقوى (الورق السميك) ووضعنا على المقوى درهما مثلا ، وسحبنا المقوى بسرعة نرى أن الدرهم لا يتابع الحركة الفجائية بل يحاول ان يحافظ على حالته السابقة أي على سكونه فيسقط في الاناء .

كان الاتراك يسمون القصور الذاتي بـ (العطالة) . ذلك لان كل جسم في ذاته عاطل لا يقوى على تغيير في ذاته ، فالساكن ساكن الى أن يحركه غيره والمتحرك يبقى على تحركه وعلى نفس السرعة التي يتحرك بها الى أن تتدخل قوة ، فتزيد من سرعته او تنقصها . فالشيء بذاته عاطل لا يؤثر في نفسه كرجل عاطل لا خير فيه . « قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير » [1] .

---

(١) سورة آل عمران : ٢٥ .

يقول زين العابدين علي بن الحسين (ع) في دعاء علمه أبا حمزة الثمالي : « من أين لي الخير يا رب ولا يوجد الا من عندك ، ومن اين لي النجاة ولا تستطاع الا بك ، لا الذي احسن استغنى عن عونك ورحمتك ، ولا الذي أساء واجترأ عليك خرج عن قدرتك » .

فالاشياء جميعها فيها قصور ذاتي ، فلا تتمكن من ان تؤثر في نفسها . بل تبقى عاطلة أو محافظة على ما هي عليه من حالة سابقة : سكون او حركة . فاذا كان علم الفيزياء يعترف بذلك ، فما بال من يتصور للنبات والحيوان حركة تكاملية ذاتية من تلقاء نفسها ! وانها هي التي تكمل اعضاءها بنفسها أو تتكامل من آميبا حتى يكون قردا ! مثلا مع اعترافه عند دراسته الفيزياء بالقصور الذاتي . ثم اذا كان الآميبا قد تكامل (ولا مؤثر ولا مكمل الا الله) فصار دجاجة فما بال الآميبا نراه موجودا ليومنا هذا مع اتحاد الظروف . ومن الذي أوجد الظروف وكيف وجدت ، ومن جاء باختلاف الظروف . ومن الموجد لهذا الاختلاف ؟

واذا كان الانسان (مع اعترافهم ان فيه عقلا لا يدري كيف جهز به) هو نتيجة تكامل القرد ، فما بال القرد موجود ليومنا هذا مع اتحاد الظروف ، على انهم يقولون : ان هناك حلقة مفقودة بين القرد والانسان يجهلها العلم . فكيف تبنى النظرية على الجهل ! ثم ان هذا القرد كيف فكر ان يدفع عنه ذنبه ويجعل بدنه على شكل انسان ! وقد ثبت ان لا أثر للمحيط في ايجاد عضو ما .

وغني عن البيان ان محو الذنب عمل جبار لا يقوى عليه الانسان العبقري ، فكيف بهذا القرد الذي لا يتمكن من دفع أقل مكروه عن نفسه . ولما لم يجهز القرد نفسه بوسائل من الدفاع اذا كان يستطيع ان يخلق أعضاء ويغير أعضاء ويحذف أعضاء . « أفرأيت من اتخذ الهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا » .

وأما ما يقال عن الطفرة (Mutation) ، فإن مؤهلاتها وموجباتها وامكانياتها انما جاءت من الخارج • ثم ان كانت هذه الطفرة هي من تلقاء الكائن الحي ، فلمَ لا يغير هـذا الكائن الحي في جسمه ما يزيل به عنه حاجاته ، ولمَ لا يجهز نفسه بأعضاء يقوى بواسطتها على ابصار وسماع •• الخ أكثر مما هي عليه الآن كي لا يحتاج الى صنع آلات يستعين بها في ابصار ما لا يبصر بعينه المجردة ، كالتلسكوب والميكروسكوب ••• الخ • ان الله تعالى يقول : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون • ثم كلي من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » • (سورة النحل : ٦٨ ، ٦٩) •

ولكن الأجرام والمظالم تسد على الانسان أبواب الاعتبار بآيات الله والتدبر والتفكر ، فيعزو الخوارق الى الطبيعة العمياء الصماء : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ، انه لا يفلح الظالمون » • (سورة الأنعام : الآية : ٢١) •

فالظالم هو الذي سد على هذا البشر المجرم الباغي آفاق الاهتداء ، فصار يفتري على الله الكذب ويكذب بآياته وكتبه ورسله • فلينته عن اجرامه مَن يشك أن ترك الاجرام وأن الانابة والاستغفار والأعمال الصالحات تفتح على الانسان أبواب الهـداية ، ليرى كيف تنقشع عنه الشكوك ، فيعود الايمان الفطري اليه وتطمئن نفسه بما أنزل الله من آيات • « ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب » •

***

عرفت رجلا قدلوث نفسه في صباه وفي شبابه وفي شيخوخته ، ولم يوفق الى التكفير عن ذنوبه ولا الى توبة ما • انه لم يدع منكراً الا وقد ارتكبه •

كان مجموعة ظلم وبغي وجشع ، فصرت أعقب حياته ، واذا به أمسى جرثومة فساد ، ينكر وجود الباري جل جلاله ، ويستدل على ذلك بأدلته الواهية !. « ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » (١) . ولكن الله أراد أن يعذبه في الدنيا (ولعذاب الآخرة أشد) . فحكم عليه بالاعدام ، فطلب وهو في السجن مصحفاً يتبرك به ويجعله شفيعاً لينجو من العقاب ، « الآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين » ، « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار . أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً » (٢) .

أعدم هذا الطاغي وقد شوهد وجهه على المغتسل مسوداً كريهاً بعد أن كان أبيض ناصعاً . « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » (٣) .

وكم شوهد من أشخاص حالة الاحتضار اسودت وجوههم من جراء أعمالهم في الدنيا وما يحملونه من عقائد فاسدة ، وكم شوهد أشخاص ابيضّت وجوههم حالة الاحتضار : « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » . « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » .

فالفيلسوف أو المتتبع هو ذلك الذي يعقب بدقة حالات بعض الناس وأعمالهم من خير وشر دونما تجسس ، يتتبع ذلك في أدوار الحياة المختلفة ليرى كيف أن الجرائم والموبقات والنزوات تؤدي الى انسحاب الفطرة وزوال العقيدة ، فالالحاد ، فالزندقة .

ولقائل أن يقول : لو بلغ هذا الفيلسوف مرتبة من التسافل وضعة في

---

(١) سورة الروم : ٩ . (٢) النساء : ٢٢ . (٣) الزمر : ٦٠ .

النفس حتى أمسى في نظره المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، لا يستطيع ، إذ ذاك ، القيام بهذه التجربة كي يوفّق بين عقيدة الانسان وسلوكه !. لأنه قد بلغ حداً من التردي حتى ضاعت لديه الموازين : « ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

نعم ، قد يبلغ بالشخص التسافل مرتبة لا يشعر معها بما هو فيه من ردّ مرير . فيأتي دور الاستهزاء بمن لا يوافقه فى سلوكه وهذيانه ! فيصمه بالخرافة والرجعية والجهل !.

أسفاً على بعض أفراد هذا البشر حين يسمي أحدهم المعارف الإلهية والتدبر في آيات الله الكونية جهلاً وخرافة !!

انها لعمري فلسفة شيطانية ! فلسفة رجعية ! ترجع بالفرد الى جاهلية جهلاء . فيظن ، بل يوقن قد بلغ من التفكير والوصول الى الواقع مرتبة لا تقبل الرد والنقاش ! « أوَمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون » . (الأنعام : ١٢٢) .

معالجة الشكوك

لا يخلو شخص من شك في حياته عدا الأنبياء والمعصومين عليهم السلام. وما جاء في القرآن من آيات بهذا الشأن : « لقد جاء الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » انما هو لمزيد اليقين وتنبيه الآخرين . ذلك لانه ليس هناك أحد عدا المعصومين (ع) الا وقد أذنب في حياته ذنوباً : من غيبة أو نميمة أو كذب أو بهتان أو افتراء أو ازدراء لأخيه المؤمن أو كبر أو حسد أو بخل أو لهو أو فسق أو أكل مال الغير أو الربا أو غير ذلك . وان هذه الذنوب لها أثرها الفعال في تحريف النفس الانسانية عن الفطرة . وان الشيطان أيضاً لعامل مهم في هذا المضمار . يملي على الانسان ، ان سيطر عليه من جراء ذنوب اقترفها ، أنواع الريب والشكوك . وقد قال الله تعالى عنه : « ولأضلنهم ولأمنينّهم » . وفي موضع آخر : « لأزيّننّ لهم فى الأرض ولأغوينّهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلَصين » . (الحجر : ٤٠) . فمن خالف الشيطان في اغواآته اهتدى ومن وافقه هلك : « فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون » . الا أن المادي لا يعترف بوجود الشيطان مع اعترافه بأشياء كثيرة لا ترى بالحواس كالأمواج الهرتزية والألكترون الى ما هنالك . وكذلك لا يعترف المادي بوجود الجن وما هو غير مادي ، مع اعترافه بقوة الجاذبية والكهربائية والعقل الانساني !

لقد قال لي صديق وكان ممن يحرص على الدين ويتوجه الى الحق : « ان من الأدلة القطعية على أحقية ما أنا فيه من عقيدة اسلامية ومبدأ صحيح : ما يعتريني من شكوك من حين لآخر » . كان يقول : « اني أشك في معتقداتي، في وجود الحجة القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه ، أشك في النبوّات ...

الى ما هنالك ، فيصيبني حزن وانقباض عميقان وأشعر بكئابة لا أستطيع وصفها • وأعلم اذ ذاك أن شيطاناً يريد أن يغويني ويزيل عني ما أنا فيه من حسن العقيدة والمبدأ • فاستغفر الله من ذنوب أدبرت لذاتها وأقامت تبعاتها وأدعو الله بفنون الدعوات ، أتصدّق وأصلي وأصل رحمي وأقوم ببعض الأعمال الصالحة واذا بالشكوك تنكشف وتزول ويصيبني بعد ذلك فرح وابتهاج عميق •• كان يقول : هل رأيت أحداً من أهل الباطل أصابه شك في ما يعتقد • ذلك لأن الشيطان يرتضي له ذلك ويؤيد له ما هو فيه • كان يقول : اني عاشرت أصحاب عقائد فاسدة ، وسبرت أعمالهم فعلمت أن أعمالهم تلك ، هي التي أوصلتهم الى هذه العقائد المنحرفة عن الحق ، وكنت أرى أنه لا يصيبهم شك في ما يعتقدون من عقائد منحرفة عن الحق ، ما داموا لم يزكّوا أنفسهم وما داموا ملوثين • وقد ترى شخصا يحمل عقيدة صحيحة وعمله عمل لا يتفق وما أمر به الشرع ، فهذا لا يخلو من حالين • اما له أعمال صالحة سرية لا نعلمها تربو على عمله الفاسد : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » • واما هو سائر نحو الظلمات بعد قليل ومآله الخسران • على أن هناك أيضاً عوامل أخرى ضمن رحمة الله وعدالته وعظيم فضله ، لا نعلمها •

لا أعلم ، هل قام علماء (آثار) النفس بهذه التجربة الروحية الخطيرة ؟

كل فرد من أفراد الانسان يصيبه في حياته شك أو شكوك ، ذلك لأنه لا يبقى على حالة واحدة من التقوى والورع واجتناب المعاصي • فهو في شبابه غير ما هو عليه فى وقت آخر • وقد يكون في شيخوخته منحرفاً عن الحق وفي شبابه متوجهاً الى الحق • ولكن قلّ من يفكر في الأسباب فيعالج نفسه معالجة تؤدي به الى النجاة والزلفى •

نعم ، لا منجى لأحد من شك أو شكوك ، قليلة أو كثيرة • تتوارد هذه الشكوك برهة ثم تختفي اذا عقب هذه الشكوك استغفار وعبادات

وأعمال صالحات . فاذا طهرت هذه النفس بما يطهرها من مأكل حلال طيب وأداء للحقوق من : زكاة وخمس وانفاق ، وصلاة مقبولة وتهجد جوف الليل وتضرع وبكاء ندماً على الذنوب ، وبرٍّ الوالدين وصلة الرحم وقضاء حوائج المؤمنين واستغفار وتسبيح وذكر الله تعالى في كل حال ، يقوى عند ذلك الايمان ، فلا يزحزحه شيء ويبلغ من اليقين مرتبة لا تؤثر فيه تسويلات الشياطين من الجن والانس ووساوسهم . لذلك ، يقول علي عليه السلام « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » .

فلا ينبغي أن يرتبك الشخص عندما يختلج في نفسه بعض الشكوك . بل عليه أن يبادر حالاً الى تطهير نفسه والتكفير عن ذنوبه . عليه أن يفتش عن نفسه وعن أعماله في ذلك اليوم أو في ذلك الاسبوع أو الشهر ، أو السنة . هل كان ظالماً لأحد ؟ هل اغتاب أحداً . هل كان عاقاً [1] لوالديه . عليه أن يعالج ما اعوج من سلوكه الديني . فاذا فعل ذلك يرى جلياً أن ما اعتراه من شكوك ينقشع رويداً رويداً .

ان طريق الحق واحد وطرق الباطل متعددة ، وقد أراد رسول الله (ص) ذات يوم أن يفهم أصحابه ذلك . فخطّ لأصحابه خطاً وقال : « هذا سبيل الله » . ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله . فقال : « هذه سبل . على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه » . ثم تلا قوله سبحانه : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » . (٦٠/١٥٣) .

ولما كانت النفس ميالة الى الشهوات والى الباطل ، لذلك كانت طرق الشيطان موافقة لميول النفس ومتعددة ومفتوحة . فما على الانسان الا أن يعرض ما يختلج في ذهنه على كتاب الله وسنة نبيه وأقوال الأئمة المعصومين عليهم السلام ، ويتذكر عظيم حق الله وجزيل ثوابه وشديد عقابه . ويتذكر

---

(١) عق الولد والده : عصاه وترك الشفقة عليه والاحسان اليه واستخف به .

أن الصبر على هذه الوساوس أسهل من الصبر على نار جهنم • ويتضرع الى الله تبارك وتعالى في أن ينجيه من هذه الوساوس بأعمال صالحات ويوفقه الى انجازها ويكثر الذهاب الى بيوت الله (المساجد) ومراقد أهل البيت عليهم الصلاة والسلام ، ويكثر من ذكر الله ، لأن ترك الذكر يؤدي الى وسوسة الشيطان على حد قوله تعالى : « ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيِّض لـه شيطاناً فهو له قرين » • (٤٣/٣٦) •

وقد جاء في حديث عن الرسول (ص) : « ان الله يبغض الشاب الفارغ » • ذلك لأن الشاب اذا فرغ من عمل مفيد تسلَّط عليه شيطانه ، فأوقعه في المهالك • وما أكثر ذلك :

ان الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمـرء أي مفسدة

فلو اجتمع شبان كل محلة في محل كل ليلة أو ليلة واحدة في الاسبوع على الأقل واستمعوا الى مواعظ وارشادات دينيـة تثلج الصدور وتبعث الاطمئنان الى النفوس لرأوا أنفسهم في عالم قدسي جديد • وقد شاهدت أمثال هذه الاجتماعات في بعض المدن الاسلامية ، فيها تهذيب النفوس وتطهيرها من براثن الضلال • ورأيت المداومين فيها يزدادون نوراً وايماناً يوماً بعد يوم •

كما أنه يجب تأسيس نوادٍ دينية ، يداوم فيها الشبان • يتلقَون فيها دروساً دينية ، يصلُّون فيها أوقات الصلاة ويطالعون فيها صحفاً دينية ، ويقومون في نفس الوقت بخدمات دينية ويكونون دعاةً لبثِّ حقائق الاسلام •

تزول الوساوس :

أولاً : بسدِّ الأبواب العظيمة للشيطان في القلب وهي الشهوة • والغضب والحرص والحسد والعداوة والعُجب والحقد والكبر والطمع والبخل والجبن وحب الدنيا وحطامها الزائل وحب التزيُّن بالثياب الفاخرة وخوف الفقر والتعصب لغير الحق وسوء الظن بالله وبالناس • فاذا سدَّت هـذه الابواب لم يجد الشيطان بابا يدخل منه الى النفس الانسانية •

ثانيا : تحلية النفس بأضداد ما ذكر : أي بكرائم الاخلاق وفضائل الصفات وملازمة التقوى والورع والاشتغال بالعبادة والمواظبة عليها .

ثالثاً — كثرة ذكر الله بالقلب واللسان فان الذكر اللساني وحده لا يكفي في ازالة وساوس العدو الأكبر وهو الشيطان . ألا ترى أن الشيطان يهجم على الانسان حين اشتغاله بصلاة يصليها لربه ، فإن الشيطان يعمل بجد ونشاط عظيمين لاغواء الانسان وصرفه عن مناجاة ربه بقلبه . ولكن اذا طهر القلب من الأخلاق الذميمة أي اذا تخلى القلب عن الرذائل وتحلى بالفضائل طابق الذكر القلبي الذكر اللساني وطرد الشيطان اذ ذاك . فلا مدخل له ولا مجال .

ولا مؤاخذة على مجرد ما يخطر في قلب الانسان من وساوس ، فقد جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « يا رسول الله هلكتُ . فقال له : هل أتاك الخبيث ، فقال لك : من خلقك ، فقلتَ : الله تعالى . فقال لك : الله من خلقه ؟... — فقال له الرجل : « اي والذي بعثك بالحق ، لكان كذا » . فقال : رسول الله (ص) : « ذاكَ والله محض الايمان » .

وفي حديث آخر ! أن رجلا أتى رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله ، نافقت ، فقال : رسول الله « والله ما نافقتَ ! ولو نافقتَ ما أتيتني تعلمني . ما الذي رابك ؟ .. أظن أن العدو الحاضر أتاك ، فقال : مَن خلقك ! ... فقلت : الله تعالى خلقني ... فقال لك : مَن خلق الله ؟

فقال [1] : أي والذي بعثك بالحق ، لكان كذا .. فقال ان الشيطان أتاكم من قبل الأعمال ، فلم يقوَ عليكم ، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم . فاذا كان كذلك ، فليذكر أحدكم الله وحدَه » .

وسئل الصادق (ع) عن الوسوسة وان كثرت ، فقال : « لا شيء فيها . تقول : لا إله إلا الله » . وعن جميل بن دراج ، قال قلت للصادق عليه السلام:

---

(١) أي الرجل .

انه يقع في قلبي أمر عظيم ... فقال : « قل لا إله إلا الله » قال جميل : فكلما وقع في قلبي ، قلت لا إله الا الله ... فيذهب عني .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : وضع عن امتي تسع خصال : الخطأ والنسيان وما لا يعلمونه وما لا يطيقونه ، وما اضطروا اليه وما استكرهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكر في الخلق، والحسد مالم يظهر بلسان أو يد » .

وان الانسان ليؤاخذ حتماً على أعمال القلوب من كبر وعُجب ورياء ونفاق . لما ورد عن رسول الله (ص) : « انما يحشر الناس على نياتهم » .

وقد روي عن الامام محمد بن علي الباقر عليه السلام : « أن الله تعالى جعل لآدم في ذريته : من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة . ومن همَّ بحسنة وعملها كتبت له عشر (حسنات) ، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ومن همَّ بها وعملها كتبت عليه سيئة » .

وهكذا يتجلّى فضل الله ورحمته مع عباده المحسنين والمسيئين . وما أعظم قوله تعالى حين يقول : « ففرّوا الى الله اني لكم منه نذير مبين » . (٥١ / ٥٠) .

ويفيد في إزالة الشكوك عدا القيام بملافاة ما اجترحت الأيدي من معاصٍ وآثام لا سيما ارجاع حقوق الناس اليهم ، ما يلي :

(١) قراءة سورة الناس (قل أعوذ برب الناس) ، كثيراً . حتى في الطريق حال المشي .

(٢) أن يقول : لا إله إلا الله كثيراً ، حتى في محل عمله حين يفرغ من مراجعة الناس أو الكتابة .

(٣) تلاوة سورة الاخلاص : (قل هو الله أحد) كثيراً . فان الملائكة قد شيعت جنازة سعد بن معاذ (رضوان الله عليه) ومشى رسول الله خلف

جنازته حافياً وأدخله قبره بيده المباركة ، لأنه كان يواظب على تلاوة سورة الاخلاص ليلَ نهار .

(٤) أن يقرأ كثيراً لا سيما في القنوت : « يا الله ، يا رحمن ، يا رحيم ، يا مقلّب القلوب ، ثبت قلبي على دينك » .

(٥) أن يقول عند عروض الشك : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » .

(٦) وقد روي عن الصادق عليه السلام : يمسح الشخص بيده على صدره ، ثم يقول : « بسم الله وبالله ، محمد رسول الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . اللهم امحُ عني ما أجدُه » ثم تمسح بيدك على بطنك وتقول ذلك ثلاث مرات .

(٧) ويفيد في إزالة الشكوك والوساوس الشيطانية أيضاً : غسل الرأس بماء السدر وشرب ماء نيسان والصوم ثلاثة أيام من كل شهر : أول خميس من الشهر وآخر خميس منه ويوم الاربعاء المصادف أواسط الشهر .

(٨) المواظبة على صلاة الليل (التهجد) .

هذه دساتير روحية ليس لأحد لم يمارسها أن يشك في صحتها ويرتاب . وما عليه الا أن يقوم بالتجربة حتى يرى أثر ذلك جلياً ولا توفيق الا بالله : « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

أثر الذنوب فى اتجاه النفس

ما من شيء يبعد الانسان عن الاعتقاد بالله وكتبه ورسله ويجعله يمقت الدين والمتدينين ويزدريهم ككبائر الذنوب !.. فان هنالك علاقة متينة بين اتجاه النفس نحو الحق والواقع وبين طهارتها وخلوها عن المعاصي والآثام . كما أن هنالك رابطة قوية بين توجه النفس نحو عقائد سخيفة والحاد وزندقة ، وتوغلها في كبائر الذنوب والآثام .

وان هذا الموضوع لمن أهم المواضيع التي يجب على علماء النفس أو بالأحرى علماء آثار النفس أن يبحثوا عنها ويرسموا لها خطوطاً بيانية ومنحنيات تقريبية ! فإن الايمان يتغير حسب كثرة الآثام وقلتها بنسب لا يعلمها الا الله .

ان الفيزيائي يرى علاقة متينة بين التعجيل الأرضي وزمن السقوط والمسافة التي يقطعها الجسم الساقط في زمن ما :

$$م = \frac{1}{2} حـ ٢٠$$

وهكذا هناك علاقة متينة بين طول الرقاص والتعجيل الأرضي وزمن الذبذبة الواحدة للرقاص (في الفيزياء) :

$$ن = ٢ ط \sqrt{\frac{ل}{حـ}}$$

ولكن العلاقة بين توجه النفس الانسانية نحو خالقها وبين ما تقوم به هذه النفس من جرائم وموبقات لهي أمتن من العلاقات الفيزيائية أو الكيميائية بدرجة لا تقاس . قال علي عليه السلام : « من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد اليه أبداً » . فاذا انسحب العقل الطبيعي تدخل الشيطان فسوّل لصاحبه ما يريد من موبقات وعقائد باطلة . فقد جاء في الحديث : « العقل ما عبد به الرحمن

واكتسب بـــه الجنان » • ويقصد بذلك العقل الفطري : ذلك العقل الذي لم ينسحب من جراء الذنوب والآثام •

وجاء في ما قال الصادق عليه السلام بهذا الشأن : « ان الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل وان العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم » •

وقال الباقر (ع) : ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته • ان القلب ليواقع الخطيئة • فما يزال به حتى يغلب عليه ، فصير أعلاه أسفله » • ويراد بالقلب هنا : النفس الانسانية • فالذنب حجاب بين العبد والمعبود •

لذلك كله ، يقوم المستعمرون أعداء الاسلام بادخال وسائل الفجور والفسوق ونشر الخمور والربا والفواحش والميسر ومجالس اللهو واللعب والرقص وغيرها في البلاد الاسلامية بأي ثمن كان : بالصحافة والاذاعة ودور السينما والملاهي والتلفزيون الى ما هنالك •• فينكب الشباب وغيرهم باسم الحرية على ارتكاب هذه الموبقات والمدنّسات ، فتتدنس نفوسهم وتظلم قلوبهم • فينسحب منها الايمان الفطري رويداً رويداً ويأتي دور الاستخفاف والازدراء تحت عنوان الثقافة ! والثقافة من كل ذلك بعيدة غاية البعد •

ولذلك يعمل علماء الدين أيدهم الله تعالى في ابعاد وسائل اللهو واللعب وما من شأنه تلويث النفس من موبقات وملهيات عن المساجد والمشاهد ، حفظاً للنفوس من أن تتدهور الى أسفل سافلين ، فإن للبيئة أثرها الفعال في توجيه النفس • لذلك يقول الله تعالى :

« قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (٣٩/١٠ الزمر) فعلى المؤمن أن يهاجر الى حيث يتمكن من اقامة شعائر دينه ويصبر على العناء لينال أجراً بغير حساب • ذلك لأن الانسان انما خلق

ليتكامل . ولا تكامل الا بتطهير النفس ولا تطهر النفس الا بالعبادة (بما فيها من أعمال صالحات والقيام بالاحسان الى الغير) وباقامة الشعائر الدينية . فوجب اذن أن يبذل المؤمن النفس والنفيس حتى يجد محلا يتمكن فيه من اقامة شعائر دينه . ومن هنا وجب حفظ الاوطان وصيانة الثغور ما دامت هذه الأوطان تقام فيها الشعائر الدينية . فان لم يتمكن من اقامة شعائر الدين فما عليه الا أن يهاجر الى حيث يتمكن فيه من اقامة الشعائر كما هاجر النبي (ص) من مكة الى المدينة . وهاجر قسم من المسلمين من مكة الى الحبشة .

ونحن نذكر هاهنا بعض كبائر الذنوب وبعض الحدود ليكون المسلم على علم منها فيجتنبها ، ويتوب من أغواه الشيطان فارتكب البعض منها . فقد جاء في الحديث : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

ويحسن بالمسلم اذا أراد النوم أن يقول ثلاث مرات : « أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب اليه » . ويواظب عليه ، فانه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

ومن الكبائر ما يلي :

(١) الكفر بالله . وقد قال تعالى : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . (سورة البقرة : ٢٥٧) .

(٢) اليأس من رحمة الله وروحه . وقد قال تعالى : « لا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » . (سورة يوسف : ٧٨) .

(٣) الكذب على الله أو على رسوله أو على أوصيائه (ع) : وقد قال تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » . (الزمر : ٣٠) .

(٤) قتل النفس التي حرمها الله تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه

جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » . (النساء :٩٣).

(٥) عقوق الوالدين [١] . اذ قال تعالى في كتابه المجيد عن عيسى (ع) « وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا » . (مريم : ١٩/٣٢) . فالعاق هو الجبار الشقي . وقد قال تعالى : « وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد [٢] » . (١٤/١٦ ابراهيم عليه السلام) .

(٦) أكل الربا : « درهم رباً عند الله أشد من سبعين زنية كلها بذات محرم » كما جاء في الحديث . وقد قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ . ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحلّ الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . (سورة البقرة : ٢٧٥) .

(٧) ترك الصلاة . اذ قال تعالى : « ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين » . (سورة المدثر : ٤٢) .

(٨) الزنى — وحدّه مائة جلدة للمرة الاولى ، وكذا مئة جلدة للمرة الثانية وفي المرة الثالثة : القتل . هذا في غير المحصَن (غير المتزوّج) . اذ قال تعالى : » ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا »[٣] . (٢٥/٣٨ الفرقان) . واما في المحصن فحدّه الرجم للمرة الأولى .

(٩) اللواط : وحدّه أحد أمور يتخير ولي الأمر (الحاكم) فيها . وهي

---

(١) الاساءة اليهما وعدم الاحسان اليهما .

(٢) هو الصديد الذي ينزل من جلود أهل النار .

(٣) واذا تاب بينه وبين ربه فقد تاب الله عليه ، مع العزم على عدم العود أبداً والندم العميق على ما كان منه . ويجلد (القواد) خمساً وسبعين جلدة ويحلق رأسه ويشهر وينفى ويثبت بشاهدين عدلين أو بالاقرار مرتين .
وأما السحق أو المساحقة فتجلد كل من الفاعلة والمفعولة مائة جلدة ولا يبعد الرجم مع الاحصان (أي بأن تكون ذات بعل) .

اما القتل أو الرجم أو القاؤه من شاهق تنكسر عظامه أو احراقه بالنار . وهكذا يعاقب المفعول به أيضاً ان كان بالغاً مختاراً ، وان كان صغيراً عُزّر .

وقد جاء عن النبي (ص) : « ان من قبّل غلاماً بشهوة لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الرحمة وملائكة الغضب وأعدّ له جهنم وساءت مصيرا » .

(١٠) شرب الخمر والفقاع وكل ما كان مسكراً : اذ قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » (٥/٩٠ المائدة) . وحدّه : ثمانون جلدة عارياً على ظهره وكتفه ولو تكرر الحد ولم يرتدع قتل في الرابعة . ولو شربها مستحلاً فهو مرتدّ يجب قتله . ويستتاب بائع الخمر ، فان تاب ، والا قتل .

(١١) انكار ما أنزل الله تعالى .

(١٢) الأمن من مكر الله وبطشه .

(١٣) محاربة أولياء الله .

(١٤) معونة الظالمين والركون اليهم ، اذ قال تعالى : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » . (١١/١١٣ هود) .

(١٥) قطيعة الرحم : اذ قال تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » (٢٢/ ٤٧ محمد (ص)) .

(١٦) الفرار من الزحف في الجهاد أو الدفاع الواجب . والزحف هو السير نحو العدو . اذ قال تعالى : « ومَن يُولّهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » . (٨/١٦ الانفال) .

(١٧) شهادة الزور .

(١٨) كتمان الشهادة : اذ قال تعالى : ومن يكتمها فانه آثم قلبه » . (٢/٢٨٣ البقرة) .

(١٩) السحر ويليه تسخير الجنّ والأرواح والكواكب : اذ قال تعالى : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابلَ هاروت وماروت . وما يعلّمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تفكر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارّين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرّهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق [1] ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » . (سورة البقرة : ٩٦) .

(٢٠) اليمين الكاذبة . اذ قال تعالى : « ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ، أولئك لا خلاقَ لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » . (آل عمران : ٧٧) .

(٢١) نقض العهد والنذر واليمين . وكفارة اليمين : اطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم ، او تحرير رقبة . مخيّرا بين الثلاثة . فان عجز فصيام ثلاثة أيام متتابعة . وكفارة النذر أو العهد هي كفارة افطار شهر رمضان . فان عجز لجأ الى الاستغفار .

(٢٢) أكل مال اليتيم . اذ قال تعالى : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » . (النساء : ١٠) .

(٢٣) أكل الميتة . اذ قال تعالى : انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله . فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ، ان الله غفور رحيم » . (البقرة : ١٧٢) .

(٢٤) أكل الدم . للآية المتقدمة .

(٢٥) أكل لحم الخنزير . للآية المتقدمة .

---

(١) من نصيب .

(٢٦) أكل السحت . (المال الحرام) .

(٢٧) الخيانة .

(٢٨) السرقة .

(٢٩) تنقيص المكيال والميزان . اذ قال تعالى : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن اولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين » . (سورة المطففين : ٦) .

(٣٠) حبس الحقوق ، كالخمس والدين وغيرهما .

(٣١) ترك الصوم مع القدرة .

(٣٢) الاضلال عن سبيل الله . اذ قال تعالى : « ثانيَ [١] عطفِه ليضلَّ عن سبيل الله ، له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » [٢] .

(٣٣) التخلف عن الدفاع الواجب أو الجهاد . اذ قال تعالى : « فرح المخلفون [٣] بمقعدهم اخلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشدُّ حراً لو كانوا يفقهون » [٤] .

(٣٤) الاسراف والتبذير : اذ قال تعالى : « ان المبذرين كانوا أخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » . (الاسراء : ٢٧) .

(٣٥) اللهو : (الاشتغال بالملاهي) .

(٣٦) الغناء : اذ قال تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين » [٥] . وقد جاء في الحديث : « الغناء مجلس لا ينظر الله الى أهله » .

---

(١) أي متكبراً . (٢) سورة الحج : ٩ . (٣) الذين تخلفوا عن الذهاب مع الرسول (ص) في غزوة تبوك . (٤) سورة التوبة : ٨٢ . (٥) سورة لقمان : ٦ .

حقاً ، ان استماع الأغاني وما تلقنه من اتجاهات سلبية تأخذ بالنفس الى التسافل . وان الدوام على ذلك ينسي ذكر الله . فلا ترتاح النفس الا الى سفاسف الامور ومعان رخيصة متسافلة . تزول مع الغناء صفة الخشوع والخضوع تجاه القادر المتعال ويحرم الشخص نفسه بذلك من لذيذ مناجاة الله تعالى جوف الليل حيث لا واسطة بين العبد والمعبود . مناجاة فيها من العروج الى معالم القدس وسرور فائق ما لا يشعر به الا عباد الله الفائزون . انها دموع ساخنات ، تثلج الصدور وتبعث على الاطمئنان واليقين .

(٣٧) الميسر (القمار) . ولو كان دون أخذ شيء من المغلوب .

(٣٨) القذف : ويراد به الاتهام بالزنا وما شابه . وحده ثمانون جلدة . اذ قال تعالى : « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذات عظيم » [١] . وفي آية أخرى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » [٢] .

(٣٩) منع الزكاة : اذ قال تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكنزون » [٣] .

(٤٠) ترك الحج مع الاستطاعة : اذ قال تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غني عن العالمين » . (آل عمران : ٩٧) . وعن أبي عبدالله (ع) . قال : « من مات ولم يحج حجة الاسلام ، لم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو

---

(١) النور : ٢٣ . (٢) النور : ٤ . (٣) سورة التوبة : ٣٥ .

سلطان يمنعه . فليمت يهودياً أو نصرانياً » .

(٤١) الغيبة : اذ قال تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم » . (سورة الحجرات : ١٢) .

(٤٢) القيادة : وهو الجمع بين اهل الفجور .

(٤٣) اساءة الخلق . وقد جاء في الحديث : « ان سوء الخلق ليفسد الايمان والعمل كما يفسد الخل العسل » و « أن لكل ذنب توبة الا سوء الخلق » .

(٤٤) النميمة : فعن الباقر عليه السلام « الجنة محرمة على القتاتين المشائين بالنميمة » . القتّات : النمام .

(٤٥) ضرب المسلم بغير حق .

(٤٦) السعاية الى الظالم .

(٤٧) قطع الطريق : اذ قال تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف [١] أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (سورة المائدة : ٣٧) .

(٤٨) الظلم : اذ قال تعالى : « انا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها [٢] وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل [٣] يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » . (الكهف : ٢٩) .

---

(١) أي تقطع ايديهم اليمنى وارجلهم اليسرى .
(٢) فسطاطها : خيمتها .
(٣) القيح أو صديد الميت خاصة أو ما ذاب من صفر أو حديد أو زيت .

(٤٩) الكبر : اذ قال تعالى : « فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين » . (النحل : ٣٢) .

(٥٠) كتمان ما أنزل الله من الأحكام الشرعية وغيرها : اذ قال تعالى : « ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم ا لا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم » . (سورة البقرة : ١٦٩) .

(٥١) المنع من المساجد : اذ قال تعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » [١] .

(٥٢) الاستهزاء بالمؤمنين .

(٥٣) اشاعة الفاحشة : اذ قال تعالى : « ان الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم » [٢] .

(٥٤) الحكم بغير ما أنزل الله : اذ قال تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

(٥٥) لبس الرجل الحرير .

(٥٦) لبس الرجل ألبسة منسوجة بالذهب أو خاتماً من ذهب .

(٥٧) الأكل والشرب في الأواني المصنوعة من الفضة أو الذهب .

(٥٨) ترك الزوج حقوق الزوجة أو بالعكس .

(٥٩) الرياء في العبادة : فعن الصادق (ع) أنه قال : «كل رياء شرك ، انه من عمل للناس كان ثوابه على الناس ومن عمل لله كان ثوابه على الله » .

(٦٠) المراء : وهو الجدل في المباحثات بالباطل ، لقوله تعالى : « وجادلهم بالتي هي أحسن » .

---

(١) سورة البقرة : ١٠٨ . (٢) سورة النور : ١٨ .

(٦١) أن يلبس الرجال ألبسة النساء وبالعكس .

(٦٢) الرشوة والارتشاء : (اعطاء الرشوة وأخذها) .

(٦٣) نحت المجسمات وصنعها على شكل انسان أو حيوان . فقد جاء في الحديث : « ان من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصوّرين » .

(٦٤) التعرض للذل : وقد قال تعالى : «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . (المنافقون : ٨) .

(٦٥) الشعبذة : وهي ما يُرى الناس بها ما ليس له حقيقة بسبب حركات سريعة توجب الالتباس وهي محرمة كأجرتها وتعلمها وتعليمها الا أن يكون التعلم لغرض صحيح كردّ من ادعى النبوة ونحوها بها .

(٦٦) طلب الرياسة مع عدم الأمن من العدل وقد ورد عنهم عليهم السلام : « ما خفقت النعال خلف رجل الا هلك وأهلك » . « وان من طلب الرياسة هلك » . « وانه ملعون من ترأس ، ملعون من همّ بها ، ملعون من حدث نفسه بها » .

(٦٧) ظن السوء بالمؤمن : فقد قال الله تعالى : « اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم » . (الحجرات : ١٢) .

(٦٨) العُجب : وقد ورد عنهم عليهم السلام : « من دخله العجب هلك . وان اعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله » .

(٦٩) الغش : فقد ورد عنهم (ع) انه : « ليس منا من غش مسلماً » .

(٧٠) الكذب : وقد عدّه الصادق والرضا عليهما السلام من الكبائر . وقد ورد : « أن الله عز وجل ، جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الخمر والكذب ، والكذب شر من الخمر » .

(٧١) مجالسة أهل المعاصي والبدع . لما ورد من النواهي الأكيدة عن ذلك . قال تعالى : « واذا رأيتَ الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ،

واما ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » • (الأنعام : ٦٨) •

(٧٢) اتيان البهائم •

(٧٣) منع المؤمن أخاه المؤمن شيئاً يقوى عليه من عنده أو من عند غيره وحبس الحقوق من غير عسر [١] • فعن أبي عبدالله (ع) ، قال : « أيما مؤمن منع مؤمناً مما يحتاج اليه وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره أقامه الله يوم القيامة مسوداً وجهه ، مزرقة عيناه ، مغلولة يداه الى عنقه • فيقال : هذا الخائن الذي خان الله ورسوله ، ثم يؤمر به الى النار » •

وعن ابن سنان عن يونس بن ظبيان ، قال : قال أبو عبدالله (ع) : يا يونس ، من حبس حق المؤمن أقامه الله عز وجل يوم القيامة خمسمائة عام على رجليه حتى يسيل عرقه أودية ، وينادي مناد من عندالله عز وجل : هذا الظالم الذي حبس عن الله حقه • قال فيوبخ أربعين يوماً ، ثم يؤمر به الى النار •

وهناك كبائر أخرى نرجيء ذكرها الى محل آخر • ونختم هذا البحث بما جاء عن علي عليه السلام :

« من كفارات الذنوب العظام : اغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب » • وقال عليه السلام مخاطباً كميلاً : يا كميل ، مر أهلك أن يروحوا فى كسب المكارم ويدلجوا في حاجة من هو نائم • فوالذي وسع سمعه الأصوات : ما من أحد أودع قلباً سروراً الا وجعل الله له من ذلك السرور لطفاً ، فاذا أصابته نائبة جرى اليها كالماء بانحداره حتى يطردها كما تطرد غريبة الابل » •

وقال سلام الله عليه : « ادنى الانكار ان تلقى اهل المعاصي بوجوه مكفهرّة » •

---

(١) كنا ذكرنا حبس الحقوق فى موضع آخر . ولا بأس بتكراره هنا مع جديث في هذا المقام الخطير .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من رأى منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

***

كيف نتوب

يجدر بنا أن نذكر بعض ما ينبغي أن يقوم به الشخص عند ارادته التوبة. فانه ما من عبد (عدا المعصومين سلام الله عليهم أجمعين) الا وقد أذنب ، وما عليه الا أن يتوب من ذنبه عاجلاً كي لا تتراكم عليه ذنوبه فيسوّد قلبه ، فيعمى اذ ذاك عن رؤية الحق والواقع . ولا شك أن الاستغفار على نوعين ، عملي وعبادي . فالاستغفار العملي هو ارجاع ما للناس على الفرد من حقوق الى أصحابها ، والاجتهاد في جلب رضاهم ، وقضاء ما فاته من عبادات . وأما العبادي :

(١) فقد قال رسول الله (ص) : ما من عبد أذنب ذنباً فقام فتطهر وصلى ركعتين واستغفر الله الا غفر له وكان حقيقاً على الله أن يقبله . لأنه سبحانه قال : « ومن يعمل سوءً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » .

(٢) وفي الاقبال أنه : خرج رسول الله في اليوم الثاني من شهر ذي القعدة فخاطب الناس قائلاً : « أيها الناس من منكم يروم التوبة ؟ » . فقالوا : كلنا نروم التوبة . فقال : «اغتسلوا وتوضأوا وصلوا أربع ركعات واقرأوا في كل ركعة سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة التوحيد (الاخلاص) ثلاث مرات والمعوذتين (قل أعوذ برب الفلق ، قل أعوذ برب الناس) مرة واحدة ، واستغفروا بعد الانتهاء من الصلاة سبعين مرة وقولوا : (لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم) سبع مرات . ثم قولوا : « يا عزيز يا غفار .

اغفر لي ذنوبي وذنوب جميع المؤمنين والمؤمنات ، فانه لا يغفر الذنوب الا أنت » .

ثم قال رسول الله (ص) : « ما من أحد من أمتي يأتي بهذا العمل الا ومناد يناديه من السماء عن الله تعالى : عبدي ، استأنف العمل ، فقد غفرت لك . وان ملكاً آخر ينادي من تحت العرش : بوركت أنت ومن يلوذ بك وذراريك . وملك آخر يقول : سوف يرضى عنك خصماؤك يوم القيامة . وآخر يقول : يا عبدالله ، ستموت على الايمان ولا تعدم الايمان ويفرّج لك في قبرك وينوّر قبرك . وآخر ينادي : سوف يغفر لأبويك وذريتك ويوسع لك في رزقك . وان عزرائيل يخاطبه ، فيقول : سوف أرفق بك عند قبضي روحك » .

ثم سأل سائل رسول الله . لو أن رجلاً جاء بهذا العمل في غير ذي القعدة ما نتيجة ذلك ؟ فقال (ص) : عين ما كان له من النتيجة في شهر ذي القعدة ، ثم قال : ان جبريل قد علمني هذا العمل عند معراجي الى السماء .

(٣) أن يقول بعد كل فريضة قبل أن يثني رجليه ثلاث مرات : « أستغفر الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم ذو الجلال والاكرام وأتوب اليه » .

(٤) المواظبة على صلاة الليل وهي ١١ ركعة ، ٨ ركعات منها نافلة الليل نصلي ركعتين ركعتين كصلاة الصبح تؤتي بنية نافلة الليل . وركعتان تسميان: (الشفع) وركعة واحدة تسمى (الوتر) . ووقتها بعد انتصاف الليل الى الفجر . وكلما كان قرب الفجر كان أفضل . ويُستحب أن يقال في قنوت (الوتر) : الركعة الأخيرة سبعين مرة : أستغفر الله ربي وأتوب اليه . وهناك مستحبات أخرى لا مجال لذكرها .

ان الله تعالى يمتدح المستغفرين بالأسحار بقوله : « ان المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم ، انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً

من الليل مايهجعون [1] • وبالاسحار هم يستغفرون • وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » • (سورة الذاريات : ١٤ — ١٨) •

فطوبى لنفوس فكرت في عقباها • فلازمت التقوى وما يؤدي الى الزلفى ووفقت الى أنواع الاستغفار • فطهرت من أدرانها وتزكت مما علق بها من دنس ورجس • فذهبت الى نعيم خالد وحياة كلها سرور وحبور • « وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب ، وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » • أي ان الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية الابدية • ليس فيها حزن أو قلق أو خوف • « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » •

حقاً ، ان الحياة الدنيا بما فيها من مشاكل وأعمال كثيرة لا طائل تحتها وملهيات أخرى لا تفيد في تكامل النفس لهي لهو ولعب • فالانسان في دنياه وان كان في دوره التكاملي ، الا أن حياته فيها أشبه شيء بحياة الطفل بالنسبة الى حياة الرجل المتكامل • وسيعلم ذلك ، (ان وفق الى تطهير نفسه)، في « جنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » • (٥٧ — ٢١) •

---

(١) ينامون في قليل من الليل أو نوماً قليلا •

جواب على شبهات الماديين

نورد هنا ما عثرنا عليه من شبهات الماديين التي لم تتوارد في أذهانهم الا لأنهم أزاحوا الفطرة بأعمالهم عن فعاليتها وتأثيرها الطبيعي . فأملى عليهم الشيطان شكوكاً وشبهات هي في غاية السخافة في نظر من كان محافظاً على فطرته الطبيعية ولم تدنسه الموبقات . ولو أنهم وقفوا حين جهلوا لم يكفروا ، على ما جاء في كلام علي عليه السلام حيث يقول « ولو أن الناس اذ جهلوا وقفوا ولم ينكروا لم يكفروا » . ولكن هيهات ، فان المدنسات لم تدع لهم مجالا للتوقف او التردد وازاحتهم عن التفكير الطبيعي وهو الاعتراف بالخالق المبدع الرؤوف الرحيم .

على أني موقن أن هذه الردود التي نوردها جواباً على الشبهات لا تفيد المادي الذي أعمى الله قلبه لظلمات في نفسه ، فاكتسبها من جراء ذنوبه . لأن المنطق ليس هو الشيء الوحيد الذي يردع هذا الانسان (الكنود) عن غوايته ويهديه الى النور والى صراط مستقيم . فقد جاء في الحديث : « ما ضرب ابن آدم بعقوبة أعظم من عمى القلب » . فان عمي القلب فلا منطق ولا هداية ولا قبول . ان الله تعالى يقول : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » . (البقرة : ٧) . « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » . (سورة : حم ـ السجدة : ٦) .

وانما نورد في ما يلي بعض الردود ، ليزداد الذين آمنوا ايماناً ولكي يتمكنوا عند المجادلة مع الملاحدة من الرد والاجابة « وكان الانسان أكثر شيء جدلاً » . ولعل الله يمن على من لم تنقطع صلته به تعالى بعمل صالح كان

يأتي به من حين لآخر ، بعد الاطلاع على هـذه الأجوبة ، بتوفيق الهداية والرشاد والرجوع الى الفطرة بفضلة تعالى .

الشبهة الاولى : ان لم يكن العالم المادي أزلياً وقلنا انه حادث مخلوق لزم من ذلك القول بأن العالم قد وجد من العدم وأن الله قد خلق الأشياء من عدم وهذا أمر محال لا يتفق مع معطيات العلم الحديث .

الجواب : ان العلوم الحديثة تؤكد لنا أنه لا يمكن وجود شيء من العدم وهذا دليل على وجود الله تعالى . الا أن بعض الأعراض قد تحصل من انفصال شيء عن شيء آخر . كما ان اتصال شيء بشيء يؤدي الى وجود أعراض جديدة . ولكن العرض ليس بجوهر ولابـد لوجودها وجود أشـياء أخرى قبـلاً .

ولا شك أن الله تعالى قد أبدع الأشياء بقدرته ولولا قدرته والطاقات التي أوجدها بقوله « كن » لما وجد شيء أبداً . « انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان [١] الذي بيده ملكوت [٢] كل شيء واليه ترجعون [٣] » .

ولكن ، كيف قول الله تعالى (كن) يؤدي الى ابداع السموات والأرض ووجود هذه الطاقات الهائلة التي قد اكتشف أخيراً أنها هي الاساس في تكون هذا الكون . هذا مما لم يجعل الله تعالى للبشر مجالاً الى معرفته . « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » انه تعالى يقول : « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر [٤] » ويقول أيضاً : « انا كل شيء خلقناه

---

(١) فتنزيهاً لله عن النقص ، سبح الله أي نزهه عن النقص .
(٢) الملكوت ، مصدر ملك ، مختص بملك الله تعالى .
(٣) سورة يس : ٨٣ .
(٤) سورة القمر : ٥٠ .

بقدر » فحقيق بالكيماوي المؤمن ، ذلك الذي لم يلوث الفطرة بموبقات ومهلكات أن تفيض عيناه بالدموع عند تلاوة هذه الآية المباركة : « انا كل شيء خلقناه بقـدر » لما يشاهد تلك التفاعلات بين العناصر بمقادير معينة واتجاهات ثابتة تؤدي الى وجود هذا العالم المملوء بالعجائب والغرائب . « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور » [1].

ان الطاقات التي أوجدها الله بقوله (كن) أي أن الطاقات والقوى التي أوجدها الله تعالى بارادته ومشيئته تكدست حسب النظريات الأخيرة في علم الفيزياء فكانت مادة . وان هذه المواد شكلت كما يشاء الله هذه العوالم . اذ علم أن : $E = M C^2$: الطاقة الكامنة في كتلة ما تساوي مربع سرعة الضوء مضروبا في تلك الكتلة . فسبحان من منـح هـذه الطاقات هـذه العوالم بعظيم قدرته ورتبها خير ترتيب . وليس لهذا الانسان مع عقله المحدود وقابلياته المحدودة أن يعرف كيف أن الله بقوله : (كن) يوجد هذه الطاقات . فان نسبة قابلية الانسان المحدودة في جميع الحقول الى قدرة الله تعـالى كنسبة $\frac{ب}{\infty}$

ومآل هذه النسبة : الصفر . فأنى للصفر أن يفهم اللانهاية فهماً تاماً ويقف على كيفية خلق الله الخلقَ وانقلاب ارادته تعالى الى طاقات هائلة . وان هذه الشبهة ان دلت على شيء فانما تدل على نفس متحجرة وكبر وغرور وطيش وانسحاب للعقل الفطري .

الشبهة الثانية : ان كل موجود لابد له من مكان يستقر فيه ولابد له من زمان يقع فيه . وان العلوم الطبيعية الحاضرة تقول : بأن المادة موجودة في الزمان والمكان . اذن ليس في الامكان أن تتصور وجود الخالق الأزلي خارجاً عن الزمان والمكان .

---

(١) فطور : صدوع وخلل .

الجواب : ان الله تعالى غني عن الزمان والمكان ، لأنه ليس بمادة وقد كان موجوداً من الأزل دون أن يكون له ابتداء . وهو الذي أوجد وأبدع الزمان والمكان . ولا مراء أن المكان والزمان مفهومان يتفرعان عن المادة . ولولا خلق الله تعالى السموات والأرض والقمر لما كان هنالك زمان ولا مكان . وان الله تعالى موجود في كل مكان وزمان . وعند ما نقول : ان الله لا زماني ولا مكاني ، نقصد بذلك أنه لا يشبه سائر ما خلق من الموجودات ، بسبب احتياج هذه الموجودات جميعاً الى زمان والى مكان . أي ان المكان لا يحيط به وان الزمان لا يحويه ولا يكون له ظرفاً ، لأنه تعالى هو خالق هذين الظرفين (الزمان والمكان) . على أن تطبيق ما يقال عن المحدود على غير المحدود (اللانهائي) وهو الله تعالى من الغباوة والقساوة بمكان . وهو هراء لا فلسفة !

وقد قال علي عليه السلام : « ومَن قال في مَ ؟ فقد ضمَّنه ومن قال : علامَ فقد أخلى منه . كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزايلة ، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة » ..

الشبهة الثالثة : ان العلم الحديث يقول : أنه لابد للمادة من زمان ومكان . وأن المادة لا توجد الا في زمان . وبما أنكم أيها اللاهوتيون تقولون: ان الله هو خالق العالم . وحيث لم يكن عندما خلق الله العالم زمان" ، اذن ليس الله هو الذي خلق العالم ، لعدم وجود زمان اذ ذاك ليخلق المادة فيه . اذ لا يمكن خلق المادة دون وجود زمان لخلقها فيه .

جواب ذلك : ان الزمان والمكان انما حدثا مع وجود المادة وهما من عوارضها . وليس لنا أن نحكم بما كان قبل خلق المادة وكيف كان . فالزمان من عوارض المادة ووجوده بوجودها ، ولم يسبق أحدهما الآخر . أي أن الزمان انما وُجد مع خلق الله تعالى الشمس أو الأرض وحركتيهما أو حركة احدهما وان الزمان مفهوم استمراري لوجود المادة وهكذا المكان .

وان الله تعالى حين خلق المادة الأولى سواء كان (أثر) على ما يقول بعضهم أو غير ذلك وجد مفهوم الزمان والمكان مع تلك المادة . فلا زمان ولا مكان بالمعنى الذي نفهمه قبل أن يخلق الله شيئاً .

الشبهة الرابعة : يقول بعض الماديين : لو كان لهذا العالم خالق لكان له هدف وغاية من هذا الخلق . ولكنا لا نفهم القصد والغاية من هذا الخلق . ومنهم : (هودسن تونل) الأمريكي ، حيث يقول : « ان القمر يدور حول نفسه مرة حين يكمل حركته الانتقالية حول الأرض . وهو يوجه جهة واحدة منه نحو الأرض — ألسنا محقين لو سألنا عن السبب ؟ فلا قصد ولا غاية من ذلك . اذ لو كان هناك قصد لظهر لنا وبان ! » . ويقول (بوخنر) الألماني المادي المعروف : « لو كان لهذا العالم خالق لعلمنا الغاية من وجود هذا الفضاء الوسيع (السماوات) والغرض من سبح الأنجم والسيارات فيه ولاستفادت أرضنا من الأنجم السيارة في المنظومة الشمسية وحيث لا نستفيد ولا نعلم الغاية من ذلك ، إذن ليس هنالك خالق خلق الأشياء تحت غاية معينة ! » .

جواب ذلك : أن جهل المادي للغايات والخواص لا يكون دليلاً على عدم وجود غايات حكيمة وخواص في غاية الاتقان . وان العلم البشري لا يزال في مراحله الاولى . أوَما ترى كيف أن الاكتشافات الحديثة توضح وتعلل كثيراً مما كان يجهله البشر سابقاً ويقف على كثير من المقاصد والغايات السامية التي أودعها الله تعالى في مخلوقاته . راجع تاريخ العلوم لتعلم كيف أن البشر كان يجهل ثم علم . وأن موقع الشمس من الأرض وموقع القمر من الشمس والأرض والمسافات التي رتبها الله بين الكواكب وما هنالك من حركات تشير الى حكم سامية لا يعلمها الا علماء رياضيون فلكيون . فلو تغير موضع الشمس عما هو عليه الآن لاستحالت الحياة وهكذا بالنسبة الى موضع القمر

وبقية الأنجم ، « الشمس والقمر بحسبان [١] والنجم والشجر يسجدان [٢] والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان » .

فاذا بلغ المادي من السخافة والجهل وعدم الاطلاع والطغيان مرتبة ينكر معها الحقائق فانما الذنب ذنبه ، لنقص متأصل فيه . وان أمثال هودسن وبخنر أقل من أن يدركوا المعادلات التفاضلية المعقدة والمعادلات العالية الصعبة الحل وقوانين الفلك العالي المستندة على عصارة الرياضيات العالية .

فطوبى لمن طهرت نفسه ، فاذا نظر الى السموات العلى ، قال : خاشعاً خاضعاً وعيناه تفيضان بالدموع : « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار [٣] » . انما هذه الدموع رشحات نفس زكية .

الشبهة الخامسة : — يقول المادي بما أنا لم نشاهد حدوث المادة ولم نشعر به ، اذن فالمادة شيء أزلي وغني عن خالق يخلقها ويوجدها .

جواب ذلك : هل أحسّ هذا المادي بأزلية المادة وعلم بها علما يقينيا . ومن المخزي أن يأخذ المادي بالحط من منزلة الفلسفة فيحصرها بالحس والمشاهدة دون ربط عقلي ومحاكمات دقيقة . هل الحكم بأزلية المادة نتيجة لمحاكمات منطقية دقيقة وتعقلات سديدة أم هوى وجحود . « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر . وما لهم بذلك من علم . ان هم [٤] ألا يظنون » [٥] . وفي آية أخرى : « وما لهم به من علم . ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً » [٦] . وفي أخرى : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » [٧] .

---

(١) أي يجريان بحساب مقدر .

(٢) أي أنها جميعاً تسجد لله مطيعة حسب ما أودع الله فيها من قوانين وخواص .

(٣) سورة آل عمران : ١٨٨ .

(٤) ان هم : ما هم . (٥) الجاثية : ٢٣ . (٦) النجم : ٢٨ .

(٧) الأنعام : ١٤٨ .

ان الله تعالى يقول : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم [١] » . فالله تبارك وتعالى لم يرنا كيف خلق السموات والأرض ولم يرنا كيف خلق نفوسنا ، لاستحالة ذلك . فكيف يجوز لنا أن نعلم كيفية خلقنا ونحن لم نوجد بعد . فالمعدوم لا يشعر ولا يحيط بشيء .

أو لا يفكر هذا المادي ان المادة شيء مركب وفيها من القوانين والدساتير على ما ثبت في علم الذرة ما يدهش العقول ويحيِّر الألباب . من الذي وضع هذا النظام الخارق وتلك الدساتير والمعادلات في الذرة ؟ . وكيف كان هناك الكترونات وبروتونات ونيوترونات . حتى كان العدد الذري لكل عنصر يعادل عدد البروتونات أو الالكترونات الموجودة فى ذلك العنصر .

من أوجد هذا التعادل ؟ ومن حرك الالكترونات حول البروتونات ؟ ومن الذي وزعها توزيعاً علمياً ؟ حتى كانت هذه العناصر من ذهب وفضة وهيدروجين واوكسيجين الى ما هنالك . ومن الذي بني بناء الذرة الرصين : هذا البنـــاء الذي هو أدق من أعظم الأپارتمانات ! (Appartement) انه مهندس عالمي : هو الله جلت قدرته : « فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » [٢] .

الشبهة السادسة : يقول المادي : ان الالهيين يؤمنون بخالق لا يدرك بحواسنا ، وما لا يدرك بحواسنا معدوم .

الجواب : قد أسهبنا في الفصول السابقة أن هناك كثيراً من الأشياء موجودة ولا تدرك بحواسنا ولكن العقل يحكم بوجودها كالالكترون . يقول الله تعالى في سورة الحاقة . « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون » . وان الانسان الذي جهز بحب الاستطلاع ، ان لم يلوث الفطرة بخموره وفجوره ، يعترف

(١) الكهف : ٥٢ (٢) الحج : ٤٦ .

بصورة طبيعية بالله تعالى كما يعترف الفيزيائي بوجود الألكترون • ومعلوم : أن الألكترون لا يمكن ادراكه مادياً ومع ذلك فهو معروف بآثاره أكثر من قطعة من الخشب • ان المادي ينكر وجود الجن والخوارق • ذلك لأنه يريد أن يرى الجن بحواسه الخمس : فتلمسه يده • (ولكن الجن ليس بمادة) • وتسمعه أذنه ولكن ليس للجن حركات في الهواء تؤدي الى حدوث أمواج هوائية تصطدم بالأذن فبعظهما فالأعصاب ، فالمخ حتى تسمعه • وخلاصة القول ليس الجن من هذه المادة التي تدرك بالحواس الخمس • ولكنه موجود يعترف به من اعترف بمعاجز الأنبياء (ص) ، فالقرآن • ويعترف به من قام برياضات خاصة ، فأعطي قابلية خاصة لمشاهدة الجن وشرح ذلك يطول •

وهكذا الاعتراف بالخوارق ، اعتراف بقدرة الله تعالى وبما وراء المادة • وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود • واعتراف المادي بروحه وعقله وهما لا يُريان كاف لاثبات ما نذهب اليه • ووجود هذا المادي بهذه الملكات في هذا الكون من أكبر المعاجز والخوارق • فليعترف بنفسه ان كان يصعب عليه الاعتراف بخوارق أخرى • « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » •

الشبهة السابعة : (١) قد أخذت العلوم الحديثة فى الأيام الأخيرة توضح ما في هذا الكون من ظواهر وحوادث دون اللجوء الى وجود الله !•

(٢) وان الانسان قد وقف بعد هذه المكتشفات العلمية على علل الحوادث الكونية وعلم أن الكون سائر حسب قوانين ودساتير عدة ، فليس هناك من حاجة الى الاعتراف بوجود صانع أزلي وقوة مطلقة عالية •

جواب ذلك : — أولاً — ان علماء الفيزياء وغيرهم من الذين يعملون في كشف الدساتير والقوانين التي تربط الحوادث الفيزيائية بعضها ببعض يعترفون بجهلهم سر الجاذبية الأرضية وحقيقتها وحقيقة الكهرباء والمغناطيس الى ما هنالك • ويقولون : انما نعمل في كشف القوانين التي تربط الحوادث

بعضها ببعض اما بإلهام أو حدس أو تجربة أو صدفة ولا نعلم السبب الحقيقي لهذه القوانين ونعجز عن تفهم حقيقة هذه المعادلات الفيزيائية وأسبابها • انهم يعترفون بجهلهم العلل والأسباب ويقولون : انما نرى تعاقب الحوادث بعضها اثر بعض ونظن أنها معللة ، حين أنه ليس هناك تعليل وانما مشاهدة لتسلسل الظاهرات والحوادث •

وهكذا علماء الكيمياء يعملون في وضع الروابط والعلاقات التي تربط العناصر بعضها ببعض حين التركيب والتحليل وكذا علماء النبات يعملون في التعرف على شرائط نمو النبات وتصنيفها وقل مثل ذلك في بقية العلوم ، معترفين بأنهم لا يستطيعون تغيير شيء مما يشاهدونه وبجهلهم الأسباب والعلل الحقيقية • وهم في معزل عن البحث عن خالق وضع هذه الدساتير وجهز العناصر بخواص التركيب والتحليل ، الا المؤمن التقي منهم • ذلك لأن البحث عن الخالق موضوع نفسي يترشح عن تكامل النفس وعن صفات يتصف بها الشخص من ورع وتقوى وأخلاق فاضلة • والتقوى كما جاء في الحديث : « أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك » • وأين علماء أوربا من العمل بهذا الحديث • فان معرفة الله لا تحل نفوساً مدلهمة حالكة ، وان التفكير في الفيزياء او الكيماء تفكير مادي واستعمال للقوى المنطقيةLogique التي من الله بها هذا الانسان • وان التفكير فى ما وراء المادة تفكير فلسفي لا ربط بينه وبين هذا التفكير الميكانيكي • مثال ذلك : لو أضيفت مقادير متساوية الى أخرى متساوية فالنتائج متساوية ••• الى ما هنالك • وان عملية الضرب ٣٧٥ × ٤٣ مثلاً يقوم به المؤمن والملحد على السواء ولا أثر للاعتقاد بالله في صحة عملية الضرب • انما هو تفكير مادي يقوم به الحافظة والذكاء (مع جهل الانسان كيفية ذلك) وهو في معزل عن رشحات النفس الزكية وتوجهها الى الحق •

فقضية البحث عن الخالق وعزو جميع ما في الكون من قوانين وخواص اليه تعالى قضية نفسية بحتة تترشح من نفس زكية • هي رشحات الأعمال الصالحة والتقوى • فان حب الله تعالى أو العشق الالهي لا يحلّ الا في نفس مطهرة من الدنس والرين • « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (١) • وأين القلب من معادلة تفاضلية في التحليل الرياضي أو دستور الرقاص في الفيزياء •

ان قطع النجار الخشبة الى أقسام (مثلاً) يحتاج الى قابلية يدوية وبدنية وليستا من تكامل النفس في شيء • النفس أمر مما وراء الطبيعة (Métaphysique) وتقسيم الخشبة وقطعها الى أقسام عمل ميكانيكي بحت لا أثر للعقيدة في حصوله • فان المكائن التي لا روح فيها تقوم بهذه العملية أيضاً كالانسان من ناحيته الميكانيكية • فهذا خلط بين النفس والمادة واعتبارهما شيئاً واحداً • وهذا شأن من خسر نفسه وكان من الأخسرين أعمالا • على حد قوله تعالى : « قل لمن ما في السموات والأرض قل لله ، كتب على نفسه الرحمة ليجمعنّكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » (٢) • وفى آية أخرى : « هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فنعمل غير الذي كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » (٣) •

كان يقول (گوستالوبون) : « حسب الماديون أن مذهبهم يحل محل الدين ، غير أن المادة أصبحت سراً من الأسرار ! » •

ثانياً : وأما من يقول بالمقال الثاني : (وهو أن العالم يسير حسب دساتير معينة وقوانين منظمة ، فلا حاجة الى الاعتراف بصانع أزلي) ، فهو مجنون ،

---

(١) سورة الشعراء : ٨٩ • (٢) الأنعام : ١٢ • (٣) الاعراف : ٥١ •

ليس له نصيب من التفكير والمنطق الصحيح . أو مغفل لا يعد في زمرة العقلاء . ذلك لأنه يجعل ما هو دليل واضح على وجود الصانع دليلاً على عدمه . كمن يرى أشعة الشمس بجميع ما هنالك من وسائل تحقيقية وتجريبية ثم ينكر وجود الشمس . انه ممن ختم الله على قلبه لكثرة ذنوبه ، فأمسى جرثومة فساد لا تفيد معه الهداية والاصلاح . « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » [1] . نعم ، « بل طبع الله عليها بكفرهم » وجحودهم وعدم قيامهم بواجب الشكر تجاه نعم الله التي لا تعد ولا تحصى .

أليست القوانين نتيجة تدبّر وتفكر وتعقل ؟ وهل يجوز أن يوجد الترتيب والتنظيم دون مرتّب ومنظم . وهل من الممكن أن توجد عوالم الجماد والحيوان والنبات وما في السموات والأرض وحركة الكواكب والليل والنهار والأمطار والأنهار ، وأن ترتبط هذه لأشياء بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ودقيقاً دون مدبّر حكيم . وقد برهنا في الجزء الأول من هذا الكتاب على انتفاء الصدفة . وانه لا يحصل انتظام وترتيب في ما لا يحصى من أشياء متسلسلة مستندة بعضها على بعض بالصدفة ، ومع ذلك فلابد من موجد لهذه الأجزاء المرتبطة بعضها ببعض ، والتي تكاد لا تحصى ، بقوانين تحير العقول حتى يأتي دور الصدفة . كيف حصل العقل من المادة ! (على ما يقوله الماديون ؟) وكيف وجد الروح ؟ هل القوة كانت قبلاً أم المادة ؟ وكيف انقلبت القوة الى مادة ؟. فلو قلنا ان هناك يداً خفية [2] تعمل في حدوث شيء من شيء آخر وتكامل بعض النباتات والحيوانات . فذاك هو الله تعالى .

ان العلم الحديث لا يزال في عنفوان اكتشافاته لمدساتير الرياضية التي أودعها الله تعالى في هذا الكون رابطاً بها أجزاء العالم بعضها ببعض . والعلماء يعترفون أنهم كلما اكتشفوا شيئاً كالأشعة الكونية مثلاً رأوا أنفسهم أمام

---

(١) سورة البقرة : ٦ . (٢) ولابد منها .

أودية من المجاهيل • ولكن المتطفلين على العلم الحديث : هؤلاء الذين لم يكتشفوا نظرية رياضية ولا آلة كهربائيـــة يظهرون خباثة بواطنهم الملوثة فيهذرون ويخرصون ويشوهون سمعة العلماء ، والعلم مما يقولون براء •

يقول ژان ژاك روسو (Jean Jacques Rousseau)

أن نعتقد أن مادة ميتة تقوى على ايجاد هذه الكائنات الحية الكثيرة ، وأن الضرورة العمياء تتمكن من خلق الموجودات العاقلة ! وان شيئاً عديم العقل يستطيع أن يوجد أشياء مدركة : (عقلاً) • ومن البديهي أن الحركة ليست بأمر ذاتي في الجسم • فلابد من محرّك ومتصرف • وان سلسلة الحركات الكونية كلها تنتهي الى المحرك الأول وهو الله تعالى » •

وأما هرشل فيقول : « كلما توسع أفق العلم ، كلما ازددنا معرفةً بالله • ذلك لأن العلم يزودنا ببراهين قطعية على وجود الخالق الأزلي القدير الذي لا حدّ لقدرته » •

وأما لينه (Linné) العالم الطبيعي المعروف ، فإنه يقول : « يمر أمام عيني ربي الذي خلق كل شيء • اني لا أراه ببصري ولكن نفسي تراه حين تشع عليها آثار عظمته وجلاله وترى ما أودع في هذا الكون من جلائل الأعمال وخوارق لا تعد • يكفيني أن أرى الكائنات الحية الصغيرة جداً التي لا ترى بالعين المجردة كيف جهزها الله بجوارح وأعضاء تحير العقول » •

يقول ولتر (Voltair) : « ان الموجودات برمتها تنادي برفيع صوتها أن لها بارئا قد برأها وصانعا قد اتقن صنعها » • وقد أخرج رواية تتكلم فيها الطبيعة مع فيلسوف ، قائلة : « يابني ، ان حيرتك هذه قد جاءتك من أن الناس قد سمتني خطأ : (الطبيعة) ، • حين أني صانع عظيم ، متقن الصنع غاية الاتقان ، هل هذه العوالم من حيث الصنع والنظام والترتيب اقل من مكينة ساعة تدق الدقائق • فكما أنه لا يمكن أن يتصور وجود ساعة دون

صانع قد صنعها ، هكذا لا يمكن أن يتصور هذه العوالم دون صانع قد صنعها وأتقن صنعها » .

ويقول (جان لاك) : « ان العقل هو الذي يرشدنا الى وجود الخالق ، ذلك ، لأنا نوقن بوجودنا ونوقن بأن وجودنا حادث ولم نكن موجودين قديماً . ونرى أن العقل يحكم أن ليس للعدم أن يوجد شيئاً ، اذن نجزم يقيناً أن ذاتا أخرى قدأوجدتنا وكونتنا .وهذه الذات ،وهي ذات الباري ،كانت موجودة بصورة دائمية ، أي أن الخالق أزلي سرمدي . وبما أننا مخلوقون من قبل الغير فكل ما فينا من قابليات وامكانيات فهي منه . اذن وجب أن يكون الموجد فى كمال القدرة . وبما أن لنا عقلاً ندرك به الأشياء فوجب أن يكون لموجدنا عقل أيضاً .

ويأتي هذا الفيلسوف بدليل آخر ، فيقول : « بما أن جميع ما في هذا الكون حادث ولم تكن قبلا ،فلا بدمن وجود قديم أزلي أوجد هذه الاشياء ولم يوجده شيء آخر » .

***

لقائل أن يقول : لماذا (جان لاك) يعترف بوجود الخالق جل جلاله في محيط غربي مفعم بالشهوات والمعاصي ، وقد لا يعترف بذلك من وجد في محيط خير من محيطه ، وكيف يترشح من نفسية (جان لاك) ، هذه الافكار التي هي مرآة العقل السليم والفطرة التي فطر الله الناس عليها وقد لا تترشح من غيره .

ان هذا الموضوع يسترعي الانتباه والتفكير . وقد أوضح الله لنا ذلك في قرآنه الكريم بقوله تعالى : في سورة الانفال : ٢٩ ، « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » .

فبالتقوى يفرق الانسان بين الحق والباطل وبالتقوى يكفّر الله عنه سيئاته ويغفرله ذنوبه، فما من فرد، عدا المعصومين الا ويحمل ذنوبا: «أحصاه الله ونسوه» لا سبيل الى تكفيرها ومحوها الا بالتوبة والتقوى، فتتجلى لهذا الفرد الحقائق بدرجة تطهير نفسه من الذنوب والارجاس ومن كل ما دنس به نفسه وجعلها متسافلة . فالايمان رشحات النفس التقية الزكية . ولا بأس أن اكرر كلمة أحد الفلاسفة المعاصرين حين يقول : « بترك الكذب يعترف الانسان بمعبود هو الله القادر المتعال » .

وأما : « التقوى : أن لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك » . كما جاء في الحديث (١) .

ولابد لمثل (جان لاك) نصيب من التقوى حتى صار يعترف بوحدانية الله تعالى ويقدسه . وان درجة هذا التقديس ليتناسب مع درجة التقوى . يقول الله تعالى :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين (٢) » .

وان أعظم الجهاد هو الجهاد مع هذه النفس الأمارة بالسوء وردعها عن شهواتها ونزواتها وأطماعها (٣) . وكلما نجح الفرد في هذه المجاهدة الثمينة : المجاهدة مع النفس ، كلما زاد يقينه حتى عد من الراسخين ، اولئك الذين يصفهم علي عليه السلام بقوله :

« هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روحَ اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى » !..

---

(١) قد اكرر الحديث لأهميته . ولكي يرسخ في الذهن وهكذا بعض الآيات .
(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .
(٣) يراد بالاطماع : غير المشروعة منها .

ولا مراء : أن اليقين الحقيقي ، يلزمه نور وبهجة وسرور وعدم الالتفات الى ما سوى الله والاستغراق في أبحر عظمة الله والمثول بين يدي الله صاغراً ذليلاً ، يلزمه القيام بالأعمال الصالحة وبر الوالدين وصلة الأرحام وقضاء حوائج الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواضع واحترام الكبير والرفق بالصغير ومعاملة الاهل معاملةملؤها الشفقة والحنان • «خيركم أبركم بأهله » • يلزمه بذل كثير وإنفاق دائم وتصدق مستمر حتى يقال :انه أسرف ، وخدمة الجار وايجاد عمل للعاطلين في حدود الامكان ، (وما أكثر امكانيات هذا الانسان لو لطفت نفسه ورقت روحه) ، يلزمه : الاهتمام بأمور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، يلزمه تهجد ومناجاة وبكاء واعتراف بالذنوب وتذلل وخشوع ، يلزمه استغفار عملي واستغفار عبادي •

والاستغفار ، كما يقول علي عليه السلام : « درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معانٍ :

أولها : الندم على ما مضى •

والثاني : العزم على ترك العود اليه أبدا •

والثالث : أن تؤدي الى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملسَ ليس عليك تبعة •

والرابع : أن تعمِد الى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقها •

والخامس : أن تعمد الى اللحم الذي نبت على السُّحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد •

والسادس : أن تُذيق الجسمَ ألم الطاعة كما أذقته حلاوةَ المعصية ، فعند ذلك ، تقول : أستغفر الله •

وقد يستشمُّ مني البعض التقشُّفَ عند ذكري بعضَ الأحاديث التي بَعُدَ الناس عن مصاديقها وتطبيقها ولكن الاسلام يجب أن يعرض كما هو ، فيستقي من ينبوعه الفياض كل بحسب قابليته وجده وجهده : « وأن ليس

للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » (سورة النجم : ٤٠) .

***

يقول أحد علماء الألمان : « الاسلام جوهرة وغطاؤها المسلمون » . ويقول أحد فلاسفة الغرب : « ان المسلمين بعدم مباشرتهم هذه القواعد يقترفون جرماً عظيماً ، لأنها هي الغايات التي تتمناها الفلاسفة » .

ويقول ، ليوپولدڤايس [١] ، في كتابه : الاسلام على مفترق الطرق : « ان تقليد المسلمين — سواء أكان فردياً أم اجماعياً — لطريقة الحياة الغربية لهو بلا ريب أعظم الأخطار التي تستهدف لها الحضارة الاسلامية » . ويقول أيضاً : « اننا نحلم بنور الاسلام ينتشر على البلاد المترامية ، بينما الشباب المسلم في جوارنا القريب يقعدون عن قضيتنا ويفرّون عن آمالنا ! » .

---

(١) انه نمسوي الأصل ، اعتنق الدين الاسلامي سنة ١٩٢٦ م ، وتسمى باسم (محمد أسد) . فحسن اسلامه وأصبح من دعاة الاسلام .

علة بعث الانبياء (ع)

ان هذا العالم بأسره بما فيه من نظم ثابتة وقوانين محكمة تدل دلالة صريحة على أن صانعها مدرك حكيم عليم . فان السيارات تدور في أفلاك ومنحنيات لا يمكن لأكبر رياضي فلكي أن يعين حدودها ويضبطها بدساتير دقيقة الا القسم اليسير منها جداً . وان ما ندرسه في علم النبات والحيوان وطبقات الأرض أكبر شاهد على أن صانعها عالم حكيم خبير قد أتقن الصنع الى حد بعيد . وان آلاف الكتب في العلوم المادية تدل دلالة واضحة على سعة علم الصانع واتقانه الخلق الى أبعد الحدود . « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » . « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

فلا يعقل بعد هذه المقدمة أن الله تبارك وتعالى يخلق شيئاً عبثاً : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين » . وفي آية أخرى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » . (سورة الدخان : ٣٨ ، ٣٩) .

فالانسان لم يخلق عبثاً ، وانما خلق للتكامل والاختبار والابتلاء . ليرى نتيجة عمله ، فان أصبح من الفائزين دخل الجنة ونعم الثواب ، وان أمسى من الهالكين دخل النار وبئس المصير .

يقول الله تبارك وتعالى في قرآنه المجيد : « ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » . انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج [1] نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » . « انا هديناه السبيل اما شاكراً واما

(١) أخلاط ، لأنه من مجموع ماء الزوجين .

كفورا » . « وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوَكم أيُّكم أحسن عملا » .

يدخل فى هذا الاختبار الفقير والغني : يدخل فيه الوزير والعامل والموظف والكاسب . « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

فالدنيا مدرسة يديرها الله وتعطى درجات لطلابها ، فالراسب فيها مصيره جهنم والناجح فيها مصيره الجنة . فلا أسف لمن سقط في امتحان المدارس . فمجالات الحياة متنوّعة ، ولعل كثيرين نجحوا في امتحان المدارس ورسبوا في الامتحان الالهي وكانوا من الخاسرين مدى الدهور .

وكان من عدل الله ولطفه أن يلهم البشر طريقي الخير والشر . وقد فعل ذلك . وألهم البشر عندما خلقه طريقي الخير والشر : « ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ،قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها » . ويقول الله في محل آخر من القرآن المجيد : « وهديناه النجدين » . أي طريقي الخير والشر .

فالانسان عالم بالخير والشر بصورة فطرية ولكنه ظلوم كفار ! ميال الى الشهوات . فأرسل الله تعالى الأنبياء عليهم السلام لا ليقوّموا اعوجاجه فحسب ، بل ليدربوه على اتباع الطريق الذي يؤدي به الى التقرب الى الله عز وجل ليكون أعلى منزلة من الملائكة . ففتح الله للبشر الطريق ، على لسان أنبيائه ، للتقدم في الدرجات العلى ، درجات لا يستطيع تصورها من لم يمارس تزكية النفس وتطهير القلب من الدنس والرجس .

فالانسان في هذه الدنيا أشبه شيء بخليطة من المعادن ، فيها معادن خسيسة رديئة وفيها معدن نفيس ثمين ، فعلية أن يطهر نفسه من الاوساخ

أي من المعادن الخسيسة بعبادات يتخللها خشوع وخضوع وبكاء وبأعمال صالحة لوجه الله تعالى دونما رياء ، ليذهب من هذه الدنيا بمعدن نفيس ثمين وليكون أهلاً للقـاء الله تعالى أي ليكون قميناً للتقرب من الساحة القدسية الإلهية .

نرى أن الخلق على نوعين : خلق تكويني ، كخلق الكواكب والأنجم والمعادن والنباتات والحيوانات ، وخلق أمري : كخلق الأنفس والأرواح : « قل الروح من أمر ربي » .

فالمخلوقات الكونية لا اختيار لها . انها مطيعة منقادة لقوانين أوجدها الله فيها . فالجاذبية الأرضية تجذب والبخار يتصاعد وان حجمه يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط وطردياً مع الحرارة . هذا شيء ثابت لا تغير فيه في العالم الدنيوي . كما أن زمن الذبذبة الواحدة للرقاص (باندول) يتناسب تناسباً طردياً مع الجذر التربيعي لطول الرقاص وعكسياً مع الجذر التربيعي للتعجيل الأرضي لمحل وضع فيه الرقاص . وكذا تركيب الماء ، أسيد آزوتيك ، أسيد سولفوريك ، ثابت لا يتغير . ونرى عين هذه الحالة في عالم الزراعة والالقاح والعضويات . فمن درس الكيمياء وكتاب الطبيعة علم أن البشر لا يخترع بل يكتشف خواص موجودة قبلاً وقابليات مخلوقة سابقاً . فالله يساعد الانسان بما أودع فيه من قابليات فكرية : من حدس والهام واستقراء واستنتاج وتجريد وتعميم لكشف هذه الخواص .

لكن النفوس والأرواح مختارة ... في امكانها أن تسرق وأن لا تسرق . وفي امكانها أن تزني وأن لا تزني ، أن تشرب الخمر وأن لا تشرب . فهي اذن: بحاجة الى مرشد يرشدها وهادٍ يهديها الى الطريق السوي .

حين أنه ليس هناك من ضرورة الى مرشد ليجعل حجم البخار يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط .

فالبشر بحاجة الى معدل يعدله ومقوّم يقومه . فالأنبياء (ع) والأوصياء من بعدهم معدّلون ومقوّمون .

ونظرة بسيطة الى الاختلاف الحاصل في القوانين البشرية وأنظار الفلاسفة أو تناقضها وتغيرها في كثير من الأحيان مع اتحاد الظروف والأوساط تجعلنا نعترف بأن البشر ناقص ليس من شأنه أن يسن قانوناً لا نقص فيه يؤدي به الى سعادة النشأتين .

البشر يريد أن يعامل بالربا ويريد أن يظلم ويريد أن يزني ويريد أن يشرب الخمر ويريد أن يقوم بكل ما يفسد النفس ، هذه النفس الأمارة بالسوء ولكن الله لا يريد ان يرى ناقصا في ما خلق ويريد تكميل هذا الانسان .

ذلك لأنه لا يترشح من الكامل على الاطلاق ، وهو الله تعالى ، الا الكمال . ولأن كل ما في هذا الكون في غاية الكمال . وان المعادلات الرياضية التي تربط أجزاء العالم بعضها ببعض لأكبر شاهد على وجود هذا الكمال . وان ما نرى من خواص وجمال وتناسق في الأزهار والأوراق وما نرى من أشكال هندسية دقيقة في الثلج المتساقط من السماء وما نرى في الذرة وغير الذرة من كمال خارق وقوانين رصينة تنزه الله تعالى عن كل نقص وتقدّسه . وتسبّح الله بأنواع التسبيح : « وان من شيء الا يسبّح بحمده » : أي تنادي بصوت رفيع : أن الذي خلقها قد خلقها في غاية الاتقان ويستحيل عليه النقص . على أن هناك تسبيحاً آخر لا نفقهه ، على حد قوله تعالى : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . وقوله تعالى : « يا جبال أوّبي معه والطير » . وقوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله » . فلا يجوز لهذا الانسان أن يحيد عن سنّة الكمال التي أودعها الله تعالى فى كل ما خلق ، وما عليه الا أن يتكامل ويسير نحو ما قُرّر له من كمال منشود . فان حاد وزاغ فقد خسر نفسه ومأواه النار . فجهنم آخر

محل لتطهير من تلوث وفسد أو تعذيبه .

وانما أرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين تحقيقاً لسنة الكمال في هذا العالم . ولولا الأنبياء لما عرفنا الله ولما تكاملنا ولما تمكنا من أن نتقرب اليه تعالى . فالأنبياء ومن بعدهم الأوصياء سلام الله عليهم أجمعين أنوار نستضيء بهم ونهتدي بهداهم .

فالله الذي خلق ما لا يعد من الأنجم وجعلها لا تصطدم بعضها ببعض ورتبها ترتيبا متفقناما بعده ترتيب : «ولئن زالتا أن امسكهما من أحد من بعده » حتى أصبحت لا تصطدم بعضها ببعض ، لا يخلق ما خلق عبثاً ، لا يخلق هذا الانسان ليسعى في الأرض فساداً ، فلا كمال ولا حساب ! : « والله لا يحب الفساد » (١) .

وقد حسب « جيمس جينز » أن اصطدام نجم معين بنجم آخر يحتمل مرة واحدة في كل (٦٠٠٠٠) مليون مليون سنة أي في (٦ × ١٠^١٦) سنة. وباعتبار ما للنجوم من أعمار وهي على الأرجح أكثر من ١٠٠٠٠٠ مليون عام أي (١٠^١١) سنة . ينتج أن الذي يكون قد تصادم من بين الكواكب لا يزيد عدده عن نجم واحد في كل خمسين مليون نجم .

كان يظن الفلكي في القرون الماضية أن هناك نجوماً ثابتة لا تتحرك وأن هناك نجوماً سيارة سُميت بالكواكب وهي التي تدور حول الشمس كالأرض والمريخ . وقد علم أخيرا ان كل ما في الكون متحرك ، فالنجوم كلها تتحرك وتجري تحت قوانين معينة ثابتة وهي تدور أيضاً حول نفسها . وعلم أن النجوم الزرقاء أسرع دوراناً حول نفسها من الصفراء .

ولأجل أن نعلم سعة هذا الفضاء الذي خلقه الله تعالى نقول : ان أقرب

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٥ .

نجم الى الشمس يبعد عن الشمس ٢٦ مليون مليون ميل . وهذا مما يدل على المسافات الشاسعة والفراغ الكبير بين الأنجم . وما أشد وحشة النجم الواحد في هذا الفراغ الهائل . ولا نعلم : أفمن أجل هذا : كثر التزاوج بين النجوم استيحاشاً واستئناساً . ان رابطة الجاذبية تربط النجمين ، فلا يستطيعان فكاكا . وحيثما وجهنا المنظار الى السماء وجدنا أزواجاً ، انها ألوف ألوف ، انها الثنائيات النجمية ، ومداراتها أهليليجية ، ذات تفرطح عظيم وقد وجب أن تكون هكذا وهذه هي الزوجية التي يقول عنها القرآن الكريم . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . فالوحدانية له تعالى وحده والزوجية متجلية في الذرة : (الالكترون والپروتون) ، وفى السماء ، وفي النبات والحيوان . فالله الذي جاء بهذا الكمال العالمي ، لا يريد بهذا الانسان الا الكمال والتكامل . لذلك كان طبيعياً أن يرسل أنبياء هادين مهديين .

نظرة واحدة الى هذا الكون الذي فيه ملايين من المجموعات الشمسية ومجرات تبعد عنا (٧٥٠ ر ٠٠٠) سنة ضوئية ومجرات تبعد عنا ملايين من السنين الضوئية [١] تكفي ليتصاغر الانسان أمام عظمة الله تعالى ، فيفكر في نفسه وعلة وجوده ، فلا يركبه الغرور على ما من الله عليه من مخترعات ، بل يزداد يقيناً بخالقه وخالق المخترعات . فتقوده فطرته الى هذه النتيجة : ان الله الذي أتقن خلق العوالم جميعاً جل أن يلهو فيريد بالانسان اللهو واللعب ! بل ان غايته وأهدافه تتناسب مع عظمته ، فلابد للانسان من تكامل ، ولابد من ارسال من يقدمون لهذا البشر دساتير هذا التكامل وطرق هذا السير التكاملي وهم الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين .

الله الذي جعل لبنات ثلاثاً في بناء الذرة (١) الألكترون ، (٢) البروتون ،

---

(١) سرعة الضوء = ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر فى الثانية وبما أن السنة = ٣١٥٣٦٠٠٠ ثانية ، فالسنة الضوئية = ٩٤٦٠٨٠٠٠٠٠٠٠ كيلومتر .

(٣) النيوترون . وأودع فيها من نظام ثابت بديع مثل ما تتدرج نغمات الموسيقى الثمان في مفاتيح البيان (Octave) حتى تمكن العلماء بذلك النظام من ايجاد عناصر جديدة ، استخدموا بعضها في القنبلة الذرية ، وتمكنوا من هدم العناصر وبنائها من جديد واحالة الراديوم الى هليوم والى رصاص ، واحالة النتروجين الى اوكسجين والى كاربون واحالة النحاس الى زنك ثم الى نيكل الخ ، لتحقيق بأن يودع الكمال في كل جزء من أجزاء هذا العالم . ومن أهم هذه الأجزاء هو هذا الانسان الذي يظنه البعض لظلمات في نفوسهم انه حرٌ في الافساد وايجاد الفساد ! فلا حسابَ ولا كتاب ! « ولا تَبغِ الفسادَ في الأرض » (١) .

ان الانسان قد عمل لحد اليوم الى حدٍّ ما كي يجيب عن (كيف ؟) فى فهم أسرار الكون . ولكنه لا زال بعيداً جداً من أن يجيب عن (لماذا ؟) .

يقول : أينشتين : « ان أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها ، تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والاظلام . ان الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته ، حيٌّ كميِّت . انه خفاء لا نستطيع أن نشقَّ حجبه . واظلام لا نستطيع أن نطلع فجره . ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة ، أحكم ما تكون ، ونحسُّ أن وراءه شيئاً هو الجمال أجمل ما يكون ، وهي حكمة ، وهو جمال لا تستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة الا في صور لهما بدائية أولية . وهذا الادراك للحكمة ، وهذا الاحساس بالجمال في روعة ، هو جوهر التعبد عند الخلائق» .

انه يقول : « ان ديني هو اعجابي ، في تواضع ، بتلك الروح السامية التي لا حد لها ! تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع ادراكها عقولنا الضعيفة العاجزة ، وهو ايماني العاطفي العميق بوجود قدرة

---

(١) سورة القصص : ٧٧ .

عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للافهام . وان هذا الايمان يؤلف عندي معنى الله » ! . .

فالله الذي يعترف به « أينشتين » ، (وهو أعلم علماء الأرض في الكون وظواهره ، وأحقهم بالكفر ان كان علم يدعو الى كفر ، وأولاهم باتباع ما اعتاد بعض علماء الغرب ومقلدوهم من أهل الشرق ، من اغفالهم ذكر الله) ، أعلى وأجلّ من أن يلهو وأن يريد بهذا الانسان فوق البسيطة ، النقص : نقصاً في الخلق ، نقصاً في المعاملات والحياة الاجتماعية ، نقصاً في العفاف والعفة ، نقصاً في البذل ، نقصاً في التوجه الى خالقه ومعبوده ، نقصاً في النفس . وقد ظهرت بأمره وقدرته روائع الكمال في جميع أجزاء هذا الكون .

فكان حقيقاً على الله أن يتصدى الى تكميل الانسان بارسال الرسل ويجعلهم في الأرض أئمة أدلاء على مرضاته لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » [1] .

***

ان الله قد وهب الانسان من الفكر والذكاء حتى تمكن ، بما أودع من نظم ودساتير متقنة عند خلق هـذا الكون ، من أن يعلم أن كوكب (السماك الرامح) تبعد عنا ٣٨ سنة ضوئية ويعلم أنه اذا أريد الاتصال به (بالسماك الرامح) بالراديو الآن لوصلت اليه رسالتنا بعد ٣٨ سنة ويجب أن ننتظر ٣٨ سنة أخرى كي يأتينا الجواب من الكوكب المذكور . ويعلم أن سرعة أمواج الراديو كسرعة الضوء : (٣٠٠٠٠٠كم/ثانية) ، ويعلم أننا نرى اليوم سنة ١٣٧٩ هـ أو ١٩٥٩ م طيفاً وخيالاً نقله الى أعصابنا البصرية شعاع انطلق من مصدره سنة ١٣٤٠ هـ أو ١٩٢١ م فقبل حلول سنة ١٤١٨ هـ

---

(١) سورة الأنبياء : ٧٣ .

أو ١٩٩٧ م وهو موعد وصول جوابنا الى الكوكب المذكور لا نستطيع ان نقطع فيما اذا كان (السماك الرامح) موجوداً حقاً . على أنا يجب أن ننتظر ٣٨ سنة أخرى لوصول الجواب الينا . عند ذلك نعلم أن الكوكب المذكور كان موجوداً سنة ١٤١٨ هـ أو ١٩٩٧ م . ذلك لأن كواكب تتشكل من جديد وأخرى تفنى وتبيد .

كل ذلك كافٍ بأن يحمل هذا الانسان ، قبل أن يلوث نفسه ، على التفكير في عظمة موجد هذا الكون وموجد هذا الانسان ، ويستنتج من كل ذلك أن أهداف الخالق يجب أن تتناسب مع عظمته وكماله . وهذا يؤدي الى القول : بأن الله المنظم لهذه الكائنات تنظيماً لا يتخلله أي نقص لجدير بأن يأخذ بهذا الانسان الى التكامل والتقدم الروحي والخلقي فيرسل أنبياءَ ومرسلين لتطهير الناس مما علق بهم من أدران : « ان الله يحبُّ التوّابين ويحب المتطهرين » ، ينيرون لهم ما ادلهمَّ عليهم من سبيل ويضيئون لهم الطريق ، فيأخذون بنفوسهم الى حيث الكمال والخلود . فقد قال رسول الله (ص) : « انما بُعثت لأتمم مكارمَ الأخلاق » . وقد خاطبه الله تعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » .

***

الله الذي سخر لهذا الانسان ما في السموات [١] وما فى الأرض [٢] والشمسَ والقمر [٣] والليل والنهار [٤] والبحر [٥] والفلك [٦] والأنهار [٧]

---

(١) سخر لكم ما فى السماوات وما فى الارض جميعاً منه . ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . (الرعد : ١٢) .
(٢) سخر لكم ما فى الارض . (الحج : ٦٥) .
(٣) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين . (ابراهيم عليه السلام : ٣٢) .
(٤) وسخر لكم الليل والنهار . (ابراهيم عليه السلام : ٣٢) .
(٥) وهو الذي سخر البحر . (النمل : ١٤) .
(٦) وسخر لكم الفلك . (ابراهيم عليه السلام : ٣١) .
(٧) وسخر لكم الانهار . (ابراهيم عليه السلام : ٣١) .

جلّ أن يريد بهذا الانسان أن يكون آلة فساد في هذه الدنيا يتسافل يوماً بعد يوم بظلمه وطيشه وغروره حتى يقول المتطفل على العلم الحديث متبخترا : ان العلم ينتزع الفضاء وان العلم يسخر من الطبيعة وان العلم هو حـلّال المشكلات ، فيجعله معبوداً له ، دون أن يتوجه الى معطي العلم وواضع العلم في هذا الكون ، بخشوع وخضوع .

فالله تبارك وتعالى انما سخر لهذا الانسان ما سخر وهيأ له أسباب التعرف الى بعض ما أودع في هذا الكون من خواص وقوانين لكي يتكامل نفسياً فتتحقق انسانيته ولكي يتطهر مما علق به من رجس ودنس . وبما أن الوصول الى هذه الغاية العظمى التي هي غاية الغايات غير حاصل الا على أيدي الأنبياء الطاهرين وبما جاؤوا به من سنن تكامل النفس من جانب الله تعالى ، لذلك أرسل الله عدداً كبيراً من الرسل يهدون البشر سواء السبيل .

ولا مراء أن الله أعرف بطرق تكامل النفس من هذا البشر الملوث ، لأنه هو خالق النفس ومبدعها . فلا تفيد متابعة رأي الفيلسوف أو علماء النفس في سير الانسان التكاملي لأنه بشري غير سماوي ، ولأنه يحمل من نفس الفيلسوف غير المتكامل ما يناسب نفسيته وهو غير ما أمر الله به على لسان أنبيائه (ع) . فلا تكامل ولا نجاة الا باتباع سنن الأنبياء (ع) ودساتيرهم تلك التي لم تمسها يد التحريف .

***

كان نبينا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين وأكملهم خلقاً وخلقاً ، جاء بشريعة سمحاء ، لا تتغير ولا تتبدل ، من لدن رب العالمين ، « حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرام محمد حرام الى يوم القيامة » ، وقد هدى البشرية الى طريق الحق والى صراط مستقيم بتعاليمه وأعماله . وقد قال الله تعالى فيه : « ولكم في رسول الله أسوة حسنة » .

فلا أخلاق أعلى من أخلاق الرسول وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين . عبادتهم فوق العبادات وخشوعهم لا يقاس بخشوع غيرهم من البشر . فمن أراد أن يتطهر ويتزكى ، فعليه أن يقتفي آثارهم ويسلك مسالكهم .

فاقرأوا الأدعية الواردة عنهم ، لتروا كيف يجب أن يقابل العبد مولاه .

نعم ، ان الديانة الاسلامية لا تقتصر على العمران الدنيوي فحسب وقد أدت حقه بنظمها المتينة وقوانينها العادلة ، ولكن للديانة الاسلامية غاية أعلى وأرفع وهي ايصال الفرد الى الدرجات العالية من التقرب الى الله تعالى والدنو من الساحة القدسية .

فكلما طهر الانسان من الرجس وكلما عمل عملاً صالحاً يرتضيه الله ولوجه الله ، تقرب الى الله وأحبه الله وقرّبه منه ، حتى يصبح مصداق هذا الحديث : « عبدي أطعني ، أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون » . وفي الحديث القدسي يخاطب الله الانسان بقوله : « خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي » . وفي القرآن الكريم : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » .

قال رجل للصادق (ع) : ما علامة المؤمن ؟ فقال (ع) : « أن يقول للشجرة تأتي ، فتأتي » . فشقّت الشجرة الأرض وتوجهت نحو الصادق (ع) .

فللانسان قابلية سامية تعلو جميع القابليات : قابلية الخلق والابداع باذن الله تعالى وذلك بعد تزكية النفس ، ولكن لا على ما يتصوره الغربي ، ذلك لأن الغربي يعلم شيئاً من ظواهر الطبيعة فحسب وذلك بصورة ناقصة ، كما يعترف بذلك كبار علمائهم . كان يقول (گوستاولوبون) : « قد علمت الفلسفة بعد عناء طويل أن لا سبيل الى ما وراء الطبيعة » . فهذا مبلغ علماء أوروبا من العلم بما وراء الطبيعة .

قام في الغرب ، مهد الفجور والفسوق ، ثلة من الناس أرادوا أن يسنوا

سنن تزكية النفوس وأسموها تطهير العقل أو غسل الدماغ (Brainwashing) وأخذوا يوصون أتباعهم بالنوم على الأرض والأكل القليل والتقشف والتخشن والصمت ، ظناً منهم أن هذه الدساتير البشرية توصل الفرد الى كمال ما [١] ، أو الى الحقيقة الواقعية ، وضنوا على أنفسهم بأن يستقوا من تعاليم محمد وآل بيته الأطهار سلام الله عليهم أجمعين ، تلك التعاليم التي قد جاءت من جانب الله تعالى من وراء الطبيعة ، لاصلاح نفوس ليست من المادة في شيء وتهيئتها لسعادة الدارين .

وما معنى تطهير العقل أو غسله . ان التزكية أمر نفسي تتصل بفعال النفس مباشرةً . والعقل الفطري لا يحتاج الى غسل أو تطهير . « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » . وقول علي عليه السلام : « يشهد بذلك العقل لو سلم من أسر الهوى » بل العقل يعمل عمله ما دامت النفس طاهرة غير ملوثة بالذنوب . فاذا تلوثت انسحب العقل « انا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه » وقام مقامه الشيطان ونفس مطيعة لهواها ولما يملي عليها شيطانها . فقد قال علي عليه السلام : « من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد اليه أبداً » . الا أن التوبة وملافاة ما فات ترجعان الى الانسان عقلَه الطبيعي الفطري ، ذلك العقل الذي يُعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان .

ان هذا النوع من الخلق والابداع خلق فجائي باذن الله تعالى دون مقدمات . وهي معاجز قد أظهرها الله تعالى على أيدي الصفوة من عباده . فمحمد (ص) ليس مصلحاً فحسب ، بل هادٍ وموصل بعض الأفراد الى الدرجات العلى ، درجات لا يعلمها ولا يدركها الا من قطع هذا الطريق . موصل الى مقامات لا تدخل تحت مخبر الكيميائي ومجهر العالم الطبيعي ،

---

(١) ان ما ذكر من الاعمال قد توصل الفرد نتيجة رياضات خاصة الى ما يميزه عن أقرانه من ملكات وقابليات جزاءاً منه تعالى في الدنيا . ولكنها أرضية بشرية لاتصفي النفوس ولاتزكيها ولاتجعلها مستعدة لآخرة سعيدة . وشرح ذلك يطول .

مقامات قد ينكرها بادىء بدء كل من مارس الحياة المادية وعلومها وقوانينها المادية ولم يمد يداً الى عوالم تطهير النفس ولم يشم رائحة من روائح ما وراء الطبيعة الفواحة .

انما بعث الله الأنبياء لتكميل البشر بصورة تدريجية فى عوالم النفس ، ذلك لأن الانسان انسان بنفسه وروحه لا بعظامه وعضلاته وبزّته وأثاثه . وليس من وظائف الأنبياء (ع) تعليم الناس الفيزياء والرياضيات والكيمياء . ذلك لأن قوانين الفيزياء والدساتير الرياضية لا تمتّ الى النفس الانسانية بصلة ولا علاقة بينها وبين مراحل تكميل النفس الانسانية . فالمهندس يعمل حسب ذكاء أودعه الله فيه ويضع التصاميم الهندسية سواء كان مؤمناً أو كافراً أو وثنياً . ثم ان قوانين العلوم الحديثة تكاد لا تتناهى ، لعدم تناهي علم الله تعالى ، لذلك أوكل الله تعلم هذه القوانين الى ذكاء الانسان نفسه ، وعلّمه طرق الملاحظة والتجربة والاستنتاج والاستقراء ، فكانت هذه الدساتير التي نراها في طيات الكتب وهذه العلوم والمكتشفات .

ولقد سمعت أحدهم ، كان يفاضل بين أديسن « هذا الذي كان يؤمن بالله وبالنبي عيسى (ع) » وأحد الأنبياء ظناً منه أن الحياة لا تستقيم الا بالكهرباء . والناس كانوا موتى قبل ذلك !..

لم يؤتَ بهذا الانسان الى هذه الدنيا لكي يتنعم بالكهرباء فحسب ، (مع قلق لا مزيد عليه) ، بل الغاية الأسمى من وجوده في هذه المرحلة الدنيوية : التكامل في عالم النفس ، في عالم الأخلاق ، في عالم الروح ، والتطهر من كل رجس ودنس . ولا يقدّر بل لا يفهم ما أقول من كان بعيداً عن هذا العالم القدسي ، منغمراً في أحضان المادة العمياء . ولا ينظر الى هذا العالم الا من الناحية المادية أو الاقتصادية فحسب . فقد جاء في الحديث : « الدنيا مزرعة الآخرة » . وفي القرآن الكريم : « ان أكرمكم عند

الله أتقاكم » . فالنبي (ص) يعلم البشر سنن التقوى ، سنن التكامل ، سنناً بها يكون الانسان ملكاً من الملائكة .

فهنا حرثان (Culture) - حرث دنيوي وحرث أخروي ، فلو اقتصر الفرد على الحرث الدنيوي تسافل الى حضيض المادة « ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضلّ سبيلا » ولكن لو أخذ نصيبه من الحرثين ، بل آثر حرث الآخرة على حرث الدنيا كان من الفائزين المقربين : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب » . ولذلك يذكر الله تعالى عباده بالحياة الآخرة ولزوم التهيؤ لها حين يأمر بالعمل في هذه الدنيا من تجارة وصناعة وزراعة وغيرها بقوله : واليه النشور : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » .

ان الله تعالى أرسل الأنبياء لتزكية الناس وتطهيرهم مما علق بهم من أدران وأوساخ على حد قوله تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » . (سورة الجمعة : ٢) .

بعثهم ليعلّموا الناس الحلال والحرام ، لأن النفس الانسانية تتردّى وتتدنّس بالحرام وتتزكى وتتطهر بالحلال .

بعثهم ليعلّموا الناس آداب المعاشرة والاجتماع ليعيش الناس في دِعة وسلام مؤمنين مُخبتين .

بعثهم ليعلّموا الناس الأعمال الصالحة التي بها تزكو النفس فتخرج من الظلمات الى النور : « ان الحسنات يذهبن السيئات » .

بعثهم ليجعلوا هذا الانسان (لو اتبع الحق وأطاع) انساناً كاملاً بالمعنى الصحيح ولتأسيس الانسانية الكاملة في هذا العالم . لا في تلك المرتبة التي يفهمها من كلمة (Humanite : انسانية) الفيلسوف الغربي .

وليس للبشر أن يعدّل ما سنّه الله على لسان أنبيائه ، مع اختلاف الظروف والأوساط والأزمنة . ذلك لأن الله تعالى أعرف بحاجات البشر وطرق تكامله ، ولا تنظر هذه السنن الالهية الى حاجات بهيمية موقتة أو أمور دنيوية عاجلة فحسب ، بل تهدف الى تكميل النفس الانسانية وجعلها قمينة بالخلود في « ما لا عين رأت أو أذن سمعت أو خطر على قلب بشر » . على أن الفقهاء يستنبطون أحكام ما جدّ من أمور وحوادث على ضوء النصوص والقواعد العامة ولا يخرجون عن فحواها وحقيقتها .

ان البشرية مغرورة ، في يومنا هذا في أفكارها مع كثرة جهلها النواحي الروحية وانغمارها في كثير من الملاهي والمفاسد . وان الاصلاح الحقيقي ينحصر في الرجوع الى كتاب الله وسنة نبيه الامين وآله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين . لا ادخال ما جاء من أوروبا المضطربة من المدنية الغاشمة الفاسدة في دين محمد (ص) الطاهر . فتحليل الربا وتجويز البغاء ومجالس اللهو والطرب ليس من الاصلاح الحقيقي في شيء .

ان الله يريد أن يطهر النفوس الانسانية ويقربها اليه ، « خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها » [1] . « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » . فلا امكان لنيل هذه الغاية الشريفة الا أن يكون الانسان مصداق كلام علي (ع) حيث يقول : « صبروا أياماً قليلة . أعقبتهم راحة طويلة » . ولا أعني بالصبر ، الصبر على الضيم والأذى . « فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . والمؤمن يعمل حسب هذه الآية الشريفة : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين » . (سورة المائدة : ٥٦) . بل يراد

(١) سورة التوبة : ١٠٤ .

بهذا الصبر ، الصبر عن الشهوات والنزوات والجلد تجاه النوائب والكوارث .

ان دين الاسلام وهو خاتمة الأديان دين تزكية وتطهير ، بنواميسه وقوانينه وواجباته مستحباته : « الذي يؤتي ماله يتزكى » . « قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها » . « ومن يتزكى فانما يتزكى لنفسه » .

ان تقهقر المسلمين ليس الا لأنهم تركوا العمل بما أمر به الله ورسوله (ص) وقلدوا الغرب في كثير من شؤونهم الاجتماعية والاقتصادية . فليس الشرق بمحتاج الى الغرب الا في العلوم المادية ، من صناعية وزراعية وميكانيكية وهندسية ... الخ . ولكن الشرق (ومع الأسف) قد تأثر بكتب الغرب الأخلاقية والاجتماعية والفلسفية والمادية والالحادية أكثر من صنايعها واكتشافاتها في عوالم المادة . فصار الشاب (الا من عصم الله) يزدري بعض ما كان يعتقد سابقاً من عقائد دينية وهو لم يبلغ من العلم المادي مبلغاً يذكر وهو حين يزدري يظن بل يوقن انه قد انفتح عليه باب من أبواب العلم الحقيقي وقد بلغ مرتبة مرموقة من ثقافة العصر !. وقد تبلغ به الحالة الى الالحاد !. ومع الأسف . فقد باع بعض الأمم الاسلامية تلك المدنية الاسلامية القويمة لاقتناء هذه المدنية المادية الحالكة ظناً منهم أنهم بلغوا مرتبة مرموقة من التقدم والتطور . حين أنهم أضاعوا المقدسات واندكوا في القومية الغربية . على أن هنالك أمارات تبعث على الاعتقاد بأنهم سوف يرجعون الى تطبيق قواعد الاسلام عن قريب ان شاء الله ، معترفين بأن الكمال النفسي ليس من المادية في شيء .

ان التطور ذو جنبتين : تكامل الى العلى ، وتدهور الى أسفل سافلين . لكن العصري المتجدد ، يزعم ان الحياة في تقدم مستمر ، وكل شيء في تقدم ، فلا تردي ولا تدهور . فذهاب العصمة والعفة مثلاً ليس الا نوعاً من التطور . ويجب ان تتابع القوانين الموضوعة (الوضعية) هذا التطور والا فالحياة غير

ممكنة ! كلا • لا تطورَ للاسلام • الاسلام دين ثابت وأوامر الله ثابتة لا تتغير، وهو أعرف بطرق تكامل من خلق من عباد • فاذا رأينا أن التيار اللاديني (لا سمح الله) أخذ في وقت من الأوقات في ازدياد ، علينا أن نسلّم لهذا الحديث : « لا يزال ينقص من هذا الدين حتى لا يقال : الله » •

فيكون ، اذ ذاك واجب المسلم الغيور على دينـــه ، من حيث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أعظم • ذلك لأن الله تعالى يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » • (سورة آل عمران : ١٠٠) وقد فسّرت : (الخير) في الآية ، بالاسلام •

ففي هذا اليوم ، في كل بقعة من بقاع الأرض ، شرقها وغربها عدد غير قليل من المسلمين ، يؤدّون الفرائض ، يصلّون ويصومون ، وقد جاء في مجلة العرفان ، عن طالب كان يدرس في الغرب : أنه بينما كان يسير فى شوارع احدى العواصم الغربية واذا به يرى رجلاً شيخاً واقفاً على عتبة داره يؤذن للظهر بصوت رفيع ، يقول هذا الطالب : تريثت حتى أتم الشيخ أذانه ، سلمت عليه فرد عليّ السلام وزيادة ، قائلاً : « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته » • عملاً بهـــذه الآية الشريفة : « واذا حييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها » • ثم تعارف معي وأدخلني داره • فقام هو وزوجته يصليان صلاة الظهر • ثم طلبا الي أن أتناول طعام الظهر معهما • فلم يبدءا بالأكل حتى قالا : « بسم الله الرحمن الرحيم » • وبعد الانتهاء من الطعام ، قالا : « الحمد لله رب العالمين » ، فسألت عن وظيفة يقوم بها الشيخ المؤذن المسلم • فقال : انه استاذ في الجامعة • وبلغ مرتبة (Doyen) : شيخ الأساتذة •

فدين الاسلام ،دين يعتنقه كبار المفكرين من الذين صلحت أعمالهم وطابت نفوسهم • وهذا (برناردشو) ، يقول : « لقد تنبأت بأن دين محمد

سيكون مقبولا لدى أوروبا غدا » . وكان يقول كارليل : « باتباع التعاليم الاسلامية يصبح الانسان اماماً كبيراً لهذا المعبد : (الكون) » . وقال أيضاً : « كان العرب يضربون في الصحراء لا يؤبه لهم عدة قرون . فلما جاء النبي العربي أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان . وكثروا بعد القلة وعزّوا بعد الذلة ، ولم يمضِ قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم » .

ولو قام المسلمون بتأسيس جمعيات للنشر والتبشير في أصقاع الغرب لأسلم ملايين من الناس ولأصبح الاسلام ديناً عالمياً .

كان جابر الجعفي من كبار المجاهدين في الكوفة وكان ينشر أخبار محمد وآل محمد (ص) ، وكان قد حفظ سبعين الف حديث سمعها من الامام محمد الباقر (ع) . فما راق الحاكم ما كان يقوم به جابر ، لأن أهل البيت (ع) كانوا مضطهدين في العصر الأموي . وأحس جابر بأن الحاكم قد أمر بالقبض عليه ، فلم يرَ بداً من أن يضع على رأسه قلنسوة من خوص ويتخذ عصا كحصان له ويركض في الطرق والشوارع كالمجانين ، فحسبه الحاكم مجنوناً وتركه ، ثم ان جابراً رجع الى جهاده ونشر أخبار أهل بيت العصمة عليهم السلام بعد سنتين وبلغ مراده .

فلنقتفِ آثارَ أولئك الأبطال الذين بذلوا النفس والنفيس فى سبيل نشر هذا الدين : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » . (سورة الكهف : ٢٩) .

كيف يختار الله أنبياءه عليهم السلام

ان الله تبارك وتعالى هو معطي الكمالات ، فلا ترى أيّ خلل في ما خلق ، وان جميع المخلوقات من مادية وروحية مرتبطة بعضها ببعض ، تشير الى أن خالقها واحد لا شريك له : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير » .

وان من توغل في فلسفة العلوم التي تربط عصارات العلوم ونتائجها بعضها ببعض يرى ذلك جلياً ويقوى الى حد ما على تفسير الآية المتقدمة التي يجب أن تدون في تفسيرها كتب عدة .

النبوة ليست الا سفارة ربانية يودعها الله أكملَ عباده خَلقاً وخُلقاً ، أي أكملهم في البدن والروح أو في الحسب والنسب وطهارة النسل والمولد والأخلاق المثالية الكاملة وخلاصة ذلك أن الله يودع النبوة شخصاً مستجمعاً لصفات العصمة والكمال .

ان الله وهو الكامل على الاطلاق لا يرجح أحداً على أحد دونما سبب وحكمة ، وهو معطي الحكمة وحاشا أن يلهو وهو القائل : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين » . (سورة الأنبياء : ١٧) . فلا يسند أمر السفارة بينه وبين خلقه الا الى أكمل عباده .

والله تعالى عادل ، اذ العدل صفة ملازمة للكمال ، وان الكامل غير محتاج ، ولا يحيد عن العدل الا من كان محتاجاً الى الجور والظلم ، والكامل غني عن ذلك كله ، لعدم وجود حاجة لديه الى شيء . اذن وجب أن نبحث عن الصفات التي توفرت في ثلة من الناس حتى أسند اليهم منصب السفارة

الالهية كي يقوموا بتكميل البشر وايصاله الى الكمال المنشود .

الصفة الأولى : هي طهارة المولد . ذلك لأن لهذا النوع من الطهارة أثراً فعالاً في الاتجاهات النفسية كما تؤيده التجارب . فالأنبياء كلهم وأكملهم نبينا محمد (ص) كانوا يتقلبون في أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة « طابت وطهرت بعضها من بعض » . « فأسرة محمد (ص) خير أسرة [1] ، وشجرته خير شجرة ، أغصانها معتدلة ، وثمارها متهدلة ، كلما قسم الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما . لم يسهم فيه عاهر ولا ضرب فيه فاجر » .

وفي اثبات الوصية للمسعودي شرح واف في كيفية انتقال النبوة والسفارة الالهية والوصية من لدن آدم من بطن الى بطن حتى انتهت الى محمد (ص). فنور محمد (ص) توارثته الانبياء حتى انتهى الى عبد الله بن عبد المطلب .

***

ثم ان الله تعالى لا يجتبي أحداً ولا يرجح بين عباده الا بالتقوى . « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . فالأنبياء (ع) هم أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم . وان محمداً (ص) كان منذ صغره وطفولته مثالاً رفيعاً للتقوى والكمال . لم يتأثر ببيئة كانت تعبد الأصنام وتأتي بأنواع الفجور والفسوق والبغي والظلم خلافاً لما يقرره علماء التربية وعلم النفس في عصرنا : « أن الطفل يتأثر ببيئته الى حد كبير » . فلم يسجد لصنم ولم يحضر مع قومه في أي عيد من أعياد الأصنام . ولم يأكل قط مما كان يذبح قرباناً للأصنام . فكان منذ صغره حسن الخلق ، طاهر العقيدة ، لم يتلوث تفكيره بعقائد الجاهلية ولم يحاكِ أترابه في لهوهم وسمرهم . ولما صار زوجاً لخديجة كان على درجة من رغد العيش تمكنه من أن يعيش عيشة هنيئة كما يعيش عظماء مكة وأغنياؤها ، لكنه مع ذلك كان زاهداً في الحياة الدنيا ولذاتها ، متقشفاً مؤثراً بساطة

---

(١) من نهج البلاغة ، الجزء : ٢ ص : ٧٧ .

العيش . فحببت اليه العزلة . لقد اختار غار (حراء) ، في جبل يبعد عن مكة ثلاثة أميال . كان يخلو فيه بنفسه أياماً ولياليَ متتابعة ، فيفكر فيه في عظمة الخالق جل جلاله وما أودع في هذا الكون من خواص وأنظمة ما يحير الألباب ويتعبد فيه لربه . انه صلوات الله عليه لم يشرب الخمرة في شبابه خلافاً لمن هم في سنه من الشبان . وكان متحلياً بمكارم الأخلاق من صدق وأمانة وعفة ووفاء الى حد بعيد . ان عزلة محمد (ص) كانت للتفكير والتأمل وذلك بالهام منه تعالى كي يزداد صفاءاً وتقربا الى الله جلت عظمته ، حتى تصبح نفسه الزكيـة على أتم استعداد لتلقي أعباء الرسالة العظيمة التي اختاره الله لها .

كل ما ذكرنا مؤهلات لأن تجعل محمداً (ص) فوق من على البسيطة في ذلك الوقت بل وفي كل وقت وزمان فتنحصر فيه الرسالة بجدارة لا يضاهيه فيها أحد أبد الآبدين .

***

ان عصارة التقوى تتجلى في الشكر ، ولا صفة تقرّب العبد الى الله تعالى كالشكر . يأتي النبي (ص) الى بيت احدى زوجاته ، ينهض من فراشه ولا ينام . يتوضأ بماء قليل ، يستقبل القبلة ويصلي . وكلما تستيقظ زوجته تراه مصلياً ، وشاكراً ربه . فتقول : « ألا تنام ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيقول صلوات الله عليه : « أفلا أكون عبداً شكورا » .

ان الشكر على ضربين : شكر لساني وقلبي ، وشكر عملي . فاما اللساني : أن يذكر العبد مولاه في كل لحظة ويحمده على عظيم نعمائه وحسن بلائه ، وأن لا يفتر عن ذلك . وأما الشكر العملي ، فيتجلى في الأعمـال الصالحة والقيام بمبرّات وأعمال خيرية والايثار والجهاد في سبيل الله والقيام بأداء الحقوق من مادية ومعنوية وأمثال ذلك . وان رسالة الحقوق لمولانا

الامام زين العابدين عليه السلام توضح ذلك . فهنيئاً للعاملين «وقليل ما هم» .

نفس النبي فوق النفوس المتعارفة وما تجمعت فيه من الأخلاق المثالية فوق الأخلاق العادية . ولا تودع السفارة الالهية نفوساً لها من الثراء والمال والجاه والمكانة شيء مرموق ، لأن هذه الأمور لا تمت الى النفس بصلة . وانما النبوة قضية نفسية بحتة ، كما أن الايمان لا يلج نفوساً لها شيء من المكانة والاعتبارات الدنيوية فحسب ، بل تدخل نفوساً شاكرة لله ، نفوساً لها من الصفاء والجلاء ما يجعلها لائقة لقبول الحق ، فلا تتكبر عن الاذعان بما هو حق ولا تحسد ولا تبخل . فان أصول الكفر ثلاثة : « البخل والحسد والكبر » كما جاء في الحديث .

كان محمد (ص) مشهوراً بين قومه بأمانته وطهارة نفسه وعفته ، وكان متحلياً بمكارم الأخلاق على عكس غيره من شبان زمانه . والمعروف أن فترة الشباب من عمر الانسان هي الفترة التي يندفع فيها الشبان الى الشهوات . ولكن حياة محمد (ص) في هذه الفترة كانت حياة مثالية نموذجية حتى لقبه قومه بالأمين . ولذلك لم يجد قومه عند ما اشتد الخصام بينهم وبينه ، شيئاً يمس شرفه أو يطعن في عفته ، مع أنهم كانوا حريصين على النيل منه في هذه الناحية . فقد كانت دعوته قائمة على اشاعة طهارة النفس والمحافظة على العفة ، ومقاومة التيارات النفسية الخبيثة . فاذا نفذوا الى شيء مما يريدون استطاعوا أن يشككوا العرب في دعوته حتى ينفضوا عنه . وكان من المألوف آنذاك الانحراف الخلقي ، ومع ذلك فلم يقف أعداؤه على حادثة واحدة يجرحونه بها . واذا أضفنا الى ذلك ما يقوله علماء النفس من أن فترة الشباب فترة خطيرة تثور فيها الغرائز الجنسية [1] استطعنا أن نفهم قوة ارادة

(١) لذلك يستحب التبكير فى الزواج . وفى الحديث : «من تزوج أحرز نصف دينه فليتق الله فى النصف الآخر » . وفى آخر : «ما بني بناء أحب الى الله تعالى=

محمد (ص) في ضبط نفسه في شبابه وتحكمه في ميوله الجنسية تحكماً جعله مثالاً للطهارة والعفة . وطهارة النفس وخلوّها من الشهوات المحرمة والنزوات لمن أهم العوامل التي تجعل الفرد قميناً بلطف الله وعنايته وجديراً بأن يكون هادياً للناس أجمعين . يقول (السير وليم موير) : « ان النبي محمداً في شبابه طبع بالهدوء والدعة والطهر والابتعاد عن المعاصي التي كانت قريش تعرف بها » .

فمن كان في شبابه مثالاً لطهارة النفس والعفة الى حد بعيد ، يستحيل أن يجري وراء الشهوة واللذة بعد بلوغه سن الاكتمال والرزانة . وهو يخوض معارك طاحنة مستمرة . فقد اكتفى بخديجة (ع) وهي أكبر منه ١٥ سنة الى أن بلغ ٥٤ من عمره . ثم تزوج بسودة ثم بعائشة تلبيةً لرجاء أبي بكر حيث شاهد الرسول (ص) مغموماً على فراق خديجة (ع) ، ثم تزوج بالعجائز والأرامل اللاتي فاتهن سن الشباب وقد أصبحن بلا عائل لأنه قد استشهد أزواجهن في الغزوات ولقد تنبه بعض كتاب المسيحية المنصفين فقالوا : « انه لا يمكن أن يكون الدافع لمحمد على الاكثار من زوجاته في هذا الوقت الا الرحمة والشفقة . ومن البعيد جداً أن يكون قد قصد من هذا اللذة والمتعة ، لأن من تزوج منهن كنّ متقدمات في السن وأرامل فقيرات » .

لا سيما وان الرسول قد أمر بالتهجد واحياء بعض الليل بصلاة وتلاوة القرآن ومناجاة ربه ، وما أعظمها ، وذلك لقوله تعالى : « يا أيها المزّمل [1]

= من التزويج » . ويكره أن تحيض البنت في بيت أبيها . ويستحب لمن أراد التزويج أن يصلي ركعتين ويقول بعد الانتهاء : « اللهم اني أريد أن أتزوج ، فقدر لي من النساء أعفهن فرجاً وأحفظهن لي في نفسها ومالي وأوسعهن رزقاً وأعظمهن بركة وقدر لي ولداً طيبا تجعله خلفاً صالحاً في حياتي وبعد موتي » .

(١) أي المتزمل . أدغم التاء في الزاء . من تزمّل : أي تلفف بثيابه . خوطب به (ص) لأنه ارتعد بدء مجيء جبرئيل . فقال : زماوني . أو من : تزمل الزمل أي تحمل الحمل ، أي المتحمل لأعباء النبوة .

قم الليلَ الا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً » . ثم يقول : « ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار » . وقد ثبت من حياته صلى الله عليه وآله وسلم انه كان يقرأ القرآن وهو قائم في صلاته حتى تتورم قدماه . فأين الوقت الذي يبقى بعد ذلك حتى يبلغ فيه مراده من اللذائذ مع ما هنالك من غزوات وحروب ؟

وكان في استطاعة الرسول (ص) أن يمتلك الجواري والعبيد ويعيش في قصور وتكون له أبهة كسرى وعظمة هرقل ، لكن رضى ببساطة المسكن والملبس ، وكان يشد على بطنه حجر المجاعة . ولما رأت زوجاته أن نساء المسلمين قد تغيرت أحوالهن وأصبحن يتقلبن فى النعيم شكون اليه ، وكنّ يعتقدن أنهن صاحبات حق في التمتع بما يتمتع به غيرهن ، بسبب الرخاء الذي أصاب الدولة الاسلامية . فنزل قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرّحكنّ سراحاً جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فان الله أعد للمحسنات منكنّ أجراً عظيما » .

***

وقد قلنا ان من أهم الصفات التي تجعل الفرد قريباً الى الله تعالى وموضع لطفه ورفده انما هو (الشكر) . ذلك لأن الكمال الانساني انما يتجلى بأدائه واجب الشكر تجاه المنعم ، لذلك يقول الله تعالى وهو الحق : « وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ،ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ،أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

ان المشركين أخذوا يزدرون الذين آمنوا ، يعترضون على ايمانهم ، لأن هؤلاء المؤمنين ما كانوا يملكون من المال والجاه شيئاً وذلك بقولهم : ازدراءاً : « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا » . وقد فاتهم ان الايمان أمر

روحي ، يتوجه الى النفس الانسانية مباشرة ، ولا علاقة له بالمال والجاه . الايمان يحلّ في النفوس الشاكرة . فكلما كانت النفس شاكرة أكثر كان ايمانها أقوى وأمتن . حتى ينتهي الى الوصاية والنبوة . والنفس الشاكرة ليس لها أمارات خارجية وعلامات فارقة مادية كالثياب الفاخرة وأعوان وأنصار ومنصب وجاه . وقد تجد هذه النفس الشاكرة في رقاع ولا تجدها في قارون .

نعم ، ان هؤلاء المتكبرين كانوا يقولون : « لو كان خيراً ما سبقونا اليه » . أي لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقنا اليه هؤلاء الفقراء المهينون ونحن أرفع منهم . كأن الخير يتبع المال والمنال والجاه والمنصب . حين أن هذه الأمور عوائق تعوق النفس الانسانية عن أن تتوجه نحو الحق والواقع لو لم تستعمل في ما أمر الله به ، ولم تؤدّ حقوقها وواجباتها ، وقل من يقوى عليها الا من رحم الله .

روي أن أبا جهل قال : « زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى اذا صرنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يوحى اليه ، والله لا نرضى به الا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت هذه الآية : « واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار" عند الله وعذاب شديد بما كانوا يكسبون » . فان هؤلاء المعترضين كانوا مع إجرامهم وآثامهم وفسوقهم يريدون أن يكونوا أنبياء . حين أنهم يستحقون الصغار والهوان والعذاب والخزي بما كسبت أيديهم . « وان الله ليس بظلاّمٍ للعبيد » . فالبشر كلهم في نظر الله على حد سواء . من أطاع منهم بلغ مراتب عالية حتى تنتهي الى النبوة أو ما يقارب النبوة ، وقد جاء في الحديث القدسي ، أن الله تعالى يقول : عبدي أطعني أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون » . أرأفة أعظم من هذه ؟ يعطي الله عبده

اذا أطاعه صفة الخالقية والايجاد باذنه تعالى : يقول للشيء كن ، فيكون . وهذه هي المعاجز التي ظهرت على أيدي الأنبياء والأوصياء (ع) باذن الله تعالى وقدرته جل وعلا .

ثم يجب أن تكون نفس النبي نفساً متعلقة بالحق لا تفتر عن التوجه الى الله ومناجاته تعالى وذكره جل وعلا طرفة عين أبداً . لا ترى شيئاً الا وترى الله معه وقبله وبعده .

ان النبي (ص) كان لا يقوم بعمل الا ويذكر الله تعالى . يراقب الله في جميع الأمور ويخشاه . فاذا جاءه أمر يحبه ، قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » . واذا أتاه أمر يكرهه ، قال : « الحمد لله على كل حال » . وان قصد فعل شيء ، قال : « اللهم خر لي واختر لي » . وان أراد سفراً ، قال : « اللهم بك أصول وبك أجول » . واذا أراد نوماً ، قال « اللهم باسمك وضعتُ جنبي وباسمك أرفعه» . واذا استيقظ قال : «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور » . وان لبس ثوباً جديداً ، قال : « الحمد لله الذي رزقني ما أتجمّل به في حياتي » . وان أكل ، قال : « الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين » . وان شرب ، قال : « الحمد لله الذي جعل الماء عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجا بذنوبنا » . واذا أفطر ، قال : « الحمد لله الذي أعانني فصمت ورزقني فأفطرت » . واذا رفع بصره الى السماء ، قال : « يا مصرّف القلوب ، ثبّت قلبي على طاعتك » . واذا أصابه همٌ ، قال : « حسبي الخالق من المخلوقين ، حسبي الرزاق من المرزوقين ، حسبي الذي هو حسبي ، حسبي الله ونعم الوكيل » .

فهذه الصفات هي بعض ما يجب ان يتوفر في من ينـاط به تكميل الناس أجمعين .

ثم ان قدسية النفوس لتؤثر فى سيماء الأبدان فتضفي عليها نورا وبهاءاً، من شاهدها ابتهج وسكن اليها وآمن بها ، يعلم ذلك من خالط الأتقياء والصالحين من عباد الله . فكان وجه رسول الله يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر . ولذلك كان يأتيه بعض الأعراب ، فيقولون حين وقوع أبصارهم على محيّاه : « والله ما هذا الوجه بوجه كذاب » .

ولا مراء . أن الصدق يصاحب الخير والبر ، والكذب يساير الفجور والشر . وعلى ذلك كانت خديجة سلام الله عليها ، تعلم من النبي (ص) أنه الصادق البار . تقول للنبي (ص) حين جاءه الوحي « والله لا يخزيك الله أبداً . انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتُقري الضيف وتكسي المعدم وتعين على نوائب الحق » .

قال ابن سعد في الطبقات : « كان محمد (ص) قبل النبوة ، أفضل قومه مروءة ، واحسنهم خلقا وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جوارا وأعظمهم حلما وأمانة وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم عن الفحش والأذى وما رؤى ملاحياً [1] ولا مارياً [2] أحداً حتى سماه قومه الأمين » .

وكان رسول الله وهو الذي بُعث رحمة للعالمين : يجلس على الأرض تواضعا وينام عليها ويخصف النعل ويرقع الثوب ويفتح الباب ويحلب الشاة ويعقل البعير ويطحن مع الخادم اذا أعيى ، ويضع طهوره بالليل بيده ولا يجلس متكئاً ، ويخدم في مهنة أهله ، ويقطع اللحم ولا يثبت بصره في وجه أحد ، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويلبس الغليظ من القطن والكتان ويشيّع الجنائز ويعود المرضى في أقصى المدينة ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده ويكرم أهل الفضل

(١) منازعاً : وفى المثل من لاحاك فقد عاداك .
(٢) مجادلا .

في أخلاقهم ويتألف أهل الشر بالبر اليهم ، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على غيرهم الا بما أمر الله ، يقبل معذرة المعتذر اليه . وكان أكثر الناس تبسماً ما لم ينزل عليه قرآن ، لا يرتفع على عبيده وامائه في مأكل ولا في ملبس ، يأكل مع الخادم ويحمل بضاعته من السوق ، لا يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة الا قام معه في حاجته ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يغفر ويصفح ، ويبدأ من لقيه بالاسلام ، واذا لقي مسلما بدأه بالمصافحة . وكان لا يجلس اليه أحد الا خفف صلاته وأقبل عليه وقال : « ألك حاجة ؟ » . وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك . وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة . وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط له ثوبه . ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته . وكان في الرضا والغضب لا يقول الا حقاً ، واذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها . واذا لقيه أحد فقام معه أو جالسه أحد لم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف .

كان صلوات الله عليه أشجع الناس قلباً وأشدهم بأساً وأكثرهم حياءً .

لا أعلم أن رجلاً يقوى على أن يثابر على صفة واحدة من هذه الصفات السامية طيلة حياته مهما عظمت نفسه وتكاملت روحه ، الا اذا كان نبياً أو وصي نبي او بالاحرى من كان جزاؤه النبوّة او الوصاية . نعم إن صفات الكمال لا تصدر الا عن نفس قدسية وروح ملكوتية قد تخلصت من قيود الأهواء وتحررت من عبودية الشهوة ، وحبّ الصيت واستمدّت من النور الالهي والهداية الصمدانية .

يجب أن تكون نفس النبي بالغة من القدسية درجة يتحمل معها الوحي ويقوى على الاتصال بالمبدأ الأعلى . وكان نبينا صلوات الله عليه مع تلك القدسية البالغة يرجف ويعرق حين نزول الوحي عليه ويقول : « زمّلوني »

فكان يغطى الى أن يذهب عنه الروع . لذلك خاطبه الله تبارك وتعالى بقوله : « يا أيها المزمّل قم الليل الا قليلا » .

ولما قدم (جارود) على النبي (ص) ، قال : « ان كنت نبياً فأخبرني عما أضمرت » . فخفق الرسول خفقة كأنها سِنة ، ثم رفع رأسه والعرق يتحدر عنه . فقال : « انك أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهلية وعن حلف الجاهلية وعن المنيحة في الاسلام . ألا وان دم الجاهلية موضوع ، وحلفها مردود ، ولا حلف في الاسلام ، ألا وان أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة » .

***

وقد تأثر بعض علماء المسلمين بروح الغرب المادية ، ففسروا القرآن متأثرين بالمادية العصرية وأنكروا نزول الوحي بواسطة جبرئيل عليه السلام . وأنكروا وجود الجن . وقالوا ان روح محمد قد بلغت مرتبة من السموّ حتى صارت تتجلّى لها الحقائق ، وخالفوا صريح القرآن والسنة المتواترة والعقل . وقاسوا الأمور الروحية وما هو وراء الطبيعة بمقاييس مادية طبيعية ولم يحتملوا أنه سيأتي يوم ، يعترف فيه فلاسفة عظام بما وراء المادة . ذلك لأن الروح الانسانية مهما تعرفت على حقائق المادة ، ليس لها اذا أرادت التكامل في عوالم النفس الا أن تستفيض من ما وراء الطبيعة . ولابد لها أن تستقي من المبدأ الأعلى الفياض بواسطة سفراء بين الله وعباده وهم الأنبياء (ع) : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء ، انه عليم حكيم » . (سورة الشورى : ٥١) .

***

ان النفس القدسية التي لا تجاريها النفوس المتعارفة أو ما هي فوق المتعارفة لا تميل الى الدنيا وزخارفها وتتوجه الى الله تعالى بكلها . فنبينا

محمد (ص) أعرض عن زخرف الدنيا وغضارتها ولم يستمتع بحلاوتها وقد ملك من أقصى الحجاز الى عذار [١] الفرات ومن أقصى اليمن الى شحر [٢] عمان وهو أزهد الناس في ما يُقتنى ويدخر ، وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر . أتى يوماً الى داره ، فرأى ستاراً قد علق على الباب ، فقال : « ارفعوه ، انه ليذكرني الدنيا » !..

ويقول فيه السير (وليم موير) : « امتاز محمد (ص) بوضوح كلامه ويُسر دينه ، وانه أتمّ من الأعمال ما يدهش الألباب . فلم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس ، وأحيا الأخلاق ورفع شأن الانسانية في زمن قصير كما فعل محمد صلى الله عليه وآله وسلم » .

نعم ، يجب أن يكون النبي محقّراً للدنيا ، متوجهاً الى العالم الأعلى ، نفسه في اللاهوت وبدنه في الناسوت . فالدنيا ، كما يقول علي عليه السلام : « دار مجاز والآخرة دار قرار ، فطوبى لمن أخذ من ممره لمقره » .

أنظروا كيف يصف عليّ (ع) نبينا محمداً (ص) : انه يقول : « قد حقّر الدنيا وصغّرها وأهونها وهوّنها وعلم أن الله زواها عنه اختياراً وبسطها لغيره احتقاراً . فأعرض عنها بقلبه وأمات ذكرها عن نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه ، لكيلا يتخذ منها رياشاً أو يرجو منها مقاماً . بلّغ عن ربه مُعذراً ، ونصح لأمته منذراً ، ودعا الى الجنة مبشراً . نحن شجرة النبوة ومحطّ الرسالة ومُختلَف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحكم . ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة ، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة » .

لقد دخل على رسول الله (ص) بعض الأعراب فارتاع من هيبته . فقال : « خفّض عليك ، فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » ، وكان صلوات

---

(١) العذار من النصل : شفرتاه . أو جانب اللحية أو الشعر الذي يحاذي الاذن .

(٢) شحر عمان : ساحل البحر بين عمان وعدن .

الله عليه يمتزج بأصحابه وجلسائه ، فلا يتميز عنهم الا باطراقه وحيائه وجليل سمته وروائه .

وكان صلوات الله عليه جالساً ذات يوم في بعض أسفاره تحت شجرة ، فاخترط أعرابي سيفه عليه ، فأرعدت يده وسقط منها السيف ومع ذلك عفا عنه . فرجع الأعرابي الى قومه قائلاً « جئتكم من عند خير الناس » .

ومن صفاته الخارقة : أنه صلوات الله عليه كلما رجع الى بيته ألقى يهودي من أعلى بيته على رأسه الشريف طبقاً من رماد ، فافتقده رسول الله (ص) بعد أيام ، اذ رأى أنه لا يقوم بعادته ! فقيل انه مريض . فعاده في مرضه ، فذاب هو وزوجته حياءً وخجلا وأسلما .

فمن أراد الكمال وأراد أن يتخلص من براثن المادة وظلماتها التي تجعل الانسان كالبهيمة أو أحط منها ، فليتمسك ببعض هذه الصفات الجليلة ، ليرى كيف يتسامى عن حضيض المادة وكيف يزداد معرفةً بالله تعالى .

لابد لهذا الانسان من أن يسير سيره التكاملي ، ولا تكامل الا بجعل سيرة النبي محمد (ص) مثالاً رفيعاً يقتدى به . فالانسان ان لم يكن محمدياً في صفاته وأعماله فهو غير متكامل نفسياً لا محالة . ولا مراءَ أن الانسان انسان بنفسه لا بماله وبدنه وما حوله من أجهزة وآلات وما يسكنه من بيوت وقصور . اذ التكامل أمر نفسي . فطوبى لمن لم تغرّه المادة وتشويهات الماديين الذين اذا استعمروا النفس فقد استعبدوا الانسان استعباداً ما بعده استعباد .

***

قد سبق في علم الله أنه سوف لا يأتي بعد محمد صلى الله عليه وآله شخص يطيعه اطاعة تامة كاطاعة محمد (ص) ويقوم بواجب الشكر كما يقوم

به محمد (ص) . وتجمع نفسه من الكمالات والفضائل ما جمعته نفس محمد (ص) . لذلك يخاطبه الله تعالى : «وانك لعلى خلق عظيم[١]» . فيختم به النبوة والرسالة ، ويرسل معه دساتير خالدة ما بعدها دستور ، دساتير تؤدي الى سعادة الدارين : « حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرام محمد حرام الى يوم القيامة » . وذلك بقوله : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما[٢] » .

وحاشا لله أن يصدّ سائر الناس عن البلوغ الى هذه المرتبة من الكمال (أي النبوة) بعد محمد (ص) . ولكنه تعالى علم بما سيكون . وان العلم بما سيكون من لوازم كمال الله تعالى . والعلم بما سيكون لا يوجب أن يكون شخص مطيعاً وآخر عاصياً . اذ العلم بالشيء غير الجبر في تحقيقه . فان العلم لا ينافي الاختيار . « وما كان لنا عليكم من سلطان ، بل كنتم قوماً طاغين » . (سورة الصافات) . وهذا رد على المجبرة القائلين بالجبر . فالله لطيف بعباده ، يهديهم سواء السبيل ، ولكنهم لعدم إطاعتهم يبتعدون عن ساحة الله القدسية ويقولون : «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم ، حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » . (أي تكذبون — الانعام : ١٤٧) . ولكن من اتبع سنة محمد وآله الأطهار سلام الله عليهم أجمعين يبلغ مرتبةً من الكمال حتى يكون كأحد أنبياء بني اسرائيل . كما في الحديث : « علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل » .

***

يقول علماء الاجتماع : ان النبوغ نتيجة تكامل اجتماعي : أي أن العظيم يأتي متأثراً بعوامل البيئة وظروف الوسط الاجتماعي . انهم يقولون : اذا ظهرت

---

(١) سورة القلم : ٣ .
(٢) سورة الاحزاب : ٤٠ .

في بيئة ما مشكلة من المشاكل العقلية مثلاً وأخذت تشغل الأذهان واشتد الجدل حولها بين الناس واضطربت الأفكار ، ظهر الفيلسوف الحكيم ! لحلّ غوامض هذه المشكلة وبيان وجه الصواب • واذا طغت موجة من موجات الفتح فى بيئة ما ظهر القائد الذي يقود الجيوش ليستولي على البلاد • وهكذا في كل ضرب من ضروب النشاط الانساني • ويقولون ان العظيم انما يبرز في ناحية واحدة •

فكيف • اذن ، ظهر محمد (ص) في بيئة تصفها فاطمة الزهراء سلام الله عليها بقولها : « وكنتم على شفا حفرة من النار • مذقّة (١) الشارب ونُهزة (٢) الطامع وقبسة العجلان (٣) وموطىء الأقدام (٤) ، تشربون الطرق (٥) وتقتاتون القِد (٦) ، أذلةً خاسئين • تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد بعد اللتيا والتي (٧) » ، وبرز صلوات الله عليه في نواح متعددة خلافا لما يقوله علماء الاجتماع • • ذلك امر رباني ومعجزة إلهية •

ان قوانين علم الاجتماع لا تنطبق على ما هو خارج عن نطاق البشر العادي أو فوق العادي بقليل • وان الله تعالى اتماماً للحجة يبعث النبي الكامل في وسط فاقد الكمال ، كي لا يقال : ان التدرج الاجتماعي أو التكامل الاجتماعي هو الذي أدى الى ايجاد نابغة من النوابغ أو جهبذة من الجهابذة •

---

(١) أي شربته .
(٢) النهزة ، بالضم أي الفرصة .
(٣) القبسة ، بالضم : شعلة من نار تقتبس من معظمها والاضافة الى العجلان لبيان القلة والحقارة .
(٤) مثل يضرب للمغلوبية والذلة .
(٥) الطرق ، بالفتح : ماء السماء الذي تبول فيه الابل وتبعر .
(٦) سير يقد من جلد غير مدبوغ . أو الشيء المقدود . قدد اللحم : جعله قطعاً وجففه .
(٧) كنايتان عن الداهية الصغيرة والكبيرة . واللتيا تصغير (التي) .

على أن التكامل الاجتماعي الذي يقول به علماء الاجتماع تكامل في عالم المادة والعلوم المادية أكثر منه في عالم تكامل النفس ، كما نشاهد ذلك في الغرب . بل يكاد أن لا تكون علاقة بينه وبين التكامل الروحي والأخلاقي .

ثم يجب أن لا يعزب عن البال أنه لا نسبة بين النوابغ والأنبياء (ع) . اذ النبوغ على ما يعرفه علماء الاجتماع : نبوغ فكري فى خواص المادة والوقوف على بعض ما أودع الله فيها من خواص وذلك تفضلاً منه . ولا يخرج هذا النبوغ عن التفكير في خواص المادة والأوضاع البشرية من النواحي المادية . حين أن النبوة سموٌ روحاني وتقرب الى الله تعالى الى درجة تؤدي بلطف الله ومشيئته واذنه الى خوارق يعجز عنها النوابغ كلهم أجمعون .

النبوغ كما يصفه (بوفون) دقة متناهية ، فهي لا تخرج عن حدود المادة أي استعمال الحياة العقلية (أعني الفكرية) بدقة فائقة في الأمور المادية. فكم رأينا من النوابغ هم من أحط الناس في عالم تكامل النفس . اذ لا رابطة بين النبوغ والتفكير الفائق في خواص الأشياء وربط بعضها ببعض ، وبين الكمال النفسي . الا اذا كان هذا النبوغ في عوالم تزكية النفس وتحليتها بالفضائل . وان المشاهدات الآتية تبرهن لنا صحة ما أقول مع ان القضية ثابتة بطريق عقلي :

نقل لي أحد طلاب دار المعلمين العالية في احدى العواصم أنه رأى ذات ليلة استاذه الدكتور في الفلسفة والتربية ملقى على قارعة الطريق بحالة يرثى لها ، ثملاً فاقد الشعور ، قال : فلم استطع أن أرى استاذي في هذه الحالة المخزية ، فحملته فى سيارة الى فندق كان يسكنه وأخذت أعالجه حتى صحا ، فقلت ما هذا يا دكتور ؟! ووصفت له ما كان به ، فقال : « أقتل مرارة الحياة بمرارة الخمرة ! » . وقال أيضاً : رأيت دكتوراً آخر في الآداب كان يرتاد محلات البغاء والفجور بصورة علنية ولا يبالي كأنه جاء بأمر معتاد . وكان

في احدى الجامعات استاذ بلغ في الرياضيات العالية مرتبة النبوغ ، ذا مؤلفات مهمة عميقة ، وقد قام بتأليف كتاب يشتمل على ٤ مجلدات ، يحقق فيه ما قام به المسلمون في العهد العباسي من خدمات جمة في عالم الرياضيات . وقد طلبت اليه وزارة المعارف في أمريكا أن يمنحها رخصة الترجمة بازاء مبلغ جسيم ، فأذن بذلك وقبض الدراهم وأصبح لا يرى مدة شهرين . فعلم بعد ذلك أنه خلا بالعاهرات والبغايا فأصيب من جراء ذلك بمرض زهري مميت (سيفيليس) فأدى به الى الجنون ومات في دار المجانين .

نستنتج مما ذكر أن النبوغ والشهادات العالية لا تعمل في كبح الشهوات وتقوية الارادة بصورة موجبة ، تلك الارادة التي تراقب الله وتستعمل في ترك محارم الله وتقاوم رغبات النفس الأمارة بالسوء وتضادثها . فان النفس الانسانية أينما وجهتها تتقوى في تلك الجهة . فان وجهتها نحو الرياضات الروحية والتخلق بالأخلاق الفاضلة قويت في هذه الناحية وان وجهتها نحو تتبعات علمية مادية وأهملت أمر تكامل النفس وتزكيتها وتحليتها بالملكات الفاضلة نبغت في الناحية العلمية المادية مع نفس قد تكون أحط من نفس البهائم . « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم » .

فلا علاقة بين النبوغ في ناحية علمية للتطلع على خواص المادة أو على طباع المجتمع (نفسيات المجتمع) ومظاهر الفرد ، وبين سمو النفس وتكاملها . وقد التبس الأمر في ذلك على كثيرين لا سيما الشبيبة المثقفة بثقافة العصر . يرى الشاب أن استاذه الغربي يقول (مثلاً) مجموع زوايا مثلث يساوي زاويتين قائمتين ، أو ان ضغط كتلة معينة من الغاز يتغير تغيراً عكسياً مع حجمه عندما تبقى درجة الحرارة ثابتة أو أن الشعاع الحامل الذي يوصل الشمس الى احدى السيارات يرسم ويقطع في أزمنة متساوية سطوحاً

متساوية • ويستدل له على ذلك كله ببراهين صحيحة • فيزعم أو يوقن شابنا المتعلم أن كل ما يقوله استاذه الغربي في عالم تكامل النفس وعوالم الروح والدين صحيح ، مع علمه أن هذا ليس من اختصاصه • فينقاد الى رأي استاذه في ما لم يختص فيه ويتابعه فى عقائده ونفسياته المادية • ومن هنا اوتي الشرق وأصيب بما أصيب به من تبلبل في العقائد والأخلاق والآداب الاسلامية المثالية•

نعم ، قد بُهت الشرقي عندما رأى الحياة الصناعية في أوروبا وأمريكا تسندها دساتير رياضية وتجارب علمية دقيقة وحياة قد توفرت فيها أسباب الراحة بصورة ظاهرية لا سيما اذا نظر اليها من الخارج ، فظنّ بل أيقن أن كل ما يقوله الغربي في الدين والأخلاق والفلسفة صحيح ، فاستقى من فلسفته المادية الزائفة أكثر من أن يأخذ من رياضياته وطبيعياته وصنايعه ، بل أخذ من أخلاقه واستهتاره بالمقدسات وخلاعته ومراقصه ومجونه وطيشه وترفه قبل أن يأخذ من مخترعاته ويتعب ذهنه في حل غوامضها ، ذلك لأن النفس ميالة الى التسافل والتدنس • وفي اقتباس الاختراعات أو القيام بشيء من الاكتشافات من الصعوبات التي لا تلائم النفس الميالة الى الشهوات أو الراحة • والنفس الأمارة بالسوء ميالة الى التجرد من القيود • وليست وسائل تكميل النفس الا قيوداً ! والنفس تستسيغ الخلاعة والاستهتار والانغماس في الخمور والفجور قبل النظريات العلمية • فتلبسها لباس المدنية والحضارة ويكون هذا الاسم المغري مبرراً لشهواتها ونزواتها • لذلك كله دبّ في الشرق التبلبل وتشتت الأفكار والآراء : بين مغال يريد قلب البلاد الاسلامية الى بلدة غربية بجميع مظاهرها وبين محافظ على الطرق الصناعية القديمة البائدة فى الحياة المادية • فأخذ المتطرف من المسلمين يشك في النبوات والقضايا الروحية ويقيسها بمقياس مادي مقتضب ، فقد قال لي من أكمل دراسته العالية في باريس (باري) لماذا ظهر الأنبياء كلهم من الشرق ولم يظهر نبي في الغرب ؟ وان ما أسلفناه من الشروط والشروح كافٍ لمن توخّى الحقيقة •

ولا ريب أن شروط النبوة ليست بشروط صناعية ميكانيكية حتى توجد في أوروبا وأمريكا وانما هي روحية بحتة . « ثم ان أوروبا كانت وسطاً مادياً منذ زمن الرومانيين وقبلهم [١] وان الاتجاه الديني مبني دائماً على الاعتقاد بأن هنالك قانوناً أدبياً مطلقاً شاملاً وأننا نحن البشر مجبرون على اتباعه ولكن المدنية الغربية لا تقر الحاجة الى خضوع ما ، الا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية . ان معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني ، ولكنه الرفاهية : (Confort) وان هذا موروث عن المدنية الرومانية القديمة . وليس هناك وجه شبه بين الامبراطورية الاسلامية والامبراطورية الرومانية ، وان عدل الرومانيين كان عدلاً لأنفسهم وحدهم وكان الاتجاه مبنياً على اتجاه مادي خالص للحياة وللحضارة . ادراك مادي هذبه ذوق فكري . ولكنه على كل حال بعيد عن القيم الروحية . ان الرومانيين لم يعرفوا الدين وان آلهتهم الحقيقية لم تكن سوى خرافات يونانية وبعيدة عن أن تمنح البشر شرائع خلقية . تلك كانت التربية التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة . والحقيقة الثابتة أن كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف [٢] الغربي للحياة والأخلاق يرجع الى المدنية الرومانية . وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في رومية القديمة كان نفعياً غير ديني ، فكذلك هو الجو في الغرب الحديث . ولم تؤثر المسيحية في أوروبا ولم تلطف شيئاً من جوها المادي ، ان الأسس الفكرية الحقيقية فى الغرب يجب أن تطلب في فهم الرومانيين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق وكأن الغربي يقول : بما أننا لا نعرف شيئاً من طريق الاختبار العلمي والتقدير في الحساب ، لا عن أصل الحياة الانسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد ، فان من الخير لنا أن نحصر

---

(١) من كتاب « الاسلام على مفترق الطرق » تأليف (ليوپولدفايس) الذي قد تشرف باعتناق دين الاسلام .

(٢) استشرف : رفع بصره لينظر اليه باسطاً كفه فوق حاجبه .

قوانا في وجوه امكاننا المادي والفكري من غير أن نسمح لأنفسنا بأن نتقيد بالأخلاق المطلقة والقضايا الأدبية المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية ! » .

فاخطأ الغربي في التطبيق والقياس لظلمات في النفس وقاس الأمور الروحية البحتة بمقاييس تستعمل في المختبرات كمتشاعر كان يزن شعره بالسانتيمترات ! نعم أراد الغربي أن يجد دساتير الكمال الروحي ومعالم الدين تحت المجاهر والمخابر . وقلده الشرقي فانجرف نحو المادة الصماء وترك روحياته الفواحة التي بها يسمى الانسان انساناً .

فكيف — مع ما قدمنا من مقدمات — ينتظر أن يظهر نبي من أوروبا أو أمريكا .

الشرق مهد الثقافات الدينية ومعهد تكامل النفوس الانسانية ومهبط الوحي . نبغ فيه بنتيجة تربية الأنبياء (ع) أناس أفذاذ تطهروا من الدنس والرجس يباهي بهم الله ملائكة السماء .

***

والوصي ، وهو الذي يقوم بعد النبي بأعمال النبي (عدا تلقي الوحي) وليس بنبي ، مستجمع لصفات النبي وكمالاته . فهو معصوم ، يأتمر بأوامر الله وينتهي بمناهيه ، ذلك لأن من يرتكب المعاصي حتى صغائرها تسقط منزلته من النفوس ، فلا يكون رادعاً لها . فالعصمة في الأوصياء أمر طبيعي لا يشك في وجوبها من له الملم بروحيات المجتمع والجماعات . وقد دلت الأخبار القطعية ان الأئمة : من لدن أمير المؤمنين (ع) الى الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه كانوا في غاية الكمال منزهين عن كل عيب خَلقي أو خُلقي ، معصومين عن كل ذنب ، « كانوا مصابيح الدجى [1] وأعلام التقى وذوي النهى وأولى الحجى [2] وكهف الورى وورثة الأنبياء والمثل الأعلى والدعوة الحسنى

---

(١) مقتبس من زيارة : (الجامعة) .

(٢) النهي أو الحجى : العقل .

وحجج الله على أهل الدنيا ، كانوا الأدلاء على مرضات الله والتامّين فى محبة الله والملخصين في توحيد الله والمظهرين لأمر الله ونهيه وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . قد اصطفاهم الله بعلمه وارتضاهم لغيبه واختارهم لسره واجتباهم بقدرته وخصهم ببرهانه ، كانوا خزنةً لعلمه ومستودعا لحكمته وتراجمة لوحيهومنارا في بلاده وأدلاء على صراطه» يقول علي عليه أفضل الصلاة والسلام : « انه ليس على الامام الا ما حُمِّل من أمر ربه ، الا البلاغ في الموعظة والاجتهاد فى النصيحة والاحياء للسنّه واقامة الحقوق على مستحقيها واصدار السهمان [١] على أهلها » . ويقول علي (ع) في موضع آخر عن آل البيت عليهم السلام : (هم) موضع سره ولجأ أمره وعيبة [٢] علمه وموئل حكمه وكهوف كتبه وجبال دينه ، بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه ، الى أن قال (ع) : « لا يقاس بآل محمدٍ (ص) في هذه الأمة أحد ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً . هم أساس الدين وعماد اليقين ، اليهم يفيء الغالي [٣] وبهم يلحق التالي . ولهم خصائص حق الولاية . وفيهم الوصية والوراثة . الآن اذ رجع الحق الى أهله ، ونقل الى منتقله » .

وقد قال علي (ع) أيضاً [٤] : « أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا . أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم . وأدخلنا وأخرجهم . بنا يُستعطى الهدى ويُستجلى العمى . ان الأئمة من قريش ، غرسوا في هذا البطن من هاشم ، لا تصلح على سواهم . ولا تصلح الولاة من غيرهم » .

---

(١) جمع سهم بمعنى الحظ والنصيب واصدار السهمان اعادتها الى أهلها المستحقين لها لاينقصهم منها شيئا .

(٢) الوعاء .

(٣) يريد ان المغالي يرجع اليهم ليعتدل ، فان النجاة بالرجوع اليهم .

(٤) من نهج البلاغة ص / ٣٦ ، الجزء الثاني .

وقد قال (ع) أيضاً : « وانما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده ، لا يدخل الجنة الا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار الا من أنكرهم وأنكروه » .

وقال عليه السلام : « نحن الشعار [١] والأصحاب والخزنة والأبواب ولا تؤتى البيوت الا من أبوابها . فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً . فيهم (يعني آل النبي) كرائم [٢] القرآن وهم كنوز الرحمن ، ان نطقوا صدقوا وان صمتوا لم يُسبقوا » [٣] .

وقال عليه السلام يصف فيها آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم : « هم عيش العلم وموت الجهل . يخبركم حلمهم عن علمهم (وظاهرهم عن باطنهم) وصمتهم عن حِكَم منطقهم . لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه . هم دعائم الاسلام وولائج [٤] الاعتصام . بهم عاد الحق فى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه . وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقلَ وعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فان رواة العلم كثير ورُعاته قليل » [٥] .

وهكذا تعمل سنة الكمال بأمره تعالى في ختم النبوة بمحمد (ص) وختم الوصاية بالأئمة (ع) من بعده . فرسول الله محمد (ص) أكمل الأنبياء وخاتم النبيين . وأوصياؤه ، وهم اثنا عشر اماماً ، أكمل الأوصياء وخاتمة الوصيين . وكان من لوازم سنة الكمال أن يكون الأوصياء من ذرية محمد صلى الله

---

(١) ما يلي البدن من الثياب والمراد بطانة النبي (ص) .

(٢) جمع كريمة والمراد انه قد نزلت فى مدحهم آيات كريمات والقرآن كريم كله وهذه كرائم .

(٣) فى الجزء الثاني من نهج البلاغة فى الصفحة : ٥٨ .

(٤) ولائج جمع وليجة وهي ما يدخل فيه السائر اعتصاماً من مطر أو برد أو توقياً من مفترس .

(٥) الجزء الثاني من نهج البلاغة فى الصفحة : ٢٥٩ .

عليه وآله وسلم • لأنه من اعطي صفة الكمال يجب أن يكون كاملاً في جميع النواحي وبه يختتم الكمال البشري • ان الكمال سلسلة متصلة الحلقات بين نبينا محمد (ص) وأولاده المعصومين (ع) • وقد نص عليهم رسول الله في مواضع عدة • فطوبى لنفوس اهتدت بهداهم واستقت من معين علومهم واستفادت من ينبوع كمالهم وعملت بما أمروا به وانتهت عما نهوا عنه ، فسلكت مسالكهم وتابعت خطاهم • وقد روى أحمد والترمذي : قال رسول الله (ص) : « اني تارك فيكم الثقلين : أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي أهل بيتي • وان اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ، فانظروا بِمَ تخلفوني فيهما » • وقال ابن حجر في صواعقه : قال رسول الله (ص) : « اني تارك فيكم أمرين لن تضلوا ان تبعتموهما : وهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي » وزاد الطبراني : « اني سألت ذلك لهما ، فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فانهم أعلم منكم » • وفي حديث آخر : « ان مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح • من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك » [١] •

فلا كمال لهذا البشر الا بانتهاج مناهجهم والسير وفق تعاليمهم ولا تكامل للنفس الا بولائهم ومودتهم : « قل لا أسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى » [٢] •

---

(١) رواه أحمد بن حنبل فى مسنده وغيره بطرق عدة .

(٢) سورة الشورى : الآية : ٢٣ .

دروس النبي «ص» في ساعاته الاخيرة [١]

في مثل هذا اليوم يفارق خاتم النبيين محمد بن عبدالله (ص) هذه الدنيا الفانية ، ويلقي على أمته درساً هو من أهم الدروس في توجيه الأمة نحو السعادة الأبدية . وقد علم رسول الله (ص) بدنوّ أجله بأمارات كانت تشير الى ذلك . منها أن جبرائيل ، كما روى ابن سعد في الطبقات ، كان يعرض عليه القرآن في كل سنة مرة . فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين . ومنها نزول آية : « انك ميت وانهم ميتون » ، فقد قال بعدها ليتني أعلم متى يكون ذلك ، فنزلت سورة النصر : « بسم الله الرحمن الرحيم . اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبّح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » . فكان يسكت بين التكبير والقراءة بعد نزولها ، فيقول سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب اليه . فقيل له في ذلك . فقال : أما ان نفسي نعيت الي ثم بكى بكاءاً شديدا . فقيل له يارسول الله أو تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : فأين هول المطّلع؟ وأين ضيقة القبر وظلمة اللحد ؟ وأين القيامة والأهوال ؟.. لذلك اعتكف [٢] صلوات الله عليه في السنة التي قبض فيها عشرين يوماً حين أنه كان يعتكف كل سنة في شهر رمضان : العشر الأواخر .

وروى أبو اسحاق الثعلبي أن رسول الله (ص) لما مرض قال لابنته فاطمة (ع) : أدني مني . فأكبّت عليه ، فناجاها ، فرفعت رأسها وعيناها تهملان ، فقال لها أدني مني فدنت فأكبت عليه . فناجاها ، فرفعت رأسها

---

(١) القيت هذه الكلمة في ٢٨ صفر ١٣٦٧ هـ .

(٢) الاعتكاف : هو اللبث في المسجد بقصد العبادة . وهو مستحب مؤكد . له شروط مشروحة في الرسائل العملية والكتب الفقهية الاستدلالية .

وهي تضحك ، فعجبنا لما رأينا ، فسألناها ، فأخبرتنا : أنـه نعى اليها نفسه ، فبكت ، فقال يا بنيَّة ، لا تحزني . فاني سألت ربي أن يجعلك أولَ أهل بيتي لحاقاً بي . فأخبرني أنه استجاب لي ، فضحكت .

ثم دعا رسول الله (ص) الحسن والحسين ، فجاءا يصيحان ويبكيان ، فوقعا عليه . فقبلهما وشمهما وجعل يترشفهما وعيناه تهملان ، ثم أغمي عليه ، فأراد علي (ع) أن ينحّيهما عنه ، فأفاق . وقال يا علي ، دعني أشمهما ويشماني وأتزود منهما ويتزودا مني ، أما أنهما سيُظلمان بعدي ويُقتلان .

وأمر صلوات الله عليه بلالاً وهو على فراش المرض بأن يجمع الناس ، فاجتمعوا ، فخرج معصباً بعمامته متوكئاً على قوسه حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : معاشر أصحابي ، أي نبي كنت لكم ، ألم أجاهد بين أظهركم ، ألم تكسر رباعيتي ، ألم يعفّر جبيني ، ألم تسل الدماء على حر وجهي حتى لثقت [1] لحيتي ، ألم أكابد الشدة والجهد مع جهال قومي ، ألم أربط حجر المجاعة على بطني ، قالوا بلى يا رسول الله ، لقد كنت على بلاء الله صابراً وعن المنكر ناهياً . فجزاك الله عنا أفضل الجزاء . قال : وأنتم فجزاكم الله ، ثم قال : ان ربي عز وجل حكم وأقسم : أن لا يجوز ظلم ظالم ، فناشدتكم بالله ، أي رجل منكم كانت له قبل محمد مظلمة الا قام فليقتصّ منه في دار الدنيا ، فهو أحب الي من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء . فقام اليه رجل من أقصى القوم ، يقال له سوادة بن قيس ، فقال له : فداك أبي وأمي ، يا رسول الله ، انك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب الممشوق [2] ، فرفعته وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني ، ولا أدري عمداً أو خطأ ، فقال معاذ الله أن أكون تعمدت . ثم أرسل بلالاً الى بيت فاطمة (ع) . فأتى بالقضيب وناوله رسول الله (ص) . فقال رسول الله (ص) : أين الشيخ ، فقال ها أنا ذا

---

(١) لثقت : ندبت . (٢) الممشوق الطويل الدقيق .

يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، قال : فاقتص مني حتى ترضى ، فقال الشيخ فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله ، فكشف عن بطنه . فقال الشيخ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك ؟ فأذن له ، فقال أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم النار ، فقال رسول الله يا سوادة : أتعفو أم تقتص . فقال : بل أعفو يا رسول الله ، فقال (ص) : اللهم اعفُ عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد .

وقد ألقى النبي (ص) درساً بليغاً حين خرج الى المسجد ، كما يخبرنا المفيد عليه الرحمة ، معصوب الرأس معتمداً على أمير المؤمنين بيمنى يديه وعلى الفضل بن العباس باليد الأخرى ، حتى صعد المنبر ، فقال : « معاشر الناس ، قد حان مني خفوق من بين أظهركم ، فمن كان له عندي عِدة فليأتني أعطه إياها . ومن كان له عليَّ دين فليخبرني به ، معاشر الناس ، ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شراً الا العمل ، أيها الناس لا يدَّعِ مُدَّعٍ ولا يتمنَّ متمنٍّ ، والذي بعثني بالحق نبياً ، لا ينجي الا عمل مع رحمة ولو عصيتُ لهويت » .

وان رسول الله (ص) بعد تحققه من دنو أجله ، جعل يقوم مقاماً بعد مقام في المسلمين ، يحذرهم الفتنة بعده والخلاف عليه ، ويوصيهم بالتمسك بسنته والاجتماع عليها ويحثهم على الاقتداء بعترته والطاعة لهم . روى ابن سعد بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ص) انه قال : « اني أوشك أن أدعى فأجيب ، واني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي أهل بيتي . وان اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » . وقال في مقام آخر ، على ما جاءت به الرواية على اتفاق واجماع : « يا أيها الناس ، اني فَرَطكم ، وأنتم واردون عليَّ الحوض ، ألا اني سائلكم عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، فان اللطيف الخبير نبأني

أنهما لن يفترقا حتى يلقياني . وسألت ربي ذلك فأعطانيه . ألا واني قد تركتهما فيكم : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، لا تسبقوهم فتفرقوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا ، ولا تعلموهم فانهم أعلم منكم » . ثم ان رسول الله قام بأمور مهمة أخرى حالة مرضه ، لتوجيه المؤمنين بل العالم أجمع الى طريق الحق والسعادة الأبدية ، لا مجال لذكرها .

وأخذ يثقل حال رسول الله في مرضه ، فقال ادعوا لي علياً ، على ما يرويه الطبري ، فدُعي ، فلما دنا منه ، أومأ اليه فأكبَّ عليه ، فناجاه طويلاً ، ثم قام فجلس ناحية ، حتى أغفى رسول الله (ص) . فلما أغفى خرج ، فقال له الناس : ما الذي أوعز اليك يا أبا الحسن ، قال : علمني الف باب من العلم ينفتح لي من كل باب الف باب . ولا يمكن تحقيق هذا النوع من الالقاء بمقاييس عادية متعارفة ، لان قياسات أمور هي مما وراء الطبيعة تختلف عن قياساتنا العادية ، وليس لنا أن نقيس عوالم الروح بمقاييس مادية متعارفة ، لا سيما اذا كنا ممن لم يقطع في عالم تكامل النفس أشواطاً ولم يبلغ مرتبة في عوالم التزكية والتحلية .

ثم حضر رسول الله (ص) الموت وعلي عنده ، فلما قرب خروج نفسه قال له : ضع يا علي رأسي في حجرك ، فقد جاء أمر الله ، فاذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك وتولَّ أمري وصلِّ عليَّ أول الناس ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي ، واستعن بالله .

وكانت وفاته صلوات الله عليه يوم الاثنين عند الزوال لليلتين بقيتا من صفر ، وأخذت فاطمة تقول : وا أبتاه من ربه ما أدناه ، وا أبتاه جنان الخلد مأواه ، وا أبتاه ربه يكرمه اذا أتاه . ثم أخذت من تراب القبر الشريف ووضعته على عينيها وأنشأت تقول :

ماذا على من شمَّ تربة أحمد ... أن لا يشمَّ مدى الزمان غواليا

صبَّت علي مصائب لو أنها ... صبَّت على الأيام عدن لياليا

سيدة النساء «ع» (١)

كثيراً ما يعرض علينا الكتاب مُثلاً عليا عن رجال نبغوا في عالم التقوى وتكميل النفس وعالم العلم والفن ، وقلما نجد مُثلاً عليا عن السيدات • فهذه فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) هي احدى النساء الكاملات الأربع اللواتي بلغن أقصى مراتب الكمال الانساني • فقد روى كل من البخاري ومسلم والترمذي عن النبي (ص) : قال : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم ابنة عمران • وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد » • وفي الاستيعاب عن ابن عباس قال : « قال رسول الله (ص) سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة بنت محمد ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون » • وروى مسلم في صحيحه والامام أحمد في مسنده في حديث مسارة النبي (ص) فاطمة (ع) انه قال : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة » • وفي الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي من المسند للامام أحمد بن حنبل عن حذيفة بن اليمان وذكر حديثاً الى أن قال : « قال رسول الله (ص) : هذا ملك من الملائكة لم يهبط الى الأرض قط قبل هذه الليلة ، استأذن ربه في أن يسلم علي ويبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء العالمين » •

ولم تزل فاطمة (ع) بعد أبيها رسول الله (ص) بادية الحزن ، معصبة الرأس ، ناحلة الجسم ، لم تُرَ ضاحكة ولا مبتسمة ، فلم تعش بعد أبيها الا خمسة وسبعين يوماً • وهي تفارق هذه الدنيا الدنية في مثل هذه الأيام • وتقام تخليداً لذكراها واظهاراً لفضائلها ومناقبها مجالس واحتفالات • فيجدر بنا أن نذكر طرفاً من مكارمها وعلو منزلتها كي تتأسّى بذلك المؤمنات في أنحاء العالم • فان الناس الى تكميل نفوسهم أحوج من املاء بطونهم • وإن

(١) القيت في ١٤ ج ١/١٣٦٧ هـ .

المدنية الحاضرة لا تعمل الا لأجل اصلاح الظاهر واملاء البطون • بل قد تأخذ بالناس باسم الحرية والانطلاق الى الجاهلية الجهلاء وعبادة المادة الصماء •

قد روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي ثعلبة الخشنى : كان رسول الله (ص) اذا رجع من غزاة أتى المسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم ثنّى بفاطمة ، ثم يأتي أزواجه • وبسنده عن ابن عمر أن النبي (ص) : كان اذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة واذا قدم من سفر كان أول الناس به عهداً فاطمة • وفي الاستيعاب بسنده : سُئلت عائشة : أي الناس كان أحب الى رسول الله (ص) قالت : فاطمة ، قلت فمن الرجال ؟ قالت : زوجها ، ان كان ما علمته صواماً قواماً » •

وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن عائشة : ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله (ص) من فاطمة • وكانت اذا دخلت عليه قام اليها فقبّلها ورحّب بها وأخذ بيدها فأجلسها في مجلسه ، وكانت هي اذا دخل عليها قامت اليه مستقبلة وقبلت يده •

وقد أخرج الطبراني عن أنس أن رسول الله (ص) كان يمر بباب فاطمة اذا خرج الى صلاة الفجر ويقول : « الصلوة ، يا أهل البيت ، الصلوة ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس » •

وقال الحسن (ع) رأيت فاطمة (ع) قامت في محرابها ليلة جمعتها ، فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسمّيهم وتكثر الدعاء لهم ، ولا تدعو لنفسها بشيء • فقلت لها ألا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك ، فقالت : يا بني ، الجار ثم الدار •

وروى البخاري فى صحيحه بسنده أن رسول الله (ص) قال : فاطمة بضعة مني ، فمن أغضبها أغضبني • وعن كنز الدقائق : « ان الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها » • ومن كرامتها على الله كما روى الحاكم

في المستدرك أنه اذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من وراء الحجب : يا أهل الجمع ، غضّوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمد (ص) حتى تمر • كيف لا يكون كذلك وان فاطمة (ع) ، كما روى الصدوق في العلل عن علي (ع) ، قد استقت بالقربة حتى أثرت في صدرها وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها ، وكسحت البيت حتى اغبرّت ثيابها ، وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها (أي اسودت) ، فأصابها من ذلك ضرر شديد ، فقال لها علي (ع) لو أتيتِ أباكِ فسألته خادماً [1] فجاءت فوجدت عنده جماعة فاستحيت وانصرفت • فعلم النبي أنها جاءت لحاجة ، فغدا علينا • ونحن في لحافنا ، فأردنا أن نقوم ، فقال مكانكما ، فجلس عند رؤوسنا ، فقال يا فاطمة ، ما كانت حاجتك أمس ؟ فأخبره علي (ع) ، فقال : أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم ، اذا أخذتما منامكما ، فسبحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكبرا أربعاً وثلاثين ، فأخرجت فاطمة رأسها وقالت : (رضيت عن الله ورسوله) ثلاث مرات • وروى ابن حجر في الاصابة نحوه ، ثم قال : قال علي فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن ، فقال له ابن الكوا ولا ليلة صفين فقال : قاتلكم الله ولا ليلة صفين •

وفي المناقب عن الحسن البصري انه قال : ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة ، كانت تقوم حتى تورّمت قدماها • وعن أبي جعفر (ع) قال : ما عُبدا لله بشيء من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله (ص) فاطمة (ع) • وقد روى أحمد بن حنبل أن رسول الله (ص) رأى ذات يومٍ مسحاً (وهو كساء معروف) على باب دار فاطمة ورأى على الحسن والحسين (ع) قلبين (أي سوارين) من فضة ، فرجع ولم يدخل عليها • فظنت أنه من أجل ما رأى ، فهتكت الستر ونزعت القلبين

(١) الخادم يطلق على المذكر والمؤنث والمراد هنا : المؤنث .

عن الصبيين فقطعتهما ، فبكى الصبيان فقسمته بينهما ، فانطلقا الى رسول الله (ص) وهما يبكيان ، فأخذه رسول الله منهما وقال : « يا ثوبان ، اذهب بهذا الى بني فلان ، واشترِ لفاطمة قلادة من عصب (هو سن دابة بحرية) وسوارين من عاج ، فان هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا » ..

وروى الصدوق في الأمالي ، قال : كان النبي (ص) اذا قدم من سفر بدأ بفاطمة ، فدخل عليها ، وأطال عندها المكث ، فخرج مرة فى سفرة . فصنعت فاطمة مسكتين من ورق (أي فضة) وقلادة وقرطين وستراً للباب ، لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله (ص) دخل عليها ، فوقف أصحابه على الباب ، فخرج عليهم وقد عرف الغضب في وجهه ، حتى جلس عند المنبر ، فظنت ، فاطمة أنه انما فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والقرطين والستر ، فنزعت ذلك وبعثت به الى رسول الله (ص) ، وقالت للرسول : قل له : « تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول اجعل هذا في سبيل الله » فلما أتاه ، قال : (فعلت فداها أبوها) ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى فيها كافراً شربة ماء » . ثم قام : فدخل عليها .

وعن جابر الأنصاري (رض) : أنه رأى النبي (ص) فاطمة وعليها كساء من أجلال الابل وهي تطحن بيديها وترضع ولدها ، فدمعت عينا رسول الله (ص) ، فقال : « يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة » ، فقالت : يا رسول الله : الحمد لله على نعمائه والشكر على آلائه . فأنزل الله : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

وقال لها النبي (ص) ذات يوم : أي شيء خير للمرأة ؟ قالت : أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل ، فضمها اليه وقال : ذرية بعضها من بعض ،

ولا يعلم حقيقة هذا الدستور وفلسفة هذا النظام الا من سار في مدارج الكمال النفسي وتقرب بأعماله الصالحات وطاعاته دون عجب ورياء الى الله تقرباً يجعله أن يرى الحق حقاً والباطل باطلاً .

وكانت صلوات الله عليها كأبيها فصيحة بليغة غزيرة العلم . فاذا خطبت أتت بالدر المنثور . ومن قولها سلام الله عليها : « الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم ، والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها ، وتمام نعم والاها ، جمّ عن الاحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمدها وتفاوت عن الادراك أبدها . (الى أن قالت) : الممتنع عن الابصار رؤيته ، ومن الألسن صفته ومن الأوهام كيفيته ، ابتدع الاشياء لا من شيء قبلها وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها ، كوّنها بقدرته وذرأها بمشيئته ، من غير حاجة منه الى تكوينها ولا فائدة لـه في تصويرها . الا تثبيتاً لحكمته وتنبيهاً على طاعته واظهاراً لقدرته وتعبداً لبريته واعزازاً لدعوته ، ثم جعل الثواب على طاعته ووضع العقاب على معصيته ، ذيادة لعباده عن نقمته وحياشة لهم الى جنته » ، (الى أن قالت) : « كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع ، بينة بصائره ، منكشفة سرائره ، متجلية ظواهره ، مغتبط به أشياعه ، قائد الى الرضوان اتباعه . ومؤدٍّ الى النجاة استماعه ، به تنال حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة ومحارمه المحذرة وبيناته الجالية وبراهينه الكافية وفضائله المنـدوبة ورخصه الموهوبة وشرائعه المكتوبة ، فجعل الله الايمان تطهيراً لكم من الشرك ، والصلوة تنزيهاً لكم عن الكبر ، والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق ، والصيام تثبيتاً للاخلاص والحج تشييداً للدين ، والعدل تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملة ، وامامتنا أماناً من الفرقة ، والجهاد عزاً للاسلام وذلاً لأهل الكفر والنفاق ، والصبر معونة على استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة ،

وبر الوالدين وقاية من السخط وصلة الأرحام منسأة في العمر ، والقصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس ، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس ، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة وترك السرقة ايجاباً للعظة » (١) .

فالى التأسي بهذه المكارم الرفيعة والأخلاق الملكوتية أدعو اخواني وأخواتي المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، ففي اتباعها الكمال النفسي المرجو ، ذلك الكمال الذي لابد للانسان من أن يقطع مراحله وان يسمو بنفسه الى حيث أراد الله تعالى . فان الله لم يخلق هذا الانسان الا ليتكامل نفسياً . ولذلك أرسل أنبياء (ص) وعيّن أوصياء (ع) . وان فاطمة الزهراء (ع) المعصومة من كل رجس وزلل خير مثال « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وللاسلام فلسفته الخاصة . قد لا تروق لمن بهرته زبارج الغرب وزخارفه، فلسفة ترمي الى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . وللاسلام تعاليمه الاخلاقية ونظمه الاقتصادية ، قد جاءت من وراء المادة ، ليسير على ضوئها البشر لينال سعادة الدارين . والاسلام يعارض كل نظام أو عمل يفسد الحياة الأخروية التي هي الحياة الحقيقية السرمدية : « وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب ، وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » . أي أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية .

فطوبى لمن أيقن أن النظام الآتي من وراء المادة لاصلاح وتكميل ما هو من وراء المادة أيضاً وأعني به النفس الانسانية « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » . وليس للبشر أن يأتي من تلقاء نفسه بهذا النظام مهما تسامى . وأن النظم البشرية ناقصة لا تؤدي الى الكمال المنشود ، لأنها صادرة عن بشر ناقص مفتقر الى الكمال !...

---

(١) ان هذا الخطاب لطويل ، اقتبسنا منه شيئاً يسيرا .

المأثور عن رياضيات علي عليه السلام

قد أجمع المسلمون من الصدر الأول الى اليوم أن علياً عليه السلام أعلم الصحابة وأعلاهم كعباً وأكثرهم زهداً • فقد قال عليه السلام : « علّمني رسول الله الف باب من العلم ينفتح لي من كل باب الف باب » • ان هـذا النوع من التعليم لا يتوصل اليه الا من زاول تزكية النفس وتطهيرها • ولا يعلم كيفية : انفتاح الف باب من العلم من كل باب ، الا من أيقن : ان العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء • وذلك بتطهير نفسه من الدنس والرجس وما أصعب ذلك • ولا يقوى عليـه الا الأفذاذ الأقلون • « وقليل من عبادي الشكور » • وقد قال الله تعالى : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » • وجاء في حديث : « المؤمن ينظر بنور الله » فعلمُ علي علم يسطع من نور أودعه الله فيه • فقد قال رسول الله (ص) : « من أراد أن ينظر الى آدم في علمه والى نوح في عبادته والى ابراهيم في خلته والى موسى في هيبته والى عيسى في زهده والى يحيى في ورعه ، فلينظر الى علي بن أبي طالب ، فان فيه سبعين خصلة من خصال الأنبياء » •

وقال علي عليه السلام بحضرة المهاجرين والأنصار : « ان هاهنا علماً جماً لو أصبت له حملة » • وقال عليه السلام : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » • وقال (ع) : « سلوني قبل أن تفقدوني ، هذا سفط العلم • هذا لعاب رسول الله ، هذا ما زقني رسول الله زقاً » • وقال أيضاً : « سلوني ، فان عندي علم الأولين والآخرين • أما والله لو ثنيت لي الوسادة ، وجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الانجيل بانجيلهم وبين أهل الزبور بزبورهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم حتى ينادي كل كتاب بأن علياً حكم فيّ بحكم الله ويقول : يا رب ، ان علياً قضى بقضائك » الى آخر ما قاله عليه السلام •

وقد روى الشيخ سليمان الحنفي أنه قال رسول الله (ص) : « لما صرت بين يدي ربي كلمني وناجاني . فما علمت شيئاً الا علمته علياً ، فهو باب علمي » . وقال رسول الله (ص) أيضاً : « أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد العلم فليأت الباب » .

وقد قال علي عليه السلام ذات يوم وهو على المنبر : « سلوني قبل أن تفقدوني فوالله ، لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة الا أخبرتكم بناعقها وسائقها » . قام اليه رجل ، فقال : أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر . فقال عليه السلام : « والله لقد حدثني خليلي أن على كل طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك ، وأن على كل طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك ، وان في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله (ص) » . وكان ابنه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً يحبو وهو سنان بن أنس النخعي .

فعلم علي عليه السلام من علم رسول الله . وهو علم ينتقل من نبي الى وصي أو من ولي الى ولي . بطريق لا يعرفه أو لن يعرفه علماء العصر الحاضر ما داموا في حضيض المادة . ان هذا النوع من العلم نور الهي ، لا يعلم حقيقته علماء النفس أو بالأحرى علماء آثار النفس (Psychologues) في الوقت الحاضر . انه مجهول كجهل علماء الذرة حقائق الذرة وأسرارها مهما بلغوا من العلم وكجهلهم حقيقة الأشعة الكونية . ذلك لأنهم يحومون حول الظواهر وهم فى معزل عن الواقع والحقيقة ، انه علم يترشح من اذابة المادية والترفع عن حضيض المادة والعروج الى أوج الملكوت . انه علم لدنى لا يحتاج الى وضع معادلات أو حك واصلاح فلا يتدخله سهو أو شك . انه علم ارتجالي دون تروٍّ أو تفكر . ذلك لأن النبي أو الامام يجب أن يكون أفضل أهل زمانه في كل فن وفي كل علم . وما ينقل عن البعض خلاف ذلك بشأن النبي (ص) مردود بحكم العقل . ذلك لأن الله تعالى لو لم يجهز النبي

بجميع الكمالات لسقطت منزلته ولما أثر في النفوس ذلك التأثير الذي يجعل الأفراد منقادين اليه مطيعين .

فلا تثبت الامامة الا بامتحانات عدة في عوالم النفس وفي شتى العلوم وفي اتيان الخوارق والمعجزات ، تلك التي يعجز أهل ذلك الزمان من الاتيان بها مع الشروط العادية والعلوم البشرية المكتسبة .

ولقد امتحن المسلمون جعفرا (أخا الامام الحسن العسكري (ع)) حين ادعى الامامة في مسائل عدة فأخفق في الجواب . وقد طلبوا منه أيضاً أن يذكر أسماء أصحاب الكتب وعن مقدار المال الذي كانوا قد حملوه الى الامام (ع) ، أي الى خليفة الحسن العسكري (الامام الحادي عشر من أئمة الهدى ع) ، فقام جعفر ينفض أثوابه قائلاً : « يريدون منا أن نعلم الغيب » ، فعلموا أنه ليس بامام .

وها نحن نذكر بعض ما أثر عن علي عليه أفضل الصلاة والسلام فى حل بعض المسائل الرياضية :

(١) يسأل علي عليه السلام ، عن عدد يقبل القسمة على ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ وهو راكب فرسا له، فيقول مرتجلا : «إضرب أيام سنتك في أيام اسبوعك » . ثم يهمز فرسه وينصرف [١] .

ذلك لأنا لو ضربنا ٣٦٠ (عدد أيام السنة على ماكان معروفا في ذلك الوقت) في ٧ عدد (أيام الاسبوع) ، لكان العدد : ٣٦٠ × ٧ = ٢٥٢٠ .

فالعدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٢ لأنه عدد زوجي له نصف كامل .

***

ويقبل العدد ٢٥٢٠ القسمة على ٣ ، ذلك لأنه مجموع أرقامه (القيمة المطلقة) = ٩ = مضاعفات ٣ .

---

(١) لم يحتج علي عليه السلام الى ايجاد المضاعف المشترك البسيط للاعداد المذكورة . فان علمه بالاشياء يختلف عن علمنا . انه علم الامامة ، وهو أعلم الناس أجمعين . وهكذا كل امام من أئمة الهدى عليهم السلام .

توضيح ذلك :

١٠ = ٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

١٠٠ = ٩٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

١٠٠٠ = ٩٩٩ + ١ = مضاعفات ٣ + ١

وبما أن العدد ٢٥٢٠ مؤلف من ٢٠ + ٥٠٠ + ٢٠٠٠

إذن :

٢٠ = ٢ × ١٠ = ٢ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٢

٥٠٠ = ٥ × ١٠٠ = ٥ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٥

٢٠٠٠ = ٢ × ١٠٠٠ = ٢ (مضاعفات ٣ + ١) = مضاعفات ٣ + ٢

٢٥٢٠ = مضاعفات ٣ + ٢ + ٥ + ٢ = مضاعفات ٣ + ٩

٢٥٢٠ = مضاعفات ٣

اذن : ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٣

***

وان العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٤ ، ذلك لأن ٢٠ وهو العدد الذي يتألف من رقمي العشرات والآحاد يقبل القسمة على ٤ .

ومعلوم أن : ٢٠ = مضاعفات ٤

وان العدد ٢٥٢٠ = ٢٠ + ٢٥٠٠

= ٢٠ + ٢٥ × ١٠٠ = ٢٠ + ٢٥ × مضاعفات ٤

= ٢٠ + مضاعفات ٤

= مضاعفات ٤

∴ العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٤

***

وان العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٥ لأن العدد منته بالصفر (أي أن رقم الآحاد ، تجوزاً ، صفر) ذلك لأن العدد المنتهي بالصفر يساوي :

٢٥٢٠ = ٢٥٢ × ١٠

وبما أن ١٠ = مضاعفات ٥

إذن : ٢٥٢٠ = ٢٥٢ × مضاعفات ٥

فالعدد يقبل القسمة على ٥ .

***

وان العـــدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٦ ، ذلك لأن ٦ = ٢ × ٣ ، (حاصل ضرب عددين أوليين) . وقد علمنا أن العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على كل من ٢ ، ٣

إذن : $\frac{٢٥٢٠}{٢ \times ٣}$ ، يختصر مع ٢ أولا ، ثم مع ٣ . فلا يبقى باق .

***

وان العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٧ ، لأنه من مضاعفات ٧ ، ذلك لأنا ضربنا ٣٦٠ في ٧ فكان ٢٥٢٠ .

وان العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٨ لأن العدد ينتهي بثلاثة أرقام تؤلف العدد : (٥٢٠) وهو يقبل القسمة على ٨ أي $\frac{٥٢٠}{٨}$ = ٦٥

والدليل على ذلك كما يلي :

٢٥٢٠ = ٥٢٠ + ٢٠٠٠

= مضاعفات ٨ + ٢ × ١٠٠٠

= مضاعفات ٨ + ٢ × مضاعفات ٨

= مضاعفات ٨

∴ ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٨ .

***

وان العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ٩ لأن قيمته المطلقة أي ٢ + ٥ + ٢ = ٩ ، أو (مضاعفات ٩) .

برهان ذلك :

الآحاد = . (تجوزاً)

العشرات = ٢٠ = ٢ × ١٠ = ٢ (٩ + ١) = ٢ × ٩ + ٢

= مضاعفات ٩ + ٢

المئات = ٥٠٠ = ٥ × ١٠٠ = ٥ (٩٩ + ١) = ٥ × ٩٩ + ٥

= مضاعفات ٩ + ٥

آحاد الألوف = ٢٠٠٠ = ٢ × ١٠٠٠ = ٢ (٩٩٩ + ١)

= ٢ × ٩٩٩ + ٢ = مضاعفات ٩ + ٢

∴ العدد

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩ + ٢ + ٥ + ٢

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩ + ٩ = مضاعفات ٩ + مضاعفات ٩

٢٥٢٠ = مضاعفات ٩

فالعدد يقبل القسمة على ٩

وان العدد ٢٥٢٠ يقبل القسمة على ١٠ لأن رقم آحاده (تجوزاً) = .

∴ ٢٥٢٠ = ٢٥٢ × ١٠

٢٥٢٠ = مضاعفات ١٠

فثبت أن العدد (٢٥٢٠) يقبل القسمة على كل من الأرقام الطبيعية وعلى ١٠ .

***

(٢) رجلان : ا ، ب . كان لأحدهما : (ا) خمسة أقراص من الخبز وللآخر (ب) ٣ أقراص ، فجاءهم رجل ثالث وأخذ يأكل معهم . فلم يبقَ شيء . ودفع اليهم بعد الانتهاء ٨ دراهم .

فقال (ا) لـ (ب) : خذ أنت ٣ دراهم وأعطني ٥ . فأجابه (ب) : لا ، أبيتُ الا العدل ومر الحق . خذ ٤ وأعطني ٤ دراهم . فأجابه (ا) قائلاً : كان لي ٥ أقراص وكان لك ٣ . فكيف تأخذ نصف المبلغ . فأجابه (ب) : لنتحاكم عند علي عليه السلام .

فجاءا علياً (ع) وعرضا عليه القضية . فخاطب علي (ع) الرجل (ب) . وهو الذي كان معه ثلاثة أقراص قائلاً : اقنع بما منحك صاحبك (ا) . واقبل منه ٣ دراهم . فقال (ب) : لا والله ، لا رضيت منه الا بمرِّ الحق ، فقال (ع) : « ليس لك في مرِّ الحق الا درهم واحد وله سبعة » . فقال (ب) : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، هو (أي ا) يعرض عليَّ ٣ دراهم فلم أرضَ . وأشرتَ عليَّ بأخذها فلم أرض وتقول لي الآن : لا يجب لي في مر الحق الا درهم واحد .

ان علياً عليه السلام لم يفكر كما يفكر الرياضيون في حل المسألة وانما ارتجل ارتجالاً بعلم لا يُشبه علم البشر العادي .

وان الرياضي يحلُّ المسألة المذكورة بعد التفكير كما يلي :

أكل الرجال الثلاثة ٨ أقراص . اذن أكل كل واحد منهم $٢\frac{١}{٣} = ٨\frac{١}{٣}$ من الأقراص وبما أن (ا) كان له ٥ أقراص وقد أكل منها $٢\frac{١}{٣}$ إذن بقى من أقراصه :

$٥ - ٢\frac{١}{٣} = ٢\frac{١}{٣}$ وهذا ما أكله الرجل الثالث من أقراص (ا)

وان (ب) كان له ٣ أقراص وقد أكل هو $٢\frac{١}{٣}$ (قرصين وثلثي القرص) اذن بقى مما كان عنده : $٣ - ٢\frac{١}{٣} = ٠\frac{١}{٣}$ من القرص وهذا ما أكله الرجل الثالث من أقراص (ب) فيجب أن تقسم ٨ دراهم بنسبة : $٢\frac{١}{٣}$ ، $٠\frac{١}{٣}$. أي بنسبة $٧\frac{١}{٣}$ ، $١\frac{١}{٣}$. وبما أن المخرجين متحدان ، اذن تقسم ٨ دراهم بنسبة الصور (البسوط) أي بنسبة ٧ ، ١

∴ مجموع الحصص ٧ + ١ = ٨ .

فحسب قواعد التقسيم المتناسب

٨ دراهم

———— = ١ ، درهما (الحصة الواحدة) .

٨ حصص

وبما أن لـ (ا) ، أي الرجل الذي كان لديه خمسة أقراص ، ٧ حصص

∴ ١ × ٧ = ٧ دراهم ، نصيب الرجل (ا)

وبما أن لـ (ب) ، حصة واحدة

∴ ١ × ١ = ١ : درهم واحد وهو نصيب الرجل (ب) .

***

(٣) جاء الى علي (ع) ٣ رجال ومعهم ١٧ جملاً ، فقالوا قسم بيننا هذه الجمال بنسبة : النصف ، والثلث ، والتسع .

فأجاب عليه السلام : أضيفوا الى ١٧ واحداً ، ثم أعطوا نصف ذلك الى (ا) فيكون نصيبه ٩ جمال . وأعطوا ثلث ذلك الى (ب) فيكون نصيبه ٦ جمال ، وأعطوا تسع ذلك الى (حـ) فيكون نصيبه جملين .

وهكذا قسم علي عليه السلام ١٧ جملاً بين الأشخاص الثلاثة مع حفظ النسبة في ما كان لكل منهم ٩ + ٦ + ٢ = ١٧

توضيح ذلك :

من المعلوم : أنه لو أريد تقسيم عدد بنسبة كسور اعتيادية ، يجب أولا : توحيد المخارج (المقامات) ، وذلك بايجاد المضاعف المشترك البسيط للمخارج : (٢ ، ٣ ، ٩) وهو ١٨ وان ١٨ يربو على ١٧ بواحد أي :

١٧ (عدد الجمال) + ١ = ١٨ (على سبيل الصدفة) ، أي أن هاهنا حالة خاصة كما يعبر عنه الرياضيون . فتكون الكسور الأصلية حسب المخرج المشترك الجديد : (١٨) كما يلي :

$$\text{حصة ا} = \frac{1}{2} = \frac{1 \times 9}{9 \times 2} = \frac{9}{18}$$

$$\text{حصة ب} = \frac{1}{3} = \frac{1 \times 6}{6 \times 3} = \frac{6}{18}$$

$$\text{حصة حـ} = \frac{1}{9} = \frac{1 \times 2}{2 \times 9} = \frac{2}{18}$$

فحسب قواعد التقسيم المتناسب مع الكسور ، يجب تقسيم المقدار : (١٧ جملا) حسب الصور أو البسوط وهي ٩ ، ٦ ، ٢ ، لانها مأخوذة من نفس المخرج • (أي من نفس الأساس) • ومعنى ذلك أن الحصص التي يستحقها الأشخاص الثلاثة تكون البسوط أو الصور الجديدة ، ومجموعها : ٩ + ٦ + ٢ = ١٧ حصة •

وذلك لأن :

$$\text{في النسب الجديدة} \quad \frac{\text{ا}}{\text{ب}} = \frac{9}{18} \div \frac{6}{18} = \frac{9}{18} \times \frac{18}{6} = \frac{9}{6} = \frac{3}{2}$$

$$\text{في النسب الأصلية} \quad \frac{\text{و}}{\text{ب}} = \frac{1}{2} \div \frac{3}{2} = \frac{1}{2} \times \frac{2}{3} = \frac{1}{3}$$

$$\text{و} - = - \div - = - \times - = - = ٣ \text{ في النسب الجديدة}$$
$$\text{ب } ٦ \quad ٢ \quad ٦ \quad ١٨ \quad ٦$$
$$\text{جـ } ١٨ \quad ١٨ \quad ١٨ \quad ٢ \quad ٢$$

$$\text{وأيضاً } - = - \div - = - \times - = - = ٣ \text{ في النسب الأصلية}$$
$$\text{ب } ١ \quad ١ \quad ١ \quad ٩ \quad ٩$$
$$\text{جـ } ٣ \quad ٩ \quad ٣ \quad ١ \quad ٣$$

وهكذا يمكن الاستدلال على أن $\frac{\text{ا}}{\text{حـ}}$ في النسب الجديدة والأصلية واحدة . فتكون البسوط (الصور) الجديدة متناسبة بنسبة الكسور الأصلية ، $\frac{١}{٢}$ ، $\frac{١}{٣}$ ، $\frac{١}{٩}$ ، فلو قسمنا ١٧ جملاً بنسبة البسوط فقد حفظنا النسبة بين ما للأشخاص الثلاثة من جمال .

١٧ جملاً

∴ ـــــــ = ١ الحصة الواحدة .

١٧ حصة

وبما أن لـ (ا) ٩ حصص ∴ ٩ × ١ = ٩ جمال لـ (ا)

وبما أن لـ (ب) ٦ حصص ∴ ٦ × ١ = ٦ جمال لـ (ب)

وبما أن لـ (حـ) ٢ حصتان ∴ ٢ × ١ = ٢ : جملان لـ (حـ)

فالمجموع = ١٧ جملاً

ويجوز ضرب المقادير المتناسبة $\frac{١}{٢}$ ، $\frac{١}{٣}$ ، $\frac{١}{٩}$ في عدد واحد (١٨) وهو المضاعف المشترك البسيط للمقامات ، فان النسبة لا تختل ، فيكون الناتج ، ٩ ، ٦ ، ٢ فيقسم عدد الجمال بنسبة الأعداد الصحيحة وهنا حالة خاصة اذ أن المضاعف يزيد على عدد الجمال بواحد ، وان عدد الجمال = مجموع الأعداد المتناسبة .

(٤) جيء الى علي عليه الصلاة والسلام برجل قد حلف أن يزن الفيل

فقال (ع) : لِمَ تحلفون على ما لا تطيقون ، فقال الرجل : قد ابتليت . فأمر عليه السلام بقر فور (أي سفينة طويلة) فيه قصب . فأخرج منه قصب كثير ، ثم علم صبغ الماء ، بعد ما عرف صبغ الماء قبل اخراج القصب ، ثم صيَّر فيها الفيل حتى رجع الى مقداره الذي كان انتهى اليه صبغ الماء أولاً . ثم أمر بوزن القصب الذي أخرج ، فلما وزنه ، قال هذا وزن الفيل .

توضيح الحل : معلوم في الفيزياء : نه لو غمر جسم في سائل فانه ينقص من وزنه مقدار يعادل وزن سائل بحجم ذلك الجسم المغمور . ذلك لأن الجسم المغمور يكون تحت ضغطين متعامدين من ذلك السائل . أحدهما من الأسفل الى الأعلى يعادل عموداً من ذلك السائل طوله من سطح السائل الى نهاية الجسم المغمور ، والآخر من الأعلى الى الأسفل ، يعادل عموداً من السائل طوله من سطح السائل الى سطح الجسم المغمور . فلو طرح الضغط الثاني (قوة الدفع من الأعلى الى الأسفل) من الضغط الأول (قوة الدفع من الأسفل الى الأعلى) لحصلنا على مقدار من القوة الدافعة من الأسفل الى الأعلى يعادل مقداراً من السائل بحجم الجسم المغمور .

فلو فرضنا وزن الجسم المغمور = و ، ووزن السائل الذي بحجمه = وَ . لظهر هاهنا حالات ثلاث :

(١) و > وَ أي يكون وزن الجسم أكبر من وزن سائل بحجمه . أي و — وَ > . فينزل الجسم الى قعر السائل ويستقر في القعر .

(٢) و = وَ أي يكون وزن الجسم مساوياً لوزن سائل بحجمه فالجسم ينغمر في السائل ويكون سابحاً في وسطه ولا يستقر في القعر .

(٣) و < وَ أي أن و — وَ < . أي أن وزن الجسم يكون أقل من وزن سائل بحجمه عند ذاك يطفو الجسم على السائل (أو الماء) ولا ينغمر كله في السائل بل يزيح هذا الجسم من ذلك السائل مقداراً يعادل وزنه . أي أن مقدار الماء المزاح (أو السائل) يعادل وزن الجسم الطافي .

اذن ، ان السفينة التي وردت في السؤال (٤) تزيح من الماء بقدر وزنها (بما فيها من القصب) • وقد وضعوا علامة على صفحة السفينة حيث بلغ الماء (وهذا ما يسمى بصبغ الماء) •

لنفرض أن وزن السفينة في الابتداء = و ، فوزن الماء المزاح = و ، أيضا ولنفرض أنا قد أخرجنا منها أولاً مقداراً من القصب = وَ

فقد أصبح الوزن الجديد للسفينة :

و — وَ

ووزن الماء المزاح حديثاً = و — وَ أيضاً •

فاذن نزلت السفينة في هذه المرة في الماء أقل من المرة الأولى ثم نضع الفيل في السفينة فتثقل السفينة وتنزل مقدارا في الماء ونفرض ان وزن الفيل = س

اذن يكون وزن السفينة و — وَ + س •

ثم نضع مقداراً من القصب في السفينة حتى تنزل فى الماء الى العلامة الاولى ونرمز عن هذا المقدار من القصب بحرف : ب ، فيكون وزن السفينة

و — وَ + س + ب

وبما انه قد نزلت السفينة الى حد العلامة الأولى فوزنها يساوي وزنها الأصلي = و

∴ و — وَ + س + ب = و

وبعد حذف (و) من طرفي المعادلة ، ونقل وَ الى الطرف الآخر

وَ = س + ب

أو س = وَ — ب

أي أن وزن الفيل (س) يساوي وزن ما اخرج من القصب أولاً ناقصاً منه ما وُضع في السفينة من القصب ثانياً •

ويظهر مما ورد في السؤال انهم لم يخرجوا ابتداءً كثيراً من القصب ، بل بعد أن أخرجوا قليلاً من القصب ، وضعوا الفيل في السفينة فثقلت السفينة

ونزلت أكثر مما نزلت ابتداءً ثم أخرجوا مقداراً آخر من القصب حتى ترتفع وتصل الى العلامة الأولى — عند ذاك وزنوا القصب فكان وزنه يعادل وزن الفيـــل .

ولو فرضنا ما أخرج من القصب أولاً وثانياً = وَ

ووزن الفيل = س

∴ و — وَ + س = و

أو وَ = س وهو المطلوب .

٥ — وقال علي عليه السلام في رجل مقيد حلف أن لا يقوم من مكانه حتى يعرف وزن قيـــده : أن توضع رجله فى أجانة فيها ماء حتى اذا عرف مقداره (أي مقـــدار ارتفاع الماء) مع وضع رجله فيه ، يرفع القيد الى ركبته ، ثم يعرف مقدار صبغه (أي مقدار ارتفاع الماء) . ثم أمر عليه السلام : فألقى في الماء الأوزان حتى ارتفع الماء الى ذلك الصبغ (الحد) الذي كان سابقاً والقيد فى الماء . فنظر : كم وزن الذي ألقى في الماء من الاوزان . فلما وزنه ، قال : هذا وزن قيدك .

توضيح الحل : معلوم أن القيد كان يزيح من الماء بقدر حجمه . فعند وضع رجله مع القيد في الماء ارتفع الماء . فوضع علامة الى حيث ارتفع . وعند رفع القيد نزل الماء قليلاً . ثم ألقى في الماء من الأوزان التي وزنها النوعي (أو الكثافة) عين الوزن النوعي [1] للقيد ، حتى ارتفع الماء الى حيث كان أولاً . ذلك لأن حجم هذه الأوزان كان بحجم القيد وكثافتها عين كثافة المعدن الذي كان قد صنع منه القيد . وطبيعي أن الماء يرتفع اذ ذاك الى نفس العلامة لاتحاد الحجم .

---

(١) يراد بالكثافة وزن وحدة الحجم من معدن ما . أي وزن سانتيمتر مكعب من ذلك المعدن مثلا . ولو فرض وزن مقدار من معدن ما = و . ووزن ماء بحجم ذلك المعدن = وَ . فالوزن النوعي لذلك المعدن = و ÷ وَ . وهو عدد مجرد ، ويرينا ان ذلك المعدن كم مرة اثقل من الماء مثلا .

فاذا عين مقدار الأوزان الملقاة في الماء كان وزن القيد .

***

٦ — وسأل ابن الكوّا علياً (ع) : « كم بين السماء والأرض ؟ » .

فأجاب عليه السلام قائلاً : دعوة مستجابة .

توضيح ذلك :

أن في الفلسفة القديمة بحثاً يقول بتناهي الابعاد . ويستدل على ذلك ببرهان يدعى برهان السلّم . وذلك انا لو أخذنا نقطة مثل (م) على الأرض ومددنا منها خطين مستقيمين تتشكل زاوية بينهما . ثم ان وصلنا بين نقطتين : ا ، ب . مأخوذتين على ذينك المستقيمين (ضلعي الزاوية) بمستقيم ، فان المستقيم ا ب يبقى محصوراً بين المستقيمين م ا ، م ب . ومهما مددنا المستقيمين م ا ، م ب . فان المستقيم ا ب يبقى محصوراً أيضاً بين ضلعي الزاوية . اذن: الأبعاد تتناهى والفضاء محدود !!.

ان هذا البرهان أوهن من بيت العنكبوت . اذ لا يمكن أن يقاس ما يقع في عوالم اللانهاية بما يقع في مسافات محدودة . لو مددنا الضلعين م ا ، م ب الى ما لا نهاية له لا نعلم ماذا سيحدث بالمستقيم ا ب ومن درس حسابات اللانهاية يعلم صدق هذا المقال . مثال ذلك :

نفرض أن حـ > ب ، أي (حـ) أعظم من (ب)

أي حـ لا تساوي ب ، حـ ≠ ب

لنضرب طرفي هذه المتباينة في ∞ ، نرى أن :

(١) ..... حـ × ∞ = ب × ∞ (لأن ∞ = ∞)

وبعد تقسيم طرفي المعادلة (١) على ∞ يخيل الينا أن :

حـ = ب

وليس كذلك .

فلا تبقى المتباينة على ما كانت عليه . وذلك لعدم امكان تفسيرنا التقسيم

على ∞ في الكميات المحدودة ، حين انه في الكميات المحدودة تبقى المتباينة على ما كانت عليه .

مثال ذلك : ١٠ > ٧

لنضرب طرفي هذه المتباينة في ٥

٥ × ١٠ > ٥ × ٧

أي ٥٠ > ٣٥

فيعلم من هنا أن النتائج التي تترتب على الكميات المحدودة لا تترتب على الكميات غير المحدودة .

مثال آخر :

٢٠ > ١٥

لنقسم طرفي هذه المتباينة على ∞ (اللانهاية)

$$\frac{٢٠}{\infty} = \frac{١٥}{\infty}$$

لأن $\frac{٢٠}{\infty} = ٠$

و $\frac{١٥}{\infty} = ٠$

∴ ٠ = ٠ ، فيجب اذن أن يكون ٢٠ = ١٥ وليس كذلك .

مثال آخر :

من المعلوم في الهندسة التحليلية ان مقدار الانحناء لمنحن ما هو $\frac{١}{ر}$

(ر نصف قطر الانحناء) . فمثلاً لو كان نصف قطر دائرة ٢ سم ، فان مقدار

الانحناء = $\frac{1}{2}$ ولو كان نصف القطر ١٠٠ سم ، فان مقدار الانحناء =
أي أقل من الحالة الأولى بمقدار كثير .

فلو فرض ر = ∞

فيكون مقدار الانحناء : $\frac{1}{ر} = \frac{1}{\infty} = 0$

عند ذاك لا يوجد انحناء . أي لو فرض مثلاً نصف قطر الكرة مقداراً غير محدود ، فان سطح الكرة يكون سطحاً مستوياً ، فلا كروية ولا انحناء (استدارة) .

ومعلوم في الهندسة التحليلية أن خطين مستقيمين :

ا س + ب ع + حـ = 0

ا' س + ب' ع + حـ' = 0

فالمستقيمان يتلاقيان لو كان $\frac{ا}{ا'} \neq \frac{ب}{ب'} \neq \frac{حـ}{حـ'}$ (يراد بـ $\neq$ عدم التساوي)

مع العلم أن ا ، ا' ، ب ، ب' ، حـ ، حـ' مقادير غير مبهمة .

وان المستقيمين المذكورين يتوازيان ، لو كان :

$\frac{ا}{ا'} = \frac{ب}{ب'}$ فقط

وان المستقيمين المذكورين ينطبقان أي أنهما مستقيم واحد لو كان :

$\frac{ا}{ا'} = \frac{ب}{ب'} = \frac{جـ}{حـ'}$

هذا اذا كانت المعاملات (Coefficients) والمقداران المعلومان

مقادير محدودة غير مبهمة • ولكن ، لو كانت ، ا ، اَ ••• الخ مقادير مبهمة فيها العامل $\frac{٧}{١}$: وهو (المقدار المبهم) نرى أن الحالة تختلف وتعطي حالات غريبة جداً لا توافق ما رأيناه في الكميات المحدودة •

وهكذا هو حال المادي حين ما يقيس ما يتعلق بما وراء الطبيعة بمقاييس مادية طبيعية •

انه يظن الروح ويظن الخالق جل جلاله من نوع المادة • فلما لم يَرَه في مجهره أو ميكروسكوبه أو مكبرته أنكر ذلك • حين أنه لا يزال لا يعلم لماذا يرى وكيف يرى • فاذا سُئل أجاب بجواب سوفسطائي قائلاً : ان الرؤية هي ردّ فعل أو عمل انعكاسي للمادة أو العين عندما تتأثر بالأشعة الواردة عليها من جسم ما ! وأما الرؤية الحقيقية أو الاحساس والشعور فلا جواب له عليه • وقد يجيب بنفس الجواب السوفسطائي قائلاً انه ردُّ فعل أيضا ! يقف عقل هذا المادي ، المحجوب عن رؤية الحق لظلمات في نفسه وذنوب لا تحصى قد رانت على قلبه ، عند هذا الحد • فلا يتجاوزه • فلا يسأل نفسه عن معنى رد الفعل أو العمل الانعكاسي وحقيقته وكيف يحدث وما علاقة رد الفعل بالرؤية والعقل والنفس • وهل حقيقة الرؤية والتحسس أمر مادي بحت • أو المادة عامل مساعد للتحسس كآلة الراديو •

فلولا الأمواج الهرتزية والقوة الكهربائية لما سمعنا شيئاً من هـذه الآلات ، وان بعد التشبيه •

وما قيمة الحواس تجاه العقل أو ليس العقل هو المصحح لأخطاء الحواس الخمس • هل القمر بهذا الكِبر • وكم تخطى الشامّة والباصرة !!• فيصححها العقل بتجاربه واختباراته ومحاكماته ، استقرائه واستنتاجه • ما هذا الاستقراء ومن هو الذي ركز في الانسان قوة الاستنتاج • وقد حرم منه القرد • مع ما في تنظيمات أعضائه من دقة متناهية •

ان المادي مادي بذنوبه وآثامه وهو عندما يرى أن الوقت يستلزم التكلم

بأسلوب علمي يتطفل على العلم ويعزو هذيانه وتخيلاته الباطلة الى العلم والعلم من كل ذلك براء . ثم تزداد طفولته غباوة عندما يسمى هذره وهذيه فلسفه !

نستنتج مما سبق أنه ليس في استطاعتنا تحديد العالم والقول بأنه متناه . نحن نتصور غير المتناهي ولكن ليس لنا أن نحيط به . فلا يعلم مدى ما خلق الله من أبعاد وأجواء . وان الله تعالى لا يخلو منه مكان . وهو القائل : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » (١) . وفي آية أخرى : « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا » (٢) .

يقول علي (ع) : « مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة » (٣) .

هذا : (لاگرانژ) الذي يعرّفه (نابليون بوناپرت) بقوله : هو الهرم الشامخ للعلوم الرياضية يقول : « لا أعرف » معترفاً بالجهل ..

وقد حاول (آينشتاين) أن يعين وزن جميع ما في الكون من كرات وسيارات وكواكب وأجرام مادية . ولكنه عدل ، عندما شاهد أن هناك كرات جديدة تتشكل ، لا يعلم مداها الا الله . وقد قال (آينشتاين) بنظريات أخرى ثم عدل عنها ، ليس هنا محل ذكرها . وكم من العلماء قالوا بأشياء وعدلوا عنها معترفين بجهلهم .

فظهر مما سبق أنه لا يمكن أن يجاب على سؤال ابن الكوّا الا بما قاله علي عليه السلام : « دعوة مستجابة » .

ذلك لأن هذه الدعوة تسير في هذه المسافات التي لا تتناهى والتي لا يخلو

---

(١) سورة : ق . الآية : ١٥ .
(٢) سورة المجادلة : الآية : ٨ .
(٣) المزايلة : المفارقة والمباينة .

منها ربنا تعالى . فقد قال الله تعالى : « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

ومعلوم أن سرعة الضوء فى الثانية = ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر وأن الروح أسرع من الضوء ولا يعلم درجة سرعته الا الله تعالى . لا سيما أرواح الملائكة وروح جبرائيل عليه السلام . فاذا كانت الملائكة تصعد أو تعرج اليه في يوم مقداره خمسون الف سنة ، فكم تكون هذه الأبعاد . ذلك لأن خمسين الف سنة = ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠٠ ٥٥٥ ١ ثانيـة أو = ١٥٥٥٢ × ١٠^٨ ثانية . فلو تصورنا أن الضوء سار في هـذه المدة مع قلة سرعته بالنسبة الى سرعة الملائكة ، فانه يقطع :

٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠٠ × ١٥٥٥٢ × ١٠^٨ = ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٥٦٠ ٤٦٦

= ٤٦٦٥٦ × ١٠^١٣ كم

فكيف بالملائكة ؟.. اذن ليس لأحد أن يحدّ ما خلق الله من أجواء وأبعاد وفضاء . وان قول علي (ع) : « دعوة مستجابة » دليل على عدم امكان تعريف المسافة بين السماء والأرض بشكل يفهمه السائل . ذلك لأن كوكبنا الأرضي ليس الا كحبة رمل صغيرة بالنسبة الى المجموعة التي تشمل الشمس والكواكب والأقمار وهذه المجموعة لا تعدّ شيئاً مذكوراً بالنسبة الى الفراغ الهائل الخارج عن نطاقها وفيه تتناثر ملايين النجوم . وليست النجوم الا كتلاً متأججة من النيران المتلاطمة . ولكنا لا نحس حرارتها التي قد تكون أشد كثيراً من حرارة الشمس نظراً لبعد النجوم الشاسع الذي يعجز عن تصوره العقل البشري . ولو أن اسرع طائراتنا وهي الطائرة النفاثة سارت بغير توقف قاصدة أقرب هذه النجوم لما بلغتها الا بعد ستة ملايين من السنين .

ويقول (آينشتاين) : « لقد وجدت بعد التجربة الطويلة أن أرضنا بتاريخها في عمرها الجئولوجي (Geologique) وعمر انسانيها المديد أقرب شيء من ذرة رمل من رمال (ريورا) الكثيفة » .

وقد سئل علي عليه السلام عن المسافة ما بين المشرق والمغرب • فقال عليه السلام : مسيرة يوم للشمس •

وقد ثبت أخيراً أن الشمس تتحرك في الفضاء بمجموعتها على شكل لولبي بسرعة ٢٠ كم / ثانية متجهة نحو نجمة تدعى بالنسر الواقع •

وقد سئل عليه السلام : ما اخوان ولدا في يوم واحد وماتا في يوم واحد وعمر أحدهما مائة وخمسون سنة وعمر الآخر خمسون سنة ؟ فقال (ع) : هو عزيز وعزير • لأن عزيراً اماته الله مائة عام ثم بعثه •

وقد قال لي أحد المتتبعين أنه سئل علي (ع) عن مقدار قطر الشمس • فأجاب مرتجلاً : تسعمائة في تسعمائة ميل • ومعلوم أن الميل فى صدر الاسلام كان يساوي أربعة آلاف ذراع بذراع اليد الذي هو من المرفق الى رؤوس الأصابع • فلو قسنا ذراع رجل متوسط القامة بالاينجات (Inch) فحولنا (٤٠٠٠) ذراع الى اينجات فياردات فأميال لوجدنا أن ما أخبر به علي عليه السلام : ٩٠٠ × ٩٠٠ = ٨١٠٠٠٠ ميل وأعني : (الميل الذي كان معروفاً في صدر الاسلام) تساوي ما عليه اليوم علماء الفلك من أن قطر الشمس = ٨٦٥٣٨٠ ميلاً وأعني : الميل الذي = ١.٧٦٠ ياردا •

حقاً ، ان الانسان ليزداد تحيراً عندما يرى : كيف أن تزكية النفوس تؤدي الى علم لدنى منبعه نور يقذفه الله في قلوب أوليائه وصالحي عباده : وقد حقق الله ذلك حين استجاب دعاء ابراهيم (ع) : « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » • (سورة البقرة : ١٢٣) •

وبالختام نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا الى تكميل نفوسنا وتزكيتها باتباع القرآن والعترة الطاهرة (ع) • فلا تكاملَ الا بالتمسك بهما ولا نجاة لاا باتباعهما والعمل بما أمرا به والانتهاء عما نهيا عنه •

« انتهى الجزء الثاني وسيليه الجزء الثالث ان شاء الله تعالى »

فهـــرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقـــدمة
١١	أفي الله شك فاطر السماوات والأرض
٢٨	لهذا آمنت بالله
٣٧	أدلة أخرى في اثبات الصانع
٤٥	ما من دابة الا أمة
٥٢	كيف يتسرب الشك الى النفوس
٥٨	تفنيد أقوال الماديين
٨٥	هل من حاجة الى الدور والتسلسل في اثبات الصانع ؟
٨٧	استحالة معرفة الله معرفة تامة
١٠٢	هل هناك تولد ذاتي
١١١	القصور الذاتي
١١٦	معالجة الشكوك
١٣٣	أثر الذنوب فى اتجاه النفس
١٣٨	جواب على شبهات الماديين
١٥٤	علة بعث الأنبياء (ع)
١٧٢	كيف يختار الله أنبياءه (ع)
١٩٥	دروس النبي (ص) في ساعاته الأخيرة
١٩٩	سيدة النساء (ع)
٢٠٥	المأثور عن رياضيات علي عليه السلام .

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصحيح
٢٨	١٠	المسك	المسلك
٤٩	٧	ثقبب	ثقبت
٥٨	٢١	خاق	خالق
٦٦	٩	..	différentielles
٧٢	١٤	بالاسلوب	الى الاسلوب
٧٥	٢٢	له	الله له
٨٨	١	٥٥	∞
٨٨	٥	∞	$\frac{\infty}{\infty}$
٨٨	٧	$\frac{ب}{\infty}$	$\frac{ب}{\infty} = ٠$
١٠٥	١٩	تي	التي
١٠٧	١٢	نبت	ثبت
١٠٨	٢٤	أغاني	أغانٍ
١١٥	٢	يوفّق	يُوفِّق
١٢٣	١٢	$\frac{1}{2}$ حـ	$\frac{1}{2}$ حـ د^2
١٤٧	٩	بحث	بحت
١٤٩	٥	أن نعتقد	ليس لنا أن نعتقد
١٥١	١١	ليتناسب	لتتناسب
١٥٣	٩	بينا	بينما
١٦٠	٢	—	Octave
١٦٧	٢٣	humanite	humanité

قريباً جداً عن

تاريخ الشيعة للمظفر

فيه زيادات كثيرة ومهمة

ورق أبيض بالحجم الكبير سعر زهيد

لؤلؤة البحرين لصاحب الحدائق

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 073838334